

الألف
كتاب
الشافعي

٢٦٧

تاريخ الشعوب العربية

الجزء الأول



تأليف : د. البرت حواني
ترجمة : نبيل صلاح الدين



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

أهدأت ٢٠٠٣

أميرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسوي

الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
تاريخ الشعوب العربية

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

علياء أبوشادي

تاريخ الشعوب العربية

الجزء الأول

تأليف

د. ألبرت حوراني

ترجمة

نبيل صلاح الدين

مراجعة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



المهنية المنشورة المساهمة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

A HISTORY OF THE

ARAB PEOPLES

By : Albert Hourani

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة المترجم
٩	مقدمة المراجع
٢٣	مقدمة
٢٥	تمهيد
	الجزء الأول :
٢٩	عالم يتشكل بين القرنين السابع والعاشر الميلادى
	الفصل الأول :
٣٣	قوة جديدة فى عالم قديم
	الفصل الثانى :
٥٢	خلافة محمد صلى الله عليه وسلم - تكوين الامبراطورية
	الفصل الثالث :
٧٨	مجتمع يتشكل
	الفصل الرابع :
٩٠١	ركائز الاسلام
	الجزء الثانى :
١٢٣	المجتمعات الاسلامية
	الفصل الخامس :
١٣٦	العالم الاسلامى العربى
	الفصل السادس :
١٤٢	الريف

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع :	
حياة المدن	١٥٤
الفصل الثامن :	
المدن وحكامها	١٧٨
الفصل التاسع :	
طرق الاسلام	١٩٧
الفصل العاشر :	
تراث العلماء	٢٠٩
الفصل الحادى عشر :	
اسلام الفلاسفة	٢٢٤
الفصل الثانى عشر :	
ثقافة القصور والشعب	٢٤٢

كلمة المترجم

كتابتى الأول بين أيديكم ، له قصة تحكى .. فمنذ الطفولة المبكرة .. كانت القراءة عشقى الأول .. قلبى مملق بها .. قلبى مملق بالكتاب .. قلبى مملق بالكتابة .. أحب فعل الكتابة لذاته .. قرأت بنهم قبل أن أفهم ما قرأته .. أنهى الكتاب تلو الكتاب .. كل ما تقع عليه يندى .. ورغم الحصيلة الضئيلة ، إلا أنى لم أتوقف يوماً .. والآن وأنا على أعقاب الخمسين .. ما تزال عنى الحب الحقيقى .. والصديق والأتير ..

عندما حان أوان اختيار المستقبل المثل .. اختاروا لى دراسة الهندسة .. جرياً على عادة المتفوقين آنذاك .. لم أقر على إعلان تحقيقتى .. فلم أتبينها أو أتيقن منها ، على الأقل بهذا الوضوح ، سوى الآن ..

حاولت لفترة تربو على ربع قرن ، أن أعمل بالهندسة .. وأن أكتفى ، من حين لآخر ، بالكتابة كقارىء لا كاتب .. فلم أحقق ذاتى ولا أذكر أن خامرنى شعور بالانجاز ، أو احساس بالرضا عن النفس على تباين واختلاف ما مارست من أعمال .. واستقر بى المطاف فى وظيفة .. سرعان ما تبينت أنها ليست مجزية ولا هى مشبعة ، عندما حزننت وساء حالى .. والتوت سحتنى بتعبير جلى مقيم من التبرم والاستياء ، لم يكن فى حقيقته ، إلا انكاساً لحالة انتابتنى ، من عدم الرضا ، بل واحتوتنى ..

كنت مدركاً على الدوام ، أن الكتابة واحتى ، فيها راحتى وخلصى .. حسناً فلابداً بالترجمة .. وكان على أن أبحث عن كتاب كبير .. عمل ضخم .. وقد وفقنى الله لهذا الاختيار الرشيد بعد بحث وتدقيق ، كان المعيار الأساسى فى الاختيار ، أن يحظى العمل باهتمام أعرض قاعدة ممكنة من القراء .. وعندى أن للترجمة سبع فوائد (ان لم تزد) : -

- ١ - انجليزية أفضل .
- ٢ - عربية أفضل .
- ٣ - معارف جديدة .
- ٤ - قضاء الوقت بشكل ايجابي .
- ٥ - غائد مادي .
- ٦ - مهمة قومية .. (لمن استطاع اليه سبيلا) .
- ٧ - صدقة جارية .

وبدأت متوكلا على العليم الخبير .. لم ألزم نفسي
برنامج عمل يومي او منتظم .. أينما وحيثما وجدت الفرصة
سائحة ، كنت أعمل بهمة واستمتاع ، يتزايد حماسي مع كل
صفحة أنتهى منها ، ويشتد تصميمي وعزمي على اتمام هذا
العمل الكبير ليكون أول أعمال المنشورة .

استغرقني العمل سنة كاملة .. لكن رحلة النشر
دامت خمسة أعوام .. وخلال نفس الفترة أنهيت بحمد الله
من ترجمة « أينشتاين » المؤلفيه ، هابيش هوفمان وهيلين
دوكاس ، وهو ما يزال تحت المراجعة .. علاوة على ست
مقالات للموسوعة الاسلامية (من إصدارات الهيئة ٩٧) .
وبعد ، فلا يبقى الا توجيه الشكر لكل من قدم يد
العون ، أخص منهم بالذكر ، الصديق العزيز والمثقف الكبير
الأستاذ عمر الفاروق عمر فله اسهام كبير في الجهد المبذول .
كذلك الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الرحمن الشيخ الذي
تعلمت منه الكثير خلال فترة عملنا المشترك .. على قصرها .
وأ أسرة العاملين في سلسلة « الألف كتاب » ، فلولا ترحيبهم
واهتمامهم وصدق عونهم ، لما خرج الكتاب للنور .

عفوا .. أنا لم أقدم للكتاب ، ففي المقدمة الضافية
للدكتور الشيخ أوفى التقديم .

وختاماً .. أهدى باكورة أعمالى ، لكل من آمن صدقة
وحقا بقدرتي على التصدى لمثل هذا العمل الكبير .. عرفانا
وامتنانا .. ووعدا بالسعى لتقديم المزيد والجديد .
رب يارك عملي ، وهب الحصاد الوفير .. انك نعم
المولى ، ونعم النصير .

نبيل صلاح الدين

القاهرة ، فبراير سنة ١٩٩٧

مقدمة المراجع

يستعرض هذا الكتاب تاريخ العالم العربي منذ ظهور الاسلام حتى التاريخ المعاصر ، مع عدم اغفال للروابط بينه وبين امتداده الاسلامي شرقا . تلك الروابط التي وصلت لدرجة كبيرة من التلاحم الثقافي في مرحلة من المراحل ، وتبادلت التأثير والتأثر معه . فالعالم العربي - فيما يرى حوراني - جزء من العالم الاسلامي ، كذا أن الاسلام مدون اساسي من مكونات الحضارة العربية فيما يرى حوراني ايضا ، كما تشكل المسيحية واليهودية مكونا أساسيا من مكونات العالم العربي ، بل والعالم الاسلامي ، وقد أشار المؤلف بشيء من التفصيل الى دور العلماء والأدباء النصاري في الحضارة الاسلامية ، وكذلك أشار لدور بعض العلماء اليهود . فقد تفاعل أصحاب الديانات السماوية الأخرى مع الحضارة الاسلامية ، لسبب بسيط وهو أن الحضارة الاسلامية - بما فيها الدين الاسلامي - لم تكن غريبة على الديانات الأخرى وانما تمثل امتدادا لها .

وكان من الطبيعي وقد تناول المؤلف - في كتاب واحد - منطقة شاسعة كالعالم العربي في فترة زمنية طويلة ممتدة (منذ ظهور الاسلام حتى الأحداث المعاصرة) ألا يهتم بالتفاصيل ، وعن ثم لم يكن كتابه هذا من نوع التاريخ الاخباري أو الذي يهتم بأحداث فردية بعينها ، وانما من نوع التاريخ التحليلي الشامل الذي يبحث عن الصورة العامة بصرف النظر عن التفاصيل ، ويبحث عن الروابط أو أوجه الشبه العامة بصرف النظر عن الاختلافات الجزئية التي لا تؤثر كثيرا في المسار العام للأحداث . والتاريخ الاخباري الذي يحقق حادثة أو واقعة فرسانه كثيرون ، أما التاريخ التحليلي ذو الرؤية الشاملة فرسانه قليلون ، أو لنقل ان القادرين على خوض غماره قليلون .

ومن هنا فقد أرخ حوراني للعالم العربي ، وأحيانا للعالم الاسلامي من خلال مجتمعاته وثقافته وخصائصه العامة ، فليس بدعا إذن أن يرى فيه كيانا واحدا ونسيجاً متشابك الخيوط حتى في أكثر مراحل التفكير الميامي وضوحا ، ومن هنا لم يمر حوراني التفاتا لتفكك الدولة العباسية

أو حتى لوجود خلافتين : عباسية في بغداد ، وفاطمية في القاهرة ، ولم ير في اجتياح المغول للعالم الاسلامي حدثا غير من وحدة ثقافة المنطقة لسبب بسيط وهو أن المغول - في نهاية المطاف - أصبحوا جزءا من العالم الاسلامي . ولم يؤرخ حوراني للطوائف المسيحية في العالم العربي بعيدا عن الفكر الاسلامي وانما جعلها في حوار معه ، وذكرنا بكتابات جورج قنوتاني الذي ألف عن دور المسيحية في الحضارة الاسلامية ، وكتابات لويس شيخو عن الشعراء المسيحيين في الحضارة العربية والاسلامية . وقد أدلى حوراني بملوه في كثير من القضايا الفكرية المتعلقة بالتاريخ الاسلامي والتي كانت تنور أو تثار على الساحة الثقافية بين الحين والحين ، ووجدنا أنفسنا في كثير من الأحيان في اتفاق كامل معه . وهذا لا يمنع أن الرجل قد أورد بعض الأفكار التي اختلف معه فيها آخرون ، وقد علقنا على ذلك في حواشي الكتاب .

★★★

ويقدم لنا ألبرت حوراني تفسيرات لأمر كان يتناولها المثقفون - بل والمتخصصون - الى عهد قريب ، على أنها من المضللات التي تحتاج الى شرح وتعليل وتفسير ، ومن ذلك : كيف استطاع العرب وكانوا بدوا - بالفهم التقليدي للبداءة - أن يحققوا انتصارات ساحقة على امبراطوريتين عريقتين هما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية ، والأهم من ذلك كيف قبل المسيحيون والزرادشتيون والمناويون أن يعيشوا في ظلال الحكم الاسلامي ، بل ويرحبون به ؟

هنا يوضح ألبرت حوراني (وقد سبقه الى هذا التوضيح آخرون) أن العرب الفاتحين لم يكونوا مجرد طفلة من البدو أو الرعاة ، وانما كانوا جماعات منظمة لها تراث حضاري نشأ عن التفاعل الحي مع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . ويمتيز حوراني أن مقفزة هؤلاء العرب على استخدام الابل أفادتهم في نقل البضائع والمتاد عبر مساحات شاسعة ، بالإضافة لمرارة الايمان ، مما أتاح لهم الانتصار . هذا القول الذي انتهى اليه ألبرت حوراني ، ودلل عليه ، وجد فيه اجابة شافية لسر انتصار العرب على الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية - سبقه اليه باحثون آخرون ربما كان شرحهم أعمق بحكم ما لديهم من تفاصيل ثرية كثيرة - ولعل من المفيد أن نستعرض بعض أفكار شبيهة صاقها باحث آخر هو الدكتور جورج شحاتة قنوتاني (١) ، الذي يرى أن الجنس النقي خرافة ، ومن ثم فالحديث

(١) في كتابه المسيحية والحضارة العربية ، القاهرة ، دار الثقافة المسيحية ،

عن جنس عربي خالص غير مختلط هو بالتالي من قبيل الأكاذيب (١) ، وقد رحل العرب قبل الاسلام الى مناطق واسعة خارج شبه الجزيرة العربية ، وقد ورد في سفر أعمال الرسل (٢ : ١١) أنه كان يوجد عرب في اورشليم ، لا شك أن بعضهم قد اعتنق اليهودية (٢) . وكان حاكم دمشق على أيام بولس القديس هو الحارث Aretas . وهو عربي تابع لقيصر الرومان واستمر حكم الحارث منذ سنة ٩ ق.م. الى سنة ٤٠ م. وبعد سنة ١٠٥ م أسس الرومان مقاطعة جديدة أسموها أرابيا Arabia ، وامتدت هذه المقاطعة بعد ذلك الى شمال حوران . وكان للعرب أسقف عربي في بصرى (٣) ، ولم يكن بين العرب قبل الاحتلال أساقفة مسيحيون فحسب ، وإنما نجد أنه في الفترة من ٢٤٤ الى ٢٤٩ اعتلى الكرسي الامبراطوري مسيحي عربي (أصله عربي) وهو فيليبوس ، ورغم أنه هذا حذو الأباطرة السابليين وتصرف كإمبراطور وثني الا أنه - فيما يقول قنواتي - لم يحدد عقيدته المسيحية (٤) . وعندما استولت الزبراء على زمام الحكم في تدمر كوصية على ابنها وادبلاتوس أثينودورس Ouadaballatus Athenadorus تسامحت كثيرا مع المسيحيين مع أنها كانت متعاطفة أكثر مع اليهودية . والمتأمل لاسم ابنها يجد أنه منسوب للالهة العربية اللات - والالهة اليونانية أثينا ، وحضر مجمع خلقدونية عرب (٥) ، وكان في جزيرة يوتاني ، وهي جزيرة تيران في مدخل خليج العقبة أسقف مسيحي قبل الاسلام (٦) ، واعتنق عدد كبير من العرب الضماسة الدين شكل الرومان منهم دولة عازلة الدين المسيحي (٧) ، وكان في مملكة الحيرة بيع (معابد) ورجال دين وعباد وهم المستقرون ، أما الرجل فكانوا من قبائل يدين بعضها بالمسيحية (٨) .

أما في الحجاز فيحدثنا جورج قنواتي معتمدا على مصادر اسلامية عن مسيحيين في أيلة (ايلات) وقومة البنندل وتيباء وتيوك ووادي القرى ويشرب ، وأن هؤلاء المسيحيين كانوا عربا ، بل وكان بعضهم من العرب

-
- (١) نفسه ، ص ٥٧ .
 - (٢) نفسه ، ص ٥٨ .
 - (٣) نفسه ، ص ٥٩ .
 - (٤) نفسه ، ص ٦٠ .
 - (٥) نفسه ، ص ٦٢ .
 - (٦) نفسه ، ص ٦٥ .
 - (٧) نفسه ص ٦٧-٧٢ .
 - (٨) نفسه ، ص ٧٤-٧٩ .

البداية ، كما يحدثنا عن « أساقفة المضارب » أي الأساقفة البدو الذين ينتقلون بين مضارب (خيام) البدو الرحل (١) ، وكان في مكة المكرمة بعض المسيحيين منهم مينا القبطي تاجر الرسول ، وهو الذي صنع له منبراً ، وكان هناك باخوم البناء الذي اشترك في بناء الكعبة المشرفة قبل الاسلام (٢) - وإن بدا أن أمثال هؤلاء غير عرب فانهم عاشوا حياة العرب ، وليس هناك ما يمنع - بل هو الأرجح - أن يكونوا عرباً بالفعل .

لم تنشأ دولة الاسلام اذن بين اصحاب اوثان فقط ، ولكنها نشأت وانتشرت منذ البداية بين اصحاب الديانات السماوية الأخرى ، بالإضافة طبعاً للوثنيين واصحاب الديانات غير السماوية .

فمن غير المنطقي اذن أن نعتبر العرب الفاتحين مجرد طغمة بدو انتصروا بطريقة اعجازية على حضارات عريقة ، وانما لابد أن يكونوا هم أنفسهم على قدر راق من الفكر وعلى قدر كبير من الالمام بتراث الأديان الأخرى .

ولا يبعد اتجاه الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام (٣) ، ومجموعة كتبه الأخرى عن منحنى ألبرت هوراني ، وجورج قنوتاي ، إلا أن قنوتاي أورد كثيراً من التفاصيل وأشار لكثير من المصادر وتبع شعراء النصرانية ، معتمداً على كتابات لويس شيخو وغيره .

وقد أكد هؤلاء الباحثون أن النصرانية أو اليهودية لم تشكل أي منهما مستقرات أو مستوطنات منعزلة ، وانما هناك عرب اقحاح كانوا على النصرانية أو اليهودية ، أو تسربت اليهم أفكار نصرانية أو يهودية ، أو حتى أفكار من ديانات أخرى كديانات فارسي وغيرها .

وإذا أخذنا بالدليل الأثروبولوجي في البحوث التاريخية بمعنى الاسترشاد بأحداث ووقائع حديثة أو معاصرة (أي في أيامنا هذه) لنقرأ منها وقائع الماضي ، فانتا نجد بعض الرحالة الذين زاروا شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر ، بل وبعد ذلك يحدثوننا عن جماعات بدو

(١) نفسه ، ص ٨٠ - ٨٢ .

(٢) رافعة رافع الطهطاوي : سيرة الرسول وتأسيس الدولة الاسلامية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧ ، تحقيق محمد عمارة ، ص ٧٢٧ .

(٣) فجر الاسلام ، ط ١٢ ، ص ٢٥-٢٩ .

الصلب (بتشديد الصاد وفتحها وفتح اللام) أو الصلبة (١) ، وهم بدو يستخدمون الصليب شعارا لهم في بعض المناسبات رغم أنهم من المسلمين ، وقد صور لنا الرحالة (بلي) ما يرجح أنه بقايا مبنى ديني نقشت عليه بعض الصليبان ، في منطقة نجد ، وقد أرجعه الى فترة ما قبل الاسلام (٢) ، ويحدثنا توماس أرنولد (٣) عن بعض نصارى ظلوا في شبه جزيرة سيناء حتى بدايات القرن العشرين ، وإن إحدى البسويات المسيحية دفنت في هذه الفترة في دير سانت كاترين .

اذن ، فالعرب الذين فتحوا مصر لم يكونوا - في جانب كبير منهم - مجرد بدو يرفون التوحيد أو الأديان السماوية للمرة الأولى ، وإنما كان منهم البدوي المسيحي الذي أسلم ، والبدوي اليهودي الذي أسلم ، والبدوي الزرادشتي الذي أسلم ، بالإضافة طبعاً الى البدو الوثنيين المخلص عبيدة اللات والعزى ، وحتى هؤلاء فإن بعض آلهتهم تصود لأصول يونانية فيما يرى بعض الباحثين (٤) .



ثم نأتي الى القضية الثانية وهي مرتبطة بالأولى ، وهي كيف قبل أصحاب الديانات السماوية حكم المسلمين ، بل ورحبوا به في بعض الأحيان ؟ وهنا نجد ألبرت هوراني يقدم لنا تفسيراً مقنعاً سبقه اليه باحثون آخرون . يقول هوراني : « ربما كان هناك تفسير آخر لقبول سكان البلاد المفتوحة لحكم العرب ، ذلك أنه لم يكن هناك غارق كبير عند كثير منهم بين أن يحكمهم إيرانيون أو يونانيون أو عرب ، باستثناء المسؤولين والحكام والطبقات ذات المصالح المرتبطة بهم ... فسكان المدن لم يكونوا يبالون بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون في سلام ويدفعون ضرائب معتدلة ، أما سكان الريف .. فقد عاشوا تحت إمرة زعمائهم وفقاً لمعاداتهم الخاصة ، وكان حلول العرب محل اليونانيين أو الإيرانيين ، وضماً أفضل بالنسبة لهم .. أما الذين تجلت معارضتهم للحكم البيزنطي في صورة التسلق ديني ، فقد كان من الأسير لهم أن يعيشوا تحت إمرة حاكم لا يناهز لأى مذهب من المذاهب ، خاصة وأن الدين الجديد لم يكن قد انتشر » .

(١) رحلة الكولونيل لويس بلى للرياض - ترجمة د - عبد الرحمن الشيخ ود - عريضة الجهني ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٦ ، ١٥٢ .

(٣) في كتابه الدعوة للإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ .

(٤) المعزى فيما يرى جرجس قنواش في العروبة .

لقد رحب أصحاب المذاهب المسيحية المختلفة - اذن - بحكم المسلمين لاسباب اوضحها - بايجاز - ألبرت حوراني ، لكن باحثين آخرين يزنون هذا الأمر تفصيلا ، ومن هؤلاء جورج قنوتاي الذي يفصل ما أوجزه حوراني ، فيبين لنا أن السبب الجوهرى لقبول الحكم الاسلامى والعيش مع المسلمين يتألف هو وجود أرضية عقائدية مشتركة وواسعة ، فالمسلمون والمسيحيون - فيما يقول الدكتور قنوتاي - يؤمنون بآله واحد ، وأنه حي قيوم ، وأنه خالق السموات والأرض ، وأنه محب للبشر ، وأنه غفور رحيم وحليم مجيد وأنه يحيى ويميت ويرضى الأنفس ويرسل الرسل ، ويسوق قنوتاي آيات من المهديين القديم والجديد ومن القرآن الكريم لتأكيد هذه السمات المشتركة ، ويقرر أن أهل الكتاب أتبع لهم أن يعيشوا مع المسلمين حياة مدنية مشتركة فى دمة الاسلام (١) ، ولا يرى تضاعفا فى هذا التعبير الأخير .

وقد وضع بعض الرحالة الأوروبيين المثقفين هذه الفكرة وأعطوها ابعادا أعمق ، ومن هؤلاء الأمير ريدولف من الهسبرج الأسرة الحاكمة النمساوية الشهيرة ، اذ انه يذكر لنا عند زيارته لمصر والقدس الشريف فى أواخر عهد اسماعيل أن الاسلام يضم الأديان الأخرى بين جانيه وهو يحكمها أكثر من كونه يعادىها ، لذلك فلم يكن غريبا ما رآه وقبره فى القدس الشريف من أن المسيحيين واليهود يعيشون معا فى وثام ويارس كل منهم شعائر دينه بحرية ، ولم يندعش ريدولف عندها وجد أن المسلمين يوقرون كثيرا من الزارات التي يوقرها المسيحيون واليهود ، فموسى عليه السلام والمسيح عليه السلام كلاهما من أنبياء الله من وجهة نظر اسلامية (٢) .

والحقيقة أن كثيرا من الأفكار التي تردت فى الفكر المسيحى قبل الاسلام وجدت لها صدى فى الاسلام نفسه ، فكثير من أفكار الآريوسيين (أتباع آريوس الذي عاش فى القرن الثالث للميلاد - ولد سنة ٢٥٦ م) وأفكار النسطوريين أو النساطرة (أتباع نسطور الذي انتخب لكرسى القسطنطينية سنة ٤٢٨) لا تبعد كثيرا عن الفكر الاسلامى فيما يتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام . ومن الطريف أن بعض المفكرين المزاينين لحركة مارتن لوتر الإصلاحية كانوا يعتبرون الاسلام مذهبا مسيحيا ، لأن

(١) جورج قنوتاي : المسيحية والمضارة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٣ .
(٢) ترجمت رحلة ريدولف إلى مصر والقدس ، ونشرت فى مجلة الاطباء كتاب الثالث ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، راجع وقفة المترجم (٤) عبد الرحمن الصيغ للمراتب الأول والثالث) .

أفكاره لا تختلف كثيرا عن أفكار كثير من المصلحين والمسيحيين ، وهي مشابهة تماما من حيث التوحيد الخالص لبركة زامنت لوثر وعرفت بحركة الموحدين المسيحيين Unitarianism (١) .



قضية أخرى لا تخلو من طرافة ، فحوراني لم يعتبر الملة العربي أو حركة البدو سببا في تدهور الأراضي الزراعية في العالم العربي والإسلامي (المناطق المفتوحة) حتى قيل الإسلام ، وإنما هو يرى العكس ، بمعنى أن تدهور الزراعة في العراق والشام - وربما مصر - هو الذي شجع العرب الهبات على الحركة ، وجعل حرفة الرعي تطفئ على حرفة الزراعة في وقت من الأوقات .

ونرى أن ذلك قول لا يخلو من صحة ، فلا شك أن أحد أسباب انتصار المسلمين على التولتين الساسانية والبيزنطية هو الضعف الذي حاق بهاتين الدولتين ، ولا شك أن تدهور الزراعة كان أحد مظاهر هذا الضعف .



وكثير من الأفكار التي أوردتها حوراني عن الشريعة الإسلامية وعلم الكلام ، نجد لها نظيرا لدى باحثين آخرين ، ونفضل هنا الرجوع لتراث الإسلام تأليف شاخنت وبوزورث (٢) : « لقد شهد النصف الثاني من القرن الأول للهجرة (٦٧٠ - ٧٢٠م) بعثا للمعتقدات والمعادن العربية التي لم يستطع علم الكلام الإسلامي ولا الشريعة الإسلامية Islamic Religious Law التخلص منها بصورة كلية ، وبقي البحث عن التوازن بين العنصرين نسبة مميزة للحياة الفكرية لدى المسلمين مدة طويلة من الزمن ، وقد استبهدل بذلك في العصر الحديث البحث عن التوازن بين قيم القومية (أو أية أيديولوجية سياسية أخرى) وقيم الإسلام . »

ويمكن القول بصورة عامة أن المسائل الكبرى التي تواجه المفكرين :

- (١) انظر تفاصيل هذه الحركة في : حركة إصلاح ديني أدبية لم تلق الإهتمام الكافي . تأليف د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ . مجلة الآداب - جامعة الملك سعود .
- (٢) ترجمة محمد زهير البهبهري . جامعة مؤاد زكريا ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - عالم المعرفة - ٨ .

انسلمين في العصر الحديث (١) هي نفسها التي واجهتهم في القرنين الأول والثاني للهجرة (القرنين السابع والثامن للميلاد) ... وهناك توترات عديدة ظلت بلا حل طوال تاريخ الاسلام ، ومعظمها ناجم عن أن المثل الديني الأعلى لا يمكن تحقيقه في العالم كما هو ، وأهمها ذلك التنازع القائم بين التقوى والاستقامة ، أو في المصطلح الدقيق بين التصوف والشرعية ... وبعد ذلك (أي بعد القرن الحادي عشر للميلاد) أصبح كل من الشرعية الاسلامية وعلم الكلام الاسلامي يميلان لأن يكونا ضربا من التنادين التقنية (خليا من الروح) وحل الأمر نفسه في التصوف الاسلامي ... وكان الاسلام منذ بدايته دين عمل أكثر منه دين إيمان ، ولم يكن النصف الأول من اعلان الإيمان الاسلامي وهو (لا إله الا الله محمد رسول الله) ليشكل أية مشكلة لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الوثنيين ، بل كان أقل إشكالا بالنسبة لاتباع الأديان السماوية في الأراضي المحيطة بها ، حتى اعتنقوا دين الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربي للبلاد ... ولهذا السبب نفسه نجد أن الشرعية - وليس علم الكلام - كانت دائما محور العلوم الدينية الاسلامية ، فحتى الغزالي ... رغم أنه اعتبر الشرعية علما دنيويا وليست من علوم الآخرة ، فقد ظل يعدها علما دنيويا وليس دنيويا ... وكذلك فإن أنصار الاتجاهات المعاصرة من رجال التشريع الذين يقسون على الشرعية الاسلامية التقليدية برمتها ... لا يستطيعون التهرب من المبدأ الأساسي القائل بأن القانون (الشرعية) ليس مؤسسة دنيوية بل يجب أن يخضع للدين ... ٥٤



مسألة أخرى ثار بشأنها خلاف بين الباحثين العرب أدل فيها البرت حوراني بدلوه ، وهي الدولة الأموية التي تحول على يديها نظام الخلافة من الشورى والمبايعة الى الوراثة أو الى حكم الأسرة ، وأصبحت عملية المبايعة مسألة شكلية لا تفير من جوهر كون الحكم وراثيا . وحوراني يلتزم العذر للدولة الأموية في هذا التفسير الجوهري الذي ترك بصماته فترة طويلة على التاريخ الاسلامي ، وهو كمؤرخ ينظر للأمور نظرة واقعية من خلال الظروف التي صادت هذه الحقبة ، فقد كان العرب الفاتحون أقلية بالنسبة للشعوب

(١) يرى شاخت وروزنبرث أن المصور الوسطى الاسلامية تمتد حتى سنة ١٨٠٠ أي بدايات القرن التاسع عشر ، وهو رأي غير مأخوذ به في التقسيمات التاريخية المعمول بها ، أما حوراني فهو يقسم كتابه التقسيم المعتاد ، ويعتبر تاريخ الدولة العثمانية مرحلة جديدة ، لذا فهو يدرجها في الجزء الثاني من كتابه هذا والذي يتناول للتاريخ الحديث - (المراجع)

كثيرة العدد التي ضمتها الدولة الإسلامية ، وكان معاوية بن أبي سفيان يخشى هذه الكثرة (١) ونرى أنه من غير المنطقي - من وجهة نظر تاريخية وسياسية لا من وجهة نظر مثالية - أن يتم تعيين الولاة أو الحكام أو قادة الجيوش من هؤلاء في هذه المرحلة لازل تحت التجربة ، ولا وجه للمقارنة بالانتشهاد بسلامان الغازي وبلال بن رباح وغيرهما في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء كان أسلافهم قد عصفن ، وكانوا صغابة ولا مجال للشك في ولائهم .

وكان معاوية بن أبي سفيان يخشى أيضا من التكتلات القبلية ضدّه فعمل على استمالة القبائل والتودد إلى شيوخها (٢) . والأخذ بالشورى يمتنعها الخالد هنا لا معنى له أيضا ، لأن الشورى أو المباينة أو أخذ رأي الرعية أو أهل الحل والعقد أو حتى الديمقراطية بمعناها المعاصر تحتاج إلى بيئة مهيئة لذلك ، وإلى نوع من التجانس يضم الشعب أو الرعية كلهم في نسج متشابه ، ولم يكن الأمر كذلك في عهد الدولة الأموية ، فقد كان من الرعية فرس وروم وقبائل عربية مختلفة الأعواء والمشارب . فقد التزم حوراني بقلية المؤرخ وحكم على الأمور من خلال الظروف التاريخية . وهو في هذا على أية حال ليس متفردا وإنما ينحو منحاه باحثون آخرون . فنقل هنا قيسا من كتاباتهم :

« بالدولة الأموية كانت بالفعل دولة عامة إقليمية في العالم الإسلامي في دور توسعته الأول ، ووصلت بطوره من فرغانة والسند في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب وتخطت جبال البرت المعروفة بالبرانس وواصلت تفتحت بلاد غالة (فرنسا) حتى أوقف تقدمها الفرنجة بانتصارهم على المسلمين في واقعة بلاط الشهداء في رمضان ١٢٤ هـ - أكتوبر ٧٣٢ م . وقد بدأت الدولة الأموية حكمها سنة ٤١ هـ - ٦٦١ م . وعلى رأسها معاوية ابن أبي سفيان في نهاية الفتنة التي بدأت في منتصف خلافة عثمان بن عفان . رضى الله عنه حوالي ٣٠ هـ - ٦٥١ م وبولايته عاد نشاط التوسع والفنوح واستمرت خلافته من ربيع الأول سنة ٤١ هـ - يونيو ٦٦١ م إلى رجب ٦٠ هـ - أبريل ٦٧٩ م ، وخلفه ابنه يزيد الذي حدث في عهده مأساة استشهاد الحسين بن علي ١٠ محرم ٦١ هـ - ١١ أكتوبر ٦٨٠ م التي حولت التشيع لعل بن أبي طالب وآل البيت إلى حركة سياسية خطيرة

(١) انظر ما نقله أحمد أمين عن المقادير لابن عبد جيه في كتابه فجر الإسلام .

ط ١٧ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ج ٩٠ .

(٢) انظر : أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ ، ج ١٨٧ .

استمر نطاقها يتسع حتى قسمت العالم الاسلامي الى ستة من ناحية وشيعة
من ناحية أخرى * (١)



ويبين الحين والحين كانت الساحة الثقافية في مصر تشهد آراء على
شاكفة أن الاسلام مرتبط ببيئة بعينها ، أو أنه دين صحراوي مقتصر على
البدو ولا يصلح الا لهم ، وسواء أكانت مثل هذه القضايا تثار على سبيل
المزاج ، أم أن القائلين بها جادون ، فإن باحثا مثل البرت حوراني يستخر
من مثل هذه الآراء ويمتبرها آراء خطيرة بعيدة عن منهج البحث العلمي
(لاحظ أن حوراني يخاطب القراء الأوروبيين) ، ويرى من خلال الحقائق
التاريخية أن الاسلام دين عالمي غير مقتصر على جنس دون جنس أو بيئة
مناخية دون أخرى . ونفضل هنا نقل عبارات حوراني بنصها الانجليزي :

... It has sometimes been claimed that these two factors
were closely Connected that the religion of Islam was particu-
larly suitable to a certain kind of environment, or indeed had
created it : that Muslim Societies were dominated by the
desert, or at least by a certain relationship between the desert
and the city. Such theories are dangerous,, however, there
are countries with a different kind of climate and Society,
such as parts of south and southeast Asia, where Islami has
spread and taken root

وحوراني هنا يشهد بصدق ما ذهب إليه باحث موضوعي بعيد عن الهوى ، فمن
الناحية الاجتماعية الواقعية نجد أن الاسلام قد تركز في شرق أوروبا حتي
قبل سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح ، وليسبب أو الآخر فإن
الجميعة الاسلامية في شرق أوروبا لم تحجب بالدراسة الكافية (٢) ،
كذلك بجمهوريات نهر الفولجا ، وهي داخله ضمن الحدود الجغرافية
لأوروبا باعتبار الأورال هي الفاصل المتفق عليه بين جغرافيا على الأقل -
بين آسيا وأوروبا .



(١) حسين مؤنس : اطلال التاريخ الاسلامي ، ص ١٥١ .

(٢) حاولنا منذ التعمد في هذا التعميد بالدراسة مستطوع بترجمة كتاب « العثمانيون
في اوروبا » للذوق بول كوكز ، ونشر في سلسلة الاك كتاب الاني (الهيئة المسترقة
للعمامة للكتاب) ، ١٩٩٤ - « المراجع » .

ملاحظات حوراني عن انتشار الاسلام :

لاحظ حوراني (كما هو واضح في الباب الثاني بقصوله المختلفة) ان العالم الاسلامي وان بدا - من ناحية الشكل الخارجي على الأقل - في حالة تفكك وانحيار بعد سقوط بغداد ، الا ان هذا الشكل الخارجي لم يكن يمثل الجوهر الحقيقي للأمور ، فلم تنقض الخلافات السياسية على الوحدة الثقافية لعالم الاسلام ، وقد عبر الذين عن نفسه في نظم التفكير وفي المؤسسات « وحتى بعد سقوط غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس كانت حقيقة الأمر رغم كل هذا ان الاسلام يزداد انتشارا وأن خريطة في اتساع ، وإذا كان حوراني قد أشار لذلك بإيجاز ، فاننا نود في هذه المقدمة أن نوضح هذه النقطة المهمة ونحاول شرحها شرحا تاريخيا واضحا قدر الامكان » .

فمنذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، كان الوجود الاسلامي في تفقر مستمر في شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) ، ففي سنة ١٠٨٥ سقطت طليطلة ، لكن في الفترة ذاتها تقريبا كان الب أرسلان السلجوقي (١٠٦٣ - ١٠٧٢) يطرد البيزنطيين من معظم آسيا الصغرى (لاحظ : تفقر في الغرب يوازنه تقدم في الشرق) ، وطوال هذه الفترة وما بعدها كان الأتراك يهاجرون من أواسط آسيا الى آسيا الصغرى متتبعين آثار السلاجقة أيضا عمومهم (لاحظ : المسلمون يخرجون من الأندلس في غرب العالم الاسلامي ، والمسلمون يزحفون على آسيا الصغرى في شرق العالم الاسلامي) ، وفي سنة ١٢٣٦ سقطت قرطبة الاسلامية في الأندلس ثم سقطت اشبيلية سنة ١٢٤٨ وبدا الاسلام في الأندلس مضطعضا وبدت دولته في الأندلس على وشك الانهيار ، وفي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك العثمانيين ، وفزعت أوروبا كلها واستندرت تاركة الانتصارات المسيحية في ايبيريا لتواجه بكسات وهزائم خطيرة يقب سقوط القسطنطينية .

ان الاسلام من هذا الباب القسطنطيني صار اقرب لقلب أوروبا من جبل الوريد ، ثوآن غريب ومنهش . وعندما سقطت آخر القلاع الاسلامية في الأندلس ، وتعنى بها غرناطة ، سنة ١٤٩٢ كان الاسلام متمركزا في شرق أوروبا في مرحلة بحث وانتشار . وهكذا لم تنقص مساحة العالم الاسلامي ولا تقلصت عملية انتشار الاسلام .

مثال آخر يؤكد ما ذهب اليه البرث حوراني ، فبعد سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٦ ، والذي كان فيه اجتاح بجيشه المغولي المناطق

المحيطية ببحر قزوين (الخزر) وبحر آرال بحيرة خوارزم) وضم كل مناطق وسط آسيا التي تعرف باسم بلاد ما وراء النهر . Trans-oxania . ووصل جنوبا حتى ما بعد مر خيبر . (في أفغانستان الحالية) ، وكانت سيطرتهم تمتد من كاشغر شرقا (ضمن الصين الحالية) ، وكان الاسلام أثناء هذه الفترة التترية موجودا ، بل ومنتشرا في كل هذه المناطق . وكان في صفوف التتر (المغول) أنفسهم عدد من المسلمين وصلوا لدرجة الوزارة وتولوا حكم بعض الولايات ، بل لقد كان بركة التتري أو المغولي - منافس هولاء على العرش - مسلما . وتولى بركة التتري المسلم حكم منطقة واسعة عرفت بالأورد النخبي في الفترة من سنة ١٢٥٧ الى سنة ١٢٦٦ ، وتولى مباركشاه التتري المسلم حكم خانية آل جغتاي بصفة غير رسمية قبل سنة ١٢٦٦ (١) .

والهم أن حركة المغول هذه قد أدت الى انتشار الاسلام ، وليس العكس ، فمع أول هزيمة حاققت بالمغول ، انصرفوا الى تصير الأراضي التي خربوها دون رحمة . يقول روم لاندو - وهو أستاذ للتاريخ الاسلامي بجامعة كاليفورنيا : « ان هذا التغيير المدعش الذي طرأ على سياسة المغول انما هو ثمرة من ثمار نفوذ الاسلام المرسخ المدين ، فبعد أن احتل المغول الإمبراطورية الاسلامية وجعلوا أنفسهم في وضع كالوضع الذي جابهه كثير من المنتصرين قبلهم : لقد خضعوا لدين ضحاياهم وثقافتهم » . وهكذا كان من نتائج الغزو المغولي مزيد من التفاعل بين رقعة العالم الاسلامي (٢) .

وقد اهتم حوراني في هذا الجزء بالعلاقات بين القوى المختلفة ، والجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، مما جعل كتابه مقروءا ممتعا للقارئ الاوربي والأمريكي ، ونرجو أن يكون كذلك بالنسبة للقارئ العربي .

ولم يستخدم حوراني المصطلحات التاريخية غير المفهومة للقارئ العام ، وإنما استخدم الألفاظ والمصطلحات المعاصرة في حالات كثيرة ليعتبر للماضي والبلدان ، فقد كان حوراني يكتب عن الماضي وعينه على الحاضر ،

(١) اعتمدنا في تحقيق التواريخ وضبط الوثائق على : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي تأليف غاسپاري هانسيير بارتولد : ترجمة عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم - نشره المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت ، ١٩٨١ ، ومن الكتب المماثلة .

(٢) روم لاندو : الاسلام والعرب - ترجمة مفيد المصطفى - بيروت - دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٧٧ .

وعند تعرضه للحياة الثقافية والاجتماعية أفاض في الحديث عن المذاهب الدينية المسيحية والإسلامية وأحيانا اليهودية ، مبينا الفروق بينها ببساطة شديدة ، ودون أن يفرق في التفاصيل اللاهوتية ، وإنما ركز على الفروق التي تؤدي الى نتائج عملية . فالنساطرة لايمانهم بطبيعتين منفصلتين للسيد المسيح ، قد جعلهم هذا أكثر تقاعلا مع المجتمعات الإسلامية في العراق وإيران ، كما فصل حوراني بين اليهود التلموديين واليهود غير التلموديين ، وهذه أمور - كما قلنا - لها مردود عملي ، وليست مجرد خلافات لاهوتية أو فقهية .

وقد يهتم القارئ العربي بمعرفة بعض التفاصيل عن المذاهب والفروق الإسلامية المختلفة ، لذلك أوردنا في الحواشي بعض التعليقات الموجزة جدا ، وعلى القارئ المهتم مراجعة المال والنحل للشهرستاني ردائرة المعارف الإسلامية . وقد آثرنا أن تكون الحواشي موجزة قدر الامكان لنمطي للكتاب ما أرادته له المؤلف - وهو طابع العمومية .



ولا شك أن الأستاذ نبيل صلاح الدين قد بذل جهدا كبيرا في ترجمة هذا الكتاب ، وسعدت عندما كلفت بمراجعة هذا العمل المهم ، وكنت حريصا على أن تكون تعديلاتي وتعليقاتي في أضيق الحدود ، واحترمت تماما منهج المترجم ، مع تعليقات في الهوامش أحيانا ، فقد لا يوافق بعض القراء مثلا على عبارات مثل (القانون المالكي أو القانون الحنفي : ٠٠٠) Hanafi law ، لكن هذا في الواقع ما يريد المؤلف قوله للقارئ الأوروبي ، لذا أشرنا للمصطلح العربي (الفقه المالكي ، الفقه الحنفي : ٠٠٠) في الهوامش عند المراجعة ، مع إبقاء النص المترجم كما هو ، وعند الحديث عن علوم الحديث وعلوم القرآن ، أقرنا الترجمة غير الاصطلاحية مع إشارات للمصطلحات في الهوامش ، وبالتالي فلم يستخدم المترجم في النص عبارات مثل (علم الرجال) ، وإنما (سيرة رواة الحديث) أو (الجرح والتعديل) وإنما (الحكم على رواة الحديث) ، وعند الحديث عن التصوف لم تستخدم في النص عبارات مثل (العلم اللدني) وإنما العلم المستوحى من الباطل بالتأمل . بل عند ترجمته نصوصا عن العبارة الإسلامية أثار المترجم الإشارة الى فناء مكشوف للمسجد بدلا من (الصحن) والى المساحات المقطاة بدلا من (الأروقة) وهكذا .

وأجد من واجبي أن أنوه هنا بتشجيع الأستاذ أحمد صليحة وهيئة
تحرير هذه السلسلة لمثل هذه الجهود الطيبة في ترجمة الأعمال المهمة
في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية *

وعلى الله قصد السبيل ..

• د عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مقدمة

موضوع هذا الكتاب هو تاريخ الأجزاء الناطقة بالعربية من العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام وحتى وقتنا الحالي ، إلا أنني اضطررت خلال بعض الفترات للخروج عن الموضوع ، على سبيل المثال عندما تعرضت للتاريخ المبكر للخلافة ، وكذلك عند تعرضي للامبراطورية العثمانية أو للتوسخ في التجارة أو للامبراطورية الأوروبية ، فقد يقال إن الموضوع أكبر أو أصغر مما ينبغي ، أو إن تاريخ المغرب مختلف عن تاريخ الشرق الأوسط ، أو إن تاريخ البلاد الناطقة بالعربية لا يمكن النظر إليه بمعزل عن البلاد الإسلامية الأخرى ، ولابد من وضع فاصل ، ورغم أن الموضوع الذي اخترته لهذا الخط راجع جزئياً لحدود معرفتي الشخصية ، إلا أنني أأمل أن يوضح هذا الكتاب أن هناك وحدة كافية من التجربة التاريخية بين المناطق المختلفة التي يغطيها مما جعل من الممكن النظر إليها ، أو الكتابة عنها في إطار واحد .

وقد وضع هذا الكتاب للقراء الذين يرغبون في معرفة بعض الأمور عن العالم العربي وللدارسين الذين يبدأون في دراسة هذا الموضوع ، وسيكون واضحاً للمتخصصين أن كتاباً بهذا الاتساع في مجال البحث ، ينشأ على أبحاث الآخرين ، وقد حاولت بيان الحقائق الأساسية وترجمتها في ضوء كتاباتهم وعبرت عن كوني مديناً لهم بإدراج أعمالهم في قائمة المراجع .

وأود أن أعبر عن شكري تجاه باتريك سميل الذي شجعتني على إنجاز هذا الكتاب وساعده في الترتيب لنشره ، والأصدقاء الذين قضوا ساعات طويلة في قراءته وتصحيح الأخطاء واقتراح كيفية تحسينها ، وهم باتريشنا كرون ، وبول دريتش ، وليلى فواز ، وكورنيل فليتشر ، والمرحوم مارتن هانيفز ، وشارلز عيسوى ، وطارف خالدي ، وفيليب خوري ، وايرالينغوس ، وويلفريد ماديلونج ، وباسم مسلم ، وروبن أوستل ، وروجر أوين ، ومايكل روجرز ، وماري ويلسون ، وأخص من بينهم

بول دريتش يدين خاص ، اذ انه تابع خطى الفكر برؤية عميقة
ومعرفة واسعة .

واتوجه بالشكر للأستاذ والمعلم الذين ساهموا في امدادى
بالمعلومات التي احتجتها ، وللقائمين على كتابة المسودات والتحرير
والتصحيح والاعداد والطباعة ، وللتناشرين الذين تكرموا بالسماح
باستخدام فقرات من منشوراتهم لنصوص مترجمة عن العربية .

الاسماء الجغرافية

وعندما وضعت كتابا يغطي مثل هذه الحقبة الطويلة من الزمان ،
كان على اتخاذ قرارات بخصوص الاسماء ، فاستخدمت الاسماء الحديثة
للبلدان عند الاشارة الى مناطق جغرافية حتى لو لم تكن هذه الاسماء
مستخدمة في الماضي ، وكان من الأسهل استخدام نفس الاسماء خلال الكتاب
بدلا من تغييرها من فترة لآخرى ، وعليه فان « الجزائر » تعبر عن منطقة
معينة في شمال افريقيا ، رغم ان هذا الاسم لم يستخدم الا في القرون
الحديثة ، وبشكل عام فقد استخدمت الالفاظ التي ألفها قراء الانجليزية ،
لفظ « مغرب » قد يكون مألوفا وأكثر استعمالا من « شمال غرب
افريقيا » ولكن لفظ « المشرق » ليس كذلك ، ولهذا فقد استخدمت لفظ
« الشرق الأوسط » بدلا منه ، وأطلقت أيضا على الجزء الاسلامي من شبه
جزيرة (ايبيريا) لفظ « الأندلس » ، فمن الأسهل أن نستخدم لفظا واحدة
بدلا من جملة يأكملها ، وعندما استخدمت اسما ، أصبح الآن لدولة
ذات سيادة ، عند الكتابة عن الفترة قبل ظهور هذه الدولة ، فان المقصود
هو الاشارة الى منطقة معينة محددة تقريبا ، الا أنه عند الكتابة عن الفترات
الحديثة يكون المقصود هو المنطقة التي تشملها حدود هذه الدولة ، وعلى
سبيل المثال فان (سوريا) خلال معظم الكتاب تعنى منطقة محددة لها
خصائص مشتركة طبيعية واجتماعية ، وكانت لها بشكل عام تجربة
تاريخية واحدة ولكني أشير بها فقط الى دولة (سوريا) منذ ظهورها
في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولست بحاجة للقول ان مثل هذه
الاستخدامات لا تتضمن أى آراء سياسية حول وجود أية دولة أو مواقع
حدودها .

والاسماء الجغرافية المستخلصة مبينة في الخريطة رقم (١) .



تمهيد

في عام ١٣٨٢ م التمس عالم الاذن من حاكم تونس للقياس بالنجح الى مكة ، وعندما سمح له بذلك استقل السفينة قاصدا الاسكندرية بمصر ، وعندما غادر كان في الحسنيين من عمره وكان خروجه من بلاد المغرب - التي لعب هو واسلافه فيها دورا مهما ومتفيرا - خروجا بلا عودة .

ينحدر عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) من عائلة انتقلت من جنوب الجزيرة العربية الى اسبانيا بعد الفتح العربي واستقرت في اشبيلية ، وعندما توسعت الممالك المسيحية من شمال اسبانيا باتجاه الجنوب نزحت العائلة الى تونس كشأن العديد من العائلات ذات العراقة والتقاليد والثقافة والمناصب الرفيعة في الدولة ، وشكلت هذه العائلات في بلاد المغرب العربي (الجزء الغربي من العالم الاسلامي) طبقة من النبلاء تقدم خدماتها للحكام المحليين ، وقد لعب الجد الأكبر لابن خلدون دورا كبيرا في سياسات القصور في تونس حتى فقد الخطوة وقتل في النهاية ، كذلك كان جده مسئولاً في الدولة ولكن والده هجر السياسة وعاش حياة طالب العلم المعتزل ، وتلقى ابن خلدون تعليماً جيداً بمقاييس ذلك العصر عن أبيه وعن العلماء بالمساجد والمدارس في تونس ، وواصل تعليمه خلال شبابه المبكر عندما عاش في مدن أخرى لأن ذلك كان جزءاً من التقاليد التي توارثها ، فقد كان على الرجل أن يبحث عن العلم في أي مكان . وفي مسيرته الذاتية يورد أسماء أولئك الذين حضروه والمؤسوعات التي تعلمها عنهم : القرآن الذي هو كلمة الله الموحاة باللغة العربية من خلال النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والحديث ، والسيرة حول ما فعله أو قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، والتشريع والأخلاق الاجتماعية على أسس من القرآن والحديث ، واللغة العربية التي لولها لما أمكن فهم علوم الدين والعلوم العقلانية والحساب والمنطق والفلسفة ، كما يذكر أموراً عن حياة وشخصيات أساتذته ، ويحكي عن أغلبهم ، وكذلك عن أبيوه اللذين قضيا في « الموت الأسود » وهو الطاعون الكبير الذي اكتسح العالم في منتصف القرن الرابع عشر .

وقد تمكن ابن خلدون في سن مبكرة من اللغة والتشريع مما أهله للخدمة لدى حاكم تونس ككاتب في البداية ثم تحمل فيما بعد مسؤوليات أكبر ، ولكن في مناصب غير مستقرة ، وتلا ذلك عشرون عاما من الأحداث الحافلة ، فقد غادر تونس وعمل لدى حكام آخرين في المغرب ، ثم انتقل الى غرناطة عاصمة آخر الممالك الاسلامية في اسبانيا حيث اكتسب حظوة هناك ، وأرسل في مهمة رسمية للحاكم المسيحي لمدينة اشبيلية موطن أسلافه ، ولكن حامت حوله الشكوك فاضطر الى الاسراع بالانتقال الى الجزائر حيث حصل مجددا على عمل حكومي في الصباح وبعده يقوم بالتدريس في المسجد ، وقد لمب ابن خلدون دورا في اجتذاب العرب وزعماء البربر من السهوب والجبال للتحالف السياسي مع الحكام الذين عمل لديهم ، وكان للنفوذ الذي استطاع اكتسابه منهم فائدة كبرى عندما تكرر ما حدث كثيرا طيلة حياته من فقدان الحظوة لدى مستخدميه ، وفي إحدى هذه المرات قضى أربع سنوات (١٣٧٥ - ١٣٧٩ م) في قلعة في ريف الجزائر في حماية زعيم قبيلة عربية ، وخلال هذه السنوات تحرر من انشغالات الدنيا وعكف على كتابة تاريخ الاسر الحاكمة في المغرب من خلال منظور واسع .

وقد ظل الجزء الأول من هذا التاريخ (مقدمة ابن خلدون) يحظى باهتمام كبير حتى الآن ، وفيه حاول شرح صعود وانحيار هذه الأسر الحاكمة بطريقة يمكن أن تكون محكما للحكم على مصداقية الروايات التاريخية ، وقد بين أن أبسط وأول أشكال المجتمعات الانسانية هي تلك التي يتميز بها سكان السهوب والجيال الذين يزورون المحاصيل أو يربون الماشية ويتبعون زعماء ليس لهم قوة مهيمنة منظمة ، يتمتعون بالطبيعة الطبيعية التلقائية والطاقة والحيوية ، ولم يكن بإمكانهم تكوين حكومات مستقرة أو مدن ذات ثقافة رفيعة عالية ، ولا يمكن لأحدهم فرض نفسه الا اذا تمكن من السيطرة على مجموعة من التابعين حوله ممن تتوافر فيهم العصبية ، وهي روح جماعية تنحو للحصول على السلطة أو القوة والتمسك بهما ، وكان من الأفضل تجنيد هذه المجموعة من الأتباع من بين رجال الوديان والجبال ذوي النشاط والحيوية ، والذين يمكن ضمان تماسكهم والتفافهم حوله من خلال الاحساس بالأسلاف المشتركة صحيحة كانت أو مختلفة ، أو روابط الاعتماد المتبادل ، ويدعمها القبول المشترك بالدين ، وكان بإمكان الحاكم الذي يتمتع بمجموعة قوية متماسكة من الأتباع أن يؤسس أسرة حاكمة ، ويستقر حكمه تزدهر المدن وتكتظ بالسكان وتنمو وتتكون فيها الحرف المتخصصة وأنماط الحياة المرفهة والثقافة ، وقد

حملت كل أسرة حاكمة بداخلها بنور انهيارها ، فيسكن إن يضعها
الغضب أو الاسراف أو غياب مقومات الزعامة ، وقد تتحول السلطة الفعلية
من الحاكم الى بعض أفراد جماعته ، ولكن عاجلا أو آجلا تخلف الأسرة
أسرة أخرى تشكلت بنفس الطريقة ، وعندما يحدث ذلك لا يختفى الحاكم
فقط وإنما أيضا جماعة الناس الذين قام عليهم سلطانه وكذلك نمط
الحياة الذي أوجده ، وكما يقول ابن خلدون : « عندما يكون هناك تغير
عام في الظروف فكان الخلق كله قد تغير ، وتعديل العالم بكامله » (١) ،
فاليونان والفرس وهما القوتان الأعظم في العالم في ذلك الوقت حل محلها
العرب الذين أوجلت قوتهم وتماسكهم أسرة حاكمة امتد سلطانها من
الجزيرة العربية حتى أسبانيا ، والعرب بطورهم خلفهم البربر في المغرب
وأسبانيا والأترار في المشرق (٢) .

وما جرى للحكام جرى أيضا للعاملين تحت امرتهم ، فعندما غادر
ابن خلدون الى الاسكندرية كان على أعقاب مستقبل جديد ، فلم يلجأ
للحج آنذاك رغم أنه قام به فيما بعد ، لكنه انتقل الى القاهرة التي أدخلته
كمدينة على مستوى مختلف ، عما شاهده من المدن ، فكتب عنها أنها :
حاضرة العالم وحديقة الدنيا وموقع التقاء الأمم والشعوب ومركز الاسلام
ويمكن القوة (٣) ، وكانت القاهرة عاصمة للسلطة الملكية - اجنبي أعظم
الدول الاسلامية - في ذلك الوقت وتشمل الشام الى جانب مصر . وتلقب
للكام وكتسب ثقته ، فتمتعه معايشا . وحصل فيما بعد على وظيفة مدرس
في بعض المدارس السلطانية عندها أرسل في طلب أسرته ، ولكنهم
غرقوا جميعا خلال الرحلة البحرية من تونس .

وعاش ابن خلدون في القاهرة حتى مماته ، وأنفق جل وقته في
الكتابة والقراءة ، ولكن نمط حياته المبكرة تكرر من تغير السلطة وفقدان
المظلة التي كان يلقي فيها اللوم على أعدائه ، ويحتمل أنه كانت لها أسباب
كامنة في شخصيته نفسها ، فقد اختاره الحاكم عدة مرات كقاض في المحاكم
الرئيسية ولكنه فقد المنصب أو تركه في كل مرة ، ورافق السلطان الى
الشام وزار الأماكن المقدسة وحيضا ، وزارها مرة أخرى عندما كانت
دمشق محاصرة بقوات « تيمور لك » أحد كبار الفزاة الآسيويين الذين
أسسوا إمبراطورية تمتد من شمال الهند الى الشام والأناضول ، وكانت
له حوارات مع « تيمور لك » حيث رأى فيه مثالا لقوة الزعامة المبنية على
قوة الجيش والشعب مما مكّنه من تأسيس أسرة حاكمة جديدة ، ولم
يستطع انقاذ دمشق من السلب والنهب ، ولكنه أمن لنفسه طريقا للعودة
الى مصر ، وفي طريق عودته تعرض للسرقة في ثلاث فلسطين .

كانت حياة ابن خلدون كما يصفها معبرة عن العالم الذي ينتمي إليه ، عالم مليء بعوامل الضعف ، وأظهر مساره الشخصي مدى عتيد ثبات المصالح والتحالقات التي اعتصمت عليها الأسر الحاكمة في الحفاظ على سلطتها ، وأوضح لقاءه مع « تيمور لنگ » خارج دمشق ، كيف يمكن أن يؤثر قيام قوة جديدة على حياة المدن والشعوب ، أما خروج المدن فقد كان الأمن مزعزعا ، فيمكن للمنوب الحاكم أن يتعرض للسلب والنهب ، ويمكن عند فقدان الخطوة ، أن يجد أحد جلساء أو تنقاد الحاكم لنفسه ملجأ خارج حدود المناطق الحضرية ، وقد علمته وفاة الأبوين بالوفاة والأسرة في الحادثة البحرية دوسا عن عجز الإنسان حيال تضاريف القدر . شيء واحد كان مستقرا أو على الأقل كان يبدو كذلك ، وهو أن عالما تنتقل فيه عائلة من جنوب الجزيرة العربية إلى إسبانيا ثم تعود بعد ستة قرون إلى مكان قريب من المنشأ لتجد نفسها في محيط مألوف ، مثل هذه الأسرة كانت على حال من التوحد يسمو على انقسامات الزمان والمكان ، اذن يمكن للغة العربية أن تفتح الأبواب للمناصب والنفوذ في أنحاء العالم ، وقد حافظ كم العلوم الذي انتقل عبر القرون خلال سلسلة معروفة من المعلمين على وحدة أخلاقية برغم تغير الحكام ، وظلت أماكن الحج : مكة والقدس قطبين لم يتبدلا في العالم الانساني ، وان انتقلت مراكز القوة من مدينة إلى أخرى ، فالإيمان بالله الذي خلق ونظم الكون يمكن أن يعطي معنى لضربات القدر .

الجزء الاول

عالم يتشكل

بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين

في بدايات القرن السابع للميلاد ظهرت حركة دينية على حدود
 الامبراطوريتين الكبيرتين : البيزنطية والساسانية اللتين حكمتا النصف
 العربي من العالم ، ففي مكة ، وهي مدينة في غرب الجزيرة العربية ، بدأ
 النبي محمد صلى الله عليه وسلم في دعوة الرجال والنساء الى اصلاح
 اخلاقهم ، والخضوع لارادة الله ، كما عبر عنها فيما قبله هو ومن اتبعوه ،
 الوحي السماوي الذي ابلغ اليه ، والذي احتواه فيما بعد كتاب هو القرآن
 الكريم (٩) ، وباسم هذا الدين الجديد « الاسلام » قهرت الجيوش المؤلفة
 من سكان الجزيرة العربية الدول والبلدان المحيطة وأسست امبراطورية
 جديدة . وتوسعت الخلافة التي شملت معظم مناطق الامبراطورية
 البيزنطية ، وكل الامبراطورية الساسانية واعتد الاسلام ليشمل المناطق
 من آسيا الوسطى حتى اسبانيا ، وقد انتقل مركز القوة من الجزيرة العربية
 الى دمشق في الشام في ظل الخلفاء الأمويين ، وبعدها الى بغداد بالعراق
 في ظل العباسيين .

وبحلول القرن العاشر للميلاد بدأت الخلافة في التمزق ، وظهرت
 (خلافتان) متنافستان في مصر واسبانيا ، وإن استمرت الوحدة الثقافية
 التي تمت بداخلهما ، وأصبح قسم كبير من السكان مسلمين رغم بقاء
 الجاليات اليهودية والمسيحية وجاليات أخرى ، وانتشرت اللغة العربية

(٩) المقصود كما لا يخفى على قلة القارئين أنه يجب في (مصنف) أو (إمام)
 كما كان يطلق عليه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فالقرآن الكريم لم يظهر
 (بهذا بعد) وإنما أنزل منجماً أي متفرقاً وفقاً للحواث أو رغبة في استيعابه جزءاً
 جزءاً ثم آتت آية ، وهي المعروفة تاريخياً في القرآن الكريم بما يلي من بدايات آية
 الرزول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أول آية هي « اقرأ » ... فالمقصود إذن هو جمع
 القرآن في مصنف متعلق قلبه - وهذا حقيقة ثم (فيما بعد) أي في عهد عثمان رضي
 الله عنه - (المراجع) .

وأصبحت وسيلة التعبير عن ثقافة تضمنت عناصر من تراث الشعوب التي
انضمت للعالم الإسلامي ، وعبرت عن نفسها في الآداب والنظم القانونية
والدينية والروحية ، ثم تطورت المجتمعات الإسلامية في بيئات طبيعية
مختلفة من خلال مؤسسات مميزة ، أوجدت روابط بين دول حوض البحر
المتوسط وحوض المحيط الهندي في نظام تجارى واحد ، وجلبت تغييرات
في الزراعة والحرف ، ووفرت أسس نمو المدن الكبرى لى مدنية حضرية
تجلت في المباني ذات الطابع الإسلامي المميز .

الفصل الأول

قوة جديدة في عالم قديم

عالم ما قبل الاسلام

لا بد وأن عالم ابن خلدون بدا لكل من عاصره ، كما لو كان أزليا ، ولكن ابن خلدون نفسه كان يعرف أنه عالم حل محل عالم آخر سابق عليه . فقبل زمن ابن خلدون بسبعة قرون كان للبلدان التي عرفها وجه مختلف في ظل تبادل سيطرة القوتين العظميين عليها .

لقد ظلت دول حوض البحر المتوسط لعدة قرون جزءا من الامبراطورية الرومانية ، وريفا مستقرا ، ينتج الحنطة والفواكه والنبذ والزيت ، وكانت للتجارة طرق مأمونة في المدن الكبيرة ، وعبر مسارات بحرية آمنة ، وكانت هناك طبقة موسرة ذات أصول متعددة أسهمت في الثقافة اليونانية اللاتينية للامبراطورية ، ومنذ القرن الرابع من الحقبة المسيحية انتقل مركز القوة الامبراطورية شرقا ، فحلّت القسطنطينية محل روما كعاصمة حيث الامبراطور يؤدّي الولاية ورمز التماسك ، وفيما بعد ظهر ما سمي « بالانقسام الاقليمي » الذي استمر موجودا بشكل أو بآخر حتى وقتنا الحاضر ، وحكم ملوك برايرة في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإسبانيا وشمال إيطاليا ، ورغم ذلك ظل الاحساس بالانتماء للامبراطور الروماني موجودا ، بينما ظل جنوب إيطاليا وصقلية وساحل أفريقيا الشمالي ومصر وسوريا والاندلس واليونان كلها تحت حكم امبراطوري مباشر من القسطنطينية ، وفي هذا الوضع المنكمش كانت الامبراطورية يونانية أكثر منها رومانية ، وفي مراحلها اللاحقة شاعت تسميتها (بالبيزنطية) أكثر من انتسابها الى الرومانية وذلك نسبة الى الاسم السابق للقسطنطينية وهو (بيزنطة) ، وقد حكم الامبراطور المدن الكبرى في شرق البحر المتوسط : أنطاكية في سوريا ، والاسكندرية في مصر ، وأصبحت تلك المدن مراكز للثقافة والحضارة اليونانية أمدت الامبراطورية بأعضاء من الصفوة المحلية للعمل في مجال الخدمات الامبراطورية .

وحدث تطور آخر أكثر عمقا ، فقد أصبحت الامبراطورية مسيحية ، ليس فقط برسوم رسمي من الحاكم ، لكن بفعل تغير العقيدة في مستويات اجتماعية مختلفة ، وأصبحت غالبية السكان من المسيحيين رغم أن فلاسفة الوثنية ظلوا يدرسون في مدرسة أثينا حتى القرن السادس ، وعاشت الطوائف اليهودية في المدن ، الا أن ذكريات آلهة الوثنية ظلت تحوم في المعابد التي تحولت الى كنائس ، وقد أعطت المسيحية يمدا جديدا للإخلاص والولاء للامبراطور ، وظهر اطار جديد من الوحدة للثقافات المحلية للخاضعين له ، ووجدت الأفكار والصور المسيحية تعبيرا عنها في اللغات الأدبية المحلية للمناطق المختلفة من الامبراطورية الى جانب اليونانية في تلك المدن : الآرامية في شرق الأناضول والسريانية في سوريا والقبطية في مصر ، وكان من الممكن أن تحتفظ مقابر القديسين ومزارات الحج بالمعتقدات والممارسات القديمة للمنطقة ، وان كان ذلك في اطار مسيحي .

وقد اختفت مؤسسات الادارة الذاتية للمدن اليونانية مع توسع انيروقراطية الامبراطورية ، ولكن كان من الممكن أن يقوم الأساقفة بدور الزعامات المحلية . وعندما كان الامبراطور يفاخر روما كان في وسع مفتران المدينة والبابا ممارسة السلطة بطريقة تستحيل على المطارنة والقساوسة في المدن الرومانية الشرقية ، الذين كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالحكومة الامبراطورية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستطيعون التعبير عن مشاعر السكان والدفاع عن مصالحهم المحلية ، كذلك كان الناصك أو القديس صاحب الكرامات يعيش على اطراف المدينة أو في الأراضى المأهولة في الأناضول أو سوريا ، وكان بإمكانه التحكيم في منازعات السكان المحليين والنطق باسمهم ، كما كان الراهب في الصحارى المصرية نموذجا لمجتمع مختلف عن ذلك العالم الحضري . وإلى جوار الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية ظهرت كنائس أخرى اختلفت عنها في المذاهب والشعائر ، وكانت بمثابة تعبير من غير الناطقين باليونانية عن اعتراضهم على السبلطة أو ولائهم لها .

وكانت الاختلافات المذهبية الأساسية تتعلق بطبيعة المسيح ، حيث كان مجمع خلقدونية في عام ٤٥١ م قد عرف الاقنوم الثاني في الثالث المقدس بأن له طبيعتين : قدسية وأخرى بشرية وهي الصيغة التي قبلتها المؤسسة الرئيسية للكنيسة سواء في الشرق أو الغرب ، كما كانت تدعمها الحكومة الامبراطورية ، ولكن حدث فيما بعد وبالتدريج انقسامات حول قضية السبلطة بين الكنيسة في المناطق البيزنطية هي : الكنيسة

الأرثوذكسية الشرقية ، وبطاركتها على رأس الكهنوت ، وبين تلك الكنائس في غرب أوروبا التي ارتضت السلطة للبسايا في روما . وكانت هناك بعض الطوائف التي تمتد بأن للمسيح طبيعة واحدة مؤلفة من عنصرين وهو ما عرّف بمذهب الطبيعة الواحدة الذي اعتنقته الكنيسة الأرمنية في الأناضول ، وكذلك معظم المسيحيين من المصريين (الذين يعرفون بالأقباط نسبة للاسم القديم لمصر) ، والكثير من مسيحيي سوريا من متحدثي السريانية - ويعرفون بالسوريين الأرثوذكس أو البعاقية نسبة لأبرز علماء اللاهوت لديهم . كما أن هناك آخرين فصلوا فعبدا جدا بين الطبيعتين وذلك لتأكيد الطبيعة البشرية الكاملة للمسيح ، واعتقدوا أن كلمة الله تسكن الإنسان منذ حدثت به أمة ، وكان ذلك هو مذهب أولئك الذين عرفوا بالنسطوريين نسبة الى الفكر الذي ارتبط بهذا ، وكانت لكنيستهم أهمية كبرى بين المسيحيين في العراق فيما وراء الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، وفي القرن السابع ظهرت جماعة أخرى كنتيجة لمحاولة التوفيق بين الأرثوذكس وأتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، وفي رأى هذه الجماعة أن للمسيح طبيعتين ومشية واحدة فقط .

والى الشرق من الامبراطورية البيزنطية وعبر نهر الفرات كانت هناك امبراطورية عظيمة أخرى هي الامبراطورية الساسانية ، التي امتد حكمها ليشمل ما يعرف الآن باسم إيران أو بلاد فارس فكانت تضم مجموعة من المناطق المنخفضة ومدنا قديمة تسكنها مجموعات عرقية مختلفة يفصلها عن بعضها البعض وديان أو صوب ، وليست بها أنهار كبيرة توفر اتصالات سهلة ، ومن حين لآخر كانت تحكمها أسر حاكمة قوية مستقرة كان آخرها الساسانيون الذين كانت قوتهم الأصلية تكمن في الشعوب الناطقة بالفارسية في جنوب إيران ، وكانت تلك أسرة حاكمة تحكم من خلال هيكل من المسؤولين الذين حاولوا توفير أسس ثابتة قوية من الوحدة والولاء بأحياء الدين القديم لايران والمرتبطة تقليديا بالمعلم (زرادشت) ، وبالنسبة لهذا الدين فإن العالم هو ساحة قتال - تحت مظلة الاله الأعلى - بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة حيث ينتصر الخير في النهاية ولكن الرجال والنساء من ذوى الفضيلة والطهر في العبادة يمكن أن يصبحوا بالنصر لقوى الخير .

بعد أن فتح الاسكندر الأكبر إيران في ٣٣٣ - ٣٣٤ قبل الميلاد وربطها بأواصر أقوى مع عالم شرق البحر المتوسط - اتجهت أفكارهم إلى يونان شرقا بينما اتجهت أفكار (هاني) غربا ، وهو معلم من العراق حاول فننهم وتوحيد كل الأنبياء والمعلمين في نظام ديني واحد عرف

بالمناوية (*) . وتحت حكم الساسانيين ، جرى احياء التعاليم المرتبطة بزرادشت في شكل فلسفي مع مزيد من التركيز على ثنائية الخير والشر وصار لها كهوت واصبحت عبادة رسمية تعرف باسم المازدية أو الزرادشتية . وساندت المازدية ، باعتبارها ديناً رسمياً للدولة ، سلطة الحاكم الذي كان ينظر اليه كملك عادل يحافظ على الانسجام بين طبقات المجتمع المختلفة (**).

ولم تكن عاصمة الساسانيين واقعة في هضبة ايران وإنما كانت في المدائن Ctesiphon (***) في المنطقة الخصبة المزدهة بالسكان في وسط العراق التي يرويها نهر دجلة والفرات ، وإلى جانب الزرادشتيين والمناويين كان بالمرق مسيحيون من أتباع الكنيسة النسطورية وكان لهم أهميتهم في خدمة الدولة ، وكانت هذه المنطقة أيضاً هي المركز الرئيسي للتعليم الديني اليهودي وملجأ للفلاسفة الوثنيين وعلماء الطب من المدن اليونانية . وفي شرق البحر المتوسط انتشرت أشكال مختلفة من اللغة الفارسية عرف المكتوب منها ذلك الوقت بالبهلوية ، كما انتشرت أيضاً الآرامية ، وهي إحدى اللغات السامية ذات الصلة باللغتين العربية والعبرية ، وشاع في الشرق الأوسط في الوقت نفسه أحد فروعها الذي عرف بالريانية .

(*) المناوية أحد فروع الديانات الثنوية نسبة إلى الثلاثين الألبين : اللون والظلمة . وقد ظهر ماني بن مائه في زمن سابور بن أردشير ، ويقول الشهرستاني في كتابه المعروف (الملل والنحل) انه حاول التوفيق بين المجوسية والمسيحية . الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ - (المراجع) .

(**) الزرادشتية أحد فروع المجوسية ، وهي نسبة إلى زرادشت (توفي سنة ٥٥١ ق م) ، وسميت الزرادشتية بالمازدية أو الأورمزية نسبة إلى أورمزد وهو الإله أو المبود عند زرادشت ، ويقال ان الزرادشتية كانت في بدايتها من أديان التوحيد . الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ . ويرى آرثر كريستون في كتابه ايران في عهد الساسانيين ان الزرادشتية ما هي الا تطوير للنيانة المزدية التي اسسها الحكيم الإيراني مزدا ، لذا سميت الزرادشتية بالمازدية ، ص ١٩ - (المراجع) .

(***) Ctesiphon أو المدائن ، والواقع انها لم تكن عاصمة للدولة الساسانية منذ بدايتها إذ كانت أصطخر هي العاصمة ، ثم نقلت العاصمة بعد ذلك (بعد القرن الثالث الميلادي) إلى طيسفون . يقول كريستون في كتابه الشهير عن ايران في عهد الساسانيين : « ولكن التقييم فارص وعاصمته لصطخر لم يعبدا صالحين لآقامة الشاهنشاه ، فقد صارت بلاد ما بين النهرين المركز الرئيسي للإمبراطورية الشرقية فجما الخبروات التطوير التاريخي ، وانتقل بود يابل التاريخي إلى سلوقية - طيسفون . التي كانت خارج الأراضي الإيرانية بالمعنى الحقيقي » ص ٨٢ وما بعدها - (المراجع) .

وقد شملت الامبراطوريتان المناطق الرئيسية للحياة المستقرة والثقافة
الرفيعة في النصف الغربي من العالم . ولكن الى الجنوب ، وعلى جانبي
البحر الاحمر كان هناك مجتمعان آخريان لهما تراث من السلطة المنظمة
وثقافة دعمتها الزراعة وكذا التجارة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط .
الأولى كانت اثيوبيا وهي مملكة قديمة ديانتها الرسمية المسيحية في
صورتها القبطية ، والاخرى كانت اليمن في جنوب غرب الجزيرة العربية
وهي : اراض من وديان الجبال الخصبة ، ونقطة التقاء للتجارة بعيدة
المدى . وفي مرحلة معينة اتحدت دويلاتها الصغيرة المحلية في مملكة كبيرة
تعرضت للضعف عندما كسدت التجارة في بدايات الحقبة المسيحية ،
ولكنها عادت للازدهار فيما بعد .

وكانت لليمن لغتها الخاصة المختلفة عن العربية المنتشرة في بقية
الجزيرة ، كما كانت لها ديانتها الخاصة المرتكزة على عدة آلهة يقسم على
خدمتها كهان في معابد ، كانت مزارات للوفاء بالنذور وتقديم القرابين
والصلوات الخاصة غير الجماعية ، كما كانت مراكز للضياع الشاسعة .
ولعدة قرون تالية انتقلت التأثيرات المسيحية واليهودية من سوريا خلال
طرق التجارة او عبر البحر من اثيوبيا الى اليمن . وفي القرن السادس
دمر أحد الملوك الفتي كان يميل الى اليهودية أحد المراكز المسيحية ، ولكن
الغزوات الاثيوبية استعادت بعضا من النفوذ المسيحي ، وقد شاركت
الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية في هذه الأحداث .

وفيما بين الامبراطوريات الكبرى في الشمال ، وممالك البحر الاحمر
... كانت هناك ارض من نوع مختلف ، فكان الجزء الأكبر من شبه الجزيرة
العربية سهوبا وصحارى مع واحات معزولة بها ماء كاف للزراعة المنظمة ،
وكان سكانها يتحدثون لهجات محلية مختلفة ولهم أنماط معيشة مختلفة
وبعضهم كان من البدو الرحل من رعاة الابل والأغنام والماعز اعتمادا على
مصادر المياه المتواضعة في الصحراء وهم من عرفوا تقليديا بالبدو . أما
البعض الآخر فكانوا مزارعين مستقرين قائمين على زراعة القمح وأشجار
النخيل في الواحات أو تجارا وحرفيين في مدن الأسواق الصغيرة ، في
حين جمع بعضهم بين أكثر من مهنة من هذه المهن ، أما التوازن بين الشعوب
الرحل والشعوب المستقرة فكان مزعجا ، فرغم أن الرعاة الرحل كانوا
أقلية بين السكان الا أنهم كانوا يتحركون مسلحين ، وقد سيطروا هم
وجباغات التجار في المدن على المزارعين الحرفيين ، كانت خصالهم السائدة
هي الشجاعة والكرم والانتماء والولاء للقبيلة والفخر بالانساب والأسلاف
ولم يكونوا محكومين بسلطة مهيمنة مستقرة أو ثابتة ، ولكن يقودهم زعماء

من القبائل التي تجمعت حولها جماعات من الأنصار يعبرون عن تماسكهم وأخلاصهم بلهجة أو لغة الأسلاف :

وقد مارس زعماء القبائل سلطتهم من الواحات حيث كانت لهم روابط وثيقة بالتجار الذين نظّموا التجارة خلال المناطق التي سيطرت عليها القبيلة ، وفي الواحات كان بإمكان العائلات الأخرى فرض سيطرتها بشكل مختلف من خلال قوة الدين ، ولم يكن لديانات الرعاة أو المزارعين شكل واضح ، فالآلهة المحلية التي كانت تعرف بكواكب من السماء كان من المعتقد أنها تتجسد في الأحجار والأشجار والأشياء الطبيعية الأخرى ، وكان من المعتقد أيضا أن أرواح الخير والشر تهيم في العالم على صورة حيوانات ، وادعى العرافون أنهم يتحدثون بلسان حكمة ما وراء الطبيعة ، وعلى أسس الممارسات الحديثة في جنوب الجزيرة كان من المعتقد أن الآلهة تسكن قدسا أو محرابا (حرما) وهو مكان أو بلدة تحرم فيها الصراعات القبلية وتعتبر مزارا لتقديم القرابين وملقى للتحكيم تشرف عليه عائلة تحت حماية من القبيلة المجاورة (١) ويمكن لهذه العائلة أن تكتسب سلطة أو قوة بالاستغلال الذكي لسمعتها الدينية ودورها كمحكم في المنازعات القبلية وكذلك فرض التجارة :

وقد تغير الكثير في عالم الشرق الأدنى هذا خلال القرن السادس وبدايات القرن السابع، حين انشغلت الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية في حروب طويلة دامت مع بعض التوقيفات من ٥٤٠ الى ٦٩٢م وجرت المعارك أساسا في الشام والعراق ، وفي مرحلة مصيبة وصلت الجيوش الساسانية إلى حوض البحر المتوسط بعد احتلالها للمدن الكبرى انطاكية والاسكندرية ومدينة القدس المقدسة ، ولكن في العشرينات من القرن السابع تقهّرت هذه الجيوش أمام الإمبراطور هرقل ، وفي مرحلة أخرى امتد حكم الدولة الساسانية ليشمل جنوب غرب الجزيرة العربية حيث فقدت مملكة اليمن الكثير من قوتها السابقة بفعل الغزو الأثيوبي وتدهور الزراعة ، أما المجتمعات المستقرة تحت الحكم الإمبراطوري فكانت تزخر بالأسلحة حول معمر الحياة وكيف يجب أن تماشى كما عبرت عنها لغات الديانات الكبرى :

وقد مست قوى ونفوذ هذه الإمبراطوريات أجزاء من شبه الجزيرة العربية ، ولقرون طويلة كان الرعاة الرحل العرب من شمال وأوسط شبه الجزيرة يتحركون في المنطقة التي تسمى الآن بالهلال الخصيب وهو الجزء الداخل من سوريا ، والأرض الواقعة غرب الفرات في جنوب العراق والمنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة في شمال العراق (الجزيرة) . وكان

اغابهم من العرب الذين جلبوا معهم خصالهم وأخلاقياتهم وأنماطهم في التنظيم الاجتماعي .^{١٠} ومارس بعض زعماء القبائل منهم الزعامة من عندئذ في الواحات واستخدمتهم الحكومات الامبراطورية لابعاد البدو الرحل الآخرين عن الأراضي المستقرة وفي جباية الضرائب ، لذلك كانوا قادرين على تكوين وحدات سياسية أكثر استقرارا كذلك التي أقامها المناذرة (٤) وعاصمتها (الحيرة) في منطقة لم يكن للساسانيين فيها تأثير مباشر ، كذلك الساسنة في منطقة مماثلة من الامبراطورية البيزنطية . وقد اكتسبت شعوب هذه الدول المعرفة السياسية والعسكرية وكانوا منفتحين على الأفكار والمعتقدات السائدة في الأراضي الامبراطورية ، فقد كانت الحيرة مركزا مسيحيا . وقد دخلت الجزيرة العربية بعض المعارف عن العالم الخارجي وثقافته عن طريق هذه الدول ، ومن اليمن ، وأيضا بعبور التجارة ، ومن خلال المسارات التجارية ، وكذلك بعض من وفد للاستقرار بالجزيرة ومنهم: الخرفيون اليهود والتجار والزراع في واحات الحجاز في غرب الجزيرة العربية ، والرهبان المسيحيون والحنفاء في أواسط الجزيرة .

لغة الشعر

يبدو أنه كان هناك احساس متنام بالهوية الثقافية بين الرعاة من رجال القبائل تجل في ظهور لغة شعرية مشتركة من اللهجات العربية ، وكانت لغة رسمية تميزت بالتهذيب في القواعد والمفردات ، والتي تطورت تدريجيا ، ربما من خلال بلورة إحدى هذه اللهجات المحلية . وربما بتجميع العديد منها ، وقد عبر بها شعراء من مختلف القبائل أو من مدن الواحات ، وقد يكون شعرهم قد تطور من استعمال الإطباع المتصاعد للغة التعاويد المسجوعة المقفاة ، والرقيات الشعرية ، لكن ما وصلنا منه ليس بدائيا بأى شكل ، فهو نتاج طويل من أحداث منقولة وتقاليد متراكمة أثرت فيها الاجتماعيات القبلية وأسواق المدن ، وأيضا قصور الأسر الحاكمة العربية على حدود الامبراطوريات الكبرى مثل : الحيرة على نهر الفرات بوجه خاص ، لما كانت عليه من انفتاح أمام التأثيرات المسيحية والمأزدية .

وكانت المصطلحات الشعرية التي برزت من خلال هذه التقاليد محكمة الصنعة ، وكان أرقى هذه الأشكال القصيدة وهي : مقطوعة بشعرية تقسّم الى مائة بيت ، منظومة من أحد بحور الشعر المتعارف عليها ، وكل بيت ينقسم الى شطرين وينتظم الشطر الثاني في قافية موحدة على طول القصيدة .^{١١} وأجبالا كان البيت وحدة المعنى ونادرا ما كان المعنى

(*) أو الخفويين Bakhtin (أراجع)

يمتد من بيت الى بيت يليه ، ولكن ذلك لم يمنع استمرارية الفكرة ،
أو الاحساس من بيت لآخر على مدى القصيدة .

ولم يكن الشعر مكتوبا رغم أن ذلك كان ممكنا ، لأن الكتابة كانت
معروفة في شبه الجزيرة ، فالمخطوطات بلغات جنوب الجزيرة تعود الى عدة
قرون سابقة وأول المخطوطات العربية مستند باللغة الآرامية يعود الى القرن
الرابع ، وبعدها تطور الخط العربي ، فالى جانب النقوش كانت الكتابة
معروفة ومستخدمة في تجارة البلاد البعيدة ، وكان الشعر مؤلفا ويلقى
على الجماهير اما بواسطة الشاعر نفسه أو الراوى أو القارئ ، وكان ذلك
يعنى : نقل الاحساس في بيت واحد يمكن من خلاله للمستمعين أن
يستوعبوا المعنى ، وكان كل أداء مختلفا ومتفردا عن الآخرين ، وكان للشاعر
أو الراوى مجال للارتجال في اطار من الانساق المتعارف عليها واستخدام
كلمات معينة أو تركيبات منها للتعبير عن أفكار أو مشاعر محددة ، لهذا
قد لا يكون هناك نص واحد أصلي للقصيدة الواحدة ، وعندما وصلتنا فإن
النصوص قد وضعها فيما بعد علماء اللغة أو نقاد الأدب في ضوء المعايير
والنماذج والقواعد اللغوية أو الشعرية السائدة في وقتهم ، وخلال ذلك
قد يدخلون بعض العناصر الجديدة للقصائد مع تغيير اللغة لتلائم
أفكارهم حول ما هو صحيح ، حتى أنهم قد يذهبون الى تشكيل قصائده
بتجميع قطع صغيرة الى بعضها البعض ، وفي العشرينات من القرن الحالى
بنى عالمان انجليزى ومصرى على أساس هذه الحقائق الثابتة نظرية بأن
القصائد نفسها كانت نتاجا لفترة لاحقة لكن معظم من تصدوا بالدراسة
لهذا الموضوع يتفقون الآن على أنه من حيث الجوهر فإن هذه القصائد هي
من نفس العصر الذى نسبت اليه (٢) .

وقد كان من الشائع بين الدارسين والنقاد في الفترات المتأخرة أن
يشير الى قصائد محددة من بين هذا الكم الذى عاش مع الزمن كنماذج كاملة
رفيعة للشعر العربى القديم وهى التى عرفت فيما بعد (بالمعلقات) ،
وهو اسم مبهم المصدر والمعنى ، والشعراء الذين كتبوها : لبيد ، الزهير ،
القيس وبعض شعراء آخرين يعتبرون من أساتذة هذا الفن ، وكان من
المتعارف أن يطلق على شعر ذلك العصر « ديوان العرب » وهو سجل لأعمالهم
أو جميع من الذاكرة الجمعية ، ولكن البصمة الشخصية الفردية للشاعر
ظلت باقية .

(٢) يشير المؤلف هنا الى قضية وضع الشعر الجاهلى أو انتحاله ، والمصرى
المشار اليه هنا هو الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) وقد استقر الباحثون الآن
على أن وضع بيت أو بيتين أو قصيدة أو قصيدة تقى لا يعنى أن كل الشعر الجاهل منقول
وهو تقريبا ما ذكره المؤلف - (المرجع) .

وفيما بعد اعتاد الدارسون والنقاد التفريق بين ثلاثة عناصر في القصيدة ، وكان ذلك لاعطاء الشكل أو الصيغة لممارسات كانت فضفاضة ومتنوعة وغير محددة ، وكانت القصيدة تبدأ بإثارة ذكريات عن الأماكن التي كان بها الشاعر ومن الممكن أن تكون ذكريات حب ضائع ، ولم يكن التعبير جنسيا أو حسيا ولكن يهدف إلى التذكير بأن الحياة البشرية عابرة :

فتصف القصيدة الأطلال المهجورة التي توقف فيها الركب في منى والفيل والريحان ، ومجرى نهر الريان الذي نحرته السيول فبات عاريا أملس ، كما لو كان كتابة على حجر ، وكادت تنمحي آثار من سبق لطول المهل عليها منذ أن سقتهم ينابيع تفيض من الكواكب ، وغدتهم أمطار تهطل من بروق السحب ، سحب الليل التي تكسو سماء الصبح ، وسحب النهار التي تتجاوب بالعودة (٢) .

وبهذا قد تكون هناك رحلة على ظهر البعير وفيها يتحدث الشاعر عن الجمال والريف وصيد الحيوانات ويتعرض ضمنا لاستمادته لقوته وقوته بنفسه حيال قوى الطبيعة ، ثم تبلغ القصيدة ذروتها عندما يمدح الشاعر قبيلته :

فتتحدث القصيدة عن بيت شامخ العلو ، يحاول الكبير والصغير أن يرتفع إلى سيمته ، يدرأون الخطوب عن القبيلة ، فهم فرسانها وحكامها الذين يفيض تبعهم على طالبيهم ، يواسون الأرواح اللاتي طالت بهن سنوات الحداد ، أنها قبيلة لا ينال منها الحسد ، وليس فيها من يزدرية عدو (٣) .

وتبدو ، بالرغم من ذلك الفخر والمديح ، نغمة يتغنى فيها الشاعر بقصور قوى الإنسان عن مواجهة قوى الطبيعة اللانهائية .

فيصف الشاعر سأمه من هموم الحياة بعد أن جاوز الثمانين (٤) ، ويعلم ما يحدث اليوم وما مضى بالأمس ، ولكنه لا يعلم ما يأتي به القدر ، بعد أن عاصر المنايا التي تهدس كالبعير مصائر الناس ، فيموت من تناله ويطنن في السنن من ينجو منها (٥) .

(*) إشارة إلى قول زهير بن أبي سلمى :

سكنت تكاليف الحياة ومن يشي . ثمانين حولا - لا أبا لك - يستأنم

وأعلم ما في اليوم والامس قبيله . ولكنني عن علم ما في غد هم

رايت المنايا تحيط عشواه من سحب . قمعه ومن تططره يمر فيهم

(المرجع)

محمد صلى الله عليه وسلم وظهور الاسلام

في بدايات القرن السابع كانت هناك تركيبة من عالم مستقر ولكنه خاضع لبعض من قوته وثقته بذاته ، وعالم آخر على حدوده اقرب اتصالا بجيرانه في الشمال ومنفتح على ثقافتهم ، وكان اللقاء الفاصل بينهما في منتصف ذلك القرن حين تخلق نظام سياسي جديد شمل كل شبه الجزيرة العربية ، وكل اراضي الساسانيين والاقاليم المصرية والسورية من الامبراطورية البيزنطية ، بحيث اختلفت الحدود القديمة ووضعت حدود جديدة ، وفي هذا العالم الجديد لم تكن المجموعة الحاكمة من شعوب هاتين الامبراطوريتين وانما من العرب من غرب شبه الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص من مكة .

وقبل نهاية القرن السابع كانت هذه الجماعة العربية الحاكمة تضع نظامها الجديد من خلال هدى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو موطن من مكة - في شكل كتاب مخلص هو القرآن (*) ، وهو الوحي الذي اكمل رسالات الانبياء والرسول ، ووضع ديناً جديداً هو الاسلام منفصلاً عن اليهودية والمسيحية (***) ، وهناك مجال للمناقشات الفلمية حول كيفية تطور هذه المعتقدات ، والمصادر العربية التي تقص سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وتكون المجتمع من حوله في فترة لاحقة . وأول كتاب سيرة معروف لم يكتب الا بعد قرن وثيق من وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمصادر المكتوبة بلغات أخرى تشيد بالامبراطورية التي سادها العرب ، ولكن ما تقوله عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مختلف عما يقوله التراث الاسلامي ، مما يحتاج الى المزيد من الدراسة والمناقشة ، ومن ناحية أخرى ، فليس هناك ما يدعو للشك بان القرآن هو اساساً وثيقة من الجزيرة العربية في القرن السابع رغم انها قد تكون قد احتاجت بعض الوقت لتتأخذ شكلها الاولي المحدد (***) ، والاكثر من ذلك ، فثمة عناصر

(*) ذكرنا في حاشية سابقة ان القرآن الكريم لم يُنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة - (المرجع)
(**) لم يتفصل الاسلام أبداً عن الديانات السابقة ، وإنما تميز آيات القرآن الكريم الى ان الاسلام مجرد تصويب لبعض ما ورد في الديانات السابقة .

(*) (المرجع)
(***) هذا خطأ تاريخي مألوف وقع فيه المؤلف . فالنص القرآني كان محفوظاً ومكتوباً في عهد الرسول ، وقام أبو بكر بجمعه في مكان واحد ، وقام عثمان - الذي اتسمت الفجرة في عهد - بإعداد نسخ منه أرسل إلى كل صير نسخة عربت بالإمام أو أصبحت عثمان ، ولم يحدث تغيير في النص القرآني أو تعديل لأسلوبه ، وكل ما في =

من السير التقليدية إلى التاريخية يرجع أنها ليست مختلفة ، وبلا شك ، فإن هذه الكتابات تعكس محاولات لاحقة لتصوير محمد صلى الله عليه وسلم على النسق الشرق أوسطى للرجل الصالح المقدس ، وعلى النسق العربي للرجل نبيل المنبت والمحدث ، وتمكن أيضاً الخلافات المذهبية لذلك العصر والمكان والزمان اللذين وجدت فيهما ، أي العراق في القرن الثامن ، وأنها تحوى بلا شك حقائق عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم وعائلته وصحابته التي لا يمكن أن تكون مختلفة ، ولذلك يحسن الأخذ بتلك الوقائع التاريخية عن منشأ الإسلام وإن يكن يتحفظ ، وفي ذلك ميزة حيث إنه إذا كان وصف وذكر تلك الوقائع ونصها قد بقيت في القرآن بلا تغيرات تذكر ، في عقول وتصورات المؤمنين بديانة الإسلام فإن تصديقها وأتباعها يجعل من الممكن تفهم نظرتهم للتاريخ وما يجب أن تكون عليه حياة البشر .

وقد كان أكثر جوانب حياة محمد صلى الله عليه وسلم غموضاً ولهاهاً ، كما يقص كتاب السيرة ، هو الجزء المبكر منها ، إذ يقولون لنا بأنه ولد في مكة ، وهي بلدة في غرب الجزيرة فيما يعتقد أنه في عام ٥٧٠ تقريباً ، وتنتمي عائلته لقبيلة قريش ، وإن لم تكن من أكثر أمخاضها قوة ، كان وجهاء القبيلة من التجار الذين لهم تحالفات مع القبائل الرعوية حول مكة ، ويقال أيضاً إن لهم روابط بالشام وجنوب غرب الجزيرة ، كما يقال إن لهم صلة ببعض البلدة (الكعبة) حيث كانوا يحتفظون بصورة آلهم المحلية ، وقد تزوج محمد صلى الله عليه وسلم خديجة وهي أرملة تمارس

= الأمر أن الرسول عليه الصلاة والسلام رفض بقراءة القرآن الكريم بلهجات القبائل وهو أحد تفسيرات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأتوا بما تيسر منها » فعلى هذه القراءات لم تظهر في وقت متأخر وإنما كانت منذ البداية ، إما ما قيل وما يقال عن حذف بعض آيات القرآن الكريم ، أو وجود آيات أو سورة أخرى لم تصلنا فيما يعرف بمصنف فاطمة ، فإن هذه أقوال لم يقم عليها دليل ، والأهم من كل هذا أن أحداً لم يذكر لنا أية واحدة من هذه الآيات المحذوفة سواء أكان من الشيعة أم السنة ، ولأننا في مجال التعليق على مبحث تاريخي في المقام الأول فمن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الكتاب الأوروبيين الذين اطلمنا على كتاباتهم لم يشيدوا لهم كهداً ، فلم يشر إليه أكثر جفري في كتابه :

Materials for the history of the text of the Quran. Leiden, 1937.

ومن جبال الكتابات العربية التي عرّجت كتاب أولئك عن تاريخ القرآن Geschichte des Quran, 1961. وطبعته الأولى ١٨٦٠ ، ولم تقرأ هذا الكتاب وإنما قرأنا عربياً لا كتابه أكثر من مؤلف (على سبيل المثال : د. عبد المصين شميلين في كتابه تاريخ القرآن ، ص ١٠٠) - (المراجع) .

التجارة ، وتولى ادارة أعمالها نيابة عنها ، وتشمل الحكايات القصص المختلفة التي سجلها أولئك الذين كتبوا حياته فيما بعد ، وتصور عالما ينتظر هاديا ، ورجلا يبحث عن رسالة ، باحثا عن الله يعبر عن رغبته في أن يتعلم « الهى تو كنت اعلم كيف ترى أن تعبد لعبدتك » ولكننى لا أعلم ، وقد تكهن الأخبار اليهود والرهبان المسيحيون والكهنة والعرافون العرب جميعا بمجرى نبى كما أن أحد الرهبان المسيحيين الذين قابلهم محمد صلى الله عليه وسلم خلال رحلة تجارية الى جنوب الشام نظر الى ظهره ورأى خاتم النبوة بين كتفيه ، وكانت الأشياء فى الطبيعة تحببه وما من حجر أو شيء إلا وحياء قائلا « عليك السلام يا رسول الله » (*) .

ثم انه أصبح هائلا وحيدا بين الجبال ، وفى يوم عندما كان عمره قرابة الأربعين عاما حدث شيء ما : اتصال مع قوى ما وراء الطبيعة فيما عرفته الأجيال اللاحقة بـ « ليلة القدر » وفى إحدى الروايات أن ملاكا على هيئة رجل فى الأفق دعاه ليكون رسول الله ، فى رواية أخرى سمع صوت الملك يدعو للقراءة فسأل : « ماذا أقرأ ؟ » وأجاب الصوت :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) .

عندما حدث شيء عرفته حياة كل من اتصل بقوى ما وراء الطبيعة ، اذ آمن به بعض من عرفوا وصدقوا . أولئك الذين صدقوا كانوا قلة فى العدد وشملوا زوجته السيدة خديجة التى قالت : « اخرج يا ابن عم وكن شعيئا والذى نفس خديجة بيده سوف تكون نبى هذه الأمة » .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ محمد صلى الله عليه وسلم فى نقل سلسلة من الرسائل لمن تبعه ، ولتى نقلها اليه ملك من عند الله ، وتقول بأن العالم سوف ينتهى ، وأن الله القادر الذى خلق بنى الانسان سوف يحاسبهم جميعا ، وقد صور لهم مسرات الجنة وعذابات النار بألوان واضحة ساطعة ، فإذا التزموا فى حياتهم ورضخوا لمشئته الله وإرادته ، يمكنهم الاعتماد على رحمته عندما يأتون للحساب ، وأن إرادة الله أن عليهم الطهار

(*) البرت حداثى هذا يخاطب القارئ الأديب وهو يعلم - بالتأكيد - أنه - أى القارئ الأديب - سيرفض هذا الكلام ، ولكن المؤلف يعرضه بطريقة يبدو فيها حياديا ، لكن الحقيقة أن السنة الصحيحة لا تؤيد شيئا كهذا ، وليس بين أنبياء ما يليق أن الأحبار كانت تكلم الرسول ، وعلمه روايات ظهرت بعد ذلك روج لها الصائسون ورواة الأخبار ، وهى فى مرفقة تاريخيا ، ولا يثق عندما للفقراء المسلمون كثيرا - (للمراجع) .

عرفانهم بالصلاة المنتظمة والتعاليم الأخرى وعمل الخير والتعفف، كان اللفظ المستخدم للرب هو (الله) وهو اسم أحد الآلهة المحلية (*) (يستخدمه الآن متحدثو العربية من اليهود والمسيحيين) ، وأولئك الذين يرضخون لمشيئته أصبحوا يعرفون فيما بعد بالمسلمين واسم دينهم الاسلام مشتق من نفس هذا المصدر اللغوي .

وتكونت تدريجيا جماعة صغيرة حول محمد صلى الله عليه وسلم بصحبة بعض الشباب من العائلات النافذة من قريش ، وبعض الأعضاء من العائلات الصغيرة ، وحلفاء من قبائل أخرى وضعوا أنفسهم تحت حماية قريش ، مع بعض الحرفيين والعبيد ، وبتصاعد التأييد لمحمد (ص) ، سامت علاقته مع العائلات النافذة من قريش ، فلم يقبلوا ادعاه بأنه مبعوث من الله ، من ناحيتهم ، كانوا يرون فيه رجلا يهاجم نمط حياتهم ، فقالوا لمحبه وحميه أبى طالب : « يا أبا طالب لقد سب ابن أخيك آلهتنا وأهان ديننا وسخر من طريقة حياتنا ، واتهم أجدادنا بالضلال ، وزاد من سوء موقفه موت زوجته خديجة وعمه أبى طالب في العام نفسه » .

ومع تطور تعاليمه ، وضحت الاختلافات عن معتقداتهم الثابتة المنورثة ، فقد هوجمت الطقوس المتعلقة بهم وما كانوا يمدون ، ومورست أشكال أخرى من العبادة ، وبالتحديد الصلاة العامة المنتظمة على وجه الخصوص ، وأشكال جديدة من حسن السلوك ، ووضع نفسه في صورة أكثر وضوحا على خط أنبياء اليهودية والمسيحية .

وفي النهاية أصبح وضعه غاية في الصعوبة حتى انه هاجر من مكة في ٦٢٢ قاصدا واحة تبعد مائتي ميل الى الشمال هي « يثرب » ، والتي عرفت فيما بعد بالمدينة ، وقد مهد لهذه الرحلة رجال من يثرب كانوا قد أتوا الى مكة للتجارة ، وكانوا ينتمون لقبيلتين ، وفي احتياج لحكم في النزاعات القبلية ، ولأنهم عاشوا جنبا الى جنب مع السكان من اليهود في الواحة ، فقد كانوا مستعدين لقبول تعاليم في شكل نبي وكتاب مقدس .

(*) هذه سقطة خطيرة للاستاذ المؤلف ، فالح (لفظ الجلالة) ليس له صلة البنية بالبولن المعروف باسم اللات ، واللفظ الجلالة خواص لغوية واضحة ، فكتابه أو رسمه لا تختلف في كل الأحوال وهو لا يجمع ، فكلمة (الله) هي جمع (اله) وليست جمعة لكلمة (اله) كما أن لفظ الجلالة (اله) لا ينون أما اله فتنون وتجمع كسائر الكلمات . كذلك لفظ « الله » لا يمكن حذف لام التعريف منه ، وقد وردت اللات والعزى وغيرهما في القرآن الكريم كأولاد ، ولم نسمع احد قال ان الله Allahu ما هو الا تطوير لللفظ اللات . واللات لفظ مؤنث وهو اسم الهة ، والعزى هي الفروع أيضا يقول الباحث جودير قنواي - (اراجع) .

جهد النقلة الى المدينة والتي اتخذتها الأجيال من بعدها بداية التقويم الإسلامي تعرف بالهجرة ، وليس لللفظة بساطة المعنى السلبى للهروب من مكة ، لكن المعنى الإيجابى من ناحية البحث عن الحباية بالاستقرار فى مكان آخر ، وفى القرون الإسلامية اللاحقة أصبح للكلمة معنى هجرة المجتمع الوثنى أو الفاسد الى مجتمع آخر يعيش وفقا للتعاليم الأخلاقية للإسلام ، ويورد كتاب السيرة المبكرون تفصيص الاتفاقات التى أبرمت بين محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من القبيلتين الكبيرتين من ناحية ، ومع بعض الجماعات اليهودية من ناحية أخرى ، وهى اتفاقيات لم تكن مختلفة عما كان معمولاً به فى جنوب الجزيرة خديثا عندما يتفق على حرم للجميع ، ويكون على كل فريق أن يحافظ على قوانينه الخاصة وعاداته ، ولكن منطقة الحرم تظل بكاملها منطقة سلام ، ولا تحل المنازعات أو تسوى بالقوة ، ولكن القاضي ، كلمة الله وسنة محمد (ص) وإن على هذا التحالف أن يعمل متوحداً نحال أولئك الذين ينتهكون السلام .

ومن المدينة بدأ محمد صلى الله عليه وسلم فى جمع قوة انتشرت خلال الرأحة والصحارى المحيطة ، وسرعان ما اضطر الى خوض صراع مسلح مع قريش ، ربما كان ذلك للسيطرة على الممرات التجارية . فى مسار الصراع تشكلت طبيعة المجتمع ، حيث توصلوا الى قناعة أن من الضرورى أن يقاتلوا فى سبيل الحق ، وعندما تفطرسنت قريش على الله ورفضته ، أعطى الاذن لرسوله بالقتال دفاعا عن نفسه ، واكتسبوا الأيمان من الاعتقاد بأن الله والملائكة تقاتل الى جانبهم وتقبلوا المحن والمصاعب عندما حلت باعتبارها اختبارا من الله للمؤمنين .

وفى هذه الفترة من الصراعات القوية المتنامية ، اتخذت تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم شكلها النهائي ، وفى سور القرآن التى نزلت حتى ذلك الحين ، ظهر اهتمام متزايد بتعريف الالتزام بالضمائر والأخلاقيات الاجتماعية ، وقواعد السلام الاجتماعى والملكية الخاصة والزواج والميراث ، وقد كانت هناك تنبيهات محددة فى بعض الشئون ، ومبادئ عامة فى بعضها الآخر ، وفى نفس الوقت أصبح للتعاليم صيغة أكثر عالمية ، اتجهت الى مخاطبة كل الوثنيين فى الجزيرة العربية ، وبالتالى للعالم كله ، وتفضل نفسها بشكل أكثر وضوحا عن تعاليم اليهودية والمسيحية .

وربما كان التطور فى تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم ومنتم من تبطين بالتفكير فى علاقاته مع اليهود فى المدينة ، فرغم أنهم كانوا جزءا من التحالف الأول الأسمى إلا أن موقفهم أصبح أكثر صعوبة بالتشاور دعوة محبة

صلى الله عليه وسلم فلم يستطيعوا قبوله كرسول حقيقي لئلا في اطار تقاليدهم . ومن ناحية أخرى يقال انه اتهمهم بتحريف الوحي الذي نزل عليهم . لقد اخفيت ما أمرتم بكشفه ، وفي النهاية طردت بعض هذه الجماعات اليهودية وقتل البعض الآخر .

وربما كان من تلواجر التناقض مع اليهود ان تغير الجنازة في الصلاة من النفس الى مكة (القبلة) واصبح التركيز على خط من السلالة الزوجية التي تربط محمدا صلى الله عليه وسلم بابراهيم عليه السلام ، ولقد كانت الفكرة القائلة بان ابراهيم هو مؤسس دين التوحيد والبيت المقدس (الكعبة) في مكة موجودة بالفعل ، اما حينئذ ، فلم يعد ينظر اليه كيهودي أو مسيحي ، ولكن باعتباره السلف المشترك لكليهما وكذلك للمسلمين ، وكان هذا الاختلاف مرتبطا أيضا بعلاقات محمد (ص) بقريش مكة . فحدث نوع من التوفيق أو التسوية بين مصالح الطرفين . فقد كان تجار مكة معرضين لفقدان تحالفهم مع زعماء القبائل وسيطرتهم على التجارة ، وفي المدينة نفسها كان هناك عدد متزايد من أتباع الاسلام . وشعر الجميع بان عقد اتفاقية مع القوة الجديدة سوف يزيل مخاطر معينة ، بينما لم يكن مجتمع محمد صلى الله عليه وسلم من ناحية يشعر بالامن طالما ظلت مكة عدائية ، وكانوا في احتياج للهدايا . اشرف مكة ، ولما كان المعتقد ان الحرم في مكة قد أسسه ابراهيم ، فمن الممكن القبول به كمزار للحج وان كان المعنى مختلفا .

وبحلول عام ٦٢٩ ، أصبحت العلاقات وثيقة بما يسمح للجنازة المسلمين بالذهاب الى مكة للحج ، وفي العام التالي سلم زعماء مكة ، مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي فتحها فعليا وواقعيا بلا مقاومة ، وأعلن مبادئ النظام الجديد ، الفاء كل ادعاءات النسب والممتلكات ما عدا السيطرة على الحرم وسقاية الحجيج ، ورغم ذلك ظلت المدينة عاصمته حيث عاوس نفوذه على اعوانه بالناورات السياسية والسطوة والنفوذ الشخصي ، أكثر منها بوسائل الحكم المعتادة (*) ، ومن بين زيجاته العديدة بعد وفاة

(*) ليس من المتوقع ان يحكم (نبي) بأساليب الحكم المعتادة في عصره (ملك وحاشية وحجاب ووزراء) فهو نبي يأتيه الخبر من السماء ، وهو لا يفسخ تشريعا وانما تأتيه التشريعات من السماء ، وان كان هذا لا يمنع من انه استشار اصحابه وألقى الراي في كثير من الأمور ، والنبي - أي نبي - اذا أمر بحرب قلنا هو يتحدث عن الله ، واذا حرم أو حل فهو يفعل ذلك كله باسم الله ، أما النفوذ الشخصي فهو كلمة غير موزعة ، فالنبي - أي نبي - له عين الهيبة والقبول ما يجعل الناس يتسلطون حوله ويطيعونه ويسلمون عقولهم له ، فالنرات اليهودى والاسلامى لا يتكرران

خديجة كان بعضها - وليست جميعها - لأسباب سياسية ، ولم يكن هناك نظام حكم مدروس أو جيش، فقد كان محمد (ص) ببساطة قاضيا أعلى يعاونه عدد من النواب ، ونشأ تجنيد عسكري عام للمؤمنين ، وبيت مال تنفذه الركاة ، وفرض الخراج والجزية على القبائل التي وضعت ، وخارج هذه البلدان انتشر الاسلام على مساحة واسعة ، وكان زعماء القبائل محتاجين للاتفاق معه ، لأنه كان مسيطرا على الواحات والاسواق ، وقد اختلفت طبيعة هذه الاتفاقيات ، ففي بعض الحالات كان هناك مجرد تحالف ونبد للصراعات ، وفي حالات أخرى كان القبول بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم والالتزام بالصلاة والاسهام المالي المنتظم لبيت المال بالزكاة .

وفي عام ٦٣٢ قام محمد صلى الله عليه وسلم بزيارته الأخيرة لمكة وأصبحت خطبته في الكتابات التقليدية البيسان الأخير لرسالته :
« أيها الناس ، ان صامكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ويكم ، محرمة يومكم هذا ، فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان كل دبا موضوع ، ولكن لكم رؤوس اموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، ففى الله لا دبا ٠٠٠٠ اللهم هل بلغت »

وتوفى عليه الصلاة والسلام في ذلك العام وترك أكثر من ميراث :
للأول شخصيته كما رآها صحابته ورفاقه المقربون وإن كانت شهاداتهم

= النفوذ الشخصي أو التأثير لموسى عليه السلام ، والترات المسيحي وكذلك الاسلام لا ينكران الديانة الشخصية أو النفوذ الشخصي ، (وللمنيان قريبان) لموسى يسوع عليه السلام ، فقد قال للمشار « قد فأتيتني » لقمته المشار وترك امواله ، فون سزال عن الصبب .
والذي - أى نبى - يستخدم المعجزة لانتاع الناس ، وليس استخدام المعجزة من اساليب الحكم المعتادة (حديث عيسى في المهد ليس من الأمور المعتادة ، وإن كان الترات المسيحي لا يوافق على حديثه في المهد ولا يقره ، وإنما يقر بمعجزات أخرى كاحياء الموتى ، وإبراء الرقى بأذن الله .. الخ ، ومعجزات موسى عليه السلام معرولة في الترات اليهودى والاسلامى ، أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فجلت في القرآن الكريم الذى اتاه من عند الله ، والحقيقة أن مصدا حلى الله عليه وسلم هو اقل الانبياء استخداما للمعجزة بمعناها المادى - أى الأمر الخارج للعادة وقوانين الطبيعة - وإنما خاطب الناس بمبادئ الحق والعدل فأطاعوه (كل هذا لا يمنع من أن النبى - أى نبى - قد استخدم أيضا الاساليب التى ألفها الناس في الحياة ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ان « العرب خدمة » وكانت قمة الدبلوماسية هى التى تجلت في قول المسيح عليه السلام (اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله) ولم يكن معناها الحرفى هو المقصود بالتأكيد والخلاصة انه ليس فى عبارات حردانى تجاوز كبير ، وإن كان من الممكن استخدام الفاظ أكثر دقة حتى لا يتزعج القارئ المسلم - (المراجع) .

التي انتقلت شفافة ، لم تأخذ شكلها النهائي الا بعد ذلك بكثير ، وكانت بالتأكيد موشاة بالمبالغات ، ولكن يبدو من المقبول الاعتقاد بأنه منذ وقت مبكر حاول أولئك الذين عرفوه وإتبعوه أن يقتنوا بتصرفاته وسلوكه ، ويمرور الوقت تطور نمط من الشخصية الانسانية هو الى حد كبير انعكاس لشخصيته في أعين أتباعه ، كرجل باحث عن الحقيقة منذ يواكير حياته وقع في حيرة بفعل قوى علوية ، وهو حريص على توصيل ما أوحى اليه مكتسبا الثقة في رسالته من احساس بالسلطة والقوة بتعلق الانصار من حوله ، وكان قاضيا ومحكما لتحقيق السلام وتسوية المنازعات في ضوء مبادئ العدل التي يؤمن بانها من مصادر الهية قدسية ، وكان مناورا بارعا بين القوى السياسية ، ورجلا لم يتخل عن أنماط وعادات التصرف الانساني لكن مع محاولة حصرها ضمن الحدود التي آمن بانها مفروضة بمشيئة الله .

وتشكلت صورة محمد صلى الله عليه وسلم تدريجيا وانتقلت من جيل الى جيل ، كذلك كان الحال مع المجتمع الذي أنشأه وأوجده ، فقد صبرته عصور لاحقة بأنه كان مجتمعا وقر محمدا (ص) واعتن بذكرياته محاولا اتباع سنن وطريقته ، وجاهد على طريق الاسلام في سبيل الله ، وزبطت أركان الدين هذا المجتمع ببعضه البعض ، وكلها ذات صبغة جماعية ، فالج في موعد واحد ، والصيام خلال شهر واحد (رمضان) ، ومتوحدين أيضا خلال الصلاة المنتظمة ، وهو النشاط الذي ميزهم بشكل واضح عن بقية العالم .

وقبل كل شيء كان نزات القرآن ، وهو كتاب يصور في بلاغة لغوية ذات جمال وتأثير عظيمين ، جلال الله المتعالي ، مصدر كل القوة والخير في العالم البشري الدنيوي الذي خلقه ، وتنزيل رسالته على أنبياء متتابعين أرسلهم لتحذير الناس وإعادتهم الى ذواتهم الحقيقية كمخلوقات مطيعة حاملة ، ثم يحكم الله على الناس في نهاية الزمان بالثواب والعقاب .

وقد آمن المسلمون السنة دائما بأن القرآن هو كلمة الله تجلت باللغة العربية من خلال ملك الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي أوقات مختلفة بطرق تناسب احتياجات المجتمع . وقلة من غير المسلمين يمكنهم القبول الكامل بهذا الاعتقاد ، وعلى أحسن الفروض ، فإن البعض منهم يعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم تلقى الهاما من خارج العالم البشري انتقل من خلال شخصيته وعبر عنه بكلماته هو ، وليس هناك من طريقة عقلانية بحتة يمكن بها حل ذلك الخلاف في الاعتقاد ، ولكن أولئك المنقسمين حوله يمكنهم

الاتفاق بشكل مشروع حول بعض النقاط التي يمكن مناقشتها في القرآن .

ويرد أولا السؤال حول متى وكيف اتخذ القرآن شكله النهائي ؟ اذ ان محمدا (ص) قد نقل الوحي الى اتباعه في اوقات مختلفة ، وقاموا بتسجيله او حفظه في ذاكرتهم ، ويتفق معظم الدارسين ان العملية التي تم بها جمع الروايات المختلفة ثم وضع النص الذي اتفق عليه ، لم تتم الا بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم (*) ، أما الروايات التقليدية فتقول بان ذلك حدث خلال عهد ثالث من خلفه في زعامة الجماعة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦) وهناك اعتقاد بوقوع ذلك في تواريخ لاحقة ويتم بعض لقراء الاسلام آخرين بادخال اضافات على هذه النصوص ليست مأخوذة مما روى عن محمد صلى الله عليه وسلم (**).

(*) ليس في كتب تاريخ القرآن التي بين ايدينا على اختلاف مذاهب مؤلفيها ما يشير من قريب او بعيد الى ان النص القرآني كان محل جدال او خلاف في حياة الرسول او بعد وفاته . راجع : ابو القاسم الموسوي الخواري : البيان في تفسير القرآن ، النجف ، ١٩٥٧ ، (والمؤلف شيعي) ، ومحمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ١٩٥٧ ، وأبو عبد الله الزنجاني : تاريخ القرآن ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ ، وراجع ايضا كتاب عبد الله ابن ابي داود الميجستاني المعروف بكتاب المصاحف ، وطيعة الاولى حققها ونشرها المستشرق آرثر جفوي ، وتعرض الشهرستاني في كتابه الشهير الملل والنحل لكل المذاهب والفرق الاسلامية بل وغير الاسلامية ، وقد تصفحنا الكتاب صفحة صفحة فلم نجده يشير الى ان اصحاب مذهب قالوا ان خلافا حدث او تعدلا تم (الملل والنحل ، لابي الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر الشهرستاني ، مجلدان ، بيروت ، ١٩٨٠) . ولم نسمع او نقرأ ان موضوعا كهذا اثير في عهد الراشدين ، ورغم كثرة الخارجين على الدولة الاموية فان كل المصادر لا تشير الى ان فرقة او مذهباً قالت ان هناك آيات او حتى آية من القرآن الكريم قد اضيفت اليه . وكل كتب حواشي التاريخ الاسلامي (ابن خياط ، الطبري ، ابن كثير ، الخ ..) لم تذكر لشيء كهذا لكننا سمعنا ان بعض فرق الشيعة منذ القرن الثالث الهجري تمددوا عن ان القرآن للكريم كان به بعض آيات عن حق فاطمة رضي الله عنها ، وحق الامام علي في الخلافة وان هذه الآيات قد حدثت ، لكن احدا لم يذكر لنا هذه الآيات بنصها ، ولم يفسر لنا من السمكت على هذا الحذف لدة تزيد على مائتي سنة ، اما الاختلاف في طريقة القراءة فيما يعرف بالقراءات فامر وارد ، - (المراجع) - .

(**) ليست هناك اتهامات باضافات ، ولما اتهامات بحذف ، لكن الذين اتهموا آبا بكر وعثمان رضي الله عنهما بخلاف بعض الآيات لم يذكروا مثلاً واحداً او آية واحدة ، والقرآن الكريم يقرأه الآن كل المسلمين سنة وحيدة وتردده الانذابات يسور متعلق عليها وآيات لا يحيون عنها - (المراجع) - .

ويندر السؤال الأهم حول أصالة القرآن ، فقد حاول الممارسون وضعه في سياق الأفكار السائدة في ذلك الزمان والمكان ولا شك أن به أصداء من تعاليم الأديان السابقة (*) : الأفكار اليهودية في مذهبها ، وبعض الانكاسات من ورع وتقى من المسيحية الشرقية في الأديرة من التامل وإطالة التفكير في هول يوم القيامة وأوصاف الجنة والجحيم (مع قليل من الإشارات للدين المسيحي وشعائره) ، القصص التوراتية في أشكال مختلفة عن تلك التي جاءت في العهدين القديم والجديد ، وهناك صدى للفكرة المانوية عن تعاقب الرسالات والوحي الذي نزل على مختلف الشعوب ، هناك أيضا آثار من التقاليد المحلية ، حيث إن الأفكار الأخلاقية بشكل ما هي استمرار لتلك السائدة في الجزيرة العربية وإن كانت تختلف عن بعضها . وفي بدايات النبوة كان الوحي يصدر كما لو كان على لسان الكهان أو العرافين العرب المغيبين عن وعيهم نتيجة لقاءهم مع قوى ما وراء الطبيعة . ومثل هذه الآثار من الماضي لا تسبب ازعاجا للمسلم الذي يعتبرها علامة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء في نهاية سلسلة من الأنبياء الذين علموا نفس الحقيقة لتكون فعالة ، فإن الوحي النهائي قد استخدم صورا وألفاظا معروفة ومعقوفة ومفهومة ، وإذا كانت القصص والأفكار قد أخذت شكلا مختلفا في القرآن ، فإن ذلك راجع لأن أتباع الأنبياء السابقين قد سرفوا الرسالات التي نزلت عليهم ، وبعض الدارسين من غير المسلمين توصلوا إلى استنتاج آخر ، بأن القرآن يحتوي على القليل مما يزيد عما كان متاحا لمحمد صلى الله عليه وسلم في الزمان والمكان (**) ، والقول بهذه المعنى سوء فهم لما هو حقيقي ، فإن ما أخذ من التراث والثقافة الدينية لذلك العصر قد تحول وانصهر ، لذلك كان الإسلام بالنسبة لأولئك المؤمنين بالرسالة هو نفس العالم المهود قد خلق من جديد .

(*) من وجهة النظر التاريخية فإن الإسلام لابد أن يشتمل على عناصر من الديانات التي سبقتة ، فهو يضم كل التراث السابق عليه بين أعضائه ، وهذا يقصر لصالح المسلمين مع انضمام الديانات الأخرى ، كما يقصر عدم إيمانهم في سلك الدماء أثناء حركة الفتح - (المراجع) .

(**) وهو ما يعرف بالاصحاح التاريخي . والملمس للقرآن الكريم - (المراجع) .

الفصل الثاني

خلافة محمد صلى الله عليه وسلم - تكوين الامبراطورية (الدولة الاسلامية)

اعقبت وفاة محمد صلى الله عليه وسلم حالة من البلبلة بين أتباعه ، وأعلن أبو بكر أحد زعماء الجماعة : « أيها الناس ٠٠ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » ، وتحت المستوى الالهى كان هناك دور لأبيد من ملته : التحكيم فى النزاعات واتخاذ القرارات بين الجماعة ، وكانت هناك ثلاث مجموعات رئيسية بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : الصحابة الأوائل الذين هاجروا معه وهم مجموعة ارتبطت فيما بينها بالتزاوج ، وكبار رجالات المدينة الذين أبرموا معه الاتفاقية هناك ، والأفراد العائلات المكية النافذة الذين أسلموا حديثاً . وفى اجتماع للزعماء والأعوان المقربين وقع الاختيار على أحد أفراد المجموعة الأولى ليكون خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو « أبو بكر » رفيقه الذى أسلم منذ البداية الأولى ووالد عائشة احلى زوجاته .

ولم يكن الخليفة نبياً وإنما قائداً للجماعة وليس رسولاً من الله بأية صورة ولم يكن بإمكانه التحدث باسم الوحي المستمر ، ولكن حالة من القدسية ظلت تحيط بشخصية ومكانة الخلفاء الأوائل ، وكان بإمكانهم القول بأن لهم نوعاً من السلطة الدينية ولكن سرعان ما وجد أبو بكر وخلفاؤه أنفسهم مطالبين بممارسة القيادة فى مجال أوسع من المجال الذى مارسها الرسول فيه ، وكانت لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله صبغة عالمية وطالب بسلطة عالمية ، كما أن الحرم الذى أنشأه لم تكن له حدود طبيعية (٣) ، وفى سنواته الأخيرة أرسل حملاته العسكرية الى

(*) استخدم المؤلف هنا اللفظ العربى Haram . (حرم) ولكن إن الحرم الذى أنشأه النبى لم تكن له حدود طبيعية

The haram which he established had no natural limits.

ومن الواضح هنا أنه لا يقصد الحرم المقدس المحيط بالكعبة المشرفة وإنما هو يقصد أن الإسلام دين عالمى النزعة لا تلقى دعوته عند حد ، أو بعبارة أخرى أنه دين ليس مقصوراً على العرب . وإن كان هذا هو المعنى المقصود ، فهو قول صحيح ، ويصبح «

الحدود البيزنطية ، ومن المعتقد أنه بعث رسلا الى حكام الدول الكبرى يدعوهم للاعتراف برسالته ، وعندما توفي كاد التحالف الذي أبرمه مع زعماء القبائل أن ينقرض ، وبدأ بعضهم في رفض مبدأ نبوته (*) أو على الأقل سيطرته السياسية على المدينة ، وفي مواجهة هذا التحدى فرضت الجماعة تحت قيادة أبي بكر نفوذها بالعمل العسكري (حروب الردة) وخلالها تشكل جيش حملته قوة الدفع الى مناطق الحدود مع الامبراطوريات الكبرى وبمهدا - ويفصل ضعف المقاومة - الى قلب تلك الامبراطوريات ، وبنهاية حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) كانت كل الجزيرة العربية وجزء من الامبراطورية الساسانية ، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الامبراطورية البيزنطية قد تم فتحها ، واكتمل فتح بقية الامبراطورية الساسانية بعد ذلك بقليل .

حينئذ وفي غضون بضع سنوات تغيرت حدود الشرق الأدنى وانتقل مركز الحياة السياسية من الأراضي الفنية المأهولة في الهلال الخصيب ، الى بلدة صغيرة واقعة على حافة عالم الثروة والثقافة الرفيعة ، وكان التغير مفاجئا وغير متوقع الى الحد الذي يتطلب تفسيرا ، وتشير الدلائل التي كشفت عنها علماء الآثار أن قوة عالم البحر المتوسط كانت في انحدار بفعل الغزوات البربرية والاضغاق في الحفاظ على المناطق الرعوية والزراعية وانكماش السوق الحضرية ، كما أضعفت الأوبئة والطاعون والحروب الطويلة كلا من الامبراطورية الساسانية والبيزنطية ، وقد استعاد البيزنطيون سيطرتهم على سوريا بعد هزيمة الساسانيين في ٦٢٩ وانه ظلت دولتهم ضعيفة ، ولم يكن العرب الذين غزوا الامبراطوريتين مجرد طغمة قبلية من البدو الرحل وإنما قوة منظمة اكتسب بعض أفرادها المهارة والخبرة العسكريتين ، من خلال خدمة الامبراطوريات أو في القتال في أعقاب موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان استخدام الأبل في النقل قد أغادهم في حملات القتال على مساحات واسعة من الأرض وحفز الطموح الى الثروة نوعا من التحالف المبني على المصالح بينهم ، كما أن حرارة الإيمان أعطت البعض قوة من نوع خاص .

= فهم البيرت حوداني لروح النصوص الاسلامية ومسار التاريخ الاسلامي اكثر اعتدالا من رأى باسقين آخرين رأوا في الاسلام ديننا مقصرا على العرب - (المراجع)

(*) أصبح معروفا الآن ان حركة المرتدتين التي عرفت بهذا الاسم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن في مجملها حركة خروج عن الاسلام أو ارتداد عنه .. وإنما اطلق عليها هذا الاسم اصطلاحا ، فقد كانت هذه الحركة في جبيها حركة قبلية ضد وحدة الدولة الاسلامية . ينليل أن عمر بن الخطاب رأى انه عند كانه من رايه في البداية عدم خوض الحرب ضد المرتدتين أو من اطلق عليهم اصطلاحا اسم المرتدتين =

= على أساس أن الخليفة أبا بكر لا خلقة له بصريهم ، لكن الخليفة الرقيق الردين
قريب النعم . قال له قولته المشهورة (إظهار في الجاهلية) . حوار في الاسلام (ثم قال أبو
بكر قولته الشهيرة أيضا التي تبين طبيعة الحركة التي أطلق عليها تجاوزا اسم حركة
المريتين ، قال أبو بكر : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .
المعنى إذن أن هناك اقواما رفضوا دفع الزكاة لأبي بكر أنفة وعصبية إذ كان قائمهم يقول
مستكبرا : « اتعطي الزكاة لابن أبي لهفة ! » ومعنى هذا أنه على استعداد لدفعها
لكن ليس لابن أبي لهفة . انهما إذن حركة انفصالية وليست حركة توجهاد من
الاسلام للعودة إلى عبادة اللات وانعزى ومناهة الخالفة الأخرى . كانت حرب المرثدين
إذن حربا وطنية لتأكيد سلطة الدولة والزام القبائل بطاعتها .

أما فيما يتعلق بأن اتجاهها ظهر بين المسلمين في أواخر حياته بإنكار نبوته ، فهو
قول يخالف بشكل صارخ روح النصوص التاريخية المتاحة كما يخالف بشكل صارخ
تطورات الحركة التاريخية ، فالاسلام بعد وفاة الرسول لم يضعف وإنما انتشر . ومن
الطريف أن نوضح أنه حتى مسيئة الكذاب ، وهو القديس المعروف الذي ادعى النبوة
لم ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإنما قال له (أشركت في الأمر معك) يعني
ثنا نبى وأنت نبى ، فالتأمل في النصوص يخفى هذا إلى حقائق جديدة غير تلك الأفكار
التي خرج بها من النصوص نلصها باحثون آخرون . ولتأكيد هذه المعاني الواردة في
هذا التعليق أجد من المفيد نقل نص كامل عن حروب الردة من كتاب فتوح البلدان
للبلادري ، وهو نص لا يختلف في معناه عما ورد في الكتب التاريخية التراثية الأخرى
إلا في أنه موجز :

ملاحظات ميدانية على النص

(١) ما أورده البلاذري عن حروب الردة لا يحفظ في مضمونه عما أورثته كتب
التاريخ الاسلامي التراثية الأخرى (ابن خياط ، الطبري ، ابن كثير ، ابن الأثير ..
وغيرهم) ولكننا تغيرناه دون غيره لأنه موجز - بما يتناسب مع حجم كتابنا هذا -

(٢) استخدم البلاذري - مثل غيره من المؤلفين التراثيين بعض الاختصارات
قد يكون من المفيد ذكرها للقارئ الماهي :

- رحه : رحمه الله .
- رضه : رضى الله عنه .
- رضها : رضى الله عنها .
- رضهما : رضى الله عنهما .

(٣) يفهم من النص بشكل عام - أن الحركة التي سميت بحركة المريتين ، لم تكن
خروجيا عن الاسلام بقدر ما هي خروج عن الدولة - أي أنها حركة انفصالية أو حركة
ثيالية يقصد بها عدم دفع الزكاة والصنقات للحكومة المركزية في مكة المكرمة . ونلقب
من نص البلاذري ما يفيد ذلك :

- قال قوم من المريتين : « لنقيم الصلاة ولا تؤتي الزكاة » .
- قول أبي بكر الصديق : « لى منعوني عقالا لقاتلتهم عليه » .

« بعض رموس المرتكبين كطليحة بن خويلد رجع عن دعواه وحارب في صفوف المسلمين وأبلى بلاء حسنا . وعندما عاتبه عمر بن الخطاب على ما كان منه قال : ذلك من فضل الكفر الذي هداه الاسلام كله فلا تعطف على بيعضه » .

« قال قرط بن هيرة الذي كان قد امتلك عن اداء الزكاة : « والله ما كبرت منذ امتدت ... الخ » .

« ارتكبت كتلة مقاتلهم المسلمون » حتى اتقروا بالصدقة » .

(٤) لا يفهم من النص ان حروب الردة تمثل مذابح جماعية . وانما كانت حروبا بين ممثلي الدولة من ناحية والانفصاليين من ناحية ، وان الحرب كانت تتوقف على الفور عند اداء الزكاة .

(٥) دخل في حروب المرتكبين قوم من قطاع الطرق والصفاليك الذين لا يهتمهم المسلمون أي غير المسلمين . وانما جل همهم الاغصاء والصلب والذهب ، ومن ذلك رجل يقال له الفجاءة وهو يجير بين ايباس السلمي ، وكان يهاجم جيوش الدولة ويجيش المرتكبين على سواء . وقد قتله أبو بكر الصديق .

(٦) يقال ان بعض الشهازيات قد حصلت في هذه الحروب ، ومن ذلك ان ملك بن نورية قال لعالم بن الوليد : « والله ما ارتكبت » ومع ذلك قتله خالد بن الوليد ، وقد قال عمر بن الخطاب لأبي بكر معترضا : « أيمتت رجلا يقتل المسلمين » .

(٧) لم ترق المصادر ان احراقا بالنار تم ، الا في حالات قليلة جدا . ومن ذلك قول أبي بكر الصديق :

« ثلاث تركتكن ، ووددت اني لم افعل ، وندت اني يوم اكثت بالاشعث بن قيس ضربت عقبه ، فانه تخيل الى انه لا يبرأ فمرا ! الا عصى اليه وأعان عليه . وودت اني يوم اكثت بالفجاءة قتلته ولم احرقه .. الخ » .

خبر ردة العرب في خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه

قالوا : لما استخلف أبو بكر « رحمه » ارتكبت طوائف من العرب ومنعت الصدقة ، وقال قوم منهم نقيم الصلاة ، ولا نؤدى الزكاة ، فقال أبو بكر « رضى » لو منعوني عقلا لمقاتلتهم . وبعض الرواة يقول : لو منعوني عقلا . والمقاتل صدقة للسنة .

وحديثي عبد الله بن صالح المجلى ، عن يحيى بن آدم ، عن عوانة بن الحكم ، عن جرير بن يزيد ، عن الشعبي قال : قال عبد الله بن مسعود ، لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كنا نهلك فيه لو لا ان الله من علينا بأبي بكر اجتمع رأينا جميعا على الا نقال على بنت مخاض وابن لبون ، وان ناكل قري عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، وهزم الله لأبي بكر « رضى » على قتالهم فغراه ما رضى منهم الا بالخطة المخزية ، ار الحرب المجلية ، فلما الخطة المخزية فان اقروا بان من قتل منهم في النار ، وان ما أضلوا من أموالنا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية لان يخرجوا عن ديارهم .

حدثنا ابراهيم بن محمد عن عرفة قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال اخبرنا سليمان الثوري ، عن قيس بن مسلم . عن مسلم . عن طارق بن شهاب قال قدم وفد بزاخة على أبي بكر فخيرهم بين الحرب للمجلة ، والسلم للمخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب للمجلة فما السلم للمخزية ؟ قال : ان نلزعكم منكم الصدقة والكرأح ونغرم ما اصابنا =

« حكم ، وتربوا اليها ما أصبح منا ، وتدوا قتلنا ويكون قتلكم في النار . حدثنا شجاع ابن مخلد الغنص قال حدثنا يحر بن الفضل مولى بني رقاش قال عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة المناجشون ، عن عبد الواحد ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن عمته عائشة أم المؤمنين « رضىها » أنها قالت تولى الرسول والنفاق بالمدينة ، ولربكت العرب فزاد ما اختلفوا في واحدة الا طار بطنها وغشاها من الاسلام » قالوا ففرت ابو بكر الى القصبة من ارض محارب لتوجيه الزحف الى اهل الردة ، ومعه المسلمون ، فسار اليهم خارجة بن حصن بن حنيف بن بدر الغزاري ، ومنظور بن زياد بن سيار الغزاري أحد بني المعراء في غطفان لقاتلهم قتالا شديدا ، فانهزم المشركون واتبعهم طلحة بن عبيد الله التيمي لخطه بأسفل ثانيا عومجة ، فقتل منهم رجلا وفاته الباقيون لاهوزوه مريا فجعل خارجة بن حصن يقول : ويل للعرب من ابن أبي قحافة ، ثم عقد أبي بكر وهو بالقصة لخاله بن الوليد بن المغيرة المخزومي على الناس ، فجعل على الانصار ثابت بن قيس بن شماس الانصاري ، وهو أحد من استشهد يوم البصرة الا انه كان من تحت يد خالد ، وأمر خالدا أن يصعد لطليحة بن خويلد الاسدي وكان قد ادعى النبوة ، وهو يومئذ ببزاعة ، وبزاعة ماء لبنى أسد بن خزيمه ، فسار اليه خالد وأقام أمامه عكاشة بن محسن الاسدي ، حليف بني عبد شمس ، وثابت بن الأرقم الهلوي . حليف الانصار ، فلقبهما ، حبال بن خويلد ، فقتله وخرج طليحة وسلمه أخوه ، وقد بلغهما الخبر للقاء مكاداة وأبانا قتلان قتال طليحة :

فكرت نفسي لما عرفت وجهرهم وأبقت أتي ثائر يحييهم
عصية غادرت ابن الأرقم ثاويها وعكاشة الغنص عند محال

ثم التقى المسلمون وهدمهم واقتتلوا قتالا شديدا ، وكان عبيدة بن حصن بن حذيفة ابن بدر مع طليحة في معجاة من بني فزارة ، فلما رأى سيوف المسلمين قد استلحمت المشركين اتاه فقال له : أما ترى ما يصنع جيش أبي الفضل ، فهل جاءك جبريل يرضي قال نعم جاءني فقال : أن لك رجا كرجاء ، ويوما لا تنساه فقال عبيدة أرى والله أن لك يوما لا تنساه ، يلقي فزارة هذا كذاب ، وولى عن معسكره فانهزم الناس وهرب المسلمون ، وأمر عبيدة بن حصن فقدم به المنيعة فقتل أبو بكر دمه وخلق سيبله وهرب طليحة بن خويلد فدخل خباء له فاختلص ، وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ثم مضى الى مكة ثم أتى المنيعة مسلما وقيل بل أتى الشام ، لآخذه المسلمون ممن كان غاديا ، وبعثوا به الى أبي بكر بالمنيعة فأسلم ، وأبلى بعد في فتح العراق ونهاوند ، وقال له عمر اكثرت العبد الصالح عكاشة بن محسن فقال أن عكاشة بن محسن سمع بي وشايت به وأنا استغفر الله .

وأخبرني داود بن حبال الاسدي عن أشياخ من قومه أن عمر بن الخطاب قال لطليحة : أنت الكاذب على الله حين زعمت أنه أنزل عليك أن لا يصنع بتغير وجوهكم وتبع أدياركم شيئا ، فاذكروا الله أفعه قياما فإن الرغوة قول الصريح ، فقال يا أمي المخلصين ذلك من فتن الكفر الذي هداه الاسلام كله فلا تعظي على بيعضه فأسكت عمر . قالوا : وأتى خالد بن الوليد رمان وأبائن ، وهناك فل بزاعة فلم يقاتلوه وبايعوه لأبي بكر . ويحدث خالد بن هشام بن العاص بن وائل السهمي أمّا عمرو بن العاص ، وكان قديم الاسلام ، وهو من مهاجرة الحبشة الى بني عامر بن صعصعة ، فلم يقاتلوه وأظهروا =

= الاسلام والاذان فأنصرف عنهم ، وكان قرية بن هبيرة القشيري أمتنع من أداء الصدقة .
 وأخذ خليجة فأتاهه هشام بن العاص وأتى به خالدا فعمله إلى أبي بكر فقال : والله
 ما كفرت منذ أمنت ولقد حرى عروى بين العاص منصرفا من عمان لأكرمت وبريته .
 فقال أبو بكر عروا : وخشعا : عن ذلك لصدقة فحقن أبو بكر دمه . وقال : خالدا
 خالدا كان سار إلى بلاد بني عامر فأبذ قرية ويست به إلى أبي بكر . قال : ثم سار خالدا
 ابن الوليد إلى القعر وهناك جماعة من بني أسد وخططان وغيرهم . وعليهم خاتمة بن
 حصن بن حنيفة ، ويقال أنهم كانوا متساوين قد جعل كل قوم عليهم رئيسا منهم .
 فأتوا خالدا والمسلمين فقتلوا منهم جماعة ، وأنهم الباقون ، وفي يوم القعر يقول
 الصليحة الحمصي :

ألا كل أرماع قصاص الله إدهم لأرماع الفوارس بالقم
 ثم أتى خالد جو قراقرم ويقال أتى القرية وكان هناك جمع لبني سليم عليهم أبو
 شجرة عمرو بن عبد العزيز السلمي وأمه لنفساء ، فقاتلوه فاستشهد رجل من المسلمين ،
 ثم هض الله جمع المشركين ، وجعل خالد يومئذ يحرق المرتدين فليل لأبي بكر في ذلك .
 فقال لا أقيم سيفي معه أبدا على الكفار . وأسلم أبو شجرة فقدم على عمر وعمر
 يعطى المسلمين فاستطاع فقال له أئست للقاتل :

ورويت روى عن كتيبة خالد وأبي لأرجو بعدما أن أهدرا

وعاد بالردة فقال : قد معا الاسلام ذلك يا أمير المؤمنين .

قالوا : « وأتى القهارة وهو بحير بن لياس بن عبد الله السلمي أبا بكر فقال :
 احملني وقرني أقاتل المرتدين ، فعمله وأعطاه سلاحا ، فخرج يمشي الناس ، فيقتل
 المسلمين والمرتدين وجمع جمعا فكتب أبو بكر إلى طريقة بن حاجزة أخى معين بن
 حاجزة يأمره بقتاله ، فقاتله وأسره ابن حاجزة . فبعث به إلى أبي بكر فأمر أبو
 بكر بإحراقه في ناحية للصلي . ويقال : أن أبا بكر كتب إلى عمر في أمر القهارة ،
 فوجه عمر إليه طريقة أخاه لأسره ، ثم سار خالد إلى من بالبطاح والبعوضة من بني
 تميم فقاتلوه ففنى معهم ، وقتل مالك بن نويرة أخا حاتم بن نويرة ، وكان مالك عاملا
 للنبى من على صدقات بني حنظلة ، فلما قبض خلى ما كان في يده من الفرائض .
 وقال شاتمكم بأموالكم يابني حنظلة وقد قيل أن خالدا لم يلق بالبطاح والبعوضة أحد .
 ولكنه بث الصرايا في بني تميم ، وكانت منها سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدي .
 فلقى ضرار مالكا فالتقوا ، وأسره وجماعة معه فأتى بهم خالدا فأمر بهم فضربت أعناقهم
 وتولى ضرار ضرب عنق مالك . ويقال أن مالكا قال لخالد والله ما ارتددت وهود أبو
 قتادة الأنصاري أن بني حنظلة وضعوا السلاح ، وأذنوا ، فقال عمر بن الخطاب لأبي
 بكر : وخشعا : بعثت رجلا يقتل المسلمين ، ويعدب بالشر . وقد روي أن حاتم بن
 نويرة شغل على عمر بن الخطاب فقال له ما بلغ من وجهك على أخيك مالك ، قال بكيته
 حولا حتى أصبحت عيني الداهية عيني للصبيحة وما رأيت نارا إلا كنت أنطلق لها أسفا
 له : قال : كن يركب الفرس الجرد ويوقه الجمل الفلال - وهو بين الجرادين
 الضمحين ، في الليلة القرة ، وعليه شملة فلوث معلقا رجعا خيلا يمشي ألبته ،
 ثم يصيح ، وكان وجهه ملقا قمر ، قال لأنشدني بعض ما قلت فيه فأنشدني مرقته
 التي يقول فيها :

وكانا كندمانى جنسية حنيفة . من الدهر حتى قيل ان يتصديعا
فقال عمر : لو كنت احسن قول الشعر لربيت اخي زيادا ، فقال قيسم ولا مواء
يا امير المؤمنين لو كان اخي مصرع اخيه ما بكته ، فقال ما عزاني احد يا حسن
مما عزيتني .

قالوا : وكتب ام صاعد سجاح بنت اوس بن حنق بن اسامة بن النضير
ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . ويقال هي سجاح بنت الحارث
ابن علفان بن سويد بن خالد بن اسامة . وكنيت فاتيمها قوم من بني تميم ، وقوم من
أخوالهم بنى كلاب ، ثم انها سحقت ذات يوم فقاتلت : ان رب الصحاب ، يا مكرم
ان تغزو الرباب ، فغزتهم فغزموها ولم يقاتلها احد غيرهم فالتت حبيسة الكذاب وهو
يحبو للزوجه ، وجعلت دينها وبينه ولدا فلما قتل صارت الى اخوانها فماتت عندهم .
وقال ابن الكلبي اسلمت سجاح وهاجرت الى البصرة وحسن اسلامها . وقال عبد الأعلى
ابن حماد التميمي سمعت مشايخ من البصريين يقولون : ان سمرة بن جندب الغزاري
جلى عليها وهو بنى البصرة من قبل معاوية قبل قدم عبيد الله بن زياد بن خراسان
ورايته البصرة . وقال ابن الكلبي كان مؤذن سجاح الجنية بن طارق بن عمرو بن حوط
الرياحي وقوم يقولون ان شبث بن ربعي الرياحي كان يؤذن لها .

قالوا وادكت غولان باليمن ، فوجه ابو بكر اليهم يعل بن مية ، وهي امة وهي
من بنى ماذن بن منصور بن عكرمة بن خصفة . بن قيس بن عيلان بن مضر
وابنه امية بن ابي عبيدة من ولد مالك بن حنظلة بن مالك حليف بنى لؤلؤ بن عبد مناف
فظهر بهم واصاب منهم فتنة وسبابا ويقال لم يلق حربا فرجع القوم الى الاسلام .
رده بنى وليمة والاشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية الكندي :

قالوا : ولي رسول الله ص زياد بن ليبيد البياضي . من الانصار . حفر موت ثم
ضم اليه كندة ، ويقال ان الذي ضم اليه كندة ابو بكر الصديق . وكان زياد
ابن ليبيد رجلا حازما صليبا ، فآخذ في الصدقة من بعض كندة قلوفا ، فسأله الكندي
ردعا عليه وآخذ فبرعا وكان قد وسماها بميمس الصدقة فاي ذلك ، وكلمة الاشعث
ابن قيس ايه فلم يجبه وقال لست براد شيئا قد وقع اليهم عليه . فالتفتت عليه
كندة كلها الا السكون فانهم كانوا معه فقال ضاعهم :

ونحن نصرنا الدين اذ دخل قومنا . شقاء وشايعة ابن ام زياد
ولم يلبغ عن حق البياضي من جلا . وكان تقي الرحمن الفضل زاد

وجمع له بنو عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي فيهم فبين مع من
المسلمين فقتل منهم بغيرا فيهم مغوس ، وجرير وابشعة بنو معد يكرب
ابن وليمة بن شرحبيل بن معاوية بن حجر القرد (والقرن الجواد في كلامهم) بن الحارث
الولادة بن عمرو بن معاوية بن الحارث وكانت لهؤلاء الاخوة اودية يملكونها فسموا
الملوك الارمية ، وكانوا على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ارتدوا وقتلت اخوت
لهم يقال لها المعردة وقاتلتها يصيبها رجلا ثم ان زيادا اقبل بالسبي ، والاموال فر على
الاشعث بن قيس وقومه فصرخ النساء والصبيان ، وبكوا فعسى الاشعث انما وخرج
في جماعة من قومه فعرض لزياد ومن معه ، فاصيب ثاس من المسلمين ثم سزموا
فاجتمعت عليهم كندة الى الاشعث بن قيس ، فلما رأى زياد ذلك كتب الى أبي بكر =

« يستنفده ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية يأمره بإيجاده غليظاً لأشعث
ابن قيس فبعث معه من المسلمين ألفاً فجمعهم ، وأولموا بأصحابه فقتل منهم مائة عظماء ،
ثم إنهم لجأوا إلى النجف ، وحرص حسن لهم فصرم المسلمون حتى جثسوا ، فقلب
الأشعث الأمان لعدة منهم ، وأخرج نفسه من الكوفة ، وذلك لأن الجلفيش الكندي
واسمه معدن بن الأسود بن معد يكره ، أخذ بحقوه وقال : اجعلني من العدة فأشعلته
وأخرج نفسه وأتى زياد بن ليلى والمهاجر فجمعا به إلى أبي بكر الصديق فمات عليه
وزوجه أخته أم غزوة بنت أبي قحافة ، فوكلت له خضداً وأنصاعاً وقريبة وحبيبة زوجة ،
وبعضهم يقول : زوجة أخته قريبة وإن تزوجها أتى السوق فلم ير بها جزوا إلا كتف
عراقية وأعطى ثمنها وأطعمها الناس ، وقام بالمدينة ثم سار إلى الشام والعراق
غازياً ، ومات بالكوفة وحمل عليه الحسن بن علي بن أبي طالب بعد صلحه معاوية ،
وكان الأشعث يكنى أبا محمد ويلقب عرف الثار ، وقال بعض الرواة : لوكد بنو وليمة
قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت زياد بن ليلى وفاته صلى الله عليه وسلم
دعا الناس إلى بيعة أبي بكر فهاجموه ، خلا بني وليمة فبيتهم وقتلهم ، وارتد الأشعث
والتحق في النجف فهاجمه زياد بن ليلى والمهاجر فاجتمعوا عليه ، وأدعوا أبو بكر
« ربه » بمكة بن أبي جهل بعد انصرافه عن عمان فقدم عليهما وقد فتح النجف - سال
أبو بكر المسلمين أن يفرقوه في القبية ففعلوا - قالوا وكان بالنجف نسوة
شمن بفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب أبو بكر « ربه » في قطع أيديهن
وأرجلهن ، فماتت الشجاء الضعيفة ، وفقدت يمين اليهودية »

وحديثي بكر بن الهيثم قال : حدثني عيسى الرزاق بن عمامة النيسابري ،
عن مسافر حدثني عن أهل اليمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولي
خالد بن سعيد بن العاص صنعاء ، فأخرجته الملعن الكذاب عنها ، وأتى إلى المهاجر بن
أبي أمية على كندة وزياد بن ليلى الأنصاري على حضرموت والصفد وهم ولد مالك
ابن مريخ بن معاوية بن كندة ، وإنما سمى صفداً لأن مريخاً تزوج حضرمية ، وشرط
لها أن تكون عنده ، فإذا ولدت ولداً لم يخرجها عن دار حمها ، فولدت له عالكا ، فغضب
الحاكم عليه بأن يخرجها إلى أهلها ، فلما خرج مالك عنه معها قال صفد عن مالك
فسمى الصفد - وقال عبد الرزاق ، أخبرني سفيان عن أهل اليمن قالوا : كتب أبو بكر
إلى زياد بن ليلى والمهاجر بن أبي أمية الخزومي ، وهو يرمي على كندة يأمرهما أن
يجتمعا فتكون أيديهما يدا ، وأمرهما بأخذ الصالحين له البيعة ويقاتلا من أمتعت من
أهله الصنف ، وإن يستقيسا باليمنيتين على الكافرين ، والمطيعين على العصاة
والمخالفين ، فأخذوا من رجل من كندة في المنطقة بكرة من الإبل فسالها أخذ غيرها
فصاحها المهاجر وأبو زياد إلا أخذها ، وقال ما كنت لأردنها بعد أن وقع عليها ميسم
الصنف ، فجمع بنو عمرو بن معاوية جميعاً فقال أبو زياد للمهاجر قد ترى هذا
الجمع ، وليس الرأي أن نزل جميعاً من مكاننا لكن انفصل من الميسر
في جماعة فيكون ذلك أخفى للأمر وأشد ، ثم أبيت هؤلاء الكفرة ، وكان زياد حازماً
صلباً ، فصار إلى بني عمرو والظاهر في الليل فبيتهم فأتى على أكثرهم وجعل بعضهم
يقتل بعضاً ، ثم اجتمع المهاجر ومعهما العبي والانساري فعرض لهما الأشعث بن قيس
ووجوه كندة فسالواهم قتالا فشدوا ، ثم إن الكنديين حصلوا بالعبي فهاجموا
حتى جدهم الفصار وأضرب بهم ، ونزل الأشعث على الحكم - قالوا : وكانت حضرموت -

« أتت كندة منجدة لها لواقمهم زياد والمهاجر فظفروا بهم وأردت خولان ، فوجه إليهم أبو بكر يعلى بن منية لمقاتلتهم حتى انزعوا واثروا بالصدقة ، ثم أتى المهاجر كتاب أبي بكر يتولينه صنعاء ومخاليقها وجمع عمله لنهاد إلى ما كان في يده فكانت اليمين بين ثلاثة : المهاجر ، وزياد ، ويعلى ، وولى أبو مهابان بن حنظل ما بين آخر حد للجهاز وآخر حد لجران . وحديثي أبو نصر التمار ، قال : حدثني شريك قال عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم النخعي قال ، أردت الأشعث بن قيس الكندي في ناس من كندة فحوصروا فخذ الأمان لسبعين منهم ولم يأخذ لنفسه ، فأتى به أبو بكر فقال : اتنا قاتلوه لأنه لا أمان لك إذ أخرجت نفسك عن العدة ، فقال : بل تمن علي يا خليفة رسول الله وتزوجني ففعل وزوجه أخته .

وحديثي القاسم بن سلام أبو عبيد ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح الليث بن سعد ، عن عثمان بن صالح ، عن صالح بن كيسان ، عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبي بكر الصديق أنه قال : ثلاث تركتكن ووددت أني لم أفعل ، ووددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه فإنه تغيل إلى أنه لا يرى شرا إلا سمي فيه وأمان عليه ووددت أني يوم أتيت بالليثاء قتلته ولم أحرله ، ووددت أني حيث وجهت خالدًا إلى الشام ، وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فإكون قد بسطت يميني وضمانني جميعا في سبيل الله .

أخبرني عبد الله بن صالح العجلي عن يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح عن فراس بن بزاز عن الشعبي أن أبا بكر رده سبأيا اللجج بالهدا ، لكل رأس أربعمائة درهم ، وإن الأشعث بن قيس استسلم من تجار المدينة فدأهم ، ثم رده لهم وقال الأشعث بن قيس يرضى بشير بن الأودج وكان ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد ، ويزيد بن أمانة ومن قتل يوم الجدير :

لمصرى وما مصرى على يسير لشد كنت بالقتل أحق فبين

فلا فرو إلا يوم يقسم سيوفهم وما أدهر عليهم بغيرهم

وكنت كذات الهوى رومت فالتفت على بوعبا أن طربت بعين

عن ابن أمانة الكرمي ويحده بشير الذي للججر سمع عيون .

أمر الأسود العنسي ومن ارتد معه باليمن : قالوا : كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي ومن ارتد معه باليمن قالوا : كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي قد تكهن وأدعى النبوة ، فأتبعه عتس ، وأسم هلس زيد بن مالك بن أدد بن يشجب بن حريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ ، وعتس ، أبو مراد بن مالك ، وخالد بن مالك وسعد العنسي بن مالك ، وأتبعه أيضا من غير عتس ، وسمى نفسه رجلاً الدين وتسمى حسيطة رجلاً اليمامة ، وكان له حمار معلم يقول له أسجد لربي فمسجد ، ويقول له إبرك ليبرك فسمى ذا الحمار ، وقال بعضهم ذو الحمار لأنه كان مختفرا معاً أبداً ، وأخبرني بعض أهل اليمن أنه كان أسود الوجه ، فسمى الأسود للونه وإن اسمه: غيبة . قالوا أتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله البجلي في السنة التي تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، وفيها كان أسلم جرير ، أني الأسود يدعوه إلى الإسلام فلم يجبه ، وبعض الرواة ينكر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم جريراً إلى اليمن ، قالوا : « وأتى الأسود صنعاء فقلب عليها وأخرج خالد بن سعيد بن الحارث عنها ويقال أنه إنما أخرج المهاجر بن أمية وأحماز خالد إلى ناحية زياد »

وربما كان هناك تفسير آخر لقبول سكان البلاد المقهورة لحكم العرب فلم يكن هناك فارق كبير عند كثير منهم بين أن يحكمهم إيرانيون ، أو يونانيون أو عرب . وبخلاف المسئولين والطبقات ذات المصالح المرتبطة بهم والكهنة في بعض المجتمعات الدينية ، فإن سكان المدن لم يكونوا يبالون بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون في سلام ويدفعون ضرائب معتدلة ، أما سكان الريف والسهوب فقد عاشوا تحت امرة زعمائهم وفقا لماداتهم

= ابن ليبيد البياضي . وكان عنده حتى اتاه كتاب ابي بكر يامرهم بمعاونة زياد ، فلما فرغا من امرهما ولاء صنعاء واعمالها ، وكان الأسود متجبرا فاستقل الانشاء وهم اولاد اهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع ابن ذي يزن وعليهم هرمز واستخدمهم فاعرض بهم وتزوج المرزبانة امرأة باذام ملكهم ، وعامل ابيرويز عليهم . فوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن هبيرة المكشوح المرادي لقتاله ولما سمى المكشوح لانه كرسى على كعفه من داء كان به وامره باستمالة الانشاء وبعث معه فرقة بن مسيك المرادي ، فلما صاروا الى اليمن بلقهما وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفتهم قيس بن الحارث بن ابيهم ، ثم استمال فيروز بن النخعي أحد الانشاء ، وكان فيروز قد اسلم ثم اتيا باذام رأس الانشاء ، ويقال ان باذام قد كان مات ورأس الانشاء بعده غليلة له يسمى دائويه وذلك الثبت ، فاسلم دائويه ولقي قيس ثاب بن ذي الحرة الصعبي فاستماله وبعث دائويه بماله الى الانشاء فاسلموا فقاطب هؤلاء جميعا على قتل الأسود واغتيلوه ، ونسوا الى المرزبانة امرأته من اعلمها للذي هم عليه ، وكانت شائلة له فخلتهم على جدول ينزل اليه من سفحوا مسرا ويقال بل تقبوا جدار بيته بالخيل تقيا ثم اسفلوا عليه في المسحر وهو سكران فاكله فخلعه قيس ليعا ، فحصل يخور خوار الفرس حتى افزع ذلك حرسه فقتلوا ما شأن ريمان الذين فهدرت امرأته فقاتل ان الرسي جذل عليه فسكنوا وامسكوا واحتق قيس رأسه ثم علا سود المدينة حين اصبح فقال : اهل اكبر الله اكبر الله اكبر الله اكبر الله الا الله والشهد ان محمدا رسول الله وان الأسود كذاب عدو الله ، فاجتمع اصحاب الاسود فالقوا قيس رأسه فقتلوا الا قليلا ، وخرج اصحاب قيس ففتحوا الباب ووجهوا في بقية اصحاب العنسي للتعصية فلم ينج الا من اسلم منهم . ولكن بعض الرواة ان الذي قتل الاسود العنسي فيروز بن النخعي وان قيسا اجهز عليه واحتق رأسه ، ولكن بعض أهل العلم ان قتل الاسود كان قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أيام ، فقال في ترجمة قتل الله الاسود العنسي ، قتله الرجل انصالح فيروز بن النخعي ، وان القتل ورد على ابي بكر بعدما استخلف بعض كئيل . واخبرني بكر بن الهيثم قال حدثني ابن انس الزياتي عن اخبره ، عن النعمان بن جبرج أحد الانشاء ان عامل النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الاسود عن صنعاء . ابان بن سعيد بن العاص ، وان الذي قتل الاسود العنسي فيروز بن النخعي ، وان قيسا وفيروز ادعيا قتله وهما بالمدينة فقال عمر قتله هذا الأسد يعني فيروز . قالوا ثم ان قيسا اتهم بقتل دائويه ، ويبلغ ايا بكر انه على لجلاله الانشاء عن صنعاء لافضيه بذلك وكتب الى المهاجر بن ابي أمية حين نبخل صنعاء وهو عاملها عليها يامرهم بقتل قيس ان ما قبله فلما قدم به عليه أحلفه حسين يمينا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ما قتل دائويه فحلف ، فخلى سبيله وجهه الى الشام - (المرجع) .

الخاصة ، وكان حلول العرب محلل لليونانيين أو الإيرانيين وضعا أفضل بالنسبة لبعضهم . أما أولئك الذين تجلت معارضتهم للحكم البيزنطي في صورة الإنشقاق الديني، فقد كان من الأيسر لهم أن يعيشوا تحت امرأة حاكم لا يحتاج لأى من الجماعات المسيحية المختلفة خاصة وأن الدين الجديد لم يكن قد انتشر بعد ، نظائما متكاملًا كمنهج أو قانون ، وكذا لم يكن غريبًا عنهم في تلك الأجزاء من سوريا والعراق فقد حكمها أفراد ذوو أصول ولسان عربي ، وكان من السهل على قادتهم تبديل ولائهم من الأباطرة إلى التحالفات العربية الجديدة خاصة وأن السيطرة السابقة عليها كان يتبادلها اللخميون والفساسنة ، وهكذا اختفت الدولتان العربيتان العميلتان للإمبراطوريتين الكبيرتين (*) [أسس عمرو بن عبد اللخمى دولة اللخمين « بنى نصر » أو « المناذرة » في الحيرة نحو القرن الثالث الميلادي ، وكانوا في حروب متواصلة مع الفساسنة ، واعتنق المناذرة المسيحية ، وتحالفوا مع الفرس ، وتلاشت دولتهم بوفاته للعميان الثالث عام ٦٠٢ م ، ودخلوا الإسلام بعد الفتح العربي] .

وكان لابد من تغيير نظام الحكم فقد فرض الغزاة سلطتهم ونفوذهم من معسكرات جنود عرب مسلحين ، وفي سوريا كانت هذه المعسكرات تقام في المدن الموجودة بالفعل ، ولكن في الأماكن الأخرى كانت تنشأ المستوطنات مثل البصرة والكوفة في العراق ، والفسطاط في مصر (والتي أصبحت فيما بعد القاهرة) وأخرى على الحدود الشمالية الشرقية لخراسان ، وكانت هذه المراكز أقطاب جذب للمهاجرين من شبه الجزيرة أو للبلاد المقهوره حيث كانت مواقع القوة ، وتنامت لتصبح مهدا بكل منها مقر للحاكم وفي قلبها مكان للتجمع الشعبي هو المسجد .

في « المدينة » وفي المدن المعسكرات الأخرى المرتبطة بشبكة من طرق برية كانت القوة في أيدي الجماعات الهندية الحاكمة ، وكان بعض أعضائها من منسوبة النبي صلى الله عليه وسلم الأولين المختصين ، ولكن كانت هناك نسبة كبيرة من أفراد العائلات الكمية بما لهم من مهارات عسكرية وسياسية ومن عائلات مماثلة في مدينة (الطائف) القريبة ، وبينما تزايدت الغزوات انضم آخرون من كبار العائلات القوية من القبائل

(*) يمكن القول أن العرب المناذرة في غالبيتهم متعاطفين مع المسيحية ويمكن القول أيضا أن بعضهم قد اعتنقها ، لكن من المستبعد أن يكون المناذرة قد كونوا دولة مسيحية من الناحية الرسمية على الأقل ، لتسبب بسيطة وهو أنهم حلفاء لدولة فارس ، ومعنى تشكيل مملكتهم كيملكة مسيحية ، أنهم أصبحوا ببساطة مثل الفساسنة =

الرعية حتى من أولئك الذين كانوا يريدون التخلص من حكم « المدينة » بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وقد عالت الجماعات المختلفة إلى الاختلاط مع بعضها البعض ، وأوجد الخليفة عمر نظاماً من الرواتب والمجاشيت ، لكل من خارب من أجل قضية الإسلام ، طبقاً لأولوية الانضمام للدين ومدة الخدمة ، وزاد تماسك النخبة الحاكمة ، أو على الأقل انفصالهم عن المحكومين ، أما بين أعضاء النخبة الجدد الأغنياء وبين الأقل منهم ، فقد كانت العلاقات متوترة منذ وقت مبكر .

وبالرغم من تماسك الجماعة بشكل عام فقد كانت منقسمة بفعل الخلافات الشخصية والطائفية ، وكان الصحابة الأول ينظرون باستخفاف وارتياح لأولئك الذين حققوا القوة والمكانة رغم تأخرهم في الإسلام . وتضارب ادعاءات السبق بالدخول في الإسلام ومدى القرب لحمد صلى الله عليه وسلم مع ادعاءات نيل المحند ورقة النسب ، وقد شهد شعب المدينة انسحاب القوة إلى الشمال حيث الأراضي الأغنى والأكثر عزاً بالسكان في الشام والعراق ، حيث كان الولا يحاولون جعل سلطانهم أكثر استقلالية .

طفا هذا التوتر على السطح في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤م - ٦٥٦م) ، وقد اختاره عدد قليل من قريش بعد اغتيال عمر بسبب ثار شخصي (٤) ، وقد أوحى عثمان إليهم بالأمل في التقريب بين الفرقاء

« حلفاء المبيزنطين (الروم) » ونفسل هذا الاستمانة بباحث هو جورج قنرالى . يقول الأب الدكتور قنرالى : « ... والغريب في الأمر أن الملك نفسه كان وثانياً بالرغم من أنه كان متزوجاً من مسيحية ، وكان يقدم إلى الهبة قرابين بشرية حية . مرة استولى على أربع مائة راهبة من حصن واقدون قرابين بدون رحمة ، ولعل زوجته هند أرادت أن تكفر عن جريمة زوجها فأسست في الحيرة ديراً ... أما أول ملك من المنادرة اعتنق المسيحية فهو النعمان الثالث (بعد سنة ٥٧٠ م) ومع هذا ، فقد احتفظ بكثير من زوجة واحتفظ ببعض الأخلاق الوثنية ، وقد انتهى الفرس إمارة للشميين بالبقيش على هذا الملك وسجته في فارس ، وقد مات بالفعل سنة ٦٠٢ م ... أما اللغة التي كانت تستخدم في الحيرة فهي العربية والفرسية وهما لغتان ساميتان متقاربتان ... ومن المؤكد أن العباد (يضم العين وتشديد الباء) وهم مسيحيو الحيرة هم أول من استعملوا الخط العربي ... » جورج قنرالى : المسيحية والفتنة العربية ، ص ٧٥ - ٧٦ . (القاهرة ، دار الثقافة) ط ٢ ، ١٩٩٢ . (المراجع) .

(٥) قتل أبو لؤلؤة نفوز الفارس شلمن الملقب بن شمسة ، عمر بن الخطاب ولا يعرف إثراً شمسياً بينه وبين الفاروق عمر رضي الله عنه ، وإنما هو : التعميب . لم يفر الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن خياط ولا غيرهم من كتاب الحواريات لثار شخصي بين عمر رضي الله عنه ونفوز . (المراجع) .

لأنه يتحدر من قلب قريش ورغم ذلك كان من أوائل من اعتنقوا الإسلام . وكانت سياسته هي تعيين أعضاء أسرته كحكام للأقاليم مما أثار المعارضة بين كل من أبناء رفاقه وأقارب زوجة النبي عائشة في الكوفة والفسطاط ، وقد رفضت بعض القبائل سيطرة هؤلاء الرجال المكين . وبدأت القلاقل في المدينة مؤيدة بجند من مصر وأدت الى قتل عثمان في ٦٥٦ م .

بهذا بدأت أول فترة من الحرب الأهلية في الجماعة . وقد كان المطالب بالخلافة هو (علي بن أبي طالب) (٦٥٦ - ٦٦١) من قريش ومن أوائل من آمنوا ، وابن عم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة ، وقد وجد نفسه في مواجهة معارضة مزدوجة من أقارب عثمان الذين كانوا ضده وكذلك الذين جادلوا في شرعية اختياره ، وانتقل الصراع الدائر حول السلطة في المدينة الى المدن والمسكرات ، ونصب (علي) نفسه خليفة في الكوفة وتركز المنشقون في البصرة ، وهزمهم ولكنه واجه تحديا جديدا من سوريا حيث كان الحاكم (الولي) معاوية بن أبي سفيان على صلة قرابة بعثمان وتقابل الفريقان في موقعة (صفين) في أعالي الفرات ، وبعد قتال لفترة اتفق الطرفان على التحكيم عن طريق ممثلين يختارهما الجانبان ، وعندما وافق (علي) على ذلك تخلى عنه بعض أنصاره لأنهم لم يكونوا مستعدين لحل وسط وانما الخضوع لمشيئة الله كما كانوا يرونها كبشر ، إذ ان شرف الانتساب المبكر للإسلام كان في خطر ، وفي شهور المفاوضات بين المحكمين أظهر ممثل (علي) ضعفا واغتيل (علي) في النهاية في مقره بالكوفة ، وأعلن معاوية نفسه خليفة وأذن لذلك الحسن الابن الأكبر لـ علي .

الخلافة في دمشق

يعتبر وصول معاوية الى السلطة (٦٦١ - ٦٨٠) في نظر الكثيرين علامة على نهاية مرحلة وبداية أخرى ، فقد كان الخلفاء الأربعة الأول من أبي بكر حتى علي يعرفون لفسالبية المسلمين بالراشدين ، وفيما بعد أصبحت النظرة للخلفاء مختلفة تماما ، فقبل كل شيء أصبحت الخلافات وراثية منذ ذلك الحين ، ورغم بقاء شكل من التفكير الاختياري أو على الأقل الاعتراف الرسمي والشكل (البيعة) من زعماء المجتمع ، إلا ان الحقيقة أن السلطة أصبحت في أيدي عائلة ، سميت بالأُموية نسبة الى الجد الأعلى « أمية » ، وعندما توفي معاوية خلفه ابنه لفترة وجيزة تلتها فترة ثانية من الحرب الأهلية وانتقل العرش بعدها الى فرع آخر من العائلة .

ولم يكن التغير قاصرا على الحكام ، اذ انتقلت عاصمة الامبراطورية الى دمشق ، وهي مدينة واقعة وسط منطقة ريفية حيث يمكن توفير الفائض اللازم لقيام مقر وحكومة وجيش ، وهي منطقة يمكن منها التحكم في الاراضي الساحلية شرق المتوسط والاراضي الواقعة شرقها بشكل اكثر سهولة من المدينة ، وكان ذلك عظيم الاهمية فقد كانت الخلافة في مرحلة توسع ، وتقدمت القوات الاسلامية عبر المغرب ، وأنشأت أول قاعدة مهمة في القيروان في أفريقيا فيما كان أحد أقاليم الامبراطورية الرومانية (تونس حاليا) ، ومنها اتجهوا غربا حتى بلغوا سواحل الأطلنطي في المغرب بنهاية القرن السابع ، وسرعان ما عبروا الى اسبانيا ، وفي الناحية الشرقية استطاعوا فتح ماوراء خراسان ، حيث وصلوا الى وادي نهر جيحون وكانت بدايات التقدم الاسلامي نحو شمال غرب الهند .

وتطلبت هذه الامبراطورية نمطا جديدا من الحكم ، وهناك رأى انتشر في الأجيال اللاحقة ، عندما خلف الأمويين سسلالة معادية لهم ، بأنهم استبدوا ، وكانوا يهدفون الى أهداف دينوية تحكمها المصالح الشخصية بدلا من حكم عادل ، الذي كان مكرسا لمصالح الدين ، وقد يكون من العدل القول ان الأمويين لم يظهروا أنفسهم في مواجهة مشاكل حكم امبراطورية عظمى ، ولذا ، توردوا في أطوار الوسط للحفاظ على القوة وتطوروا تدريجيا من زعماء قبائل بنوية الى أن صاغوا نمطا من الحياة يشبه الشكل التقليدي القبلي بين حكام الشرق الأدنى ، يستقبلون ضيوفهم والتابعين وفقا للممارسات الاحتفالية لحكم الامبراطور البيزنطي أو ملك ايران ، واستبدلت الجيوش العربية الأولى بقوى نظامية جديدة تتقاضى أجورا ، وتشكلت هيكلية عسكرية جديدة ، معتمدا على قادة الجيش وزعماء القبائل ، وفقدت (إحداثيات) النظرة في مستقبل المدينة أهميتها السابقة حيث كانوا يبعدون عن التركيز المركزي للميلطة ، وانحازوا في الفترة أكثر من مرة . ومن العراق أيضا كان زلاهما مثيرين كالمعبرين كان خلافة يديها يحكمها ولاية اقوياء موالون للخليفة ، وكانوا يحكمون أهل النضر في الحياة المستقرة والمعادين لدعوى التسلط في الحياة على هذه الطريقة للخصومات القبلية ، وكما حذر أول الولاة الامويين للوقوف على عدم تميز رضائي للقبالة عن شأن الدين ، أما الحاج - وهو واحد من الولاة الامويين الذين اتوا بعد ذلك - فقد تعامل بشكل أكثر حزما مع وجهاء واعيان القبائل ، وأتباعهم ، ليبين لهم أنه لا يمكن أن يكونوا في مكانة متساوية مع الخليفة ، بل هم تحت رعايته .

ورغم أن القوة المسلحة كانت بين القبائل ، إلا أن الإدارة المالية ظلت كما كانت ، أي أيدي كتبة من نفس الجحود التي خدمت الحكام ، لم تكن لهم أي سلطة حقيقية .

السابقين ، يستخدمون اللغة اليونانية في الغرب والایرانية في الشرق . ومنذ التسعينات من القرن السابع تغيرت لغة الادارة الى العربية ولكن ذلك لم يتمخض عن تغير كبير في الأشخاص أو طرق العمل ، واستمر أفراد العائلات الوظيفية يخبرتهم في العمل وأصبح كثير منهم مسلمين وخاصة في سوريا .

وقد فرض الحكام الجند أنفسهم بقوة ليس في المدن فقط ولكن في الريف السوري في الأراضي التي كانت تابعة للحكم الروماني أو الأراضي التي هجرها أصحابها ، خاصة في المناطق الداخلية المواجهة للسهوب العربية الشمالية ، وقد اعتنوا بالمحافظة على نظم الري والزراعة التي وجدوها هناك ، والبيوت والقصور التي بنوها لتكون مراكز للسيطرة الاقتصادية والضيفة أيضا ، جهزت وزينت على طرز الحكام الذين خلفوهم بما فيه صالات العرض والاحتفالات والحمامات . وأراض من الموزاييك وأبواب وأسقف منقوشة .

في هذا ، وفي غيره كان الأمويون يشبهون ملوك البربر من غرب الامبراطورية الرومانية ، إذ لم يستقروا بسهولة في عالم معاد ، واستمرت حياتهم مرهونة بقوتهم ، ولكن كان هناك فارق ، فالحكام في الغرب جلبوا معهم القليل مما يمكنه الصمود حيال قوى الحضارة اللاتينية المسيحية التي انجذبوا اليها ، أما الجماعة العربية الحاكمة فقد جاءت بشيء تمسكت به في خضم الثقافة الرفيعة للشرق الأدنى (*) ، هو الايمان بوحى نزل من السماء على النبي محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، وقد وفرت لهم تلك الثقافة تركيبة خاصة يبرون بها عن أنفسهم .

وكان أول تأكيد واضح لخلود ودوام وتميز هذا النظام الجديد في التسعينيات من القرن السابع في عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥م) حيث تواكب دخول العربية كلفة للادارة مع ظهور نمط جديد من العملة ، وكانت لذلك دلالة ملحوظة ، فالعملة رمز القوة والهوية ، وبدلا من العملة التي تحمل صورةا للشخصيات والتي أخذت عن الساسانيين أو التي سكها الأمويون في دمشق ، سكبت عملات جديدة تحمل فقط كلمات تعبر عن وحدانية الله وصحة الدين الذي أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بناء الصروح المعمارية العظيمة في حد ذاته شاهدا شعبيا بأن الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية هو الأخير والآخر كمالا وأن مملكته ستبقى الى الأبد .

(*) وتطور بطل تلك الثقافة ليصبح لغة يمكن من خلالها أن تعبر عن نفسها .

كان أول أماكن العبادة الجماعية هو المسجد ، (اللفظ الانجليزي مشتق من اللفظ الأسباني) يستخدم لمقد اجتماع المجتمع بأسره لتدريس الشئون العامة ، ولم تكن هناك علامات تميزها عن أنواع المباني الأخرى ، فبعضها كان مباني قديمة استخدمت لهذا الغرض ، والبعض الآخر كان مباني جديدة في قلب المستوطنات الإسلامية ، وقد احتفظت الأماكن المقدسة لليهود والمسيحيين بتأثيرها على خيال الحكام الجدد ، فقد زار عمر بن الخطاب القدس بعد الاستيلاء عليها ، ونودي بمعاوية خليفة هناك . وفي التسمينات من القرن السابع أقيم أول بناء كبير أكد بوضوح أن الإسلام متميز وباقي ، وكان ذلك البناء هو « قبة الصخرة » ، والذي بنى على موقع لمبعد يهودى فى القدس ، وتحول الى حرم اسلامي كان مقصودا أن يكون مزارا للحجيج حول الصخرة ، وطبقا لمقيدة اليهود الربانيين ، فإن الله يطلب من ابراهيم عليه السلام التضحية باسحق (*) ، وبناء الصخرة فى هذا المكان أصبح يفسر بشكل مقنع كقفل رمزى ، يوطد للإسلام موضعه من سلالة ابراهيم منفصلا عن اليهودية والمسيحية ، كانت النقوش الداخلية أقدم تجسيد. حتى لمقتطفات من القرآن ، تعبر عن عظمة الله « القوى الحكيم » وتعلن « أن الله وملائكته يصلون على النبي » ، وتدعو المسيحيين للاعتراف بالمسيح كرسول الله وكلمته وروحه وليس ابنه (١) .

بعدها بقليل بدأ بناء سلسلة من المساجد العظيمة صممت لمواجهة احتياجات شعائر الصلاة ، فى دمشق وحلب والمدينة والقدس وبعضها فى القيروان ، أول مركز عربرى فى المغرب ، وفى قرطبة العاصمة العربية لاسبانيا ، وكلها تتبع نفس التصميم الأساسى من الساحة الواسعة المفتوحة التى تؤدى الى فراغ مغطى مصمم بحيث تقف صفوف طويلة من المصلين الذين يؤمهم امام باتجاه مكة ، ومحراب كملامة مميزة للحائط الذى يواجههم ، وبجواره المنبر تلقى من فوقه خطبة الجمعة ، وملحق بالمبنى أو أعلاه المسندة ومنها يؤذن المؤذن داعيا المؤمنين للصلاة فى المواقيت المحددة .

ولم تكن المباني مجرد علامات على القوة فقط ، وإنما كانت تعبرا عن نمو مجتمع جديد متميز . وتطور الدين من مجرد إيمان مجموعة حاكمة الى انتشار تدريجي وقبول عام بالوحي الذى نزل على محمد صلى الله عليه

(*) يعتقد غالب المسلمين أن التضحية كانت بإسماعيل عليه السلام منه مولى
 مث. زمن بمكة المكرمة - (المراجع)

وسلم ، وقد لا تعرف الكثير عن طبيعة هذا الانتشار الا أننا يمكن ان نتأمل المسار الذي اتخذته ، فالعرب الذين يعيشون في ريف العراق وسوريا كان قبولهم نابعا من التضامن مع الحكام ، (ما عدا فرعا واحدا من الفساسنة) ، ثم ان المسئولين العاملين لدى القادة الجدد ، كان ولاؤهم نابعا من المصلحة الشخصية أو الانجذاب الطبيعي للنفوذ ، وكذلك الأسرى خلال الفتوحات الاسلامية أو جنود الساسانيين المنضمين للعرب ، كذلك المهجرون للمدن الجديدة يمكن أن يتحولوا للإسلام تفاديا لضريبة الرأس المفروضة على غير المسلمين ، وقد كان من الأسر على الزرادشتية (الديانة الإيرانية القديمة) أن يصبحوا مسلمين ، من أولئك المسيحيين، حيث ضعفت مؤسستهم الدينية بسقوط الحكم الساساني ، ثم ان بعض المسيحيين الذين تأثروا بالجدل والخلاف حول الطبيعة الالهية والوحي كان يمكن أن تجتذبهم بساطة رد الفعل الاسلامي المبكر لمثل هذه التساؤلات ضمن ما كان بشكل عام من نفس العالم الفكري . وكان التحول للإسلام عملية بسيطة ، في ظل غياب مؤسسة دينية اسلامية ، مع عدم وجود طقوس للتحول الى الدين الجديد ، فلا يتطلب الأمر سوى ترديد بعض الكلمات البسيطة مما جعلها عملية سهلة ، ورغم سهولته الا أنه كان يعنى التزاما بقبول العريية التي نزل بها الوحي ، اضافة الى أن الاحتياج للتعامل مع الحكام العرب والجنود وأصحاب الاراضى تضمن القبول بها كلفة تخاطب يومية . وانتشرت اللغة العربية أينما حل الاسلام ولكن الانتشار كان ما يزال في بداياته خارج الجزيرة العربية فقد حكمت الدولة الأموية بلادا معظم سكانها من غير المسلمين ومن غير المتحدثين بالعربية .

ولم يكن اتساع المجتمعات الاسلامية ولا زيادة قوتها ، يعملان لصالح بنى أمية ، فسوريا التي تمثل المنطقة المركزية لحكم الأمويين كانت حلقة ضعيفة في سلسلة البلدان التي شملتها الامبراطورية (الدولة الأموية) ، وهي بذلك - أى سوريا - تختلف عن ايران والعراق وبلدان أفريقيا ذات المدن الجديدة ، فقد كانت مدن سوريا قد ظهرت قبل الاسلام، وانتعشت الحياة فيها مستقلة عن الحكام ، وكانت تجارتها قد انقطعت بانفصالها عن الأناضول التي ظلت في حوزة البيزنطيين ، بسبب الحروب الحدودية بين الدولتين الأموية والبيزنطية . (بين العرب والبيزنطيين) .

وقد تركزت القوة الرئيسية للمجتمع الاسلامي الى الشرق من سوريا . وكانت مدن العراق متنامية في الحجم بوصول المهاجرين من ايران ومن شبه الجزيرة العربية ، وكانوا يهتفون من ثروة الاراضى القابلة للرى

في جنوب العراق ، حيث فرض بعض العرب أنفسهم كأصحاب للأراضي ، وكانت المدن الجديدة مملوكة بالعرب أكثر من تلك التي في سوريا وأصبحت حياتهم أكثر ثراء بانضمام أعضاء من الطبقة الحاكمة الإيرانية السابقة للعمل كمستولين أو جبهة المضرائب .

وكان الوضع مشابها في خراسان في أقصى الشمال من الامبراطورية التي كانت واقعة على حدود التوسع الاسلامي في آسيا الوسطى ، وكانت بها حلقة كبيرة ، كما أن أراضيها الصالحة للزراعة والمراعي اجتذبت المستوطنين العرب ، وعند وقت ميكر كان هناك كثير من العرب يعيشون جنبا الى جنب مع الايرانيين الذين احتفظ كبار ملاكهم وحكامهم بمواقمهم ، وبدأ تدريجيا نوع من التكامل بينهم بعد توقف نشاطهم العسكري واستقرارهم في الريف وفي مدن نيسابور وبلخ وعرو . ودخل العرب في المجتمع الإيراني واحتل الإيرانيون موقع الجماعات الحاكمة .

وقد أدى تنامي المجتمعات الاسلامية في المدن والولايات الشرقية الى توترات نتجت عن الطموحات الشخصية والمظالم المحلية والصراعات الحزبية والتي تجلت في أكثر من شكل من الصراعات العرقية والقبلية والدينية ، ونظرا لبعده هذه المناطق عن قلب العالم الاسلامي ، كان من الصعب ادراك كيفية حدوث الانقسامات أو معرفة مسارها .

كان هناك أولا وقبل كل شيء نوع من الكراهية بين الايرانيين الذين اعتنقوا الاسلام حيال الامتيازات المالية وغيرها الممنوحة لأصحاب الأصول العربية ، وتزايد هذا السخط بضعف ذكريات الانتصارات الأولى، وربط بعض الداخلين للاسلام أنفسهم بزعماء العرب كمعلماء ، وهم (الموالي) ولكن هذا لم يزل الفاصل بينهم وبين العرب (*) .

كما ظهرت الانقسامات أيضا على شكل خلافات ومعارضات وتزايدات قبلية . فقد جلبت الجيوش الآتية من الجزيرة العربية معها النعرات القبلية التي تزايدت وقويت مع الظروف الجديدة ، وتجمعت في المدن مواقع المهاجرين من الجماعات التي تدعى وحدة السلف بشكل أكثر قربا مما كانت عليه في السهوب العربية ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يدعون

(*) الموالى مصطلح أطلق على غير العرب (من فرس وغيرهم) ، ولم يكن قصرا على فئة ظهرت ولدها أو لم تظهر ، فالفرس الذين أسلموا يطلق عليهم اسم الموالى . وقد تكون للكلمة دلالة لغوية ، لكن المعنى الاصطلاحي هو الذي غلب في النهاية - (المراجع) .

نبيل المحدث والنسب أكثر أنصارا ، وقد مكن الميل السياسي الموحد ، هؤلاء الزعماء والقبائل من الارتباط ببعضهم في مساحات كبيرة من الأراضي مما أوجد في بعض الأحيان مصالح مشتركة ، واستغلت خلال الصراع للسيطرة على الحكومة المركزية ، الأسماء القبلية والولايات التي كانت تتبعها ، فقد ارتبط أحد فروع الأمويين بالمصاهرة « بنى كلب » الذين كانوا قد استقروا في سوريا قبل فتحها ، وكانت مجموعة أخرى من القبائل تؤيد أحد المطالبين بالخلافة من غير الأمويين بعد وفاة ابن معاوية ، لقد كان يحدث في بعض الأحيان أن تجسد المصالح العامة فكرة الأصل المشترك الذي تنتمي إليه كافة القبائل من وسط شبه الجزيرة العربية أو جنوبها (*) ومازالت أسماء قيس واليمن باقية في بعض أجزاء سوريا حتى القرن الحادي رمزا لتلك الصراعات المحلية السحيقة (*)

وقد كانت النزاعات حول الخلافة وطبيعة السلطة في المجتمع الإسلامي أكثر دواما ، فقد نازعت مجموعتان ادعاءات معاوية وعائلته رغم أن كلا منهما لم تكن محددة أو واضحة المعالم لدرجة أن من الأفضل أن نصفها بأنها ميول ، كان أولهما المجموعات المختلفة المسماة بالخوارج ، وكانت بدايتها هي أولئك الذين انسحبوا من جانب « علي » عندما وافق على التحكيم في معركة صفين ، وقد مستحقوا نتيجة ذلك ، ولكن بعض الحركات المتأخرة استخدمت نفس الاسم خاصة في المناطق الواقعة تحت حكم البصرة وقد عارضوا زعامة شيوخ القبائل بأنه لا فضل في الإسلام إلا بالتقوى ، فالمسلم التقى هو الذي يمكن أن يحكم كامام أما إذا انحراف فلا طاعة له ، وسواء أكان « عثمان » الذي جعل الأولوية لمطالب العائلة أم « علي » الذي وافق على التسوية في قضية مبدأ ل كلاهما مخطئ ، ولكنهم لم يتوصلوا من ذلك جميعا لنفس الاستنتاج ، فرفض البعض للحكم الأموي وثار البعض عليه واعتقد البعض أن على المؤمنين أن يحاولوا تأسيس مجتمع فاضل بهجرة جديدة إلى مكان بعيد *

وكانت الجماعة الأخرى هي التي آمنت بأحقية محمد صلى الله عليه وسلم في الحكم ، وهي فكرة اتخذت أشكالا عدة ، وكان أكثرها أهمية على المدى الطويل ، تلك التي اعتبرت « عليا » ونسبته زعماء شرعيين للمجتمع « أئمة » ، وحول هذه الفكرة تجمع آخرون ، جاء بعضهم من ثقافات دينية من البلاد التي دخلها الفتح الإسلامي ، وكان المعتقد أن عليا وخلفاءه قد انتقلت إليهم ، من خلال محمد صلى الله عليه وسلم ، نفحة روحية وخاصة المعرفة بالمعاني الباطنة للقرآن بصفتهم أكثر من بشر * وأن أحدهم سوف يعود ليحقق

سيادة العدل ، وقد ظهرت التوقعات بـ « المهدي » ميكر في تاريخ الاسلام ، ففي عام ٦٨٠ انتقل « الحسين » الابن الثاني لعل الى العراق مع مجموعة صغيرة من عشيرته واتبعه أهلا في تأمين دعم من الكوفة وما حولها ، لكنه قتل في معركة كربلاء بالعراق ، وأعطى موته قوة لذكرى الشهادة بين أتباعه (شيعة علي أو الشيعة) ، ويعد بضع سنوات كان هناك عصيان وتمرد لصالح « محمد بن الحنفية » وهو أحد أبناء علي من زوجة أخرى غير فاطمة *

وخلال العقود الأولى من القرن الثامن قام الحكام الأمويون بسلسلة من المحاولات للتعامل مع هذه الحركات المعارضة التي عبرت عن نفسها بأشكال مختلفة ، ومواجهة الصعوبات الملزمة لحكم مثل هذه الامبراطورية الهائلة غير المتجانسة، واستطاعوا تقوية وتدعيم الأسس المالية العسكرية لحكمهم ، وتعين عليهم مواجهة عدة حركات تمرد كبيرة ، وفي الأرمينية من القرن الثامن انهار حكمهم فجأة في مواجهة حرب أهلية جديدة وتحالف من الحركات ذات الأهداف المختلفة ، وإن وحدها العداء المشترك لهم ، كانت هذه الحركات أكثر قوة في شرق الامبراطورية منها في غربها ، وخاصة في خراسان بين بعض الجماعات البرية التي كانت على وشك اللوثان في المجتمع الإيراني وكذلك بين « الموالي » من الإيرانيين، كما ظهر في مناطق أخرى تعاطف وسيل وجداني شيعي(*) واسع الانتشار ولكن بلا تنظيم *

وقد ظهرت قيادة أكثر فعالية في فرع آخر من فروع عائلة النبي صلى الله عليه وسلم هي ذرية نسل عمه « العباس » الذين ادعوا أن ابن محمد بن الحنفية قد أولاهم حقه في الخلافة ، ومن موقعهم على حافة الصحراء السورية استطاعوا خلق تنظيم مركزه في الكوفة وأرسلوا مبعوثاً لهم مجهول الأصل الى خراسان وقد يكون إيراني الأصل هو « أبو مسلم الخراساني » الذي استطاع تشكيل جيش وتحالف من العناصر

(*) ليس كل من أحب آل البيت شيعياً ، والتفيع - بمعناه الاصطلاحي - لم يعد مجرد حب لآل البيت ، وإنما أصبح المصطلح ينطوي على نظام خاص في العبادة (لم تعد صلاة الجمعة في مراحل كثيرة عند الشيعة لغية الأمام) ، ولهم الصلاة بدون تسليم (أي قول السلام عليكم ورحمة الله ذات اليمين وذات الشمال) بالإضافة الى تفاصيل أخرى ، أما الشيعة الغلاة فقد خلطوا بين التوحيد الفاعل الذي هو السمة الرئيسية للإسلام وبين معتقدات من ديانات أخرى ، لكن المسار العام أصبح الآن هو التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة - (لراجع) *

المنشقة ومن العرب وغيرهم للتمرد والعصيان تحت الراية السوداء التي أصبحت رمزا لهذه الحركة ، وباسم أحد أفراد عائلة النبي (ص) ، ولم يذكر اسما محددا ، وبذلك استطاع تعزيز الدعم لهذه الحركة . واتجه هذا الجيش غربا واستطاع هزيمة الأمويين في عدة معارك بين (٧٤٩ - ٧٥٠ م) وطارد آخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني حتى مصر حيث قتل ، وفي نفس الوقت نودي بالقائد غير المعروف « أبو العباس » خليفة في الكوفة ولم يكن من نسل علي وإنما من نسل العباس .

وقد وصف المؤرخ الطبري (٨٣٩ - ٩٢٣) هذا الاعلان عندما اعتلى أخو أبو العباس داود درجات المنبر في الكوفة وخاطب المؤمنين قائلا :

« الحمد لله شكرا شكرا شكرا ، الذي أهلك عدونا ، وأصار الينا ميراثنا من نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس ، الآن انقسمت حنادس الدين وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من ميزجه ، وأخذ القوس ياربها ، وعاد السهم الى منزعه ، ورجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرافة والرحمة بكم والعطف عليكم .. وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون واليه تتشوفون ، فأظهر منكم الخليفة من هاشم وببيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام ، .. ، ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، وأشار بيده الى أبي العباس » (٢) .

الخلافة في بغداد

خلفت عائلة عائلة أخرى في الحكم واستبدلت سوريا كمركز لخلافة المسلمين لتحل محلها بغداد ، وكان نفوذ « أبو العباس » (٧٤٩ - ٧٥٤ م) وخلفائه الذين عرفوا بالعباسيين محدودا في دول شرق المتوسط وفي الحجاز التي كانت امتدادا لحكمهم بخلاف نفوذهم في المناطق الساسانية سابقا في جنوب العراق وواحات وهضبة إيران وخراسان والأراضي الممتدة وراءها حتى آسيا الوسطى ، وكان من الصعوبة على الخليفة أن يحكم المغرب ولكن المغرب كان أقل أهمية .

ولم يختلف حكم العباسيين عن حكم الأمويين الذين سبقوهم في نواح كثيرة ، ومنذ البداية وجدوا أنفسهم متورطين في مشكلة لا فكك منها حول

الأسرة الحاكمة الجديدة وكيف يمكن تحويل القوة المحدودة الناشئة عن تحالف المصالح المنفصلة الى شيء أكثر استقراراً وديمقراطية. لقد وضعوا الى السلطة على يد تركيبة من القوى اتحدت فقط في معارضتها للأمويين، وكان عليهم تجديد علاقات القوى ضمن هذا التحالف . وكان على الخليفة التخلص من أولئك الذين اتوا به الى السلطة أولاً وقبل كل شيء ، فقتل أبا مسلم وآخرين كما كانت هناك صراعات داخل العائلة نفسها ، وفي البداية اختير بعض أفرادها كولاة ولكن بعضهم تعاطفت قوته أكثر مما ينبغي ، وفي غضون جيل واحد ظهرت صفوة حاكمة من كبار المستقلين ينحدر بعضهم من عائلات إيرانية ذات تراث من الخدمة في الدولة ، ومن الذين أسلموا حديثاً وآخرون من أفراد بيت الحاكم كان بعضهم من العبيد المعتقين .

وقد تجلى هذا التركيز للقوة في أيدي الحاكم في عهد خلفاء « أبو العباس » خاصة « المنصور » (٧٥٤ - ٧٧٥ م) وهارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) في انشاء عاصمة جديدة (بغداد) وسجل الطبري واقعة حول زيارة المنصور لموقع العمل لانشاء مدينة المستقبل :

« ... فعبثت أنه أتى ناحية الجسر في موضع قصر السلام ثم صلى المص ، وكان في صيف ، وكان في موضع القصر بيعة قس ، ثم بات ليله حتى أصبح ، فبات أطيب مبيت في الأرض ، وأرفقه وأقام يومه ، فلم ير الا ما يجب ، فقال هذا موضع أبني فيه ، فانه تأتيه الماء من الفرات ، ودجلة ، وجماعة من الأنهار ، ولا يحمل الجند والعامة الا مثله ، فخطها وقدر بناءها ، ووضع أول لبنة بيده وقال بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله » (٣) .

كانت بغداد واقعة في نقطة يتقارب فيها دجلة والفرات ، حيث وفر نظام القنوات المائية ريفاً غنياً يكفي لانتاج الطعام لمدينة كبيرة . وكذا عائدات وإيرادات للحكومة ، وكانت واقعة على ممرات استراتيجيّة مؤدية الى إيران وما وراءها وإلى الجزيرة في شمال العراق حيث كانت تزرع الحنطة ، وإلى سوريا ومصر اللتين ظلتا على ولائهما للأمويين ، ولما كانت مدينة جديدة فقد تحرر الحكام من الضغوط التي يمارسها السكان العرب المسلمون على الكوفة والبصرة ، ووفقاً لتقاليد طويلة كان حكام الشرق الأدنى بمقتضاها متباعدين عن المحكومين ، فقد كان مخططاً للمدينة أن

تعبّر عن أبهة وسمو الحكام عن محكوميهيم ، وفي المركز على الضفة الغربية
للمسجلة كانت تقع «المدينة المستديرة» المكونة من القصور والشكنات والمكاتب
والأسواق وتقع خارجها المناطق السكنية .

يورد المؤرخ «الخطيب البغدادي» (١٠٠٢ - ١٠٧١ م) وصفا لمعظمة
القصر واحتفالاته في وصفه لاستقبال الخليفة المقتدر عام ٩١٧ م لسفير
بيزنطة . عندما أخذ الى حضرة الخليفة بناء على أوامره طاف به رجاله
القصر القاعات والأفنية والساحات والحدائق واستعرض الحصيان والموظفين
ورجال القصر وأمناء خزائن المال والأفيال المزركشة بالمقصب من حرير
الطوايس وفي غرفة الشجرة وجدوا :

شجرة في وسط بركة كبيرة ، مدورة فيها ماء صاف ، وللشجرة
ثمانى عشرة عينا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير
من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها
مذهب ، وهى تمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، تتحرك كما
يعرك الريح أوراق الشجر ، وكل هذه الطيور يصفر ويهدر .

وأخيرا وصلوا الى حضرة الخليفة :

ووصلوا الى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما على دجلة ،
يمد أن ليس بالثياب الديبقيّة المطرزة بالذهب على سرير ابنوس ، . . .
ومن يمينه السرير تسعة أخرى من أفخر الجواهر ، . . . وبين يديه
خمسة من ولده ، ثلاثة ميمنة واثنتان ميسرة (٤) . وعندما عادوا الى
حضرة الخليفة من هذه القصور المعزولة كان الخليفة يمارس سلطاته وفقا
للأنماط الموروثة من الحكام السابقين ، والتي قلدها الأسر التالية . قص
فخم واحتفالات وأبهة تميز حكمه ، ومستولو البلاط والحراس يحيطون به ،
ويقف الى جواره الجلاد لتنفيذ العدالة الناجزة السريعة . وفي فترات الحكم
الأولى ظهر منصب جديد مهما قويا بعد هو منصب الوزير ، كان
مستشار الخليفة بدرجات متفاوتة من السلطة والنفوذ ويعملها أصبح على
رأس الادارة ووسيطا بينها وبين الحاكم .

كانت الادارة مقسمة الى عدة وظائف أو دواوين وقدر لها أن تتكرر
في الأسر الحاكمة التالية فكان هناك ديوان لشئون الجيش وديوان لانشاء
المكاتب والوظائف بالشكل اللائق والحفاظ عليها وديوان لبيت المال

للاشراف على الخزانة وحفظ سجلات المصروفات والإيرادات ، ووال على رأس هيكل من المسئولين المنتشرين في رقعة واسعة لضمان ألا يحوزوا سلطة أكثر من اللازم أو يسيئوا استخدام السلطة المخولة لهم ، ونظام من الاستخبارات (*) وكلها جعلت الخليفة على علم بما يحدث في الولايات وظل هو وولاته يقدرون الاجتماعات العامة لسماع الشكاوى والمظالم وعلاجها .

وقد كان الحكم المطلق من خلال البيروقراطية بحاجة لإيرادات وجيش ، وقد ظهر في العصر العباسي النظام الدستوري (**) للضرائب والمكوس من خلال ما عرف عن العصور الإسلامية المبكرة ، وكان مرتبطا بالمعايير الإسلامية بقدر الإمكان ، وانقسمت الضرائب الأساسية إلى نوعين : أحدهما يستحق على الأراضي ومحاصيلها وهو الخراج ، وكان هناك نمايز بين معدلات وأنواع الضرائب التي يدفعها المسلم وغير المسلم من ملاك الأراضي وقد أصبح ذلك واقعا أقل أهمية إلا أنه ظل في كتب القانون ، وكان النوع الثاني هو الجزية ، وهي ضرائب على الرأس تفرض على غير المسلم وثروته وتندرج تقريبا حسب القدرة المادية ، إضافة إلى ذلك كانت هناك عدة مكوس على السلع المستوردة والمصدرة وكذلك على الحرف الحضرية وضرائب موسمية تفرض على الأموال في الحضر عند الحاجة وقد أدانها أولئك الذين التزموا حرفيا بالقانون الإسلامي .

وقد انقسم جنود خراسان الذين أعانوا العباس على الوصول إلى السلطة إلى مجموعات تحت إمرة قادة منفصلين ، ولم يكن سهلا على الخليفة

(*) توضح كتب الأخبار ومنها : نضوار الحاضرة وخيار المذاكرة ، للقاخي القنخري مدى خطورة أجهزة الاستخبارات العباسية وكيف أن الخبر كان ينتقل سريعا إلى الخليفة ، وأحيانا في غضون دقائق لا تزيد على الساعة إذا كان الخبر متعلقا بواقعة في داخل بغداد نفسها ، وأظن أن نظم الاستخبارات والمباحث ومستوى العذاب (صاحب العذاب) من الجنالات التي لم يتعرض لها المذنبون بشكل كاف - (المراجع) .

(***) Canonial System of الفس وللؤلف عله فهو يغاطب العقل الأديبي ، والجملة تعني مجموعة القوانين المرتبطة بمؤسسة دينية ، ومصطلح Canon law تعني القانون الكنسي ، ومن ثم فالمقابل العربي المفهوم هو النظام الخرجي (المستمد من أحكام الدين) والمتعلق بالمكوس والضرائب .. إلخ ، أما Law أي القانون فترجمتها في هذا السياق هي الشرعية ، لكننا أقرنا الأستاذ المترجم على ترجمته لأن المؤلف يريد أن يوضح لتأريخه الأديبي نظاما أساسيا ، ولا بأس من أن تأخذ بتبسيطه هذا كنوع من التضييق - (للمراجع) .

الحفاظ على ولائهم ، ولم يصحبوا القوة العسكرية الفعالة نتيجة اندماجهم في المجتمع السكاني في بغداد ، وبعد وفاة هارون الرشيد قامت حرب أهلية بين ولديه الأمين والمأمون ، وتوحد بالأمين خليفة وحارب جيش بغداد في صفه ولكنه هزم ، وفي بداية القرن التاسع أدى الاحتياج الى جيش فعال مخلص الى شراء العبيد أو استخدام الجند من القبائل الرعوية الناطقة بالتركية عبر حدود آسيا الوسطى ، ولكن هؤلاء الأتراك والجماعات المشابهة على حدود الحكومة المستقرة غرباء بلا روابط بالمجتمع الذي أعانوا على حكمه ، وهو مجتمع قام على علاقة تبعية قبلية وشخصية بالخليفة ، وكان دخول الجنود الأتراك في الخدمة العباسية بداية عملية أعطت شكلا مميزا للحياة السياسية في العالم الاسلامي .

فكان أن انتقل الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) بمأمنه من بغداد الى « سامراء » التي تقع الى الشمال على نهر دجلة ، وكان ذلك راجعا جزئيا الى رغبته في إبعاد الجند عن سكان بغداد الذين أصبحوا معادين لحكم الخليفة ، وظل مقر الحكم هناك لنصف قرن ، ولكن برغم أنه تخلص من الضغوط الشعبية الا أنه سقط تحت تأثير قادة الجند الأتراك الذين سيطروا على حكومة الخليفة ، وكانت تلك الفترة التي استقل فيها حكام الولايات النائية من الامبراطورية عليا ، وفي العراق نفسها كانت سلطة الخليفة مهددة بفتنة دامت طويلا قام بها العبيد السود في مزارع السكر والمستنقعات الملحبة جنوب العراق عرفت بثورة الزنج (٨٦٨ - ٨٨٣ م) . وبعد بضع سنوات وفي عام ٨٩٢ م عاد الخليفة المعتضد الى بغداد .

وكما تباعد الخليفة وتزايدت قوته ، تزايدت أهمية أن يفرس جنود قوته في وجدان أولئك المحكومين ، وقد حاول العباسيون بصورة أكثر تنظيما من الأمويين تسويغ حكمهم بشكل اسلامي ، وقد اعتمدوا منذ البداية على رموز اسلامية ، فادعى الخليفة الحكم بالسلطة الالهية المقدسة (*) باعتباره أحد أفراد عائلة النبي صلى الله عليه وسلم . كذلك

(*) الادعاء بالحكم بتقويض الهى بنا الى الواقع منذ ايام بنى امية ويتضح ذلك من خلال الحوار المشهور بين ابي نر الفارسي (جناب بن جنادة) وجماعته من ناحية ، ومعاوية بن ابي سفيان واتصاره من ناحية اخرى ، فقد كان ابو نر يرى أن المال هو مان المسلمين ومن ثم يجب استنفار المسلمين في انفاقه ، وكان معاوية يرى أن المال هو مان (حال الله) وهو مفوض من قبل الله في انفاقه ومن ثم فلا يحق للمسلمين في محاسبته . ورغم أن الفرق بين العبارتين (حال المسلمين) (ومال الله) يبدو شكليا الا انه ينطوي على ابعاد فكرية مهمة خاصة في مدى سلطة الحاكم - (المراجع) .

ادعى بأنه يحكم وفقا للقرآن وقواعد السلوك القويم والتي عرفت بشكل متزايد طبقا لأقوال وعادات للنبي صلى الله عليه وسلم (السنة) ، وقد نتج عن هذا الادعاء أن لعب علماء الدين والفقهاء دورا في الحكم ، وكانت لمصنبي القاضى أهمية كبرى ، ومهامه منفصلة عن وظائف الوالى ، ولم تكن له واجبات مالية أو سياسية فكان دوره الفصل فى النزاعات واصدار الأحكام فى ضوء ما بدأ ظهوره كنظام للقانون الإسلامى أو الأعراف الاجتماعية . وكان لقاضى القضاة مقام رفيع ذو أهمية فى الهرم الإدارى للدولة .

وتعين على العباسيين الأوائل لتأكيد دعواهم بشرعية حكمهم ، مواجهه فرع آخر من عائلة النبى صلى الله عليه وسلم هو سلالة على وأبناءهم من الشيعة ، ولم يكن كل الشيعة معادين للعباسيين ، فجعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥ م) الذى يعتبره الشيعة الإمام السادس كان مسالما ، علم أتباعه المقاومة السلبية الهادئة التى يجب أن تستمر حتى يظهر المهدي الذى سيرسله الله ليحكم بالدين والحق . وعلى أية حال ، فى فترة الجيلين الأولين من حكم العباسيين ظهرت عدة حركات عصيان تستخدم أسماء من أسرة الإمام على مما دفع المأمون بن هارون الرشيد للقيام بمحاولتين لتدعيم حكمه واكسابه الشرعية، فقد جعل من على الرضى (*) أكثر أفراد عائلة النبى صلى الله عليه وسلم استحقاقا للخلافة ، فإن كانت الخلافة بالاستحقاق الأخلاقى داخل العائلة ، فبشكل عام يكون نسل « عباس » على نفس القدر من الاستحقاق كنسل « على » ، وبهذا أعطى المأمون دعمه لأفكار بعض علماء الدين العقلانيين ، وحاول جعل موافقتهم شرطا للخدمة الرسمية . وقوبلت هذه المحاولة بمعارضة من علماء الدين بقيادة أحمد بن حنبل الذين أعلنوا أن فى القرآن وسنة الرسول هديا كافيا إذا اتبعت حرفيا ، وبعد فترة من الاضطهاد والتعذيب انتهت محاولة فرض معيار واحد للإيمان بقوة الحاكم ، وهكذا لم تمع بعدها وحدة الاعتقاد لاستيعاب الخلافات فى الآراء القانونية ، وكان من شأن اعتماد أهمية القرآن والسنة النبوية قاعدة ثابتة أن ظهر بالتدريج نمط من الفكر عرف بعدها بالسنة متميزا عن الشيعة .

(*) على الرضى هو على بن موسى الكاظم ، زوجه المأمون ابنه وأخيه من أمه الذى هو العباسى الذى هو السواد فجعله أخضر وهذا اللون الأخير هو شعار آل البيت وعهد المأمون له بالخلافة بعده لكن ذلك أدى الى فوضى واضطرابات ، وفى الوقت نفسه مات على الرضى بطريقة غامضة ويقال أن المأمون دس له السم . ابن خلكان : وفیات الأعيان ، الزركلى : الأعلام .

(المراجع)

الفصل الثالث

مجتمع يتشكل

نهاية الوحدة السياسية

كان نطاق الحكم الفعال للخلافة العباسية محدودا حتى في أقوى عهودها ، وتركز أساسا في المدن والمناطق المنتجة حولها . وكانت هناك مناطق من الجبال والسهوب غير خاضعة له بالفعل ، وبمرور الوقت وقعت سلطة الخليفة فريسة للتناقضات مع النظام البيروقراطي المركزي للحكومة . وكان على الخليفة أن يعطي السلطات والصلاحيات لولائه للسيطرة على الأقاليم الثابتة لجباية الضرائب واستخدام جانب من إيراداتها في الاتفاق على القوات المحلية ، وحاول السيطرة عليهم بنظام من الاستخبارات ولكنه لم يستطع منع بعضهم من تعزيز نفوذهم الى درجة أنهم استطاعوا أن يورثوا السلطة لنوهم ، وإن ظلوا باقين - على الأقل من ناحية المبدأ - على الاخلاص للمصالح الرئيسية للخليفة ، وبهذه الطريقة تنامت العائلات الحاكمة كالصفارين في شرق إيران (٨٦٧ - ١٤٩٥ م) والسامانيين في خراسان (٨١٩ - ١٠٠٥ م) والطولونيين في مصر (٨٦٨ - ٩٠٥ م) والأغالبة في تونس (٨٠٠ - ٩٠٩ م) ، ومن تونس قهر الأغالبة صقلية التي حكمتها أسر عربية حتى استعادها النورمانيون في النصف الثاني من القرن الحادى عشر ، وحينذاك قلت عوائد الإيرادات الى بغداد في وقت تدهور فيه نظام البرى وانخفض الانتاج الزراعى في جنوب العراق نفسها ، وكان على الخليفة الاعتماد بشكل أكبر على جيشه من المرتزقة والمحترفين لتقوية وضعه في المحافظات الوسطى واللى كان قادته بدورهم قد اكتسبوا المزيد من القوة والسلطة ، وفي عام ٩٤٥ استولت عائلة من القواد العسكريين البويهيين (بنى بويه) *Buyids* ، الذين نزحوا من حدود بحر قزوين ، على السلطة في بغداد نفسها بعد أن دانت لهم بعض المحافظات .

وقد اتخذ البويهيون Buyids لأنفسهم عدة القاب منها القاب الايراني المتيق الشاهنشاه (ملك الملوك) ولكنهم لم يتخذوا لقب الخليفة وظل الحكم العباسي باقيا بعد ذلك وثلاثة قرون ولكنها كانت مرحلة جديدة من تاريخهم ، منذ ذلك الحين أصبحت السلطة الفعلية في المناطق الوسطى من الامبراطورية في ايدي عائلات أخرى تؤيدها مجموعات مسلحة ، وإن ظلت على ولائها للخليفة العباسي الذي كان ينجح أحيانا في فرض بقايا سلطاته والتي أصبحت تمارس على مناطق محدودة عن ذي قبل ، وفي بعض الأجزاء من الامبراطورية كان للحكام المحليين قوتهم الذاتية علاوة على عدم قبولهم للسلطة الشكلية للعباسيين .

وقد نشأت في مناطق معينة حركات انفصالية باسم بعض العنوت الإسلامية ، وأوجدت هذه الحركات بعض الوحدات السياسية المنفصلة ولكنها ساعدت في نفس الوقت على انتشار الإسلام بإعطائه اشكالا لا تهدد النظام الاجتماعي .

وكانت بعض هذه الحركات باسم الخوارج أو على الأقل أحد روافدها وتسمى (الإباضية) تعتقد بأن الحكم أو الإمامة يجب أن تكون لأكثر الناس استحقاقا ، وإذا ثبت عدم استحقاقه يجب أن ينحى وكان هذا الاعتقاد مناسباً وملاماً لاحتياجات الجماعات القبلية التي تعيش في مناطق متعزلة وتحتاج لزعيم أو قاض من وقت لآخر ، ولكنهم لم يكونوا راغبين في أن تكون له سلطة منظمة دائمة ، وبهذا ظهرت امامة إباضية في عمان في جنوب شرق الجزيرة منذ منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن التاسع عندما أخضعها العباسيون ، وفي جزء من المغرب عارض بعض السكان البربر دخول الحكم الإسلامي ، وعندما أسلموا انتشرت بينهم أفكار الخوارج وكانت هناك سلالة قوية من الإمامة الإباضية لفترة وهي (الرستميون) وكانت عاصمتهم في « تهاوت » في غرب الجزائر (٧٧٧ - ٩٠٩ م) واعترف بدعوتهم الإباضية في « عمان » .

كانت حركات تأييد مطالبات نسل على بن أبي طالب بالإمامة أكثر انتشارا ، لكن الجزء الأساسي من الشيعة في العراق وما حولها قبلوا بالحكم العباسي ، أو على الأقل رضخوا له ، واعترف به الأئمة وعاشوا بعده تحت حكم العباسيين ، رغم أنهم في بعض الأحيان كانوا محددي الإقامة داخل العاصمة ، وكان « بنو يويه » من غلاة الشيعة ، ولكنهم لم ينازعوا سيادة الخلفاء ، كما لم ينازع الحمدانيون - وهم من أسرة محلية في شمال سوريا - الخلفاء العباسيين ، في حق الخلافة .

ورغم ذلك كانت هناك حركات من الشيعة التي أدت إلى ظهور بعض
الجماعات المستقلة. وقد يقولون الذين كانوا على الاعتقاد بأنهم إنما يجب أن
يكونوا أكثر أفراد أسرة النبي صلى الله عليه وآله وعلى استبعاد كل ما رتبته الأنعام غير
النبي صلى الله عليه وآله من غير فرق بين الأنعام من جهة البلق لبلو (ص ١٢٧، ١٢٨) فوالله
أكثر من شبه أخوية الشيعة كالإمام الخامس نزل كتبهم أعرفوا به بأخبارهم ومذهبهم
والله يعلم. يعود أصل تسمية الطائفة الزيدية من الشيعة (١) فالتفرقة أمارة على
الذين في القرن التاسع كما كانت هناك أيضا أمارة زيدية في منطقة
بغداد قرويين

وكان التهديد المباشر لحكم الباسيين يأتي من الحركات المرتبطة بفرع آخر من الشيعة «الإسماعيلية» ، وأصولها غير واضحة على وجه التحديد ، ولكن يبدو أنها بدأت كحركة إسلامية كبرى في حجاز الإيفرغيا العراق وخراسان في جنوب غرب إيران ، ثم في سوريا وبقية أقاليم هذه الحركة دعوى اسماعيل ، الابن الأكبر للامام جعفر الصادق ، بالإمامة ويعتبره أغلبية من الشيعة الإمام السادس ، وتولى اسماعيل في ٧٦٠م قبل وفاته ، ابنه يحيى ، سنوات ، وانضم إليه جملة الشيعة في هذه الفترة ، فباعه موسى الكاظم (توفي ٧٤٧م) ، إمامهم ، إلى قتلهم في بلاد فارس ، وأصل تسمية اسماعيل بكيفية أبيه قطعي وغير قابل للنقض أو الطعن ، وأن ابنه مجتهد أصبح معلما من بعده ، وهو متفقون أيضا أن مجتهدا آخرين ، والذين لا يزالون يعملون كبهنة ، ينظر إلى اكتشاف الجاني الإبراهيمية الجديدة للحركة ، التي تسمى بالحكم للمسلم بالصدر

وقد نظمت الحركة أنشطتها تبشيرية (*) على نطاق واسع وأسسَتْ
إحدى الجمعيات من أعضائها نخوة من الجمهورية التي اشتركت الجزائر، العربية
(بالقرابة) كمجموعة لأغراضها، وبمحت تلبية لها على المغرب وجيشه، جناباً
إبرير واجتلت القروان. وفي عام ١٩٠٤م وصل إلى تونس (عبيد الله)
مدعي الحاد، من قبله على ولايته، وأعلن نفسه خليفة في وختلال
نصف القرن التالي أسست عائلته أسرة حاكمة مستقرة عرفت بالفاطمين
نتيجة إلى فاطمة بنت النبي، صلي الله عليه وسلم، وتولت كتابات دينية
وتعليمية، بمجهودها شرفاً إلى الألفي العباسيين وفي عام ١٩٠٩م احتلها حضرة

(*) المصطلح المستخدم في كتب التاريخ الإسلامي هو الدعوة الإسلامية، ولكن المؤلف يوسع المفهوم ليشمل الفريسيين، ولأن اليهود لا يفتخرون بالدعوة الإسلامية، فقد اقتربنا إلى الترجمة على ترجمته - (المراجع).

ومنها امتد حكمهم الى غرب الجزيرة العربية وسوريا ، ولكنهم سرعان ما فقدوا تونس .

وقد استخدم الفاطميون اللغظين « الامام » و « الخليفة » ، ولكونهم ائمة فقد طالبوا بالسلطة الروحية والزمنية على المسلمين وأصبحت دولتهم مركزا لانطلاق البعثات التبشيرية ، وقد استمرت المجتمعات ، التي أسسها أولئك الذين كانوا على علاقة بها ، لفترة طويلة بعد انتهاء الدولة الفاطمية ، وظلت قائمة باليمن وسوريا وايران وبعدها في غرب الهند .

ولم يكن الفاطميون ائمة فقط ، ولكن حكاما لدولة عظيمة مركزها وادي النيل ، وهم الذين بنوا القاهرة ، وهي مدينة كبيرة مهيبة بنيت الى شمال القسطنطينية وكانت رمزا لقوتهم واستقلاليتهم ، وسارت حكومتهم على الخطوط التي وضعها الخلافة في بغداد ، وكانت السلطة مركزية في ايدي الخليفة ، وتتجلى في روعة وأبهة الرسميات والقرىبات المتقنة ، وكان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يظهروا للشعب في القاهرة في مواكب احتفالية مهيبة ، حيث يدخل كبار رجال الدولة الى ساحة القصر ، ثم يظهر الخليفة من خلف الستائر حاملا في يده الصولجان ، وقد يمتطي جواده متجها الى بوابة القصر حيث يحضر الفقير والابواق تتقدمه وتبعه العاشية والجنود ، فيضي خلال الطرقات التي زانها التجار بالانسجة الحريرية الموشاة ، وكانت هذه المواكب معبرة عن مظاهر الحكم الفاطمي ، بعضها كان دينيا وبعضها يرمز الى الصالح الحاكم في حياة المدينة والنهر .

وقد كانت الموائد من الأراضي الخصبة في وادي ودلتا النيل ، والحرف في المدينة ، والتجارة من خوض المتوسط وخوض البحر الاحمر ، أساس سلطة الفاطميين ، وكان ذلك كافيا للاتفاق على الجيش المشكل من خارج ، مفر من البربر والزنوج والعبيد السودانيين والأتراك ، ولم يبدل الخليفة محارلات منقطة للزحف الملعب أو العقيدة الإسماعيلية على المصريين المسلمين ، فظن أغلبهم من السنة يسيقون مع أعداد كبيرة من المسيحيين واليهود في تكافل وتبذل .

وكانت مطالبات الفاطميين بالخلافة تتشكل تهديدا مباشرا للمسيحيين ، وكان هناك آخر للفاطميين جاء من أقصى غرب العالم الاسلامي ، من تلك المناطق التي فتحتها البربر ، أي مراکش والجزء الأكبر من إسبانيا ، فقد كانت السيطرة عليها من شرق المتوسط صعبة ، كما

كانت مستحيلة من جهة العراق وسمرعان ما أصبح للجند والمسلحين العرب مصالحهم الخاصة ، وكان بإمكانهم التعبير عنها بسهولة بأحياء ذكريات البواعث التي حملتهم بعيدا عن الجزيرة العربية ، وقبيل نهاية القرن الثامن انتقل «ادريس» أحد أحفاد «علي» الى مراكش حيث اكتسب تأييدا وأسس أسرة حاكمة أصبحت مهمة في تاريخ مراكش ، فالادريسيون هم أول من أوجدوا «الطربوش» وبدؤوا به تقليدا ، ظل حتى اليوم ، وهم من الأسر الحاكمة المستقلة التي حكمت مراكش واكسبت حكمها الشرعية بادعاء انحدرهم من نسل النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان المسار المنفصل الذي اتخذته أسبانيا أو الأندلس باللغة العربية هو الأكثر أهمية لتاريخ العالم الإسلامي ككل ، فقد وصل العرب الى أسبانيا للمرة الأولى في عام ٧١٠ م ، وسمرعان ما أسسوا اقليما تابعا للخلافة امتد حتى شمال شبه جزيرة (إيبيريا) ولحقته به العرب والبربر الذين كانوا أول المستوطنين ، وجاءت موجة ثانية من سوريا لعبت دورا مهما في أعقاب الثورة العباسية ، اذ استطاع أحد أفراد العائلة الأموية اللجوء الى أسبانيا حيث جمع أنصارا وبدأ في إنشاء أسرة أموية جديدة حكمت لثلاثة قرون ، رغم أن الحاكم لم يكتسب لقب الخلافة الا في منتصف القرن العاشر .

وقد انغمس الأمويون في ملكيتهم الجديدة في نفس عملية التغيير التي حدثت في الشرق حيث حكم المسلمون أغلبية من غير المسلمين ، ثم تغير تدريجي الى مجتمع قبل أغلبية سكانه دين الحكام ولغتهم وتحولت الحكومة التي حكمت في البداية بشكل لا مركزي وبالمناورات السياسية ، الى حكومة مركزية قوية تحكم بالسيطرة البيروقراطية .

ومن جديد ظهرت عاصمة جديدة هي قرطبة وتقع على نهر الوادي الكبير ، وقد وفر النهر طريقا مائيا لجلب بضائع الأغذية والصناعة ، وعلى السهول من حوله كانت تزرع الحنطة والمنتجات الأخرى التي تحتاجها المدينة في الأراضي التي يروها النهر ، وكانت قرطبة أيضا ملتقى للطرق والأسواق لتبادل السلع بين المناطق ، ومرة أخرى يتزايد استبعاد الأسرة الحاكمة وتنسحب من حياة المدينة وينتقل الحاكم من قرطبة الى مدينة ملكية هي « مدينة الزهراء » خارج العاصمة ، وهناك سيطر على الدولة محاطا بالمجموعة الحاكمة التي ضمت عائلات عربية ومستعربة - فلم يكن انفصال الحاكم عن المجتمع كبيرا كما كان الحال في بغداد - كما ضمت

تسولة عناصر من العبيد المستقدمين من منطقة البحر الأسود وإيطاليا وغيرها ، وكذلك كان الحال في الجيش الذي كان له من المرتزة من الخارج ، رغم أنه ضم أيضا العرب والبربر الذين استقروا في البلاد مقابل الخدمة العسكرية .

وقد استخدم الأمويون من سكان المدن ذوو الأصول الحجازية نفوذهم لرعاية مصالح المدن والريف المستقر ، ولتت المدن بدءا بقرطبة وبعدها إشبيلية تدعمها الأراضي القسائية للري وكانت تفل عائدا طيبا بفضل التقنيات المستوردة من الشرق الأدنى . وقد استمرت هجرة البربر من المغرب إلى إسبانيا زمنا أطول من هجرة العرب من الشرق ، وربما فاقت أيضا أعدادهم العرب ، وقد تحول جزء من السكان الأصليين إلى الإسلام ، وأصبح معظم سكان الأندلس من المسلمين قرب نهاية القرن العاشر ، ولكنهم عاشوا جنبس إلى جنب مع أولئك الذين لم يسلموا من المسيحيين وتعداد لا يستهان به من اليهود الحرفيين والتجار ، وقد ألف تسامح الأمويين حيال اليهود والمسيحيين بين هذه المجموعات المختلفة ، بالإضافة إلى انتشار اللغة العربية التي أصبحت لغة الغالبية بين فيهم المسيحيين واليهود . وبحلول القرن الحادي عشر كانت عوامل التسامح الديني واللغة المشتركة وتراث طويل من الحكم المستقل قد ساعدت على خلق وعي أندلسي ومجتمع متميز تنامت ثقافته الدينية الإسلامية على محاور مختلفة عن تلك التي تطورت في الدولة الفرقيية وأصبحت ثقافتها اليهودية أيضا مستقلة عن تلك التي سادت في العراق التي كانت المركز الرئيسي للحياة الدينية اليهودية آنذاك .

ولم يكن لقب الخلافة الذي اتخذته « عبد الرحمن الثالث » (٩١٢ - ٩٦١ م) مجرد تعبير عن حكم ومصالح الأسرة الحاكمة ، ولكنه كان أيضا تعبيرا عن الهوية المستقلة للأندلس ، وقد مثل حكمه قمة استقلال الأمويين وقوتهم في إسبانيا ، وسرعان ما تفتت مملكتهم إلى عبيد من الممالك الصغرية حكمتها أسر من البربر أو العرب ، فيما عرف ببلوك الطوائف ، في تطورات شبيهة بتلك التي كانت تجري في الدولة العباسية .

مجتمع موحد : الأسس الاقتصادية

لم يكن غياب الهيكل الموحد للدولة في الشرق والغرب علامة على ضعف اجتماعي أو ثقافي ، فقد أصبح هناك عالم إسلامي تجمعه روابط كثيرة ، وله العديد من مراكز القوة والثقافة الرفيعة .

في حينه خلق إستيعاب كل هذه المساحة داخل إمبراطورية واحدة وحدة اقتصادية مهيمنة ، ليس فقط من حيث الحجم ولكن لأنها ربطت بين حوضي بحرين عظيمين من العالم المتمدن ، حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندي ، وأصبحت تحركات الجيوش وحركة التجارة والحرفيين وطلاب العلم والحجيج فيما بينها أكثر سهولة وكذلك انتقال الأفكار والأساليب والتقنيات ، وفي هذا المحيط الهائل من التفاعلات ، كان من الطبيعي أن تنشأ حكومات قوية ومدن كبيرة وتجارة دولية وريف مزدهر ومثمر ، وفرت جميعها شروط الحياة والنماء لبعضها البعض .

وقد أدى قيام الإمبراطورية الإسلامية ثم ما تلاها من الدول داخل حدودها السابقة ، إلى نمو المدن حيث القصور والحكومات وسكان الحضر الذين يحتاجون إلى المواد الغذائية والمواد الخام للصناعة وأدوات الرفاهية والفخامة لاستعراض الفنى والقوة ، وقد أدت التغيرات والتعقيدات في حياة المجتمع إلى الرغبة في المستحضرات الجديدة ومحاكاة أنماط القوة أو أنماط القراية ، وأعطى الطلب على التحضر والسفولة النسبية للاتصالات اتجاهات جديدة وطرق تنظيم جديدة للتجارة البعيدة المدى التي كانت موجودة من قبل ، ولم يكن نقل التجارة شخصية الحجم وخصخصة الثمن لمسافات طويلة أمرا مريحا ، وتعين على المدينة الاعتماد على المناطق المتاخمة لها ، ولكن بالنسبة لسلع معينة كان من المجزئ أن تنقل لمسافات طويلة ، كالفلفل الأسود والبهارات الأخرى والأجبار البقية والأقمشة الفاخرة والفخار ، وكانت كلها من الهند والصين ، والفسراء البني يأتى من بلاد الشمال ، في حين كان يرسل في مقابلها المرجان والعاج ، ولم تكن مدن الشرق الأوسط مستهلكة فقط ، وإنما منتجة أيضا وصانعة للسلع المصدرة ، وكذلك لاستهلاكها المحلي ، وكان بعض الإنتاج يجرى على نطاق واسع ، مثل صناعات التمنليخ للحرب في ترسانات الدول ، والأقمشة الفاخرة للقصور ، وتكرير السكر ومصانع الورق ، ولكن معظمها كان ينتج في ورش صغيرة للمنسوجات والأشغال المنزلية .

وقبل وجود السكك الحديدية وبعدها السيارة في العصور الحديثة كان النقل المائي أقل تكلفة وأكثر سرعة وأمنا من النقل البرى ، وكان من الضروري أن تكون المدن الكبيرة إلى جوار بحر أو نهر صالح للملاحة ، كما كانت الخطوط الرئيسية للتجارة البعيدة المدى أيضا بحرية ، وخاصة طرق المحيط الهندي في ذلك الوقت ، وخلال حكم المباسمين كانت المراكز الأساسية المنظمة للتجارة على هذه المسارات الطويلة ، هي « البصرة » في

جنوب العراق ، و «سيراف» على الساحل الإيراني للخليج ، وكانت الاثنان تحت سيطرة المبانين وفي وضع يسمح لهما بالوفاء باحتياجات العاصمة . وبحلول القرن العاشر كان هناك تحول مهم للتجارة من الخليج الى البحر الأحمر بفعل تزايد أهمية القاهرة كمركز للتجارة والقوة وتصاعد الطلب من الميناء التجارية الإيطالية . ولكن ذلك لم يكن سوى مجرد بداية .

فمن البصرة وسيراف كانت التجارة التي قام بها الإيرانيون والعرب . أو التجار اليهود الى الشرق تبحر على سفن عربية الى موانئ جنوب شرق آسيا أو ماوراءها وقد وصلت مرة الى الصين ، ولكن فيما بعد القرن العاشر لم يصلوا لأبعد من موانئ جنوب شرق آسيا ، وأبحروا أيضا جنوبا الى جنوب وغرب الجزيرة العربية وشرق إفريقيا ، ومن البصرة كانت البضائع تنتقل عن طريق النهر الى بغداد ثم بالطرق الصحراوية السورية الى سوريا ومصر ، أو من خلال الأناضول الى القسطنطينية وطرابزون أو عن طريق البحر الكبير الذي يصل بين بغداد وتيسابور في شمال شرق إيران ، ومنها الى أواسط آسيا والصين ، وعلى مدى مسافات طويلة كانت البضائع تنقل على ظهور الجمال غالبا في قوافل منظمة ، وفي المسافات القصيرة على ظهور البغال والخيول . وقد اختلفت الطرق عن طريق العربات بعد ازدهار الامبراطورية السلجوقية في معظم مناطق الشرق الأدنى ولم يستخدم ثانية حتى القرن التاسع عشر ، ولذلك أسباب متنوعة ، منها تدهور الطرق الرومانية واهتمام الجماعات العربية الحاكمة الجديدة بتربية الجمال حيث كان النقل على ظهور الابل أكثر اقتصادا من استخدام العربات .

وقد كانت بدايات التجارة في البحر المتوسط خطيرة ومحدودة :

ولم تكن أوروبا قد استعادت عافيتها بعد أنها يمكنها من الانتاج الوفير من أجل التصدير أو الاستهلاك المحلي الكبير . وحاولت الامبراطورية البيزنطية لفترة أن تحد من القوة البحرية العربية أو التجارة المنقولة بحرا . وقد كان أهمها تلك المتجهة على طول الساحل الجنوبي ، وتربط أسبانيا والمغرب مع مصر وسوريا وتونس كمركز للتوزيع وعلى طول هذا المسار نظم التجار - وأغلبهم من اليهود - تجارة الحرير الأسباني والذهب المستجلب من غرب إفريقيا والمعادن وزيت الزيتون ، وأصبحت التجارة مع البندقية وأمالفي أكثر أهمية في القرن العاشر .

لا يمكن للحكومات القوية أو المدن الكبيرة أن تعيش بلا ريف خصب منتج . كما إن الريف من ناحيته لا يمكن أن يزدهر بلا حكومة قوية ومدن للاستثمار في الإنتاج ، وقد تمت طبقة جديدة من ملاك الأراضي في البلاد التي فتحها العرب وخاصة تلك التي هاجرت إليها جاليات عربية كبيرة ، وكانت تلك الأراضي هي التي صودرت من الملاك السابقين والتي كانت رسمياً تابعة للحكام ومنحت للعرب مع إلزامهم بدفع الضرائب ، وبمهما في القرن العاشر بدأ التوسع في نظام جباية الضرائب ، وبمقتضاها كانت الجباية على الأراضي تسند للمستولين أو قادة الجيش ، الذين أصبحوا بموجب هذا النظام، ملاك الفعليين للأرض وبات من صالحهم تنمية الانتاج ، واستمر معظم المزارعين الذين كانوا موجودين في الأرض أصلاً في زراعتها إلا أن بعض الفلاحين الرعاة هاجروا منها ، وقد عبرت هذه الدلائل عن علاقة مشاركة في المحاصيل بين حائزي الأراضي والمزارعين بشكل أو بآخر ، فبعد دلع الضرائب يقسم البتاج من المحصول بالنسبة المتفق عليها بين من شساركوا بتقديم الأرض والبلور والحيوانات وأولئك الذين قاموا بالعمل ، وكانت هناك ترتيبات أكثر تعقيداً بالنسبة للأراضي التي تحتاج إلى رى أو تلك التي تزرع أشجاراً .

وكان بإمكان حائزي الأراضي الذين جمعوا الأموال من التجارة أو من طرق أخرى استخدامها في الانتاج الزراعي وجلب تقنيات جديدة وبروس الأموال المتاحة ، وهناك دلائل على أن توسع الإمبراطورية الإسلامية جلب محاصيل جديدة أو على الأقل زاد مما هو موجود بالفعل ، وعموماً كان اتجاه الحركة غرباً من الصين أو الهند براً حتى إيران ومنها إلى حوض المتوسط حيث بدأت زراعة الأرز وقصب السكر والقطن والبطيخ والبادنجان والموالح : البرتقال والليمون ، وكلها كانت تزرع في مساحات واسعة . واحتاج بعض هذه المحاصيل إلى استثمارات كبيرة في الري وتحسين الأراضي ، وتم تجديد أعمال الري القديمة ومنها تلك المعروفة في جنوب العراق ونقلت أيضاً أعمال جديدة ، وامتدت الحركة إلى الغرب لتظهر في إسبانيا التي عرفت الناعورة (الساقية) من سوريا والتقنيات المدفونة من إيران ، وأدخلت أنماط أخرى جديدة من الدورة المحصولية .

بمثل هذه التحسينات تزايد الفائض الزراعي بالإضافة إلى تنامي الصناعة والتجارة مما زاد من أهمية المال في اقتصاد الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط . وقد مكن تنامي نظام نقدي عالمي متعارف عليه ، وتدفق المعادن النفيسة خاصة الذهب الأفيقي إلى أراضي الخلافة ، من التوسع في سك

النقد ، وظل الدينار الذهب العباسي لعدة قرون عملة للتبادل . وقد عثر على عملات فضية اسلامية في بلاد اسكتلندا ويا و غايات و ريتشود في شمال اسكسورد ، ولقد ارتبط نظام الائتمان بعملية سك النقود ، فالتجار الكبار كانوا يقومون بحفظ ودائع مقابل قروض وكذلك بإمكان المقرضين وجامعي الضرائب استخدام النقد المتراكم لديهم في عمليات الاقراض ، وكان بإمكان كبار التجار الذين لهم عملاء أو مراسلون في أماكن أخرى أن يسحبوا الفواتير عليهم أو يصدروا خطابات الائتمان .

ولم يكن ممكنا تواجد مثل هذا الاقتصاد الواسع المفتوح بدون نظام من الاتفاق المشترك بين المتعاملين ، أو دون اتصال شخصي أو سابق معرفة ؛ إلا أن الروابط الأسرية مكنت من تغطيتها في بعض الحالات ، فعلى سبيل المثال هناك حالة اليهود الذين كانوا يسافرون في البحر المتوسط وما وراءه في بلاد اسلامية أو مسيحية . ولولا وجود هذه الروابط لاحتاج الأمر إلى قوانين أو أعراف من الأخلاق الاجتماعية المتفق عليها بشكل عام - وبنفس الطريقة احتاج حائزو الأراضي والمزارعون إلى قواعد واضحة ومقبولة للملكية - وتوزيع الناتج والضرائب والعقود في المياه والأشجار والمعادن تحت الأرض . وعليه تطلبت العلاقات الاقتصادية نظاما عاما للسلوك وأصبح ذلك ممكنا بتحول غالبية سكان المناطق التي يحكمها المسلمون ليصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وكذا بتأثير الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم على الحياة الاجتماعية .

وحدة العقيدة واللغة

ليس من السهل معرفة الكثير عن المراحل التي مرت بها الشعوب المعنية خلال تحولها للإسلام ، ولكن الدراسة حول الأسماء الإسلامية تعبر عن حجم عمق ولا بأس به ويبدو مقبولا (١) وطبقا لتقديرات هذه الدراسة ، فإنه بنهاية العصر الأموي (أي منتصف القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي) كان أقل من ١٠٪ من التعداد السكاني في العراق وإيران وسوريا ومصر وقوس وأسبانيا من المسلمين . ولكن النسبة كانت أكبر بكثير في الجزيرة العربية ، فبخلاف القبائل العربية التي كانت موجودة في إيران وسوريا قبل الفتح الإسلامي فإن معظم حالات اعتناق الدين الإسلامي كانت بين المستويات الدنيا للمجتمع ، مثل الجنود من أسرى المعارك أو المسلولين من الحكومة الساسانية الذين ضموا تحت إمرة الحكام الجدد ، ولم تكن هناك ضغوط أو حوافز إيجابية أمام

الأخرين للتحويل الى الاسلام . وكان معظم من تحولوا للإسلام يعيشون في المراكز الحضرية الرئيسية للسكان العرب حيث السلطة العربية أو بالقرب منها ، وهناك نشأت بواكير المؤسسات الإسلامية المحددة مثل المسجد والمحكمة وأصبحت تلك المدن في العراق وإيران والقيروان في أفريقيا وقرطبة في أسبانيا مراكز للاشعاع الإسلامي .

وبنهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تغيرت الصورة وأصبح جزء كبير من السكان مسلمين ، لا مسكان المدن فقط وإنما أيضا نسبة ملحوظة من سكان المناطق الريفية . كان أحد الأسباب هو أن الإسلام أصبح أكثر وضوحا وتحديدا ، وتجلت الخطوط الفاصلة بين المسلمين وغير المسلمين ، وأصبح المسلمون يعيشون في نظام محدد من الشعائر والمذاهب والمقيدة والقانون والشرعية وكلها مختلفة بشكل واضح عن تلك التي يعتقد بها ويمارسها غير المسلمين ، وكانوا أيضا أكثر وعيا بنواتهم كمسلمين . أما وضعية المسيحيين والزرادشتيين فكانت أيضا محددة بشكل واضح . وإن كانت في مرتبة أدنى من بعض النواحي ، فكان المسلمون يقربون أولئك الذين يعيش اليهم الرسل أهل كتاب أو أهل ذمة (الدميون) وهم الذين أقرمت معهم موائيق (أو ما يسمى بمعهد عمر) وبشكل عام لم يكونوا مجبرين على اعتناق الإسلام ولكنهم عانوا من بعض القيود ، فقد تحيلوا ضرائب خاصة ، ولم يكن مسموحا لهم أن يلبسوا ألوانا معينة ، ولم يكن باستطاعتهم الزواج من الملمات ، ولم تكن شهادتهم مقبولة في محاكم القانون الإسلامي . ويجب ألا تكون مساكنهم وأماكن عبادتهم فاشرة ، وكانوا ممنوعين من تولي الوظائف المهمة (رغم أنه في بعض الأماكن عمل اليهود والمسيحيون كنظار وسكرتيرين ومستوليين ماليين لدى حكام مسلمين) ، وكانت صرامة تطبيق هذه القواعد متوقفة على الظروف المحلية ، ولكن حتى في أفضل الظروف فإن وضع الأقلية لم يكن مريحا ، وكان الحافز على التحول الى الاسلام موجودا .

وبرغم ذلك لم تكن عملية التحول الى الاسلام كاملة فاليهود قد استبعدوا من معظم مناطق الجزيرة العربية في أيام الاسلام الأولى ، ولكنهم ظلوا متواجدين في المدن الكبرى من البلاد الإسلامية الأخرى . كتجار وحرفيين ، وكتجار صغار أيضا في بعض مناطق الريف في شمال العراق واليمن وأماكن . ولم يكن يشارهم . وازدهارهم عاكسا لقوة تنظيمهم الاجتماعي فقط ، وإنما أيضا لقدرة على احتلال مواقع اقتصادية محددة

في ثنايا المجتمع المركب ، وكذلك لكونهم غير مصنفين كأتباع لاي من الدول التي جازيها الحكام المسلمون من وقت لآخر

أما الوضع المسيحي فكان مختلفا ، كان للبعض روابط دينية مع الامبراطورية البيزنطية وحامت حولهم الشكوك خلال اوقات العرب . ولم يكن لديهم ذلك النسيج المتماسك للتنظيم الاجتماعي الذي ميز اليهود ، وفي بعض الاجزاء من الريف لم يكونوا مسيحيين بصدق ، وفي بعض المناطق اختفت المسيحية نهائيا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وفي مناطق أخرى ظلت عقيدة للأقلية ، وفي أسبانيا ظل جزء كبير من السكان تابعاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وفي غيرها ، أولئك الذين ظلوا على مسيحيتهم مالوا لاتباع عدة كنائس منشقة انفصلت عن الأغلبية بسبب الاختلافات الكبيرة بينهم خلال القرون الأولى للمسيحية حول طبيعة المسيح ، بين النسطوريين وبين أولئك الموحدين المعتقدين بأن للمسيح طبيعة ومشيئة واحدة ، وقد عاش المسيحيون ، ليس فقط في المدن ، ولكن في أجزاء من الريف أيضا ، خاصة في صعيد مصر ونيجال لبنان وشمال العراق .

وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام بل وقبله في بعض الأماكن ، ففي وسط سوريا وغرب العراق كان معظم السكان ، أبان الفتح الاسلامي ، يتحدثون العربية بالفعل ، وأصبحت المدن الجديدة يسكنها من المهاجرين وحكوماتها التي يسيطر عليها العرب. مراكز اشباع للغة العربية ، وانتشرت كلفة تغاطب في مختلف اللهجات المحلية المتأثرة باللغات الوطنية السابقة ، وكذلك كلفة كتابة بشكل حافظ على وحدة واستمرارية القرآن التي نزل باللغة العربية .

ولمّا يتعلق بلغة التخاطب ، واجهت اللغة العربية حاجزا في إيران التي استمر فيها استعمال اللغة الفارسية ، أما كلفة كتابة فلم تجد العربية أي حدود داخل عالم الاسلام فقد حمل الدين اللغة معه ، والذين أسلموا من الأصول غير العربية وخاصة الإيرانيين قرأوا القرآن بالعربية وأصبوا دورا كبيرا في ايضاح وبيان نظام الفكر والقانون المنبثق عنه . أما أولئك الذين لم يسلموا فقد استمروا في استخدام لغاتهم الأصلية لأغراض دينية وأدبية ، واحتفظت بعض الكنائس الشرقية باللغات السريانية والقبطية في الطقوس الدينية وكانت العبرية والإرامية لغات العبادة اليهودية والتدريس الديني ، وأخذت الكتب والأسفار الدينية المنزلة عند الزرادشتيين شكلها النهائي بالهلوية (الفارسية المستخدمة قبل الفتح)

بعد مجيء الاسلام . وحتى في ايران أصبحت اللغة العربية لغة العبادة ، والأدبيات الدينية في بعض الكنائس الشرقية ، وفي أسبانيا قبل اليهود على استخدام العربية في الفلسفة والعلوم والشعر وكان أول عائق جدى أمام انتشار العربية في القرن التاسع ، هو بدء ظهور اللغة الفارسية بشكل اسلامي كلفة للأدب ، ولكن في ايران ظلت العربية أيضا اللغة الرئيسية للتعليم الدينى والقانونى .

ولذا ، ففي الكتابة في تلك الفترة كانت للكلمات مثل « عرب » ، « عربية » معانٍ أوسع بحيث حجبت المعاني القديمة ، فقد تعنى أولئك الذين تعود جذورهم الى شبه الجزيرة العربية وخاصة ذوى الأصول البدوية من القبائل ذات التقاليد العسكرية ، وقد تستخدم فيما يتعلق بكل أولئك من المغرب وإسبانيا حتى حدود ايران الذين اتخذوا اللغة العربية كلغة وطنية ، وقد تشمل مدى أوسع من ذلك ، أولئك الذين أصبحت العربية بالنسبة لهم الوسيط الأساسى للتعبير عن الثقافة الأدبية الرفيعة .

وقد استمر ازدهار تراث نظم الشعر في ظل الحكم الأموى ، وكان أشهر شعراء الفترة الأولى من أصول بدوية، مثل الأخطل والفرزدق وجريز ، وأصبح الشعراء تحت رعاية القصور الأموية وزعماء القبائل الأقوياء ، هما ومع من المدى الجغرافى للشعر وغير أيضاً من طبيعته ، وأصبح مدح الحكام وذوى النفوذ أكثر انتشارا وفي نفس الوقت اكتسبت أشعار الغزل صبغة أكثر شخصية .

وفيما بعد وخلال العصر الأموى وبدايات العصر العباسى، حدث تحول أساسى كبير ، حيث غير دخول الإسلام من نظرة الناس الى اللغة العربية ، فقد كان القرآن هو أول كتاب يكتب بالعربية، وكان المسلمون يؤمنون أنها اللغة التى نزل بها الوحي وتجلت في اللغة الرفيعة التى صيغت بها أشعار المراحل المبكرة ، ولكنها أصبحت تستخدم في أغراض مختلفة ، وبات لزاما على أولئك الذين آمنوا بالقرآن (كلمة الله) أن يتفهموا اللغة ، فلم يعد ديوان العرب قاصرا على الشعر القديم وإنما أصبح يحتوى على قواعد ومبادئ اللغة الصحيحة أيضا .

وأصبحت اللغة العربية وسيطا للتعبير لأولئك الوافدين الى مناطق الإمبراطورية المختلفة من شبه الجزيرة العربية ولذوى الأصول الأخرى الذين اعتنقوا الدين الإسلامى أو الذين احتاجوا لاستخدام اللغة في أغراض

العمل والحياة ، وبخاصة الفرس وغيرهم من المستولين الآخرين الذين عملوا تحت أمرة الحكام الجدد . وانتقل مركز النشاط الأدبي من المدن والواجبات ومضارب الخيام البدوية الى المدن الجديدة، البصرة والكوفة أولا، وبمدها العاصمة الامبراطورية بغداد . وتغير الوسط الأدبي واتسع ليشمل الخلفاء وقصورهم وكبار المستولين والصفوة الجديدة في الحضر من ذوي الأصول المختلفة ، واستمرت ممارسة النظم الشفهية وتلاوة الشعر كما بدأت كتابة الأعمال الأدبية . ومنذ بداية القرن التاسع ساعد ظهور الورق على تداول الأعمال المكتوبة ، واستخدم البردي والرق ولكن في أواخر القرن الثامن أدخلت صناعة الورق من الصين ، وبدأت هذه الصناعة أولا في خراسان ثم انتشرت في أجزاء أخرى من الامبراطورية ، وبحلول منتصف القرن العاشر حلت تقريبا محل البردي .

وقد كان من الآثار الطبيعية لانتشار اللغة العربية أن أصبح يحضر من استخدموها راغبين في فهمها ، فكانت أغلب علوم اللغة من وضع أولئك الذين لم تكن العربية لغتهم والذين تعين عليهم التفكير فيها ، وتطور فن المعاجم والتصانيف اللغوية على يد الدارسين الذين كانوا يختلفون الى الأمواك التي يتردد عليها البدو . وكان أول من شرح وقس قواعدهم اللغة بشكل منهجي رجلا من أصول غير عربية هو سيبويه (ت ٧٩٣م) ومن كتاباته اشتمت كل الأعمال اللاحقة . وقد دفع هذا الزخم بالدارسين الى جمع ودراصة الشعر القديم في الجزيرة العربية ، ومن خلال عملية تصحيح هذه الأشعار وتنقيتها لابد وأنهم غيروا بعضها ، وفي نفس الوقت درسوا الاشكال الرئيسية والتركيبية الشعرية باتقان وعناية مما كان له أثر كبير على الأشعار اللاحقة ، وأول المنظرين الأدبيين المهمين كان ابن قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩م) الذي وضع وصفا للتصنيفات النظمية التي سار على نهجها اللاحقون . وتبدأ التصنيفات عنده بآثار ذكريات الديار المهجورة والحب الضائع ثم تنتقل الى وصف ارتحال أو رحلة ثم تبلغ ذروتها في الموضوع الرئيسي المقصود وهو المدح أو الرثاء أو الهجاء .

وقد كانت كتابة المنظرين أقل إلرا في تطور الشعر من إنتاج الشعراء لأشكال جديدة، فكانت أشعارهم أكثر ميلا الى الفردية، من تلك التي نظمها كتاب القصائد قبل الاسلام، واستوعبوا التراث الشعري المتوارث ، ولكنهم استخدموه بروعي أدبي ذاتي ، وتنامت طرق والنماط جديدة ، وتميزت باستخدام لغة متقنة ومصطلحات بلاغية ومفردات مهجورة ، تضع الكلمات في تضاد دلالي وإطار صارم من الوزن والإيقاع .

وتعددت موضوعات الشعر أكثر من ذي قبل ، حيث تناول الشعر الحب الجنسي ولم يقتصر على الحب الفاضل أو المحرم ، في حين شارك

بعضها في الجدل الأخلاقي أو الديني في القرون الإسلامية الأولى ، فقد كتب الشاعر السوري أبو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) أشعارا وكذلك نثرا متقنا متقنا عبر فيه عن الشك في الأفكار التي كانت مقبولة بشكك عام من الوعي وعن الحياة فيها بعد الموت .

كما كان من الطبيعي أن يشتد التركيز على المدح (التقرير) ولم يكن أكثره منصبا على قبيلة الشاعر وإنما على الحاكم أو الناصر . وانكشف ذلك التفاسير بالأسلاف أو الجزء الأول مما اعتبره ابن قتيبة القصيدة النمطية ؛ ليصبح ببساطة مجرد مقدمة للموضوع الرئيسي بمدح الحاكم أو الناصر بلغة متقنة رسمية تظهر في بعضها أحيانا شخصية وأحاسيس الشاعر .

وقد عاش ابن الطيب المتنبى (٩١٥ - ٩٦٩ م) الذي اعتبره نقاد الأدب اللاحقون أعظم شعراء هذا النوع من الشعر في الكوفة ، وكان من أصول عربية وقضى بعض سنواته الأولى بين أهل القبيلة العربية وبنى كلب ، وانفق جزءا من شبابه في نشاط سياسي ثم شاعرا في بلاط عدة حكام متعاقبين ، وفي أواخر حياته لدى حكام حلب والقاهرة وبغداد وشيراك وقد تكون أفضل سنواته إنتاجا تلك التي قضاهما شاعرا لدى سيف الدولة الحمداني حاكم حلب في شمال سوريا ، ومناسبة برثه من مرثيه يفرق المتنبى في مدحه كالآلة :

المجد عوفي اذ عوفيت والكريم	وزال عنك آل أعدائك الأمم
ورابع الشمس نور كان فاروقها	كأنما ظلمه في جسمها سقم
لفرد العرب في الدنيا بمجده	وشارك العرب في احسانه المحجم
وما أحصاك في يره بتهنئة	إذا سلمت لكل الناس قد سلموا

(٢)

وقد اخلط ذلك المدح بفخر الشاعر بنفسه كما هو الحال في قصيدة كتبت عندما فقد الخطوة لدى سيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي	فيك الخصام وانت الخصم والكم
أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي	وأسمعت كليلي من به صميم
أقام من جفوني عن شواردها	ويشهر الطلق جراحها ويخضم
بأي للفد تقول الشعر زعنفه	تجوز منك لا عرب ولا عجم
هلا عتابك إلا أنه حلفه	قد كمن الدر إلا أنه كلم (٣)

واستمر الشعراء في إحياء التراث القديم ، ولكن الكتابة النثرية العربية كانت شيئاً جديداً . كان القرآن هو أول عمل نثرى بالعربية الفصحى (أو على الأقل أول عمل حفظ لبقى) (٢٠) وكان إنتاج الآخرين نتيجة طبيعية له بشكل ما ، وجمعت القصص عن النبي صلى الله عليه وسلم وفتوحات العرب وكتبت ، ووضع الدعاة الشيعيون بلاغيات من الأفكار الإسلامية ، وفيما بعد ظهر نوع جديد من النثر الفني يستكشف أفكارا مأخوذة عن ثقافات أخرى ، وكان كتاب « كليلة ودمنة » من أول وأشهر الأمثلة ، وهو مجموعة من الحرافات ذات المغزى الأخلاقي عن حياة الحيوانات كتبت بالستسكريتية ثم نقلت للبهلوية (الفارسية القديمة) وكتبها نغزاً بالعربية مسغولون عباسي من أصل إيراني هو « ابن المقفع » (٧٢٠ - ٧٥٦ م) .

وكان ابن المقفع مثالا للمبتولين المستعربين الذين أسلموا وأدخلوا على العربية أفكاراً وضروباً أدبية مشتقة عن ثقافتهم الموروثة ، وإلى جانبهم أيضاً كانت هناك مجموعة من الكتاب الذين استمدوا إلهامهم من عالم الواقع الجديد الذي نشأ بانتشار الإسلام واتساع إمبراطوريته ، وتعبدية الشعوب والأمصار ، والتنوع الجديد في الشخصيات الإنسانية ، والمشاكل المستجدة في الأخلاق والسلوك ، وقد حاولوا تناول هذا كله في ضوء معايير الإيمان الإسلامي الجديد ، ثم التعبير عنه بشكل أدبي مستساغ ، وكان الجاحظ من بين من مارسوا هذا النوع الجديد من الأدب باتساع أفقه وكانت ردود فعله المقعدة بالمحسوبة تتجلى في لغة نموذجية . وتعود جذور الجاحظ لأحدى الأضرى الأفريقية من أصول العميد التي انتسبت للقبائل العربية واستعربت تماماً لفترة طويلة ، وقد نشأ بالبصرة وعاش في حماية الخليفة المأمون (٢٢٠) وكان فضولة الفحافي بعيد المدى وكانت أعماله مجموعات من المعرفة المشوقة والمثيرة فيما يتعلق بعالم الطبيعة والإنسان ، والبنلاد والحيوانات ، وعجائب الكائنات مع مسحة من التعبير الأخلاقي عن الصداقة والحب ، والحق والكبرياء ، والجشع والريقت والأغلاص :

« ان التبلل لا يدعى التبلل كما لا يدعى البللخ البلغة وحينما يبالغ المرء في صفاته ، فذلك لانه يشعر بالنقص في ذاته ، فالعويل يتظاهر

(*) ينظر المؤلف هنا للفران بإختياره فيما عن انبساط اللغة العربية (الجريح)
 (**) جميع الكتب المتداولة أن الجاحظ من قبيلة كنانة بالبصرة وسمى الجاحظ لمحمود عتيق - وقد ١٥٩/٧٧٧ م ، وتوفي ٢٥٥/٢٦٨ م ، أم أن أشكع عبد افرقي (أسود) « فالقولون بين ايدينا عن المراجع لا يلهه ذلك » (المراجع ٢)

بالقوة لأنه يعلم مواطن ضعفه ، والكبريله قييمة في كل الناس . . . وفي
أصيل من القوة وتعتبر كبيرة الكبار ، والتواضع خير من الرحمة التي
تعتبر فضيلة الفضائل » (٤) .

اتخذ الأدب في مرحلة بدايات العصر العباسي طابعا من التسلية
والترفيه وقد كتب الينوشي أحد قضاة بغداد (٩٤٠ - ٩٩٤) ثلاثة
أجزاء من الحكايات ، فكانت تسلية أدبية وسلسلة من الوثائق الاجتماعية
عن عالم الوزراء والقضاة والمستويات الأقل ممن أحاطوا بالقصر العباسي .
وفي القرن التالي كتب أبو حيان التوحيدى (ت ١٠٢٣) مقالات وبحوثا
ورسائل تناولت نطاقا واسعا من الموضوعات الدارجة التي شاعت بين
الدارسين والكتاب في عصره ، صاغها في نمط أدبي جذاب كشف عن
معارف واسعة وعقلية متميزة ، وكانت التسلية هي الهدف الرئيسى
للمقامات . وهي سلسلة من القصص مكتوبة في نثر مسجوع وفيها يتلو
القصص حكايات المحتالين المخادعين والمشردين في مختلف ما يقابلون
من مواقف وقد بلغت ذروة عالية من التطسور على أيدي « الهذلي »
(٩٦٨ - ١١١٠) والحريزى (١٠٥٤ - ١١٢٢) وقد ظل هذا النوع
محببا وشعبيا في فوائد الأدب العربي حتى القرن العشرين .

وقد اكتسبت أخبار الماضى أهمية في كل المجتمعات الانسانية ، وإن
كانت لها دلالة خاصة في المجتمعات القائمة على الاعتقاد بأن حوادث فردية
وقعت في أوقات وأماكن محددة ، وقبل ظهور الاسلام كانت للقبائل
العربية سجلات شفوية عن أعمال أسلافهم ، وكانت إلى حد ما موجودة في
أشعار تلك المرحلة ، وفي القرون الأولى للإسلام اكتسب التاريخ نوعا
جديدا من الأهمية كما بدأت عملية تسجيله كتابة ، كذلك تطور نوعان
مختلفان من الكتابة التاريخية مرتبطان بشكل وثيق كل منهما بالآخر ،
فمن ناحية قام اللغويون والنسابون بجمع وكتابة التاريخ الشفهي لرجال
القبائل العرب ، ولم يكن ذلك مهما لدراسة اللغة العربية فحسب ، وإنما
لسبب على آخر متصل بتوزيع الفنائم الناتجة عن حركة الفتوحات
وما تفلته الأرض في المناطق الجديدة التي أقاموا فيها .

ثم إن تسجيل أحداث حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء
الأوائل والفتوحات الأولى والشئون العامة للمجتمع الاسلامى كانت أمورا
فائقة الأهمية انتقلت على أيدي علما جادين ، ومع التفسيرات وحتى
للأختلافات والانتحالات التي طرأت عليها أحيانا بفعل الخلافات الدينية
والسياسية ومبالات الرواة . - ظهر كم هائل من التحقيقات ومنها نشأت
أنواع عديدة من الأدب مثل مقتطفات من الحديث وسيرة النبي ومقتطفات

من حياة ناقل الحديث (٤) وأخيرا أعمال القصة التاريخي عن رحمة الله بمبيده ، وكانت تجوى عنصرا من القدوة والعبرة ولكن مع جوهر صلب من الحقيقة . كما أدى وضع التاريخ الهجري الى تأسيس علم التاريخ والتقاويم الذي يبدأ من الهجرة وقد وفر اطارا زمنيا عاما لتسجيل الأحداث .

وقد وصلت تصاليد كتابة التاريخ الى مرحلة النضج في القرن التاسع يظهر مؤرخين ذوي مجالات اهتمام واسعة ، وقدرة اكبر على الفهم منهم البلاذري (ت ٨٩٢) والطبري (٨٣٩ - ٩٢٣) والمسعودي (ت ٩٢٨) وقد اتخذ هؤلاء الكتاب التاريخ الاسلامي مجالا لتركيزهم ، لكن ذلك لم يمنع تناولهم كل ما يعتبر له قيمة في التاريخ الانساني كله . اذ تعامل المسعودي مع الحوادث والاخبار التاريخية للشعوب السبعة القديمة ، أي من كان لهم تاريخ حقيقي في نظره : الفرس ، والكلدان واليونان واليونانيون والمصريون والأتراك والهنود والصينيون . وكان لابد من ترتيب هذا الكم الهائل من المعلومات ، بالسنوات في حالة التاريخ الاسلامي ، وفيما عساه معايير أخرى كفترات حكم الملوك ، وكان من الضروري الحكم على تلك المعلومات بمقاييس نقدية ، وكان أكثر المعايير وضوحا هو (الاسناد) : وهو سلسلة من الشهود لواقعة معينة والى أي مدى يمكن الوثوق في شهاداتهم ، وكانت هناك أيضا معايير أخرى . فالمقول يمكن اعتباره مقولا أو غير مقول في ضوء الفهم العام لأسلوب تصرف الحكام وكيفية تغير المجتمعات الانسانية .

كاتب آخر هو البيروني (٩٧٣ - ١٠٥٠) كان فريدا في مجال اهتماماته وعلمه ، ويعتبر كتابه عن تاريخ الهند (تحقيق ما للهند) أعظم المحاولات الجادة التي قام بها كاتب مسلم للتحقيق فيما وراء عالم الاسلام مع فرز ما له قيمة في تراث ثقافي آخر ، ولم تكن أعماله جدلية كما يوضح هو في مقدمته كتابه :

« وليس هذا الكتاب كتاب جدل ومناقشة يعرض أفكار المخالفين ويفند ما فيها من الحق والباطل ، ولكنه وصف مباشر لأحوال الهندوس ، أضفت اليه ما يقوله اليونانيون عن أمور مماثلة بغرض المقارنة بينهم (٥) »
وعن الفكر الهندي الديني والفلسفي في أفضل تصوير كتب :

وحيث اننا نصف ما في الهند ، فاننا نذكر خرافاتهم ، ولكننا

(٤) وهو ما يعرف بعلم الرجال . وهو اساس تطبيق فن التراجم عند العرب -
(المرجع)

تشير الى ان تلك الجرافات قاصرة على عوام الناس فقط ، أما أولئك الذين يتبعون طريق الصلوة وجادة العقل ، والذين يكسحون الى الحق ، فيجب عليهم ألا يعبثوا غير الله وحده ، وإلا يبدوا أية صورة ممسوخة له (٦) .

وفي النهاية يشير الى معتقدات مشابهة لمعتقدات اليونانيين. ومن بينها أيضا أولئك الذين يصيدون أصناما في عصور الجهل الديني قبل ظهور المسيحية ، ولكن المتعلمين كانت لهم آراء ووجهات نظر مشابهة لتلك الخاصة بالهندوس. وعلى أية حال ، فالصفوة الهندية تختلف عن المسلمين في أمر جوهرى. ذلك أن « الهنود في زماننا يعملون كثيرا من القروق بين بني الإنسيان ، ونحن نختلف عنهم في ذلك حيث لا فضل لأحد على أحد إلا بالقوى وهذا هو الخلاف الأكبر بينهم وبين الإسلام » (٧) .

الصالم الاسلامي

يحلون القرنين الثالث والرابع الهجريين. (التاسع والعاشر للميلاديين) كان قد ظهر وتبلور ما يعرف بالصالم اسلامي . وكان بإمكان أى مسافر حصول الصالم أن يدرك - من خلال ما يري ويسمع ما اذا كان في بلاد يسكنها مسلمون أو يحكمها حاكم مسلم ، فهذه الأشكال الخارجية أنجزتها حركات الشعوب : الأمر الحاكم وجيوشها ، والتجار الذين ينتقلون من خلال عوالم من المتوسط والمحيط الهندي ، والحرفيون الذين ينتقلون من مدينة الى أخرى حسب تشجيع الحكام وطبقة الأغنياء ، وكانوا ينتقلون أيضا بالسلع المستوردة والمصدرة التي تعبر عن نمط معين ، مثل الكتب والأشغال المعدنية والخزفيات وبشكل خاص المنسوجات ، وهى السلة الرائدة للتجارة المهيمنة للمعمر .

كانت المياني الخطيئة أيضا من القوثر الخارجية المعتمدة عن (عالم الاسلام) ، وفي مراحل لاحقة ظهرت الأنماط الاقليمية في بناء المساجد . ولكن كانت هناك بعض الخصائص المشتركة في القرون الأولى يمكن تبيينها من قرطبة الى العراق وما وراءه . ذلك بالإضافة الى المساجد الممتدة في الأسواق والربويع والقرى حيث تؤدي الصلوات ، ولكن صلاة الجمعة لم تكن لها خطبة (٨) ، وكانت جمرة المساجد تبني بالمواد المحلية وتمكس مزاجا وثريا محليين .

(*) لا تفتري حديث نقمة أن صلاة الجمعة كانت بلا خطبة في أى وقت من الأوقات ، فخطبة الجمعة وردت في احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فمن « جسر الامام يخطب فلا الجمعة له » ، ويؤدى رسول الله عزه « الجمعة » الامام يخطب . يرواه ابن حنبل وابن جرير وابن ماجه . وثمة احاديث أخرى . راجع النجم الموهب للفظ الحديث النبوى الذى أشرف عليه المشرق لنفسك جا مادة (جمع - جمعة) - (المراجع) .

وأصبح المسجد واقفاً في قلب نظام كامل للمباني الدينية ، بيت القاضى حيث يحكم ، والغان لجابرى السبيل والجحيج ، ومبشقيات للمرضى ، ولانشاء تلك المباني والاتفاق عليها كانت أعمال الأوقاف على الخير التى حث عليها القرآن ، وكان هناك نوع آخر من المباني لعب دوراً خاصاً فى ربط المجتمع الإسلامى بصرف النظر عن الحدود المدنية أو الإقليمية وهى الأحرار (جمع حرم) ، وقد ميزت أماكن محددة للصبح والصلاة المأخوذة من التراث الدينى السابق واتخذت معنى اسلامياً ، وهى الكعبة فى مكة ، وقبة الصخرة فى القدس ، وضريح ابراهيم فى الخليل ، وإلى جانبها ظهرت نقاط جذب جديدة ، وهى قبور أولئك الذين ارتبطوا بالتاريخ الإسلامى المبكر . ورغم أن المسلمين يعتبرون محمداً صلى الله عليه وسلم رجلاً كبقية الآخرين ، إلا أنه سيتشجع لقومه يوم القيامة ، ويزور المسلمون قبره فى المدينة خلال حجهم الى مكة ، كما انجذب الحجاج منذ وقت مبكر إلى قبور أئمة الشيعة خاصة أولئك الذين عانوا كثيراً كضريح « على بن كرم الله وجهه فى النجف ويحوى عناصر تعود الى القرن التاسع ، وقد تزايدت فى العالم الإسلامى قبور أولئك الذين اعتبروا « أولياء الله » ولهم القدرة على التوسط والشفاعة ، ولاشك أن بعضها نشأ فى مواقع كانت مقدسة حتى أديان سابقة أو بفعل التراث السحيق فى الريف . وهناك نوع آخر من المباني الذى طبر عن قوة وسلطان الحاكم ، من بينها كانت أعمال عظيمة للخدمة العامة ، نزل أو خان على الطريق التجارية ، وقنوات معلقة أو أنهار ذى أخرى فى البلاد العطشى من الشرق الأوسط والمغرب ، وكان جلب المياه لسكان هذه المدن من أعمال السياسة الصائبة الراسخة ، كذلك كان رعى الأراضى من الممارسات التى انتشرت مع التوسع العربى فى البحر المتوسط . وكانت القصور معبرة عن العظمة الامبراطورية ، وما فيها من إبهاء الأنس المبسوطة وسط الحدائق والمياه الجارية ، وبساتين متعزلة ترمز الى الجنة ، والقصور الرسمية ومراكز الحكم والعدل جنباً الى جنب مع حياة الرفاهية والفخامة . وهناك أشياء معروفة عن القصور العباسية من الأوصاف المكتوبة ، ومن الأطلال الباقية فى سامراء - فقد كانت المداخل ساحات مفتوحة للاستعراضات والغاب القروسية ولها أسوار عالية وطرقات خلال الحدائق تؤدي الى سلسلة من البوابات الداخلية ، وفى المراكز قصر الإقامة والمكاتب الخاصة بالخليفة والقاعة ذات القبة حيث يجلس - هذه الأبنية تمثل القوة والعظمة والمتعة أيضاً والانفصال عن العالم الخارجى وتكررت على طول وعرض العالم الإسلامى بحيث أصبحت نمطاً عالمياً طرأ بآسيا لقرون .

وبشكل ما لم يكن هناك ما هو اسلامي بالضرورة في هذه القصور .
الا ان احتواء كل هذه الأمور الدينية (من العالم) في امبراطورية واحدة
جمع عناصر من مواطن مختلفة في وحدة جديدة ، وكان الحكام على اتصال
ببعضهم البعض في العالم الاسلامي وخارجة وتبادلوا الهدايا وجلب الشعراء
عند عودتهم قصصا مشوقة . وكانت الصفوة والنخب الحاكمة مفتوحة
بشكل خاص على كل ما هو جديد ، وعبرت ديكورات القصور عن أشكال
وأفكار تراثية من حياة الأمراء في كل مكان ، مثل مشاهد المعارك والصيد
والنبيذ والرقص .

واستخدمت هذه الأفكار في الرسم على الحوائط وغلبت عليها
الأشكال الإنسانية والحيوانية ، أما في المباني ذات الطابع الديني فقد
استخدمت أشكال الكائنات الحية ، ورغم أن تصوير الكائنات الحية ليس
محرمًا بشكل صريح في القرآن إلا أن معظم الفقهاء ، استنادًا إلى الحديث
اعتبروا أن ذلك تعد على القوة الإلهية القادرة على خلق الحياة ، وتصور
الفسيفساء في الجامع الأموي في دمشق العالم الطبيعي والمنازل بشكلي
أقرب ما يكون للواقع وتذكرنا بالحائلطيات (الجداريات) الرومانية ،
ولكنها بلا مخلوقات حية ، ولم تكن حوائط المساجد والمباني العامة الأخرى
خالية من الزخارف . فكانت الأسطح تغطي بزخارف وأشكال من النباتات
والأزهار على طراز راق وانساق من الخطوط والدوائر المرتبطة والمتشابكة
تتكرر بلا نهاية ، كما تطور فن الخط على أيدي بعض المسئولين في دواوين
الحكم ، وكان له مدلول خاص عند المسلمين الذين اعتقدوا أن الله اتصل
بالعديد من الناس من خلال كلمته باللغة العربية ، وتطورت كتابة هذه
اللغة على أيدي فناني الخط بطرق مناسبة للزخرفة المصارية ، فكانت
الكلمات تتكرر في أشكال متغيرة بلا نهاية ، أو تكتب في عبارات متشابكة
في أشكال نباتية أو هندسية ، وبهذا أصبح فن الخط من أهم الفنون
الإسلامية ، ولم تزين الكتابة العربية المباني فقط وإنما العملة والمشفولات
النحاسية والفضارية والمنسوجات خاصة تلك المصنوعة في الورش الملكية
والتي كانت تقدم كهدايا ، واستخدمت الكتابة للإعلان عن عظمة وخلود
الاله وعن كرم وسخاء صاحب البناء أو براعة السماري كتلك النقوش
الموجودة حول قبة الصخرة .

واختلفت المساكن التي بناها في تلك الفترة سكان المدن من المسلمين
ولكن تبقى من أثارها ما يكفي للتذكير بالفنون التي استخدمت فيها ولإظهار
أن بعض الأعمال الفنية بها مشابهة للأعمال التي في القصور ، ونسخت
الكتب مزودة بالصور للتجار والعلماء وصنعت الأثاث المعقدة والزجاج

والفخار والخزف ، كانت المنسوجات ذات أهمية خاصة ، فالأرضيات كانت تغطي بالسجاد ، وتقطعت المقاعد المنخفضة بالأقمشة ، وكانت السجاجيد تعلق على الحوائط والأقمشة كلها تتميز بنفس الزخارف التي ظهرت على المباني الدينية من أشكال من النباتات والأزهار والتصاميم الهندسية والكلمات العربية ولم يكن هناك الكثير من الشعارات الملكية ، كما أن الشكل الانساني لم يغب تماما ، وسرعان ما ظهرت الخزفيات المصرية التي رسمت عليها أشكال انسانية ، كما أن النصوص احتوت على أشكال انسانية وحيوانية في تصوير القصص أو الحياة اليومية .

وبحلول القرن العاشر أصبح رجال ونساء الشرق الأدنى والمغرب يعيشون في عالم شكله الاسلام وانقسم العالم الى دار الاسلام ودار الحرب . وأعطت الأماكن المقدسة عند المسلمين أو المرتبطة بتاريخهم المبكر دار الاسلام خصائصها المتميزة ، وعرف الوقت بالصلوات الخمس اليومية ، وبصلة الجمعة وبالصيام السنوي في رمضان والحج الى مكة والتقويم الهجري .

كما أعطى الاسلام الناس هوية ميزوا بها أنفسهم عن الآخرين . وعاش المسلمون ككل الناس على مستويات مختلطة ، فلم يكونوا يفكرون في الحساب أو الجنة طول الوقت ، وعرفوا أنفسهم خلال متطلبات الحياة اليومية فيما يتجاوز كيانهم الفردي بالمائلة أو الدائرة الأوسع من القرابة أو النسب أو وحدة المرحى أو القبيلة أو القرية أو المنطقة الريفية أو الحى أو المدينة ، وكانوا بخلاف ذلك على وعى بأنهم ينتمون الى دائرة أوسع هي مجتمع المؤمنين (الأمة) ، وربطت بينهم الشعائر الجماعية في قبول وفهم مشترك عن قدر الانسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة وفصلتهم عن المؤمنين بديانات أخرى سواء كانوا يعيشون بينهم في دار الاسلام أم ما وراء حدوده .

كانت هناك هويات في عالم الاسلام ، على مستوى متوسط بين الوحدات الصغيرة المتماثلة للحياة اليومية ، لم تحقق الولاء للأمة بشكل قوى دائم ، ولكن خدمة وطاعة الأسرة الحاكمة خاصة اذا ما سادت لوقت طويل يمكن أن توجد مثل هذا الولاء . واللغة المشتركة أيضا لابد وانها أوجدت احساسا بسهولة التواصل وتوسعا من العزة والكبرياء . ظل تمييز العرب بالاسلام في القرن الحادى عشر قويا مما دفع بالبيرونى الى الجذور الايرانية الى تأكيد هذا بقوله : ان ديننا ودولتنا توأما . يحيمها اله واحد ، ولم تنجح كل المحاولات التي بذلت لتفليب هوية أخرى . غير عربية الى الدولة (٨) .

ولم يكن مفهوم الوطنية العرقية الحديثة موجودا بالطبع وهو أن أولئك الذين لهم لغة مشتركة يجب أن يعيشوا معا في مجتمع سياسي مغلقة عليهم ، كما لم توجد أيضا تلك المفاهيم الخاصة بالدولة الإقليمية التي تعيش في قطعة من الأرض تفصلها عن الآخرين حدود مرسومة . ورغم ذلك كان هناك نوع من الوعي بالسماوات الخاصة للحديثة والأراضي التابعة لها التي يمكن أن تعبر عن نفسها بشكل إسلامي ، وأظهرت دراسة عن مصر أن الوعي بطبيعتها الخاصة ظل ثابتا ، بسبب هبات الطبيعة وموقعها في التاريخ الإسلامي ، وإبطالها من الشهداء والقديسين وما وراء ذلك من الذكريات التي عاشت في الماضي (ما قبل الإسلام) ومن العجائب التي خلفها العالم القديم ، الأهرام وأبو الهول والمعابد القديمة ، الطقوس والمعتقدات في الريف التي يلتصق بها الرجال والنساء للحماية والأمان (٩) :

الفصل الرابع

ركائز الاسلام *

قضية السلطة

غير انتشار اللغة العربية بين شعوب غير عربية من طبيعة هامة عبرت عنه من آداب ، ولم يتبد ذلك في الكتابة غير الدينية فقط وإنما في نوع جديد من الكتابات تجلت فيها معاني الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجد الدين اعتنقوا الاسلام أنفسهم في مواجهة أسئلة لا مهرب منها : أسئلة لم تنشأ عن الفضول الفكري والعقلي فقط ، وإنما من انتقادات المسيحيين واليهود والزرادشتيين ، وقيل كل هذا من الحاجة الى تصور الآثار المترتبة على الايمان ، وعلى الحياة في المجتمع ، وقد حاولوا بتطبيعة الحال الاجابة على هذه الأسئلة في ظل رصيدهم المعرفي وطرقهم في التفكير التي جلبوها معهم الى مجتمعهم الجديد ، أو الموجودة لدى أولئك الذين لم يتحولوا الى الدين الجديد . في القرون الأولى قتل اليهود والمسيحيون والمسلمون أكثر انفتاحاً على بعضهم البعض مما أصبح عليه الحال فيما بعد ، وطبعاً أيضاً أن تلك العملية كانت تتم بشكل مثير في تلك الأمكن ذات التقاليد الفكرية الراسخة وأجهزة المعرفة القوية ، وقد كان لتغير الموازين وانتقال مركز الثقل الذي طرأ على الكيان السياسي للإسلام ما يوازيه في مجال الفكر ، فلم تنتف أهمية المدينة ومكة ، ولكن سوريا اكتسبت أهمية وصار العراق أهمها جميعاً بترتبه الثقافية المحسبة من اليهودية والنسطورية والمسيحية وديانات إيران .

وقد جرى وبشكل واسع تفصيل الاسلام في كيان من العلوم الدينية والممارسات في العراق في الفترة العباسية ، وكان ذلك استمراراً لحركات الفكر التي بدأت مبكراً قبل ظهور الاسلام ، لكن ذلك لا يعني أن الاسلام لم يسطر اتجاهات جديدة .

(*) اختيار الكاتب عبارة *Articulation of Islam* عنواناً لهذا الفصل وقد ترجمتها (تفصيل الاسلام) كما ظهر منمناً في بداية الفقرة الثانية - (المبرمج)

وتنوعت الموارد التي اغترف منها المفكرون والعلماء ، فكان أولها القرآن ، ومنذ أخذ شكله النهائي لم يطرأ شك في أن مادته مستمدة من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو يصور الاله المهيمن القادر ، ورسله الذين يبعث بهم الى البشر ، والايهان والعرفان والصلاة والاحسان التي ألهم بها الناس ، وحساب يوم القيامة الذي تتجلى فيه رحمته وعذابه . ثم ذلك التراث الحي عن سلوك المجتمع منذ عصر النبي وما بعده ، تتداولها وتنقيها الأجيال اللاحقة ، وقد وقر في قلبها نوع من الذاكرة الجمعية عن صورة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك أيضا ذكريات التصرفات العامة للمجتمع والخلفاء وسياساتهم وصراعاتهم وعلى الأخص تلك الخصومات والصراعات في عهد عثمان وحركات المعارضة التي تمخضت عنها ، وذكريات علي رضي الله عنه والانقسامات الأولى التي حدثت بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم تغتفر تقاليد الأدب فقط ، وإنما تغيرت أيضا الطبيعة الأولية البسيطة للاسلام والتي ألزمت الذين يرغبون في الامتثال لمشيئة الله بالبحث عن المعرفة والتدبير فيها من خلال كلمات الوحي وما بنى عليها من الأفكار والمعارف ، فقد بدأ البحث عن المعرفة الدينية (العلم) مبكرا في تاريخ الاسلام وتطور تدريجيا الى كيان من العلماء المنشغلين بقضايا .

وقد تعددت خطوط الفكر والدرس التي فصل الاسلام من خلالها وإن تراكبت بوضوح بعضها ببعض ، وكانت أول مشكلة ملحة هي مشكلة السلطة ، وقد أوجست مواعظ وخطب محمد صلى الله عليه وسلم جماعة ملتزمة بالمعيش وفقا لمعايير القرآن ، وقد فرضت الصراعات والنزاعات في نصف القرن الأول تساؤلا عن : السلطة ولأن تكون في هذا المجتمع ؟ وما نوع تلك السلطة ؟ وقد أجيب على ذلك التساؤل في ضوء التأمل في هذه المشاكل ، فهل يجب أن تكون الخلافة أو الإمامة حقا مباحا لكل المسلمين أم تقتصر على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أم هي حق تعاقلته فقط ؟ وكيف يجب اختيار الخليفة ؟ وما حدود تصرفاته الشرعية ؟ وإذا انحرف عن العدل فهل تجب طاعته أم يجب عزله ؟ ١٩٠٠

وتبلورت تدريجيا مواقف عدة حيال مثل هذه المشاكل ، فكان موقف أولئك الذين سموها فيما بعد بالسنة ، يرى أن من الضروري على كل المسلمين أن يعيشوا جنبا الى جنب في سلام واتحاد ، ويعنى ذلك ضمنا أن عليهم

القبول بما حدث ، وقد قبلوا بشرعية الخلفاء الأربعة ويكونهم أيضا فاضلين راشدين ، قد لا تكون تصرفات الخلفاء اللاحقين هي العدل على الدوام ، ولكن يتعين قبول شرعيتها طالما أنها لا تخالف تعاليم الله الأساسية ، وهناك بعض الدلائل على أن الخلفاء الأمويين ادعوا بأنهم يخلفون النبي صلى الله عليه وسلم في قيادة المجتمع ، كما أنهم خلفاء الله في الأرض والمرجع الأسسى في تفسير الشريعة (١) ، ولم تمتد جسارة السنة في شكلها التطور الخليفة كنبى أو مفسر معصوم، وإنما كقائه وزعيم من واجبه حفظ السلام والعدل في المجتمع ، ولهذا فلا بد له أن يتحل بالفضائل والمعرفة بالشريعة . كما كان أمرا مقبولا لدى الكثيرين أن يكون منحولا من قبيلة قريش التي ينتمى إليها النبي صلى الله عليه وسلم .

وبالتدريج طورت الحركات التي نازعت في سلطة الخلفاء نظرياتها الخاصة حول السلطة الشرعية ، فاعتقد « الأباضية » أنه ليس من الضروري وجود (امام) في كل الأوقات ، وأن بإمكان كل مسلم أن يصبح اماما بصرف النظر عن عائلته أو منشئه ، ويجب أن يختاره المجتمع ، وأن ينصرف بالعدل وفقا للقانون المشتق من القرآن والحديث ، وإذا ما أثبت أنه ليس عادلا فيجب عزله وتنحيته . كما لم تقبل الشيعة بأحقية الخلفاء الثلاثة الأوائل في الخلافة ولكنهم اعتقدوا أن عليا بن أبى طالب هو الخليفة الشرعى الوحيد المختار لخلافة محمد صلى الله عليه وسلم كامام ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم حول أقارب على وحول سلطة الأمة ، فالزيديون كانوا هم الأقرب إلى السنة في موقفهم وجهة نظرهم ، فاعتبروا أن كل من ينحدر من على من زوجته فاطمة يمكن أن يكون اماما على أن يكون عارفا تقيا ، وأن يكون قد أظهر همة في مناهضة الظلم ، وعليه يمكن أن تكون هناك سلسلة من الأئمة ، متجددة باستمرار ولم يكن الامام في اعتقادهم معصوما أو تفوق سلطاته السلطة البشرية .

أما الحركتان الشيعيتان الأخريان المهمتان فقد ذهبتا إلى أبعد من ذلك، فقد آمنوا بأن الامام يعين الامام الذى يليه ، وأن الامام المختار هو المفسر المعصوم لوصي الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الطائفة التي استقطبت أكثر الاتباع فقد اعتقدت أن الخلافة تظل في نسل على حتى الامام الثانى عشر في الترتيب ، الذى اختفى عن العيان في القرن التاسع لهذا سموا بالشيعة الاثنى عشرية ، ولما كان العالم لا يمكن أن يوجد بشير امام ، كان من المعتقد أن الامام الثانى عشر لم يمت لأنه موجود يعيش في « غيبة » وأنه في البداية اتصل بالشعب الاسلامى من خلال وسطاء ولكنه

أخفى بعد ذلك عن العالم الذي ظل يتوقع عودته ليعيد سيادة العدل .
أما الاسماعيليون من ناحية فقد اتفقوا على أن الامام هو المفسر المعصوم
للحقيقة ، ولكنهم اعتقدوا بأن خط الأئمة الراشدين انتهى مع الامام السابع
و محمد بن اسماعيل ، الا أن بعضهم عدل من مقتنعه عندما أعلن الخلفاء
الفاطيون أنهم أئمة .

وكان من المتوقع أن تكون لهذه الآراء المختلفة في الخلافة أو الامامة
تداعيات متباينة في طبيعة الحكومة وموقعها في المجتمع ، فكل من الإباضية
والزيدية كانتا خماسيتين انسحبتا من المجتمع الاسلامي العام ، ورفضتا
الطاعة لسلطة الحكومات الظلمة ، وكانتا ترغبان في الجيش تحت حكم ديني
حسب تفسير كل منهما ولم تكونا راغبتين في اعطاء الامام أو (أي حاكم
آخر) القوة والسلطة التي قد تجعله يتصرف بلا عدل ، ومن ناحية أخرى
كان السنة والشيعة الاثنا عشرية والاسماعيليون كل منها على طريقته يريد
ضبط القانون والحفاظ على النظام في المجتمع . وبنهاية العصر الأول
تكرس الانفصال الحتمي بين أولئك الذين حافظوا على القانون (العلماء
بالنسبة للسنة والامام الغائب عند الشيعة) من ناحية (ورجال السيف)
الذين لديهم القوة لفرض السلطة الزمنية . من ناحية أخرى .

عدل الله وقوته

كانت قضية السلطة الزمنية يشكل من الأشكال انكاسا لمسائل
أكثر إصغولية ، هي التي انبثقت من القرآن : الأسئلة حول صفات
الله وتعامله مع الجنس البشري ، وعن وحدانيته وعدالته .

قاله في القرآن وأحد متعال فوق الوجود المادي ، ولكن القرآن يتحدث
عن صفات المشيئة والعلم والسمع والبصر والكلام ، والقرآن كلمته .
فكيف يمكن التوفيق بين تعدد صفاته مع وحدانيته ؟ وكيف يمكن وصف
هذه القدرات ، وهي أيضا قدرات الانسان ، بمفردات تحافظ على لا نهائية
المسافة بين الله والانسان ؟ وما علاقة القرآن بالله ؟ وهل يمكن القول
انه كلمته دون أن يعني ذلك أن له قدرة على التخاطب ماثلة لقدرة
مخلوقاته ؟ . هذه المشكلات هي من النوع الموروث في أي دين يؤمن بأن
هناك قوى أعلى تتجلى على شكل ما للمخلوقات البشرية ، وكان التجلي
في المسيحية على صورة انسان وعليه كان السؤال اللاهوتي الاساسي في
القرن المبكر يدور حول علاقة هذا الانسان بالرب ، وكان التجلي عند
المسلمين على هيئة كتاب ولهذا فيمشكلة وضعية هذا الكتاب لابد وأن تصبح
أساسية .

والتساؤل عن طبيعة الرب يؤدي منطقيا الى التساؤل عن طبيعة تعاملاته مع الناس ، وهناك تطباعان لا يند وان يتخلقا في ذهن كل من قرأ القرآن أو استمع اليه مرتلا ، الله قوى عليم ، ولكن الانسان مسئول عن عمله بشكل ما وسيحاسبه الله على أعماله ، كيف يمكن لهاتين المثلقتين أن تتفقا ؟ مرة أخرى من مشكلة موروثة في الفكر والإيمان التورعدي ، إذا كان الله هو الأقوى كيف يمكن أن يسمح بالشر ؟ وكيف يمكن أن يكون محقا وعادلا في أداة الأفعال الشريرة ؟ .. بشكل عام هل الانسان مخير في القيام بأفعاله أم انها جميعا من عند الله ؟ ، إذا لم يكن مخيرا فهل للعدل أن يحاكمه الله ؟ وإذا كان حرا ويمكن عندئذ أن يحاسبه الرب ، فهل يمكن أن يدرك مبادئ العدل التي سوف يحاسب على أساسها ؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يعني ذلك أن هناك مبادئ للعدل تحكم أفعال الرب ؟ وعليه فهل يمكن القول بأن الله مطلق القوة ؟ وكيف يكون حساب المسلمين ؟ هل بالإيمان فقط ؟ ، أم بالإيمان مع التعبير الشفهي عنه ؟ أم أيضا بالعمل الطيب ؟ .

يتضمن القرآن مثل هذه الأسئلة التي تواجه كل من أخذ الأمر بجدي ، ولكن التفكير المنظم فيها لا يعني فقط التمعن في النص ولكن في المنهج أيضا ، والاعتقاد بأن المعرفة يمكن اكتسابها بالعقل الانساني الذي يعمل وفقا لقواعد معينة ، هذا الإيمان بالعقل الموجه بشكل سليم هو الذي شكل الحياة الثقافية في المناطق التي انتشر فيها الإسلام بما فيها الحجاز ، وهناك آثار من التفكير والاستنتاج الجدل في القرآن ذاته . وليس من المستغرب عندئذ أنه بنهاية القرن الإسلامي الأول أو السابع الميلادي أظهرت الوثائق الباقية أنه مطبق في شرح القرآن في الحجاز ونشوريا وإيران ، وظهرت أول مجموعات ما يمكن أن يسمى بـ"معارف الفكر" : أولئك الذين جادلوا بأن الانسان له اذاعة حرة وهو المسئول عن أفعاله الخاضعة ، وأولئك الذين أكدوا أن ليس له اذاعة حرة وأن ليس لله صفات يشارك فيها البشر .

وفي منتصف القرن الإسلامي الثاني (الثامن الميلادي) ظهرت مدرسة بمعنى أكثر اكتمالا ، تكونت من مفكرين لهم وجهات نظر واضحة ومفاسدة حيال مجمل المشاكل ، ولكن اعتبارهم مدرسة واحدة لا يعني أن لديهم جميعا نفس الأفكار بالتحديد أو أن أفكارهم لم تتطور من جيل لآخر ، أولئك كانوا (المختلة) الذين آمنوا بأنه من الممكن التوصل للحقيقة بالتفكير قيميا ودد بالقرآن وبهذا الطريق توصلوا الى اجابة عن أسئلة قلقة بالفعل ، إن الله واحد ، وليس له صفات بشرية يتفوق

يجوزهم وأنه لم يخلق القرآن الذي لا يد وأنه قد (خلق) بطريقة أخرى ، والله عادل ، وهو ملتزم بمبدأ العدالة ، ولهذا فالإنسان لا بد وأن يكون حراً (مخيراً) فليس من العدل محاسبة البشر بأفعالهم إن لم يكونوا مخيرين في ارتكابها ، وإذا كانت الأفعال البشرية حرة وعرضة للمحاكمة والمحاسبة ، فإن ذلك يعنى أن الإيمان ليس كافياً بدون العمل الصالح ، والمسلم من تكبب الكبار لا يمكن اعتباره كافراً أو مؤمناً حقاً ولكن له منزلة بين المنزلتين .

في نفس الوقت ظهرت طريقة أخرى للنظر في هذه المشاكل ، وهي أكثر حذراً وتردداً حول امكانية التوصل الى حقيقة مقبولة ، أو يتفق عليها بالتفكير والاستنتاج . كما كانت أكثر وعياً بخطورة انخراط المجتمع في الجدل والنقاش ، أولئك الذين فكروا بهذه الطريقة وضجوا أهمية الحفاظ على وحدة المسلمين قبل أهمية التوصل الى اتفاق حول مسائل المذاهب والعقيدة . وكانت كلمة القرآن عندهم هي الأساس المحدد المتين الذي يقوم عليه الإيمان والسلام الاجتماعي ، وأن القرآن يجب أن يفسر عندما يكون التفسير ضرورياً وفي ضوء الممارسات الاعتيادية للمسؤول وصحابته (السنة) كما تناقلتها الأجيال اللاحقة ، كان ذلك الميل الفكري موجوداً في فترة مبكرة ، ولكنه تبلور في زمن متأخر بحكم طبيعته في مجموعة من المذاهب اختلفت عن المذاهب التأميلية ، وقد كان أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) هو المسؤول الأول عن تشكيل ذلك الميل الفكري ، وقد مسه الاضطهاد نتيجة ذلك ، وقال ان المرجع الوحيد هو القرآن والسنة ، وهما يبينان لنا أن الله مطلق القدرة ، وأن عدله ليس كعدل البشر . وإذا كان القرآن ينسب اليه بعض الصفات ، فيجب قبولها كصفات الهية وليس بالمقارنة بمثلاتها في الإنسان ، وبدون السؤال عن كيفية تواجدها وتلازمها ، [ومن هذه الصفات « القرآن » الذي هو كلمته . فهذا ما يقوله القرآن نفسه ، وعليه فإنه قديم وليس مخلوقاً ؟ ويجب على الإنسان الامتناع لارادة الله بالأفعال كما بالإيمان . وهذا المفهوم عن اله يحكم بطرق غامضة قد يبدو حكماً قاسياً . ولكنه يتضمن نوعاً من التأكيد على الرعاية الالهية للعالم حتى وإن كانت طرقه ليست مما يعلمه الإنسان ، وإن ما حدث لهم في تاريخهم هو جزء من ارادة الله وما كتبه عليهم ، وبهذا البناء الفكري أصبحت السنة مفصلة ميسرة .

واستمر الخلاف بين العقلانيين واتباع ابن حنبل لفترة طويلة وتفرقت قضايا الجدل ، وكان اللاحقون من المعتزلة متأثرين بعمق بالفكر اليوناني ، ولكن أهميتهم تضاعفت مع تبلور المجتمع السنّي ، وأن استمر تأثيرهم

تويا بين مدارس الشيعة مع تطورها في بداية القرن الحادى عشر ، وكان الأشعرى (ت ٩٣٥) أحد المفكرين الذين أيدوا موقف التقليديين ، واستخدم طريقة الجدل العقلاني للدفاع عنها ، حيث ألتزم بالمبنى والتفسير الحرفى للقرآن ولكنه أكد على امكانية تفسيره بالعقل والمنطق ، أما فيما يتجاوز العقل فلا بد من قبوله على علاقته بالله واحد ، وصفاته جزء من جوهره ، ولكنها ليست الله كما أنها ليست شيئاً خلاف الله . ومن بينها السمع والبصر والكلام التى ليست كسمع وبصر وحديث الانسان وإنما يجب قبولها بدون أسئلة فالله هو الصلة المباشرة لكل ما يحدث فى الكون ، وهو ليس محدداً بأى شىء خارج ذاته . وهو الذى يعطى الانسان القدرة على الفعل فى لحظة الفعل ، وهو يشاء ويخلق ما هو خير وما هو شر فى الدنيا ، والاستجابة السليمة الصائبة لوصي الله المنزل هى الايمان ، وحتى اذا كان لدى المرء ايمان بلا عمل صالح فهو مؤمن وسوف يشفع له النبى يوم القيامة .

ويتأكد فى فكر الأشعرى أهمية عدم الجدل فى الدين ، كما تتأكد ضرورة القبول بحكم الامام أو الخليفة وعدم مناهضته بالسيف ، ورغم ذلك ظهرت خلافات فى الآراء حول شرعية استخدام المجاز والاستعارة فى مواجهة التفسير الحرفى للقرآن ، وعن المعنى المحدد لكون القرآن قديم غير مخلوق ، وهل يعنى هذا النص نفسه أم يعنى انتقال النص الى الناس ، وحول ضرورة الأعمال الصالحة جنباً الى جنب مع الايمان ، الا أن هذه الاختلافات برغم ذلك لم تؤد الى صراعات داخل المجتمع السنى .

الشريعة

لا تشير آيات القرآن - الا ضمنيًا - الى بناء (نظام) عقيدى (*) ولكنه يقول للناس ما شاء الله أن يعلموا ، فهو قبل كل شىء وحي لارادته سبحانه ، وتفصيل لأعمال الناس التى ترضيه ، وكيف سيكون حسابهم فى الآخرة ، كما أنه يحتوى على الأوامر التى تتعلق بنظام الزواج والمواثيق ، ولكن هذه الأوامر محدودة ، حيث ان إرادة الله تتجلى فى شكل مبادئ عامة ، كما تتناول الأوامر والنواهي طرق العبادة والمعاملات ، الا أن

(*) النص :

Except by implication, the Quran does not Contain Within Itself a system of doctrines.

والمنى كما نلهم أنه ليس مجرد تنظيم أو بناء فكري، وإنما ترميزات منطقية - (إخراج) .

الفرق بينهما فارق لطيف حيث ان للعبادة جوانبها الاجتماعية ، كما ان
العبادة والاحسان اصالتا تبتقي وجه الله .

وقد أدى التفكير في القرآن وسلوكيات المجتمع الاسلامي الاول الى
بلورة اتفاق عما هو واجب على المسلم فيما يسمى بأركان الاسلام وتشمل
الشهادة الشفهية « ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله » ، والثاني هو
الصلاة بمصووص محددة من الكلمات التي تتكرر مرات معينة مع اوضاع
 معينة للجسم خمس مرات يوميا ، والاركان الاخرى كانت دفع نية من
البخل لأنواع من اعمال الخير او النفع بالصيام ، وصيام تام من شروق
الشمس حتى غروبها على مدى شهر كامل في السنة هو شهر رمضان الذي
ينتهي بالعيد ، ثم اخيرا حج البيت في مكة في موسم الحج وتشمل عددا
من المراسم ، ثم ينتهي بعيد يحتفل به المجتمع كله ، وبالإضافة لكل هذه
الشمائل وأمر وتوصيات عامة للسعي في سبيل الله (الجهاد) وقد توسع
معناها أو يتطور في مفهوم أضيق هو القتال في سبيل توسيع رقعة
الإسلام .

وقد احتاج الأمر منذ البداية الى أكثر من مجرد اتفاق حول
إركان العبادة الإسلامية . فمن ناحية كان هناك من أخذوا القرآن بحدية
واعتقدوا بأنه يحتوى بضمتا مفاهيم للحياة ككل ، حيث ان لكل أفعال البشر
معنى عند الله وكلها مشمولة في الاعتبار في يوم الحساب ، ومن ناحية
أخرى كان هناك الحاكم ونوابه الذين احتاجوا الى اتخاذ قرارات في إطار
من المشاكل ، وقد تؤدي بهم قناعاتهم والشروط التي يبررون بها
أحكامهم الى اتخاذ قرارات لا تتناقض مع ما جاء في القرآن من مبادئ
وأوصادات .

وفي فترة الخلفاء الأوائل والأمويين توأمت عمليتان معا : هما أن
الحاكم ونوابه وقضاياه طبقوا العدل وقصروا في الخلافات على ضوء المعاديات
والقوانين في المناطق المختلفة ، وفي نفس الوقت حاول المسلمون الجادون
والمهتمون اخضاع كل الأفعال الانسانية لحكم الدين لوضع نظام مثالي
للسلوك الانساني ، وكان عليهم أخذ كلمات القرآن في الاعتبار وتفسيرها ،
وكذلك الذكريات المتوارثة في المجتمع عن السنة النبوية التي لحقت في
الحديث الشريف ، وكيف كان الخلفاء الأوائل يتخذون قراراتهم ، وكيف
تراكمت الحكمة في المجتمع فيما صار يعتقد أنه الطريق السوي في السلوك
أو سنة المجتمع .

ولم تكن العمليتان مختلفتين اختلافاً كلياً ، فقد كان على الخليفة أو الخوفا أو القاضي تعديل الجادات السائدة فى ضوء الأفكار المتطورة لمتطلبات الاسلام . فى حين حاول الدارسون ادماج بعض موروثاتهم فى صلب ذلك الفكر المشائى ، الا ان هاتين العمليتين ظلتا منفصلتين تماماً . اثناء المراحل المبكرة من ظهور الاسلام ، كما كان داخل كل عملية منهما توجهات مختلفة ، ولابد ان عادات ونظم المناطق المختلفة كانت تتناقض مع الطريقة التى نشأت بها الامبراطورية واديرت ، والدارسون من جانبهم كانوا متناثرين فى عدة مدن هى مكة والمدينة والكوفة والبصرة ومدن سوريا ، وكان لكل منها طريقة فى التفكير تمكس ذكرياتها الموروثة كما تمكس احتياجات وممارسات المنطقة . منبورة فى تفاهم عام فيما يمكن ان يكون اجاباً محلياً .

ويظهر العباسيين فى منتصف القرن الاسلامى الثانى (الثامن الميلادى) تغير الموقف . لقد نشأت دولة مركزية تحكمها البيروقراطية مما جعل من الضرورى التوصل الى اتفاق حول طرق تسوية المنازعات وتنظيم المجتمع ، وقد أدى ادعاء العباسيين بوجود مسوغ دينى لجمهم الى ضرورة الاتفاق على تعاليم الاسلام ، وبهذا تقاربت العمليتان واصبح القاضي مستقلاً عن القوة التنفيذية - على الأقل نظرياً - يتخذ القرارات فى ضوء تعاليم الدين .

لقد تزايد الاحتياج اذن الى صياغة اجماع حول التطبيق العملى لمبادئ الاسلام ، ولقد كان القرآن والحديث وآراء العلماء وسنة المجتمعات وثقافتها من المصادر المهمة ، ولكن لم يكن هناك اتفاق عام حول العلاقة بينها ، فقد استند أبو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧) الى التركيز على أهمية الاجتهاد ، فى حين استند مالك (٧١٥ - ٧٩٥) الى أهمية مصالح المجتمع المرسله بالرغم من أهمية الراى القرئى .

وقد جاءت الخطوة الحاسمة فى تعريف العلاقات بين القواعد المختلفة للقرارات القانونية على يد الشافعى (٧٦٧ - ٨٢٠) عندما أكد ان القرآن هو الكلية الحرفية لله ، وهى تعبير عن ارادته سواء أتعلقت بمبادئه عامة أم تعاليم محددة عن الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الزنا وحرب الحر وأكل لحم الخنزير ، وإن سببه النبى كما تسببها الأحاديث من الأعراف المتراكمة للمجتمعات ، كانت تفسيراً واضحاً عن ارادة الله ، وإنها كانت آيات القرآن : **إِذَا قِيلَ لِلنَّاسِ اسْمُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** [(٢) ، وأعمال وأقوال النبى عبرت عن افئزى الخاص

للمعنى العام للقرآن ، وأعطت أيضا دليلا عن المسائل التي أغفلها القرآن ، فالقرآن والسنة عند الشافعي معصومان بنفس القدر ، فلا السنة قادرة على نسخ القرآن ولا القرآن ينسخ السنة ، ولا يمكن أن يتناقض أحدهما مع الآخر ، ويمكن تسوية الخلافات الظاهرة بينهما ، كما أن الآيات المتأخرة أو السنة يمكن أن تنسخ ما جاء قبلها (٣) :

وبالرغم من وضوح التعبير عن مشيئة الله في القرآن أو السنة تبقى بعض أسئلة مطروحة عن التفسير أو عن تطبيق المبادئ على المواقف الجديدة ، والطريقة الفكرية التي فضلها الشافعي هي أن الوسيلة الوحيدة أمام المسلمين العاديين لتفادي الخطأ هي أن يتركوا الفكر لأولئك المؤهلين لاستخدام الفكر لشرح ما يحتويه القرآن والحديث ، على أن يكون ذلك في أضيق الحدود ، وعلى أولئك المؤهلين لأعمال فكرهم أن يعملوا بالقياس بين عناصر المواقف الجديدة وبين عناصر تشبهها في قضايا سبق الحكم فيها ، وقد سميت هذه الممارسة المنضبطة بالاجتهاد الذي يسوغه الحديث الشريف « العلماء ورثة الأنبياء » وعندما يحدث اتفاق عام نتيجة مزاوله المنطق بهذا الشكل ، يكتسب ذلك الاتفاق العام (الاجماع) صفة الحقيقة المؤكدة التي لا تمارى .

وقد عبر الشافعي نفسه عن هذا المبدأ على أوسع شكل في قوله : « عندما تصل الأمة إلى اجماع حول مسألة ما ، تفلق القضية إلى الأبد » ، إلا أن حديث المفكرين اللاحقين في فترة معينة يمن فيهم من اقتضد الشافعي مبدأ ، وضع المبدأ بشكل مختلف وهو أن الاجماع الصالح الوحيد هو اجماع العلماء القادرين على ممارسة الاجتهاد .

وقد انضاف الشافعي إلى تلك المبادئ في التفسير إضافة جازت قبولاً جماعيا هي أن ليس بوسع مفسر القرآن والسنة التفسير دون معرفة كافية باللغة العربية ، وقد استند إلى آيات من القرآن هي : [**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**] (٤) وعلى كل مسلم عند الشافعي أن يتكلم العربية بالقدر الذي يمكنه من نطق الشهادة وترتيل القرآن والتكبير باسم الله (الله أكبر) . ولكن على طالب العلم أن يحصل أكثر من ذلك .

وحين لاقبت هذه المبادئ قبولاً عاما ، أمكن ربط مجموعة من القوانين والمبادئ والنوصيات والأوامر الأخلاقية بها ، وقد عرفت هذه العقلانية الفكرية بالفقه وأنتجت ما عرف بالشريعة .

ونشأت بالتدريج مجموعة من المدارس في القوانين تدعى المذاهب ، وقد اكتسبت أسماءها من كتابها الأوائل حيث أنتسب الحنفية الى أبي حنيفة ، والمالكية الى مالك ، والشافعية الى الشافعي ، والحنابلة الى ابن حنبل ، وغيرها مما لم يكتب لها البقاء ، واختلفوا فيما بينهم حول نقاط أساسية محددة في القانون ، وسول مبادئ التفكير الشرعي (أصول الفقه) واختلفوا على الأخص على مكانة الحديث وشرعية وحسود وطرق الاجتهاد .

وتقع المدارس الأربع في اطار السنة ، أما المجموعات الاسلامية الأخرى فكانت لها أنظمتها في القانون والأخلاقيات الاجتماعية . ولم يختلف الأباضية والزيدية بشكل كبير عن مدارس السنة ، ولكن الشيعة الاثني عشرية عرفت القوانين بطرق مختلفة ، فاجماع الأمة يصحح فقط اذا شمل الامام نفسه ، كما كانت هناك أيضا أمور متميزة في القانون الأساسي للشيعة .

وبرغم الطبيعة النظرية للشرعية أو ربما بسببها ، كان من المقدر على أولئك العلماء الذين علموها وفسروها ويطبقوها (العلماء) أن يتصوروا مراتب مهمة في الاقطار والمجتمعات الاسلامية . فقد أمكنهم ، باعتبارهم حراسا على سلوكيات ومتواضعات اجتماعية صلبة ، أن يعدوا من تصرفات الحكام بدرجة أو أخرى ، أو أن يقدموا اليهم النصيحة على الأقل ، كما كان بإمكانهم التعبير عن الأمة أو بالأحرى الشفق الحضري منها ، الا أنهم حاولوا أن ينفصلوا عن الحكام والمجتمع محافظة منهم على الاحساس بأنهم مجتمع خاص ترشده السبيا . ويطو على الزمن ولا يرتبط بمصالح الحكام أو بنزوات الجماهير .

سنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

استغلت الخلافات السياسية والدينية للقرون الثلاثة الأولى لمحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما اعتمد نظام التشريع لتطور على الحديث كأحد مصادره ، الا أن العلاقة بين الحديث وبين علماء التوحيد والحديث والقانون كانت أكبر تعقيدا من ذلك ، فلم يكتفوا باستخدام الحديث ، ولكنهم قاموا ببناء الاسناد الى رواة الحديث طوال اليهود التي حملته اليها ، وقد أدت هذه العملية الى نشأة علم ديني آخر هو فقه السنة ، وهو وضوح المعايير وتطبيقها لتمييز الحديث المصحح عن التضميف أو الموضوع .

وقد كان للمجموعة التي التفت حول الرسول صلى الله عليه وسلم نظام للسلوك الاجتماعي الذي كان «سنة» بمعنيين مختلفين، فقد أنشأت ، باعتمادها مجتمعا ، نظامها السلوكية التوجيهية التي نمت وتطورت بضمائم تنوع من الاجماع أى سنة المجتمع ، ثم ان هذه المجموعة ضمنت اناسا حاولوا حفظ السنة عن الرسول فيما قال او فعل ، فلا بد أن صحابته كانوا يذكرونه لمن تلاهم من أجيال ، وتناقلوا حديثه شفاهة وكتابة منذ وقت مبكر ، وفي حين تظفر بعض المخلصين من المسلمين شذرا الى الحديث باعتبار ما يمكن أن يسببه من تشتيت لبقاء القرآن وتفرده ، فقد شجعه البعض الآخر ، وقد اتخذ الحديث وسيرة الرسول شكلهما المكتوب في نهاية الدولة الأخوية .

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد ، فقد حدث اختلاف في كل من «السنة الاجتماعية وسيرة الرسول من مكان الى مكان ومن زمن الى زمن ، فقد بعثت الذكريات ، وتغيرت الحكايات في الرواية ، ولم يكن جميع الرواة من الفئات الصادقين ، وكانت السنة الاجتماعية في أول الأمر أكثر السنين أهمية ؛ ولكن مع تقادم الزمن أسند بعض المشرعين وعلماء الدين أهمية أكبر للأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان المشرعون يزعمون في أسناد العادات الاجتماعية والنظم الإدارية التي نشأت الى مبادئ الدين ، وكان الاسناد في الحديث هو أحد الطرق لتحقيق ذلك ، أما أولئك الذين اتسبغوا بالقضايا الكبرى عن السلطة أو عن طبيعة الله والقرآن ، فقد حاولوا إثبات أرائهم بدلائل من حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا توسعت دائرة الأحاديث المنسوبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء القرنين الثاني والثالث الهجريين (حوالى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) وقد كان ذلك مقبولا الى حد ما باعتباره أداة أدبية يبروها الحديث الشريف « ما من قول طيب الا وكنت قائله » وقد اتضحت منذ وقت مبكر خطورة ذلك التوسع ، وبدأت حركة تحقيق الحديث بهدف التمييز بين الأحاديث الصحيحة والزائفة ، ونمت هذه الحركة في نهاية القرن الأول الهجري على يد المتخصصين الذين سافروا بطلوع البلاد وعرضها ، وكانوا ممن تلقوا تراث الحديث على أيدي آبائهم أو معلمهم ، وحاولوا إسناد السيرة والحديث عكسيا وصولا الى شهود الرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته ، وهكذا تم على أيديهم توحيد متون الأحاديث وروايات السنن.

ولقد اتخذ الحديث الشكل الذي استقر عليه الى الآن من خلال تلك العملية التي اتممت جزئيا على التذكر وعلى الانتحال جزئيا ، وكان لكل

منهما شقان : أولهما نص يحفظ أمرا قاله الرسول أو فعله ، وثانيهما سجل لسلسلة من الاسنادات وكلما المتصرين قابل للشك ، فقد يكون النص منتحلا ، أو حدث خطأ في تذكره ، وكذلك سلسلة الاسنادات ، ويبدو في كثير من الحالات أن طول سلسلة الاسناد يمكن أن يكون أداة من أدوات المشرعين أو المتحدثين ، وهكذا نشأ الاحتياج الى علم لفقه السنة بحيث يمكن عن طريقه تمييز الصحيح عن المنحول استنادا الى مبادئه والمنسجمة .

وقد تركّز انتباه الدارسين الذين أخذوا على عاتقهم فحص الحديث ونقله على الاسناد الى سلسلة الشهود بما يشمل مجال وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ، وأجيالهم المتعاقبة بما يثبت إمكان تلاقيهم ، وما اذا كانوا محلا للثقة ، ولا بد أن تجرى هذه العملية بدقة ، وأن تتضمن نوعا من الشعور بأصالة أو معقولية النص في حد ذاته ، وهو أمر يتميز به المجهزون في دراسة الأعراف .

وقد تمكن فقهاء السنة من تصنيف الأحاديث حسب درجة صحتها بناء على تلك المؤشرات ، وقد احتوى أعظم مرجعين للحديث وهما للبخاري (٨١٠ - ٨٧٠) ومسلم (٨١٧ - ٨٧٥) على الأحاديث الصحيحة فقط ، ولكن المراجع الأخرى للحديث لم تكن على نفس الدرجة من الصرامة بالرغم من أن بعضها يعتبر من أصول المراجع ، كما كانت للشعبة مراجعهم من أحاديث الأئمة .

وقد يشعر معظم الدارسين الغربيين وبعض المسلمين المحدثين بشك أكثر مما عانى منه البخاري ومسلم بسند الكثير من الأحاديث الصحيحة ، حيث يمكن أن تكون نتاجا للجدل حول السلطة أو المنصب أو تطور الفرائع ، ولكن هذا القول لا يصح أن يثير الشك في الدور المهم الذي لعبته هذه الأحاديث في تاريخ المجتمع الاسلامي ، ولا تقل أهمية الطريقة التي استخدمت بها عن أهمية أصولها ، فقد يلجأ الحاكم في أوقات التوتر السياسي عندما يكون العدو على الأبواب الى أن يطلب من العلماء قراءة مختارات من البخاري في المسجد الكبير كنوع من التأكيد على ما قدره الرب لعباده ، كما أن دارسي القانون والفقه والمعلوم العقلية اللاحقين قد يلجئون الى تدعيم مقولاتهم ببعض الأحاديث التي بقيت في مخزون ضخم حتى بعد أن تبطلها كل من البخاري ومسلم من صحيحهما .

طريق التصوف

انطلقت علوم التوحيد والشرعية والحديث جميعا مما جاء في القرآن الكريم ، وانتهت الى تأكيد مفاهيم الاسلام، ووضعت حاجزا مرتفعا بينه وبين ديانات التوحيد الأخرى التي كان الاسلام قريبا منها او متصلا بها. الا أنه - على أية حال - ظهرت بعض المسالك الفكرية التي بدأت من المنطق نفسه ، ولكنها هالت الى تأكيد أمور يشترك فيها المسلم مع غيره من أصحاب الديانات الأخرى .

وقد كان التصوف هو أحد تلك المسالك الفكرية (وهو أصل الكلمة الانجليزية Sufism) ، ويحتمل أن تكون اشتقاقا من ثوب (الصوف) الذي كان على الناسك أن يرتديه في المراحل الأولى لهذه الجماعات ، ومن المتفق عليه حاليا أن التصوف يستلهم القرآن ، فالؤمن الذي يتأمل معانيه قد يمتلئ بشعور مغمم يسمو الله عز وجل ، وتوكل كافة المخلوقات عليه ، الله القوى المستخلق على الفهم ، يهدي من آمن به ، وبالرغم من عظمته فهو حاضر قريب من روح كل انسان يتوكل عليه « أقرب اليه من حبل الوريد » ، ويحتوي القرآن على صور بالغة القوة عن قرب الله للانسان ، ومن الطرق التي يستجيب بها للانسان ، ويقال انه قبل خلق العالم أخذ الله عهدا على البشر ، فجاء في سورة الأعراف « وإشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » (٥) ، ويقال ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد أسرى به في حياته الى القدس وعرج به الى السماء حيث سمع له بالاقتراب من الله ومشاهدة وجهه .

كان هناك نوعان من التفاعل شديدا الاندماج أحدهما بالآخر في تاريخ الاسلام المبكر ، فهناك حركة تتوجه الى التدين والصلاة التي تهدف الى التطهر في النوايا والزهد في الملذات ومتع الدنيا ، وهناك حركة أخرى للتأمل في معاني القرآن ، وقد تلازمت الحركتان في سوريا والعراق أكثر من تعايشهما في الحجاز ، وكان طبيعيا أن ينهال من توجهات الفكر والأخلاق التي وجدت في العالم الذي يعيش فيه المسلمون ، فقد اتخذ كل من اعتنق الاسلام شيئا من طرائقه الأولى ومن يعيش في الاسلام يعيش فيها ، والتي كانت في معظمها مسيحية ويهودية في بداية الاسلام وقد كان ذلك العهد هو آخر عهد عظيم في المسيحية النسيكية الشرقية ، وفي الفكر والحياة الرهبانية ، وقد أنكر صلى الله عليه وسلم الرهبنة حينما قال في حديث مشهور : « لا رهبانية في الاسلام » وقال بعض الفقهاء ان الرهبنة الاسلامية هي الجهاد ، الا أن نفوذ الرهبان المسيحيين كان

مغريا خاصة في أفكارهم عن عالم فاضل مغلق ، أسمى من ذلك العالم الاتباعي بقوانينه المنضبطة ، وتتلخص عقيدتهم في أن هجر الدنيا وهزيمة الجسد وتكرار اسم الله في الصلوات قد يؤدي بعون من الله إلى تنقية القلب ، وخلّاصه من هموم الدنيا ، وتقديسه نحو عالم من العرفان البصري بالله (*) .

وتبدو أصول مثل هذه الأفكار في شكلها الاسلامي واضحة منذ القرن الهجري الأول في قول الحسن البصري :

« ان المؤمن يصبح حزينا ولا يسعه غير ذلك ، لأنه بين مغافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدرى ما يصيب فيه من الهالك ... فاحلوا - ولا قوة الا الله - ذلك الموطن ، [واذكروا الحياة الآخرة »] (٦) .

وقد تجلّت مشاعر البعد والقرب الى الله في صيغة الحب : حيث كان الله هو الوحيد الجدير بأن يكون مقصدا للحب الانساني لذاته فقط ، ويجب أن تكون حياة المؤمن طريقا لمعرفته جل جلاله وكلما اقترب الانسان من الله اقترب الله منه فيصير هو سمعه وبصره ويده ولسانه .

ونجد في فقرة من سيرة الترمذی الذاتية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وهو كاتب في المسائل الروحية ، كيف أن الروح تنجذب الى الطريق ، فحين كان في الحج يصلى في الحرم انتابته نوبة فجائية من النسم على خطاياه ، وحين بحث عن طريق قويم يعيش عليه صادف كتابا للانطاكى عاونه على كبح النفس ، وحقق تقدما تدريجيا على طريق كبح شهواته واعتزال الناس ، وعاونته في ذلك أيضا رؤيا في المنام للرسول ، كما كانت زوجته تنتابها رؤى وأحلام ، وقد تعرض للاضطهاد والتشنيع على يد أولئك الذين ادعوا عليه بأنه يستحدث في الدين ما ليس فيه ، ولكن تلك النوائب ساعدته على نقاء قلبه ، ثم كان أن انتابه أثناء عودته من خلوته حالة انفتح فيها قلبه وفاض بالمعنوية (٧) .

(*) اللص : intuitive knowledge ، وقد تعنى العرفان اللصني نسبة الى العلم اللصني الذي يعطيه الله لمن يشاء والذي لا يحتاج الى اسباب واضحة بالمقاييس الدنيوية ، كالمعلم الذي اعطاه الله للصغير عليه السلام . ومصطلح العلم اللصني شائع بين الصوفية - (المراجع) .

وقد شهد القرن التالى امتدادا للكشف عن الطريق الذى يجب ان يرتاده الناس رجلا ونساء ، والتكهنات التى ارتبطت بنهاية ذلك الطريق ، وربما شهد القرن الثامن الميلادى بدايات طقس الذكر بتكرار اسم الله بمصاحبة حركات ايقاعية وتمايز فى التنفس والموسيقى ، ولم يكن ذلك بهدف الوصول فى شكل آلى الى حالة من الوجد يرى الله فيها رأى العين ، ولكنها كانت طريقا الى تحرير الروح من أسر الدنيا ، وقد حطمت تعاليم اساتذة التصوف شفويا عن طبيعة العرفان الذى قد يحدث فى نهاية الطريق ، ثم سجلت تلك التعاليم فيما بعد كتابة لأولئك الذين اتوا بعد ذلك ليتعلموا علوم الطريق ، وبهذه الطريقة تنامت لغة جماعية عبرت عن طبيعة الانعماج والتجربة الصوفية ، كما عبرت عن هوية مؤلفة بين أولئك الذين ارتادوا رحلة العرفان .

وقد وصل التعبير عن طبيعة العرفان بالله الى شكل منهجى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فقد جاء فى كتابات المحاسبى (ت ٨٥٧ م) وصف لطرائق حياة الباحث عن العرفان الحقيقى ، كما جاء فى كتابات الجنيد (ت ٩١٠ م) تحليل لطبيعة الخبرة التى تتحقق فى نهاية الطريق ، فيقول ان السالك قد يجد نفسه فى حضرة الرب وجهها لوجه كما كان الناس جميعا فى حضرته حين اخذ عليهم العهد ، وان صفات الله سوف تكون صفاته ، وان وجوده الشخصانى (*) سوف يتبدد ، كل ذلك للحظة واحدة يعود بعدها الى وجوده فى الدنيا ، ولكنه يحمل ذكرى هذه اللحظة ، التى اقترب فيها من الله واستشعر جلاله :

وحب الله فى جوهه هو استشارة القلب بالبهجة للربه
من محبوبه ، وعندما ينعم القلب بتلك البهجة يجد سعادته
فى الوحدة مع ذكرى حبيبته ، حينما يتخاطب فى
سريره مع محبوبه تفيض البهجة على العقل حتى انه يخلص
من هموم الدنيا وما فيها (٨) .

وقد عاش المحاسبى والجنيد وكتبوا أسفارهما فى اطار من التقاليد السننية الراسخة ، وكانا وجلين يعرفان الشريعة ، وانصب كل اهتمامهما على تأكيد انه مهما تقدم المسلم على طريق التصوف فلا بد له من الاخلاص

(*) او الملقى او الذاتى - النفس :

and his individual existence disappears .

ومقابلة الله من اجل - وجهها لوجه - غالبا ما تكون على سبيل المجاز بمعنى القرب منه ، ويستخدم الصوفية الالفاظ كثيرة على هذه الشكالة ولكنهم لا يمتنعون مناحسا الحرمى - (المراجع) .

في اتباع فرائض الشريعة ، وقد كانت مشاعرهم حيال عظمة الله وقوته المهيمنة لا تبعد كثيرا عن رؤية فقيه كالأشعري الذي كان يرى أن القدرة على الفعل من عند الله ، وأن للمؤمن أن يأمل في هدايته ، وفي كلا التناولين يسيطر شعور بهيمنة الرب على الحياة الانسانية ، وبالايمان بالرعاية الالهية لحياة الانسان حسب ما قدره الله له ، وقد كان للشعور في اليونان في حضرة الله ولو للحظة واحدة أثر مسكر ، حتى ان بعض الصوفيين الذين لم يختلفوا كثيرا عن « الجنيد » حاولوا التعبير عما لا يمكن التعبير عنه بلغة متسامية غنية أثارت الاعتراض ، وقد حاول أبو اليزيد البسطامي (ت ٨٧٥ م) أن يصف لحظة النشوة التي يتجرد فيها الصوفي من وجوده ويمتلكه بالحضرة الالهية ، وبالرغم من ذلك فقد فهم على أنه لا يعدو وهما في الحياة الدنيا ، وأن الحياة الانسانية في أفضل الأحوال تتأرجح بين الامتلاء بوجود الله وبين غيابه ، وتعتبر حالة العلاج (٨٥٧ - ٩٢٢ م) حالة شهيرة ، وقد أعدم في بغداد بتهمة الهرطقة ، وكان تلميذا للجنيد ولم يكن مذهبه مختلفا عن مذهب أستاذه ، وقد عبر عنها (الحالة) كشهوة صبي عارمة ، وربما لم تكن مقولته (أنا الحق) أي الله سوى محاولة للتعبير عن شعور صوفي تحل فيه صفات الله موضع صفات المخلوق ، ولكنها يمكن أن تفسر بأكثر من ذلك ، كما كانت دعوته إلى أن الحج الحقيقي ليس إلى مكة ، ولكنه الرحلة الروحية التي يمر تحلها الصوفي في خلوته ، وهي دعوة قد تفسر حرفيا بأن الانجاز الحرفي لأركان الشريعة ليس مهما ، وربما كان في دخيلته أمر يجعله حريصا على إيجاد سوء فهم ، فقد تأثر بتيار صوفي يعرف باللامتية كان مصدره من الرهينة المسيحية الشرقية ، ومؤداه الرغبة في الحط من الذات بأفعال تثير سخط الناس ، كطريق لقتل الغرور في النفس .

طريق العقل

وقد قدر للتأجيلات الصوفية المتأخرة في كيفية خلق الله للانسان . وكيف يمكن للانسان أن يعود إلى خالقه ، أن تتأثر بحركة فكرية أخرى نشأت مبكرا ، وهي محاولة تهريب التراث اليوناني من العلوم والفلسفة ، كما يمكن أن يقال أنها كانت استمرارا وتطويرا لذلك التراث في وسيط من اللغة العربية .

وكان تغير الدول الحاكمة في مصر وسوريا والعراق وإيران لا يستتبع انقطاعا حادا في الحياة الثقافية ، واستمرت مدرسة الإسكندرية دحنا من الزمن إلا أن طلابها نزحوا في النهاية إلى شمال سوريا ، كما استمرت أيضا

مدرسة الطب في جنديسابور جنوب إيران وهي مدرسة أسسها المسيحيون النسطوريون تحت رعاية الساسانيين ، وقد كان الفكر والعلم اليوناني حيا في تلك المدارس وغيرها بالرغم من أن الاهتمام بها قل عن ذي قبل ، وكانت اللغة السورانية أكثر استعمالا من اليونانية ، وكانت في العراق تقاليد مستقرة للتعالم اليهودية ، كما نضجت في إيران حفسارة باللغة البهلوية تضمنت بعض العناصر المهمة من الهند .

ولم يكن من الضروري خلال الجيل الأول من الحكم الاسلامي أن تتم الترجمة من اليونانية الى السورانية - ومن ثم للعربية حيث كان معظم حملة هذا التراث هازلوا على دينهم المسيحي أو اليهودي أو الزرادشتي ، وحتى أولئك الذين أسلموا منهم احتفظوا بمعارفهم في لغتها الأصلية ، أو على أقل تقدير احتفظوا بصلاتهم مع الذين يتعاطونها في لغتها الأصلية ، وربما لم يكن الحكام العرب يابهون كثيرا بما يدرسه رعاياهم ولم يكن في وسعهم أن يهتموا بذلك ، حيث إن اللغة العربية لم تكن قد امتلكت بعد القدرة على التعبير عن مفاهيم العلوم والفلسفة بشكل دقيق .

وقد بدأت أعمال الترجمة بشكل مكثف من نهايات القرن الثاني الى القرن الرابع الهجري (حوالي القرن الثامن الى العاشر الميلادي) تحت رعاية بعض الخلفاء العباسيين - وهي ظاهرة نادرة ، وقد أنجزت معظم الأعمال على يد مسيحيين كانت لغتهم الأولى السورانية ، وقد ترجموها الى العربية ، ولكن بعض الأعمال ترجمت من اليونانية الى العربية مباشرة ، وقد كان الهدف الجوهرى من تلك الأعمال هو توسيع موارد اللغة العربية من المفردات والتعابير ، بحيث تصير وسيطا كفوا لحياة العصر الذهنية والثقافية ، وقد أدى المترجم العظيم حنين بن اسحق (٨٠٨ - ٨٧٣ م) دورا كبيرا في هذه المهمة .

وهكذا جرى استيعاب الثقافة اليونانية كلية بالصورة التي كانت عليها في مدارس ذلك الزمن في هذه اللغة المنتشرة . وقد كانت الثقافة اليونانية ثقافة متكاملة على نحو ما ، فلم تعد الخطابة ولا الشعر ولا المسرح ولا التاريخ تدرس كما كان في الماضي ، ولكن الدراسات المؤلفه شملت الفلسفة وتناولت معظم أعمال أرسطو وبعض محاورات افلاطون ذلك بالإضافة الى الطب ثم العلوم المنضبطة كالرياضة والفلك ، ثم العلوم الفارسية مثل التنجيم والسيمياء والسحر ، ولم تكن الفلسفة والعلوم ودراسات السحر والتنجيم قد تميزت عن بعضها بالقدر الذى نراه الآن فحدود ما كان ينظر اليه على أنه (علمي) لم تعد حدودا ثابتة وانما راحت

تتغير من عصر الى عصر ، وكان مما يتفق تماما مع ما كان مسروفا عن طبيعة الكون أن يعتقد المرء أن الطبيعة تنظم حياة الانسان وأن الالهة هي التي تحكم ما يحدث في العالم تحت القمر ، وأن يحاول المرء فهم كل هذا القوى وتسخيرها .

وربما كانت دوافع المترجمين ومن رعاهم من الخلفاء عملية بشكل جزئي ، فقد كانت المهارات الطبية مطلوبة ، كما أن التحكم في القوى الطبيعية قد يجلب القوة والنجاح ، كما كان هناك أيضا تطلع ثقافي عريض مثل الذي عبرت عنه أعمال الكندي (٨٠٦ - ٨٦٦ م) وهو المفكر الذي بدأت على يديه بواكير تاريخ الفلسفة الإسلامية .

« ويجب ألا نخجل من الاعتراف بالحق من أي طريق جاء ، حتى ولو جاءنا من أسلاف سبقونا أو من أمم أخرى ، فغاية الباحث عن الحق هو الحق ذاته » (٩) .

تعبير هذه الكلمات عن مدى الاثارة التي تحققت باكتشاف التراث اليوناني كما تمثل الثقة في النفس التي وصلت اليها حضارة امبراطورية تعتمد على القوى الدنيوية والعون الالهي .

وقد احتلت هذه الترجمات نقطة البدء في التراث العلمي باللغة العربية ، وقد استمرت وتطورت الى حد بعيد لتنتج التراث اليوناني المتأخر ، وتعتبر ترجمة مؤرخ العلوم الطبية العربي ابن أبي أصيبعة برهانا على ذلك الاستمرار حين ترجم النص الكامل لقسم « أبوقراط » الذي كان يؤديه اطباء اليونان : « أقسم بالله رب الحياة والموت وأقسم بأسكليبيوس ، وأقسم بكل القديسين » (١٠) .

وقد اختلطت بعض الموارد العلمية من أصول فارسية وهندية بالعلوم اليونانية ، فصجد الخوارزمي (٨٠٠ - ٨٤٧ م) الرياضى يكتب عن استخدام الأرقام الهندية وهي المعروفة حاليا بالعربية — في الحساب الرياضى . وقد كان لذلك الخلط مغزى عميق ، فكما وجد الخلفاء العباسيون البحر المتوسط والمحيط الهندي والأراضي الواقعة عليهما في منطقة تجارية واحدة ، كذلك انصهرت كل من اليونانية والفارسية والهندية مما في تراث واحد ، وقيل في ذلك انه « وللمرة الأولى في تاريخ العالم يصبح العلم دوليا على نطاق واسع » (١١) .

واستقبل العلم بسهولة في المجتمعات المتحدثة بالعربية أيا كان مصدره ، وصار الفلكيون مراقبين للوقت ، يحددون مواعيد الصلوات وشعائر العبادة ، وكان الأطباء يحظون باحترام ونفوذ لدى الحكام ، إلا أن بعض العلوم أثارت مسائل تتصل بحدود المعرفة الإنسانية ، فقد رفض بعض الأطباء فكرة أن تصاديف الأمزجة في الجسم محكومة بأحوال (حركة) النجوم ، كما أن ادعاءات السيمياءيين(*) لم تكن مقبولة على الإطلاق، والأهم من كل ذلك كان موقف الفلسفة التي طرحت إشكاليات ، فلم يكن من السهل أن تستوعب تعاليم الاسلام التي تطورت على أيدي علماء التوحيد والمشرعين وأن تتصالح مع مناهج واستنتاجات الفلسفة اليونانية .

كانت فرضيات تلك الفلسفة تقول بأن القيد الإنساني إذا استخدم بحكمة ، فإنه قادر على أن يكسب الإنسان مزيدا من المعرفة بالكون ، ذلك في حين كان على الإنسان المسلم أن يؤمن بأن المعرفة الأساسية اللازمة لحياة الإنسان منزلة إليه بكلمات الله التي أوحى بها إلى رسله ، فإن كان الاسلام حقا فما هي حدود الفلسفة ؟ وإذا كان ادعاء الفلاسفة صحيحا فما الحاجة إلى النبوة ؟ وقد علمهم القرآن أن الله خلق الكون بكلمته « كن » فكيف يمكن أن يتصالح ذلك المفهوم مع نظرية أرسطو التي تقول بخلود المادة ، وأن شكلها فقط هو الذي خلق ؟ وقد دخل افلاطون عالم العربية عبر ترجحات مفكرين متأخرين ، كما أن أعمال أرسطو جرت ترجمتها في إطار من الأفلاطونية الحديثة ، حتى أنها ترجمت بعنوان « الفقه الأرسطوطاليسي » وكانت الصورة في ذهن هؤلاء المفكرين أن الله خلق العالم ويرعاه من خلال هيكل من المقول الوسطية التي ألهمها بقدرته ، فكيف يمكن أن يتصالح هذا المفهوم مع فكرة أن الله المهيمن خلق العالم وما زال يتدخل مباشرة في الحياة الإنسانية ؟ وهل روح الإنسان خالدة ؟ وكيف يمكن أن تتصالح فكرة افلاطون عن أفضل شكل للحكومة والذي يكون فيه الفيلسوف ملكا ، مع المفهوم الاسلامي بأن أفضل نظام للحكم حسب مشيئة الله هو ذلك الذي كان أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ؟

وقد حاول طبيب مشهور هو أبو بكر الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥ م) أن يجيب على هذه الأسئلة بشكل واضح تماما ، فقد كان العقل الإنساني

(*) بالعبارة السيمياء أي علماء السيمياء - كما لا يخفى على لطف القارئ .
وليس الكيمياء المعروفة الآن ببقائها العملية ، وكان الشغل الشاغل للسيمياءيين في ذلك الوقت هو تحويل المعادن غير النفيسة إلى معادن نفيسة خاصة الذهب ، ويفضل صاحب معجم المورد مصطلح السيمياءيين (بالخفاء) - (المراجع) .

عنده هو المصدر الوحيد لبعض المعارف ، وأن طريق الفلسفة مفتوح لكافة الاستخدامات ، وأن ادعاءات الوحي زائفة ، وأن الأديان خطيرة .

وربما كان الفسارابي (ت ٩٥٠ م) نموذجاً لفيلسوف ظل على إسلامه باقتناع ، ففي رأيه أن الفيلسوف يمكن أن يتوصل إلى الحقيقة وأن يعيش على أساسها ، ولكن لا يستطيع كافة الناس أن يكونوا فلاسفة قادرين على إدراك الحقيقة مباشرة ، ومعظم الناس لا يتمكنون من إدراكها سوى بشكل رمزي ، وأن هناك بعض الفلاسفة الذين استطاعوا فهم الحقيقة بقدرة أحيال وقوة العقل ، واستطاعوا أن يعبروا عنها بالصور والأفكار ، أولئك كانوا هم الأنبياء ، وأن الأديان المرسلة كانت طريقة للتعبير عن الحق في شكل رموز يفهمها كافة من الناس ، وقد أنتجت الفطنة الرمزية المتنوعة أدياناً مختلفة ، ولكن جميع الأديان حاولت التعبير عن نفس الحقائق ، ولا يعني هذا بالطبع أن جميع المرسلين استطاعوا التعبير عنها بنفس الكفاءة .

لا يتعارض الإسلام إذن مع الفلسفة ، فهما يعبران عن نفس الحقائق بأشكال مختلفة تتناسب مع المستويات المختلفة لقدرة البشر على الاستيعاب ، ويستطيع الإنسان المستنير إذن أن يعيش بالفلسفة ، وهو ذلك الإنسان الذي استطاع فهم الحقيقة برموز الفلسفة ولكنه بلغ درجة من الفهم تؤهله للاسترشاد بالفقه ، أما الناس العاديون (العامة) فعليه أن يعيشوا في طاعة الشريعة .

ويمكن في نظرية الفارابي أن الفلسفة في شكلها النقي غير صالحة للكافة ، وقد قدر للتمييز بين الصفوة المثقفة والعامة أن تصير فكرة سائدة في فكر المجتبع الإسلامي ، واستمرت الفلسفة في الحياة إلا أنها هورست على نطاق خاص بين الأطباء مثلاً ، هؤلاء الذين كانت تحوّلهم الأسرار ويستقبلون بالشك ، إلا أن بعض الأفكار الفلسفية قدر لها أن تتخلل أفكار جيل الفارابي والأجيال اللاحقة ، وقد تزامن الفارابي مع البوالة الفاطمية .

وكان من الممكن أن تظهر أفكار الأفلاطونية الجديدة المتعلقة بنظام الانبعاث المقدس (أو الظهور المقدس أو الميلاد المقدس divine emanation) في أفكار الإسماعيلية التي لاحقها تطور كامل . كما تداخلت هذه الأفكار في أزمنة لاحقة مع الفكر الصوفي كما عبر عنه الكتاب الصوفيون الذين حاولوا شرح طريقهم their search وما يملون أن يجدوه في خاتمة هذا الطريق .

الجزء الثاني

المجتمعات الإسلامية

(من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر الميلادي)

تتناول الفصول الخمسة التي تشكل مادة هذا الجزء فترة انقسام فيها العالم الاسلامي في بعض النواحي ولكنه احتفظ بوحدة في بعضها الآخر ، فقد تغيرت حدود العالم الاسلامي ، فامتدت الى الأناضول والهند ولكنها فقدت أسبانيا التي استعادتها الممالك المسيحية ، وضمن هذه الحدود ظهر انقسام بين المناطق حيث اللغة العربية هي اللغة الرئيسية للحياة والثقافة ، والمناطق التي ظلت اللغة الرئيسية للكتابة الدينية والشرعية فيها هي اللغة الفارسية الآخنة في الانتعاش حتى صارت الوسيط الرئيس للثقافة العلمانية ، وأصبح الأتراك مجموعة عرقية لغوية ثالثة وشكلوا الصفوة الحاكمة في معظم الجزء الشرقي للعالم الاسلامي . وظلت الخلافة العباسية بالية في بغداد حتى القرن الثالث عشر وفي المناطق التي تتحدث العربية وان ظهر انقسام سياسي عريض بين مناطق ثلاث : العراق المرتبطة عادة بإيران ، ومصر التي عادة ما حكمت سوريا وغرب الجزيرة العربية ، والمغرب بأجزائه المختلفة .

وعلى الرغم من الانقسامات والتغيرات السياسية ، كان للجزء الذي يتحدث العربية من العالم الاسلامي خلال هذه الفترة أشكال اجتماعية وثقافية مستقرة نسبياً أظهرت أوجه تشابه بين منطقة وأخرى ، ويستكشف هذا الجزء من الكتاب عوالم سكان المدن والرعاة الرحل والروابط بينهم ، ويبين كيف نشأ نوع من التحالف في المضالغ بين العناصر المسيطرة من سكان الحضر والحكام الذين استمدت سلطتهم مشروعيتها من عهد من ألكاوا السلطة ، وفي قلب الثقافة الراقية للمدن انتقل تراث من التعاليم الدينية والقانونية خلال مؤسسات خاصة (المدارس) ، وقد ارتبط بها تراث آخر من الأدب العلماني والفكر الطبقي والفلسفي وانتقلت التكنات الغيبية التي انتقلت على أيدي جماعات الصوفية ولعبت دوراً مهماً في تكامل طبقات المجتمع المسلم ، ورغم أن اليهود والمسيحيين قد تناقصوا في العدد إلا أنهم حافظوا على تقاليدهم الدينية ، ولكن اليهود على وجه الخصوص شاركوا في إثراء الفكر والأدب وبرزوا في التجارة بين المدن .



الفصل الخامس

العالم الاسلامى العربى

الدول والاسر الحاكمة

بنهاية القرن العاشر ، ظهر الى الوجود عالم اسلامى توحده ثقافة دينية مشتركة تجلت فى اللغة العربية والروابط الانسانية التى شكلتها التجارة والهجرة والحج ، ولم يعد ذلك العالم مجسداً فى وحدة سياسية واحدة ، فقد كان هناك ثلاثة حكام يطالبون بلقب الخلافة فى بغداد والقاهرة وقرطبة ، كما كان هناك آخرون ممن كانوا يواقع الامر حكاما لدول مستقلة ، ولم يكن ذلك مستغربا ، كان الحفاظ على العديد من البلدان بتقاليدها ومصالحها المختلفة ضمن امبراطورية واحدة لمدة طويلة انجازا متميزا ، ولم يكن تحقيقه ممكنا بدون قوة الايمان الدينية والتى شكلت مجموعة حاکمة فاعلة فى غرب الجزيرة العربية ، ثم أوجدت تحالفا فى المصالح بين هذه المجموعة وقطاعات متنامية من المجتمعات التى سيطرت عليها ، فلم يكن بإمكان الموارد العسكرية أو الادارية للخلافة العباسية وحدها الحفاظ على اطار الوحدة السياسية الى الأبد فى مثل هذه الامبراطورية الممتدة من آسيا الوسطى الى ساحل الأطلنطى .

وبدا من القرن العاشر وما بعده أصبح التاريخ السياسى للبلاد التى كان فيها الحكم وجزء متزايد من السكان من المسلمين ، سلسلة من التواريخ الاقليمية التى تمثل صعود ونهيار الاسر الحاكمة والتى البعثت قوتها من المواسم الى العنود التى لم تكن محددة بشكل واضح .

ولن نحاول هنا أن نورد تفاصيل تاريخ كل هذه الاسر لكننا نحاول توضيح النسق العام للحوادث على الأقل . لهذا الغرض يمكن تقسيم العالم الاسلامى الى ثلاث مساحات واسعة لكل منها مركز قوتها ، الاولى تشمل ايران والأراضى التى تقع فيما وراء نهر أموداريا (*) وجنوب العراق ، وقد

(*) هو نهر جيحون ، وقد فضلنا الإبقاء على اسمه الأجنبى فى النص لسهولة الاستدلال فى الأطالس الأجنبية - (المراجع) .

ظل مركز القوة الرئيسي فيها ، لبعض الوقت فيما بعد القرن العاشر ، في بغداد التي تقع في قلب المنطقة الزراعية الغنية والشبكة التجارية الواسعة الهندي ، وبحكم النفوذ والمكانة المتراكمتين على مدى قرون من حكم العباسيين . وشملت المنطقة الثانية « مصر وسوريا وغرب الجزيرة العربية » وكانت القاهرة هي مركز القوة فيها ، وهي المدينة التي بناها الفاطميون وسط ريف كثيف خصب منتج في قلب النظام التجاري الذي ربط عالم المحيط الهندي بعالم البحر المتوسط ، والثالثة هي المغرب والأجزاء الإسلامية من إسبانيا أو ما عرف بالأندلس ، وفي هذه المنطقة لم يكن هناك مركز قوة مسيطر بل عدة مراكز تقع ضمن مناطق من الزراعة الكثيفة في نطاق تتحكم في التجارة بين أفريقيا ومختلف أجزاء عالم البحر المتوسط .

وبشكل مبسط للغاية ، فإن التاريخ السياسي للمناطق الثلاث يمكن تقسيمه إلى عدة فترات تغطي أولها القرنين العاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وفي هذه الفترة حكم السلاجقة المنطقة الشرقية، وهي أسرة حاكمة يساندنها الجيش التركي ، وتعتنق الإسلام السني ، وقد فرضوا أنفسهم في بغداد في ١٠٥٥ م كحكام فعليين تحت سيطرة العباسيين ، وكانت لهم السيطرة على إيران والعراق ومعظم سوريا ، واستولوا على أجزاء من الأناضول من الإمبراطورية البيزنطية (١٠٣٨ - ١١٩٤) ولم يطالبوا بالخلافة ، وكان يطلق على رأس هذه الأسرة وما بعدها لفظ (سلطان) وهي تعني مالك الحكم على وجه التقريب .

وفي مصر ، استمر الفاطميون في الحكم حتى ١١٧١، ثم خلفهم صلاح الدين (١١٦٩ - ١١٩٣) وهو قائد عسكري من أصول كردية ، وقد صاحب تغير الحكم تغير في الانتماء الديني ، ففي حين ينتمي الفاطميون إلى الفرع (الإسماعيلي) من الشيعة ، كان صلاح الدين سنيا وكان قادرا على إثارة الحماس والغيرة الدينية للمسلمين المصريين والسوريين لدهر الصليبيين الذين أسسوا دولا مسيحية في فلسطين وعلى الساحل السوري في نهاية القرن الحادي عشر، وكانت الأسرة الحاكمة التي أسسها صلاح الدين هي « الأيوبيون » قد حكمت مصر من ١١٦٩ - ١٢٥٢ ، وسوريا حتى ١٢٦٠ ، وبعض أجزاء الجزيرة العربية حتى ١٢٢٩ .

وفي المنطقة الغربية انقسم الخلفاء الأمويون في قرطبة في أوائل القرن الحادي عشر إلى عدد من الممالك الصغيرة ، مما مكن الدول المسيحية، التي استطاعت البقاء في شمال إسبانيا ، من البدء في التوسع جنوبا ، وإن أمكن صدهم لبعض الوقت بالظهور المتعاقب لأسرتين حاكمتين استمدتا

قوتها من فكرة الإصلاحات الدينية وكذا من قوة شعوب البربر في الريف المراكشي أولاها كانت « المرابطين » الذين جاءوا من الأطراف الجنوبية لمراكش (١٠٥٦ - ١١٤٧) ، ثم جاء « الموحدون » الذين تمتعوا بتأييد البربر من جبال أطلس ، والذين امتدت امبراطوريتهم في أعظم توسعاتها لتشمل مراكش والجزائر وتونس والجزء الاسلامي من أسبانيا (١١٣٠ - ١٣٦٩ م) .

وتشمل الفترة الثانية بشكل تقريبي للغاية القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وخلال القرن الثالث عشر اضطربت المنطقة الشرقية بفعل غزو خارجي للعالم الاسلامي قامت به سلالة متغولية غير مسلحة من شرق آسيا بجيش مكون من المغول والأتراك من قبائل السهوب الداخلية غير آسيا ، والذين فتحوا إيران والعراق وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد عام ١٢٥٨ م ، وقد سيطر فرع من هذه العائلة على العراق وإيران للثورة قرن تقريبا (١٢٥٦ - ١٣١٦ م) واعتنقوا الاسلام خلال هذه الفترة ، وقد حاول المغول الاتجاه غربا ولكن أوقف تقدمهم في سوريا جيش مصري من الجنود العبيد (المماليك) الذين جلبهم الأيوبيون ، وقد خلع قواد هذا الجيش الحكام الأيوبيين وشكلوا فيما بينهم نخبة عسكرية حاكمة قامت باستقدام المماليك من القوقاز وآسيا الوسطى ، واستمرت هذه النخبة على حكم مصر لأكثر من قرنين (المماليك : ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) وقد حكموا سوريا أيضا بدءا من ١٢٦٠ م وسيطروا على المدن المقدسة في غرب الجزيرة العربية . أما في المنطقة العربية ، فقد خلفت « الموحدون » أسرة « المرينيون » (بنو مرين) (١١٩٦ - ١٤٦٥ م) وعدد من الدويلات من بينها « الحفصيون » الذين حكموا من عاصمتهم في تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٤ م) .

وفي الفترة الثانية تغيرت حدود العالم الاسلامي بشكل ملحوظ ، ففي بعض الأماكن انكمشت الحدود تحت ضغط الهجوم من الدول المسيحية لغرب أوروبا ، سقطت صقلية أمام النورماندين من شمال أوروبا ، وعاد معظم أسبانيا الى الممالك المسيحية في الشمال ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر سيطروا على كل البلاد ما عدا مملكة غرناطة في الجنوب ، وفي كل من صقلية وأسبانيا بقي السكان من المسلمين العرب لفترة من الوقت ، ولكنهم في النهاية تلاشوا إما بالطرده أو بامتثال الدين المسيحي ، ومن ناحية أخرى سقطت الدول التي أسسها الصليبيون في سوريا والشام وفلسطين على أيدي المماليك أو بفعل التوسع الذي بدأه السلاجقة الى الأناضول والذي امتد الى أبعد من ذلك على أيدي أسرات تركية أخرى ، وعليه ، تغيرت الطبيعة السكانية بدخول رجال القبائل الأتراك وتحول

الكثير من السكان اليونانيين إلى الإسلام ، كما كان هناك توسع في الحكم
الاقتصادي، واعتراف الإسلام شرقا إلى شمال الهند. وفي أفريقيا أيضا استمر
الإسلام. في الانتشار على طول الطرق والممرات التجارية إلى الساحل على
الطرف الجنوبي من الصحراء وعلى طول وادي النيل وحتى الساحل
الأفريقي الشرقي .

وفي الفترة الثالثة التي تغطي القرنين الخامس حتى السادس عشر ،
واجهت الدول الإسلامية تهديدا جديدا من دول غرب أوروبا ، فقد تنامت
تجارة وانتاج المدن الأوروبية وناقست المنسوجات ، التي يصدرها التجار
من البندقية وجنوة ، منتجات مدن العالم الإسلامي ، واكتمل الغزو المسيحي
لإسبانيا بسقوط مملكة غرناطة في ١٤٩٢م وأصبحت شسبه الجزيرة
يالكامل تحت حكم البرتغاليين والأسبان المسيحيين ، وهددت القوة الإسبانية
القبضة الإسلامية على المغرب كما سيطر قراصنة جنوب أوروبا على شرقي
البحر المتوسط .

وفي نفس الوقت ، مكنت التفورات في التقنيات البحرية والمبكرية
وخاصة استعمال البارود من تعاطم القوى فظهرت دولات أكثر قوة وأطول
عمرًا ، وغطت الجزء الأكبر من العالم الإسلامي في تلك الفترة . ففي أقصى
الغرب خلفت بنى « مرين » وغيرها أسر حاكية جديدة : أولا « السعديون »
(١٥١١ - ١٦٢٨ م) . وبعدها « العلويون » الذين حكموا من (١٦٣١ م حتى
وقتينا هذا ، وفي الجانب الآخر من المتوسط تلمت أسر حاكمة تركية هي
« العثمانيون » في الأناضول على الحدود المتنازع عليها مع الامبراطورية
البيزنطية ، ومنها توسعت إلى جنوب شرقي أوروبا ، وبعدها فتحت بقية
الأناضول وأصبحت العاصمة البيزنطية القسطنطينية عاصمة للدولة
العثمانية وتعرف الآن بإسطنبول (١٤٥٣ م) . وفي بدايات القرن
السادس عشر هزم العثمانيون المماليك وضموا سوريا ومصر وغرب الجزيرة
إلى امبراطوريتهم (١٥١٦ - ١٥١٧ م) وبعدها قاموا بالدفاع عن ساحل
المغرب ضد إسبانيا ، وبذلك أصبحوا خلفاء وحكاما للمغرب حتى حدود
غراكش ، ودامت امبراطوريتهم بشكل أو بآخر حتى ١٩٢٢ م .

وإلى الشرق حدث آخر اختراق واستبح الهدي ، حين قاد تيمور لنك
جيشه المؤلف من رجال القبائل من وسط آسيا ، وقد خلف وراءه أسرة
حاكمة في إيران وتركستان لكنها لم تدم طويلا (١٣٧٠ - ١٥٠٦ م) فمع
بداية القرن السادس عشر حلت محلها سلالة أخرى دامت لفترة أطول هم
الصفويون ، الذين بسطوا حكمهم من المنطقة شمال غرب إيران ليطغى

البلاد وما وراسها بالكامل (١٥٠١ - ١٧٣٢ م) • وأسس المنول ، وهم سلالة تنحدر من الباقلة المنولية الحاكمة ومن « تيمور » امبراطورية فى شمال الهند عاصمتها دلهى (١٥٢٦ - ١٨٥٨ م) •

وبخلاف هذه الدول الأربع العظيمة : العلويين والعثمانيين ، والسعديين ، والمنول ، كانت هناك دول أصغر فى القرم وما وراء نهر جيحون وفى وسط وشرق الجزيرة العربية والأراضى التى اعتنق سكانها الاسلام حديثا فى أفريقيا •

العرب والفرس والتورك

لم تقضى الخلافات السياسية على الوحدة الثقافية لعالم الاسلام ، بل تعمقت تلك الوحدة بتزايد اعتناق السكان للاسلام ، وقد عبر الدين الاسلامى عن نفسه فى نظم التفكير وفى المؤسسات ، وبمرور الوقت بدأ ظهور القسم فى الجزء الشرقى من العالم الاسلامى فى تلك الوحدة الثقافية التمرامية الأطراف فيفضل وعى تلك الشعوب ، لم يطمس الاسلام ماضيها تماما بالدرجة التى حققها فى الغرب •

وقد اخمدت اللغة العربية تدريجيا اللغات المحلية والبلهجات الدارجة فى غرب العالم الاسلامى ، وبرغم ذلك ظلت الفارسية مستخدمة فى ايران والمناطق الشرقية الأخرى • واستمر الاختلاف بين العرب والفرس من وقت لآخر منذ قهر العرب الامبراطورية الساسانية ، واجتذبوا مسئوليتها للعمل فى خدمة الخلفاء العباسيين وكذا الطليقة المثقلة فيها لتخليق ثقافة اسلامية ، وقد أوجد الاحساس بالاختلاف مع نبرة زاعقة من الصبء اصطلاح «الشعوبية» وهو خلاف أدبى دخل العربية عن المزايا النسبية للشعوب فى ظل الاسلام ، وظل استخدام الفرس للبهلوية فى كتابات الديانة الزرادشتية ، كما استمر أيضا لفترة فى ادارة الحكومة •

وفى القرن العاشر بدأ فى الظهور أمر جديد : أدب راق بلغة فارسية جديدة ليست مختلفة تماما فى التركيب النحوى عن البهلوية ولكنها مكتوبة بحروف عربية واثرتها الكلمات العربية ، ويبدو أن ذلك حدث أولا فى شرق ايران فى قصور الحكام المحليين غير الملمين بالعربية وقد عكس الأدب الجديد الى حد ما أنواع الكتابة العربية التى كانت سائدة فى القصور الأخرى من الشعر الغنائى وشعر المديح والتاريخ وبعض الأعمال الدينية ، وكان هناك هناك شكل آخر للخط فكان فارسيا بأسلوب متميز ، والأشعار الملحمة التى تسجل التاريخ التقليدى لايران وحكامها والتى كانت

موجودة في عصور ما قبل الاسلام ، انتعشت في تلك الفترة واعدت احيائها وتجلت في الفارسية الجديدة لتسأخه شكلها النهائي في « البشاهنامه » للفردوسي (٩٤٠ - ١٠٢٠) وقد كانت ايران متفرقة بين البلاد الاسلامية في احتفاظها بروابط قوية واعية بماضيها قبل الاسلام ، ولكن ذلك لم يؤد الى رفضها للتراث الاسلامي ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا استمر الفرس في استبدال اللغة العربية في الكتابات الدينية والقانونية ، بينما ظلت الفارسية لغة للأدب العلماني ، وامتد تأثير هذه الثقافة المزوجة شمالا الى تركستان وشرقا الى شمال الهند .

بهذه الطريقة انقسمت الدول الاسلامية الى جزأين ، كانت الثقافة الرفيعة في أحدهما قاصرة على اللغة العربية ، وكان الجزء الآخر يستخدم اللغتين العربية والفارسية لأغراض مختلفة ، وقد ارتبط ذلك الانقسام للغوى بانقسام آخر بين مراكز القوى السياسية ، فقد أوجد صعود الباطنيين في الغرب ثم السلاجقة في الشرق حلولا بين سوريا والعراق ، وقد جاء سقوط الخلافة العباسية وتدمير قوة بغداد على أيدي المغول ثم هزيمتهم أمام المماليك في سوريا في القرن الثالث عشر ليحل هذا الانقسام دائما ، منذ ذلك الوقت فصاعدا كانت الى الشرق مناطق تحكمها دول مراكزها في ايران أو تركستان أو شمال الهند ، وإلى الغرب مناطق تحكم من القاهرة أو من مدن في المغرب أو أسبانيا أو جنوب العراق ، التي كانت منطقة مركزية ثم أصبحت الآن منطقة حدودية . واستمر هذا الانقسام باقيا بشكل أو آخر عندما وصل « الصفويون » الى السلطة في ايران وامتص العثمانيون معظم الدول التي تحلت بالعربية في امبراطوريتهم وتصارعت الامبراطوريتان لفترة من أجل السيطرة على العراق .

ولم يكن هناك انقسام سياسي بين العرب والفرس لأنه منذ القرن الحادي عشر فصاعدا لم تعد الجماعات الحاكمة في المنطقتين عربية ولا إيرانية من حيث الأصول أو اللغة أو التراث السياسي ، وبدأ الأتراك المنحدرون من الشعوب البدوية الرعوية من أواسط آسيا في التحرك عبر الحدود الشمالية الشرقية ، وهي منطقة نفوذ الاسلام خلال الحقبة العباسية ، وقد جاءوا اليها فرادى أول الأمر ثم تحركت منهم مجموعات عبر الحدود ودخلوا واعتنقوا الاسلام ، وانخرط البعض في خدمة جيوش الحكام ، وفيما بعد نشأت فيما بينهم أسر حاكمة ، وكان « السلاجقة » من أصول تركية ، وعندما بقوا في التوسع غربا باتجاه الأناضول تحرك معهم الأتراك ، وقد جاء الكثير من المماليك الذين حكموا مصر من أرض تركية ، وكان الجانب الأعظم من جيوش المغول من الأتراك وكان للغزو المملوكي تأثير دائم أدى الى استقرار أعداد

كبيرة من الأتراك ، في إيران والأناضول ، وبعدها استمد العثمانيون والصوفيون والأسر المغولية الحاكمة معظم قوتهم من الجيوش التركية

وقد استمرت الأسر الحاكمة التي أسسها الترك في استخدام أشكال من اللغة التركية في الجيش والقصر . ولكنهم بمرور الوقت انضموا إلى عالم الثقافة العربية أو العربية الإيرانية أو على الأقل تصرفوا كاسيادها وحماها ، ففي إيران كانت التركية لغة الحكام والجيوش ، والفارسية للادارة والثقافة العلمية ، والعربية للثقافة القانونية والدينية ، وإلى الغرب كانت العربية هي لغة الحكم ، وهي أيضا لغة الادارة والثقافة الرفيعة ، وقد تغير ذلك إلى حد ما عندما أدى صعود الامبراطورية العثمانية إلى ظهور لغة وثقافة عثمانية تركية متميزة . أصبحت لغة كبار المسؤولين وكذلك الجيش والقصر . وفي المغرب وما تبقى من أسيانيا-الإسلامية تكلمت العربية هي اللغة السائدة للحكومة والثقافة الراقية رغم أن البربر من جبال أطلس وتغوم الصحاري لعبوا دورا سياسيا في بعض الأوقات جعلهم يستولون في مجال الثقافة العربية . وبالرغم من ذلك فتنازل الغزو العثماني في القرن السادس عشر جلب بعضا من لغته وثقافته السياسية إلى سباحل المغرب :

وينحصر اهتمام هذا الكتاب بالجزء الغربي من العالم الإسلامي الذي كانت فيه العربية هي اللغة السائدة لكل من الثقافة الراقية وبشكل أو بآخر لغة الحديث بالطبع ، فمن الخطأ الاعتقاد بأن هذه المنطقة كانت منفصلة بشكل متجدد عن العالم من حولها ، حيث كانت الدول التي تتحدث العربية تفتقر في الكثير من النسخات مع الدول التي تتحدث الإيرانية والتركية ، وكان للأراضي الواقعة حول المحيط الهندي أو البحر المتوسط روابط وثيقة بين بعضها البعض بصرف النظر عن الديانة السائدة ، وعاش العالم كله ضمن هذه الضوابط التي فرضتها حدود الموارد البشرية والمعرفة التقنية وعن كيفية استخدامها ، ومن التبسيط المفرط الاعتقاد بأن هذه المنطقة القاسية كانت تشكل بلدا واحدا ، لذا فمن الأفضل النظر إلى هذه الأماكن التي سادتها اللغة العربية باعتبارها مجموعة من المناطق تختلف كل منها عن الأخرى في الوضع الجغرافي والطبيعة ، وتسكنها شعوب توارثت تراثا ثقافيا واجتماعيا متميزا ظل باقيا في طرق المعيشة وربما أيضا في عادات الفكر والمشاعر حتى في المناطق التي ضعف فيها الوعي ، أو انتهى بها كان موجودا قبل دخول الإسلام ، كذلك أيضا كان حال التحولات الاجتماعية التي يمكن رصدتها في هذه المناطق ، حيث لتاحت اللغة المشتركة والثقافة التي عبرت عنها الطبقات الحضرية المتعلمة بسهولة ملحوظة في التواضع مع بعضها البعض .

التقسيمات الجغرافية

من الممكن مع بعض التبسيطات تمييز خمس مناطق داخل المنطقة التي سادت فيها العربية : الأولى هي شبه الجزيرة العربية التي نفسها المجتمع الاسلامي الناطق بالعربية فيها ، فشبه الجزيرة العربية كتلة من الأرض تتميز عن العالم من حولها من ثلاثة جوانب : البحر الأحمر والخليج وبحر العرب (جزء من المحيط الهندي) وتنقسم الى عدة مناطق تختلف عن بعضها البعض من حيث الطبيعة ، كما تختلف في التطورات التاريخية في معظم الفترات . والخط الأساسي للتقسيم هو ذلك الذي يجرى تقريبا من الشمال الى الجنوب موازيا للبحر الأحمر ، فالى غرب هذا الخط منطقة من الصخور البركانية والسهل الساحل . (تهامة) ترتفع الى مجموعة من التلال والهضاب وهي جبال الحجاز وجبال عسير واليمن والتي تصل قممها الى ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر الى الجنوب ، وتمتد الجبال الجبلية نحو الجنوب الشرقي مع واد كبير هو وادي حضرموت الذي يقطعها .

وتقع جبال اليمن على أطراف المساحة التي تهب عليها الرياح الموسمية الآتية من المحيط الهندي ، وكانت منطقة للزراعة المنظمة للفاكهة والحبوب منذ وقت طويل ، وإلى الشمال تقل الأمطار وتصبح غير منتظمة ، وليس هناك أثمار من أي نوع ولكن هناك موارد مائية محدودة من الينابيع والآبار والجداول الموسمية ، أما نمط الحياة الذي أحسن الاستفادة من الموارد الطبيعية فقد كان ذلك الذي زاول بين تربية الابل والحيوانات الأخرى في حركة هجرة منتظمة على مدار السنة مع زراعة النخيل والأشجار الأخرى في الواحات حيث تتوفر المياه .

وإلى شرق الجبال تميل الأرض وتتحدر شرقا باتجاه الخليج ، وفي الشمال والجنوب صحارى رملية هي صحراء النفود والربع الخالي وبينهما سهوب نجد الصخرية والأحساء وامتدادها على ساحل الخليج والأمطار قليلة فيما عدا على بعض مرتفعات الشمال ، ولكن الينابيع والسيول الموسمية جعلت بالإمكان تحقيق حياة مستقرة قائمة على الزراعة في الواحات ، وعدا ذلك كان هناك رعي الابل الذي يستلزم هجرات موسمية لمسافات كبيرة ، وفي الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة منطقة تالفة هي « عمان » وهي ليست مختلفة عن اليمن في الجنوب الغربي ، ومن السهل الساحل تمتد سلسلة من الجبال تصل الى ارتفاعات تزيد عن ٣٠٠٠ متر ، وفيها الينابيع والعيون والجداول التي وفرت المياه لتوزع بنظام رى قديم مما مكن

للزراعة المستقرة . وعلى الساحل تقع سلسلة من الموانئ ينتظم فيها الصيد في مياه الخليج والنفطى بحثا عن اللؤلؤ منذ العصور القديمة .

وترتبط الممرات بين الجنوب والشمال الأراضى الواقعة حول المحيط الهندى ببلاد حوض البحر المتوسط ، وفي الجزء الشرقى ممرات رئيسية ممتدة على طول سلسلة من الواحات الى سوريا والعراق ، وترتبط ممرات بحرية الموانئ على ساحل الخليج وعمان بسواحل الهند وشرق أفريقيا ، وكان الانتاج من الطعام والمواد الخام قليلا للغاية ولا يساعد على تحول هذه الموانئ والمدن والأسواق الى مدن كبيرة أو مراكز للصناعة والقوة ، أما مكة والمدينة فقد دعمتهما بسخاء هبات البلاد المجاورة .

وترتبط شبه الجزيرة من الشمال بمنطقة الهلال الخصيب وهي الأراضى الهلالية الشكل الممتدة حول اطار صحراء الحماة السورية وتعتبر الامتداد الشمالى لسهوب وصحارى نجد ، وهي اراضى حضارة قديمة متميزة آبادت نصفها الغربى الحضارة اليونانية والرومانية وبادت نصفها الشرقى الحضارة الايرانية ، وفي تلك المنطقة بالذات تطور مجتمع واضح المعالم وثقافة اسلامية محددة ، بشكل أفضل مما جرى فى شبه الجزيرة العربية .

ويمثل الجزء الغربى من الهلال الخصيب منطقة يعرفها الجيل السابق من الممارسين والرحالة باسم سوريا ، وهنا كما فى غرب الجزيرة العربية تمتد الانقسامات الجغرافية الرئيسية من الغرب الى الشرق ، وهناك خلف الشريط الساحلى من السهول سلسلة من الأراضى العالية ، وترتفع الأرض عن المركز حتى تشكل جبال لبنان ثم تنحدر جنوبا لتشكّل تلال فلسطين، ومن ورائهما الى الشرق جزء من الأخدود الكبير الممتد خلال البحر الميت والبحر الأحمر الى شرق أفريقيا ، وخلفها أيضا منطقة من الأراضى المرتفعة التى تعرف بالسهول الكبير أو الهضبة الداخلية التى تتغير تدريجيا حتى سهول وصحارى الحماة . وفى بعض المناطق نظم عميقة للرى استخدمت مياه النهر الجنوبى الكبير والأنهار الصغيرة للحفاظ على الواحات الخصبة خاصة تلك التى تقع حول دمشق المدينة القديمة ، وتعتمد معظم هذه الزراعات على مياه الأمطار وتسقط على المنحدرات الشرقية للتلال الساحلية والجبال أمطار كافية لانتظام الزراعة طالما أمكن ضبط التربة بتدريج جوانب التلال ، أما المناطق الأخرى فهى مزعجة بالتفاوت الكبير فى كميات الأمطار من عام الى عام والاختلاف الكبير فى البرد والحرارة ، وفى السهول الداخلية تتغير الميزات النسبية لزراعة الحبوب ورعاية الابل والأغنام بشكل كبير من وقت لآخر .

وقد كانت سوريا مرتبطة بشكل وثيق ببقية شرق حوض المتوسط عن طريق موانئها والطريق البرى الممتد بطول ساحل مصر، وكانت مرتبطة داخليا أيضا مع غرب الجزيرة بطرق تمتد عبر صحراء الحماة أو الحافة الشمالية والأراضي الواقعة الى الشرق ، وقد ساعد ازدهار التجارة الطويلة للمدى والانتاج الوافر من المواد الغذائية والمواد الخام ، على تصامى المدن الكبيرة الواقعة فى السهول الداخلية والمرتبطة بالساحل ، فقامت مدينة حلب فى الشمال ونضات دمشق فى المركز .

وتؤدى الطرق التى تمتد عبر أو حول صحراء الحماة الى وديان النهرين التوامين دجلة والفرات ، فينبغيان من مرتفعات الأناضول ويتدفقان باتجاه جنوب الشرق تقريبا ويقترب كل منهما من الآخر وبعدها ينقسمان ثم يتحدان فيصبان فى النهاية فى الطرف الشمالى من الخليج ، وتنقسم الاراضى الواقعة بينهما وحولهما الى منطقتين ، الجزيرة فى الشمال وهى الأرض المعروفة للرحالة القدماء والعلماء بأعلى ما بين النهرين . وقد زادت طبيعة المرتفعات من صعوبة استخدام مياه النهر للرى أو زراعة الحبوب ما عدا المناطق المتاخمة للأنهار أو روافدها . ويعيدا عن الأنهار نجد الأمطار غير منتظمة والتربة خفيفة مما يوجه النشاط الى تربية الأغنام وقطعان الماشية والابل . وإلى الشمال الشرقى من الأنهار هناك أرض من نوع آخر ، هى جزء من سلاسل جبال الأناضول وتسمى كردستان نسبة للأكراد التى يسكنونها ، هناك أيضا - كمثال مسلوح جبال السلسل السورى - يمكن استخدام الأراضي والمياه لزراعة الأشجار فى الأراضي العالية ، والحبوب فى الأراضي المنخفضة ، كذلك تربية الأغنام والماعز بالانتقال المنتظم بين المراعى الشتوية فى وديان الأنهار والمراعى الصيفية فى أعالي الجبال .

وإلى الجنوب فى العراق ، تختلف طبيعة الأرض ، حيث تنوب ثلوج جبال الأناضول فى الربيع وينحدر جزء كبير من الماء الى الأنهار ويفيض على السهول المحيطة وقد كونت الرواسب المتخلفة عن الفيضانات طوال آلاف السنين سهولا غرينية شاسعة ، هى ديف العراق المعروف بالسوداء حيث تزرع الحنطة وأشجار النخيل على نطاق واسع ، وكان الرى هنا أسهل من الشمال ، لأن السهل كان خاليا تقريبا من التواءات ومنذ عصر البابليين القدماء كان هناك نظام واسع من القنوات لتوزيع المياه على السواد ، وقد أدى البسط هذا الوادى وعنف الفيضانات الى ضرورة الحفاظ على القنوات فى حالة جيدة ، فبدون ذلك تفيض المياه على جوانب النهر فى المناطق المحيطة وتشكل مساحات من المستنقعات الدائمة .

وقد منهل ، عنم وجود تنوءات ، على الرعاة الرحل من نجد الانتقال الى وديان الأنهار واستخدام الأراضي للرعي بدلا من الزراعة ، واعتمد أمن واقتصاد السود على قوة الحكومات ، وهي بطورها جلبت غذاها والمواد والأغوال من الريف الذي كان تحت حمايتها . وظهرت سلسلة من المدن العظيمة في قلب السود حيث يتقارب دجلة والفرات : حيث نشأت بابل والمدائن عاصمة الساسانيين والعاصمة العباسية بغداد .

وبالإضافة الى الطرق التي تربط بين سوريا ونجد ، امتدت الممرات من العراق الى الأراضي المرتفعة في إيران الى الشرق ، وهي أكثر سهولة في الجنوب منها في الشمال . ولم تكن الملاحة سهلة في الأنهار في معظم مجراها، ولكن الممرات البحرية امتدت من نقطة التقائهما وتدفعهما الى الخليج ثم الى المحيط الهندي ، وقد كانت البصرة لفترة طويلة هي الميناء الرئيسي أثناء حكم الدولة العباسية .

والمناطق التالية تقع الى الغرب من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وجسر أرض ضيق ، وإلى الشمال منه صحراء رملية تؤدي الى وادي نهر النيل الذي يبدأ من مرتفعات شرق أفريقيا ويؤدق قوة يتحركه شمالا ويرتبط بروافده المتعددة من جبال الحبشة ، ويتدفق خلال حوض طيني تراكم خلال القرون ، وهو في بعض الأجزاء سهل عريض وفي البعض الآخر ضيق ضيق ، وفي المرحلة الأخيرة ينقسم الى عدة أفرع ويعبر خلال دلتا خصبة الى البحر المتوسط ، وفي الصيف يصب ذوبان الجليد في مرتفعات شرق أفريقيا (٢) يرتفع مستوى المياه ويتدفق النهر في فيضان ، ومنذ وقت مبكر أمكن رفع المياه بأدوات عديدة كالطنبور والساقية والشادوف على نطاق صغير من النهر ، وفي بعض المناطق خاصة في الشمال كان هناك نظام قديم من حواجز الحماية التي تحول المياه عند فيضان النيل الى أحواض من الأراضي المحاطة بجسور حيث تظل لفترة ثم تفرغ عائنة الى النهر بهبوط الفيضان تاركة خلفها الطمي والغرين الذي يثرى التربة . وكانت الحبوب والفاصيل الأخرى تزرع بوفرة في الأراضي المروية بهذه الطريقة ، كما أن هناك أيضا بعض الواحات ذات الزراعة المستقرة في الصحراء المحيطة بطول الجانب الغربي من وادي النهر .

(*) من المعروف أن هذه الزيادة في مياه النيل تكفي نتيجة هطول الأمطار على هضبة الحبشة ومن المعروف أيضا أن النيل الأزرق يمد بأكثر من ٢٧٠ من المياه التي قد لمصر - (المراجع) .

ويمثل الجزء الشمالي من وادي النيل أراضي مصر ، وهي بلد ذو تقاليد وحضارة راقية ، ووحدة اجتماعية تخلقت وأصبحت دائمة بتأريخ طويل من الاستقرار السياسي ، حيث مارس حكام مصر سلطاتهم من مدينة واقعة على نقطة ينقسم فيها النهر إلى فروع ويتدفق إلى الدلتا . وكانت القاهرة هي المدينة الأخيرة في سلسلة من المدن التي تبدأ بمفيس في ثلاثة آلاف السنة الأخيرة قبل المسيح ، وتقع في ملتقى شبكة من الطرق والممرات الممتدة شمالا حتى موانئ البحر المتوسط ومنها بطريق البحر حتى سوريا والأناضول والمغرب وإيطاليا ، وشرقا إلى سوريا بالطريق الساحلي ، وشرقا أيضا إلى البحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندي ، وجنوبا إلى بحار وادي النيل وإلى شرق وغرب أفريقيا .

وقد كانت السيطرة الاجتماعية ضعيفة في الجزء العلوي من وادي النيل والدلتا مما أضعفت من أثر العاصمة ، ويتدفق النيل خلال منطقة لا أمطار فيها . وعلى الضفة الشرقية تشكل الأراضي الصالحة للزراعة شريطا ضيقا ، ولكن على الغرب ، يمكن استواء الأرض من توزيع الشريط المزروع بالرى ، وإلى الجنوب من هذه المنطقة قليلة الأمطار ، هناك منطقة ذات أمطار صيفية غزيرة تمتد من مايو حتى سبتمبر ، يمكن فيها زراعة الحبوب وتربية قطعان الماشية على مساحة تمتد غربا حتى ما وراء وادي النهر من البراري الرملية وجنوبا حتى مناطق واسعة من الخضرة الدائمة . وهي السودان : أرض الزراعة والرعي والقرى ومضارب الحيام للرحل ، والبلدان الأسواق ولكن بلا مدن كبيرة ، وتربط بصحر من خلال النيل ويطلق برية مع الحيشة والساحل والمنطقة الواقعة حول الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى .

ومن صحراء مصر الغربية وحتى السواحل الأطلنطي تمتد منطقة رابعة تعرف في العربية بالمغرب (أراضي المغرب أو أراضي غروب الشمس) وتشمل البلاد التي تعرف الآن بأبسيم ليبيا وتونس والجزائر ومراكش . وفي هذه المنطقة نجد أكثر الإقباضات الطبيعية وضوحا ممتدا من الشمال إلى الجنوب ، فيطول سواحل المتوسط والأطلنطي شريط من الأراضي المنخفضة والتي تتحول في بعض المواضع إلى سهول الساحل في تونس ، والسهول الساحلية على الأطلنطي في مراكش . وإلى الداخل من هذا الشريط مجموعة من الجبال : الجبل الأخضر في ليبيا ، وجبال شمال تونس ، وجبال أطلس وأطلس العليا في مراكش ، وفي الداخل سهول مرتفعة تتلوها سلسلة أخضرى من الجبال : الأوراس في الجزائر والأطلس المتوسط والأطلس الأعلى إلى الغرب . وإلى الجنوب تقع سهوب

تتحول تدريجيا الى صحارى بعضها صخرى والآخر رمل ، تدخلها واحات
من نخيل البلح والى جنوب الصحارى منطقة من الأعشاب التى تروى
بالأمطار ونهر النيجر .

وبالمغرب عدة أنهار يمكن استغلالها فى الرى ، وقد حددت كثافة
الأمطار ومواسمها طبيعة ومدى الاستقرار البشرى واعتصرت السهول
الساحلية ومنحدرات الجبال تجاه البحر السحب المطيرة القادمة من المتوسط
أو الأطلنطي ، مما مكن للزراعة المستديمة للحبوب والزيتون والخضر
والفاكهة وجعل المنحدرات العليا غابات كثيفة ، وتتفاوت الأمطار من عام
الى عام فيما وراء الجبال فى السهول العليا ويمكن استغلال الأرض بطرق
مختلفة ، زراعة الحبوب ورعاية الأغنام والماعز بالهجرة الموسمية . والى
الجنوب فى السهوب والصحارى تكون الأرض أكثر صلاحية للرعى ،
واختلط رعاة الأغنام برعاة الإبل أثناء هجرتهم من الصحراء شمالا فى
النضيف ، وكانت الصحارى بالفعل هى الجزء الوحيد من المغرب الذى تربي
فيه الإبل ، والتى وجدت فى المنطقة لعدة قرون قبل الاسلام ، ومناطقها
الرعوية قليلة السكان ولكن فى الجزء الآخر اختلط رعاة الماشية مع زراع
أشجار النخيل والأشجار الأخرى فى الواحات .

وقد امتدت الطرق الرئيسية التى ربطت المغرب بالعالم المحيط أيضا
من الشمال الى الجنوب ، وربطت منطقة موانئ المتوسط والأطلنطي بشبة
جزيرة ايبيريا وإيطاليا ومصر ، وامتدت الطرق من هذه الموانئ جنوبا خلال
الريف المستقر وسلسلة من الواحات فى الصحارى الى الساحل وما وراءه ،
وفى مواقع محددة امتدت الطرق حتى البحر خلال مناطق واسعة من
الأراضي المزروعة مما مكن للمدن أن تنمو وتكتفى ذاتيا . وكانت هناك
منطقتان لهما أهمية خاصة . احدهما تقع على ساحل الأطلنطي لمراكش
حيث نمت فى القرون الاسلامية الأولى مدينة (فاس) ونمت الى الجنوب
فى وقت لاحق مدينة مراكش ، كانت المنطقة الأخرى السهول الساحل
لتونس ، وهنا كانت (القيروان) المدينة المهمة فى القرون الاسلامية الأولى ،
وفى ما بعد حلت محلها تونس الواقعة على الساحل قرب موقع مدينة قرطاج
القديمة ، هاتان المنطقتان بهدئهما الكبيرة كانتا تضمان قوتهما الثقافية
والاقتصادية والسياسية على الأراضي الواقعة بينهما وما حولهما ، أما الجزائر
التي تقم بين المنطقتين ، فلم يكن بها مناطق واسعة من الحياة المستقرة
تشكل كاف يمكن من ايجاد مراكز مشابهة من القوة ، ودخلت فى دائرة
نفوذ جارتها . وامتدت قوة تونس لتغطى منطقة طرابلس غرب ليبيا
(تريبوليتانيا) بينما كانت (صيريناياكا) بنى غاڤى فى المشرق منفصلة

عن بقية المغرب بالصحراء الليبية ، التي تمتد حتى حافة البحر وكانت أقرب الى دائرة نفوذ مصر .

والمنطقة الخامسة في شبه الجزيرة هي « إيبريا » أو الأندلس ، وهي الجزء الذي كان يحكمه ويشكل أغلب سكانه المسلمون (طوال معظم القرن الحادى عشر ولكنه أخذ في الانكماش حتى اختفى بنهاية القرن الخامس عشر) ، وهي متشابهة من بعض النواحي لسوريا . حيث تكونت من مجموعة من المناطق الصغيرة تكاد تكون منفصلة عن بعضها البعض وفي منتصف مركز شبه الجزيرة هضبة واسعة تحيط بها وتقطعها سلاسل جبلية تتدفق منها مجموعة من الأنهار خلال الاراضى المنخفضة حتى الساحل ويتدفق نهر إيبرو حتى البحر المتوسط في الشمال، ويتدفق نهر التاجو الى الأطلنطى ، ومن خلال الاراضى المرتفالية المنخفضة ، يتدفق نهر الوادى الكبير الى جنوب الأطلنطى، وبين الجبال التي تحيط الهضبة الوسطى والبحر المتوسط تقع منطقة كاثالونيا الجبلية في الشمال والسهول الى الجنوب ، وأوجدت التغيرات في الطقس والأمطار اختلافات في طبيعة الاراضى وطرق استغلالها ، ففي الأجواء الباردة في الجبال العالية توجد غابات الفلين والسنط والبلوط تتخللها مراعى حيث تزرع الحبوب وترعى الماشية . والهضبة الوسطى ذات الجو القارى مناسبة لنظام مختلط من زراعة الحبوب والزيتون ورعى الانقسام والاعاز ، وفي الأجواء الدافئة في وديان الأنهار والسهول الساحلية تزرع الموالج وبعض الفاكهة الأخرى ، وفي هذه المنطقة من الزراعة الفنية وأماكن النقل النهري كانت المدينتان الكبيرتان قرطبة واشبيلية .

وكانت أسبانيا جزءا من عالم البحر المتوسط تربطها الموانئ على ساحلها الشرقي ببلاد حوض المتوسط الأخرى : إيطاليا والمغرب ومصر وسوريا ، الا أن أهم روابطها كانت مع جارتها مراكش ، ولم تكن المضائق التي فصلت الكتلتين الأرضيتين حاجزا أمام التجارة أو الهجرة أو حركة الأفكار والجيوش المتصارعة .

العرب المسلمون والآخرون

بحلول القرن الحادى عشر أصبح الاسلام دين الحكام والجماعات المسيطرة ونسبة متزايدة من السكان ، ولكن ليس مؤكدا أنه كان دين الأغلبية في أى مكان خارج الجزيرة العربية ، وبنفس الطريقة ، بينما كانت العربية لغة الثقافة الرفيعة كما كانت لغة أغلب سكان الحضر ، ظلت اللغات الأخرى باقية من فترة ما قبل الفتح الاسلامى ، وبحلول القرن الخامس

عشر كان تدفق الإسلام العربي قد غطي كل المنطقة ، اسلاماً سنياً ، ورغم وجود معتنقي المذاهب التي تطورت في القرون الأولى ، كانت هناك مجتمعات من الأباضية في جنوب شرق الجزيرة العربية وعلى مشارف الصحاري يدعون الانتماء الروحي الى الحوارج الذين رفضوا زعامة علي بن ابي طالب عقب معركة صفين وتمردوا على حكم الخلفاء في العراق والمغرب ، وفي اليمن التزم معظم السكان بالشيعية في صورتها الزيدية ، أما الشيعة في صيورتها الاثني عشرية والاسماعيلية والتي سادت معظم شرق العالم العربي في القرن العاشر ، فقد بدأت في الانحسار ، الا ان الاثني عشرية كان لها أتباع كثيرون في أجزاء من لبنان وجنوب العراق ، حيث تقع معظم مزاراتهم المقدسة ، وعلى الشاطئ الغربي من الخليج . واستمر الاسماعيليون في تمسكهم بمعتقدهم في أجزاء من اليمن وإيران وسوريا ، وكان بإمكانهم مقاومة الحكام من السنة (الأيوبيين) في سوريا والسلجوقيين في الشرق والذين وصلت أنباء نشاطهم الى أوروبا خلال الحروب الصليبية واشتروا باسم طشاشين . والقصة القائلة بأنهم عاشوا تحت الحكم المطلق لقبينغ الجبل ، لم ترد في المصادر العربية . وقد كان أتباع الروافد الأخرى من الشيعة والدروز والنصيريين أيضاً في سوريا ، وكان اليزيديون في شمال العراق من أتباع دين له عناصر مشتقة من كل من المسيحية والإسلامية ، وفي الجنوب كانت الديانة المانوية المبتعدة من المعتقدات والطقوس للدينية القديمة .

وبحلول القرن الثاني عشر كانت الكنائس المسيحية في المغرب قد اختفت تقريباً ، ولكن جزءاً كبيراً من السكان في الممالك الإسلامية في الأندلس كانوا مسيحيين تابعين لكنيسة الروم الكاثوليك ، وكان المسيحيون الأقباط يشكلون عنصراً مهماً من السكان المصريين في القرن الخامس عشر رغم أن عددهم كان آخذاً في التقلص بالدخول في الإسلام ، وإلى الجنوب في شمال السودان ، اختفت المسيحية بحلول القرن الخامس عشر أو السادس عشر بانتشار الإسلام عبر البحر الأحمر وجنوباً مع وادي النيل ، وفي كل سوريا وشمال العراق بقيت المجتمعات المسيحية وإن كانت مطردة الانكماش ، وكان بعضها أسائناً في المدن وكانت تابعة للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وكان البعض الآخر من أتباع الكنائس الأخرى التي كانت لها أصول في الجدل حول طبيعة المسيح : الأرثوذكسية السورية النوحيدية ، والنسطوريون . وفي لبنان والأجزاء الأخرى من سوريا كانت هناك كنيسة رابعة هي المارونية ، وهم الذين اعتنقوا المذهب التوحيدى ولكنهم في القرن الثاني عشر عندما حكم الصليبيون سواحل سوريا خضعوا للمذهب الروم الكاثوليك وسيادة البابا .

وقد كان اليهود أكثر انتشارا في عالم الاسلام العربي . ففي المغرب حدث تحول ملحوظ من المزارعين الى اليهودية قبل دخول الاسلام ، وظلت المجتمعات الريفية اليهودية باقية كما كان الحال في اليمن وبعض اجزاء الهلال الخصيب ، وكان اليهود موجودين ايضا في معظم مدن المنطقة لانهم لعبوا دورا مهما في التجارة والصناعة والمال والطب . وكان القسم الأكبر منهم تابعا للكيان الرئيسي لليهود الذين قبلوا بالقوانين الشفهية ونفسيرها الموجود بالتملود ، والتي حفظها أولئك الذين درسوا التلمودية ، وفي مصر وفلسطين وغيرها كانت هناك (طائفة اليهود القرائين) الذين لم يتقبلوا التلمود وكانت لهم قوانينهم الخاصة التي اشتقها أساتذتهم من الأسفار المنزلة وكان جزء كبير من المجتمعات اليهودية في ذلك الوقت يتكلمون العربية رغم أنهم استحدثوا أشكالاً من العربية خاصة بهم، ولكنهم استمروا في استخدام العبرية في شعائهم . وفيما بين المسيحيين أيضا انتشرت العربية في الهلال الخصيب ومصر وأسبانيا ، وتقلصت الآرامية والسريانية كلسات حديث وكتابة رغم أنها استمرت مستخدمة في أغراض الصلاة والقداس . ولم تعد اللغة القبطية في مصر تستخدم في أي غرض من الأغراض بخلاف الأغراض الدينية ، وبحلول القرن الخامس عشر استخدمت اللغة العربية في الشعائر الكنسية وتوقف استخدام القبطية ، واتخذ كثير من المسيحيين في الأندلس العربية لغة لهم رغم أن اللغات الرومانسية (*) الموروثة ظلت باقية ، وكانت آخذة في الانتعاش . وعلى حدود التدفق العربي في المناطق الجبلية والصحراوية كانت هناك لغات حديث أخرى كالكردية في جبال شمال العراق ، والنوبية في شمال السودان ولغات أخرى مختلفة في الجنوب ، واللهجات الدارجة البربرية في جبال وصحراء المغرب ، وكان الأكراد والبربر مسلمين إلا أنهم انضموا الى دائرة اللغة العربية في حدود عدد من تلمذها منهم .



(*) اللغات الرومانسية Romahce: Language في اللغات المناطقة من اللاتينية .

(المرجع) ٠٠

الفصل السادس

البريف

استخدامات الأراضي

تمتد هذه البلاد على خط واحد من سواحل الأطلنطي الى سواحل المحيط الهندي ، ولم تشترك في اللغة والثقافة الغالبة عليها فقط وإنما اشتركت الى حد ما في خصائص محددة من المناخ والتضاريس والتربة والمحاصيل والمزروعات أيضا ، واعتبر هذان العاملان مرتبطين بشكل وثيق في بعض الأحيان ، حتى ان بعض الآراء دارت حول أن دين الاسلام كان مناسبا لنوع خاص من البيئة ، أو أن تلك البيئة قد أوجدته بالفعل ، إلا أن تلك النظريات خطيرة للغاية ، حيث ان هناك كثيرا من البلاد التي تميزت بمناخ مختلف انتشر فيها الاسلام وحرب جذوره مثل بعض جهات جنوب وجنوب شرق آسيا (*) ، ولهذا فمن الأفضل النظر الى هذين العاملين بشكل منفصل .

ويمكن بشكل عام وصف المناخ في معظم البلاد التي أصبحت في تلك الفترة مسلمة الديانة وعربية اللغة . فسواحلها رطبة بسبب الرياح القادمة من البحر ، وكلما توغلنا للداخل يصبح الطقس قاريا يتميز باختلافاته كبيرة في درجات الحرارة بين النهار والليل وبين الصيف والشتاء ، وشهر يناير هو أبرد الشهور في كافة المناطق وشهور يونيو ويولية وأغسطس أشدها حرارة ، وتتميز بعض المناطق الساحلية بالأمطار الغزيرة المنتظمة ، وكذا سفوح الجبال المواجهة للسواحل ، التي تعتصر السحب المطيرة القادمة من البحار ، وتشترك في هذه السمات كل من جبال الأطلس على ساحل الأطلنطي في مراكش ، وجبال الأطلس التل وتبسه شرق الجزائر

(*) آسيا الصغرى وشرق أوروبا وجمهورية الفولجا ، وجمهورية ما يعرف بالانبارد الصوفي السابق . كل هذه الأمثلة وغيرها تصف - كما يؤكد البرت حيداني - أن الاسلام قاصر على بيئة معينة . اننا نحس مجموعة المؤلف والقائه -
(المراجع) *

وشمال تونس والكتل الصخرية في ليبيا على الساحل الجنوبي من المتوسط وعلى ساحله الشرقي جبال لبنان وإلى أقصى الداخل جبال شرق العراق . وفي جنوب غرب الجزيرة العربية تجلب الأمطار السحب القادمة من المحيط الهندي مع الرياح الموسمية في شهور الصيف ، وفي المناطق الأخرى تسقط غالبية الأمطار من سبتمبر إلى يناير ، وفيها يفوق متوسط الأمطار السنوي ٥٠٠ مم ويزيد بشكل ملحوظ في بعض الأجزاء .

وتقل الأمطار على الجانب الآخر من الجبال الساحلية في السهول والهضبات وتصل إلى معدل ٢٥٠ مم سنوياً وقد يكون هذا المتوسط خادعاً حيث يتفاوت هطول الأمطار في هذه المناطق الداخلية من شهر إلى شهر ومن عام إلى عام مما يؤثر على المحاصيل . وتضعف المحاصيل في السنوات التي يندر فيها المطر أو يمتنع ،

وخارج هذا النطاق من الأمطار الغزيرة غير المنتظمة ، هناك مناطق من الأمطار الشحيحة أو النادرة ، يقع بعضها قرب الساحل مثل شمال مصر حيث لا توجد جبال تساعد على سقوط الأمطار حيث تقع بعيداً عن البحر ، ويتفاوت هطول الأمطار هنا من صفر إلى ٢٥٠ مم سنوياً ، ومعظم هذه المناطق ليست محرومة تماماً من الماء ، ففي بعض الأجزاء حتى في الصحراء العربية والصحراء الكبرى توجد ينابيع وآبار تغذيها الأمطار الموسمية أو المياه المتسربة من تحت الأرض من سفوح التلال أو سلاسل الجبال الواقعة بالقرب من البحر ، وفي بعض المناطق الأخرى تروى الأراضي التي لا تصلها الأمطار من الأنهار التي تجلب مياه الأمطار من مسافات بعيدة ، وكثير من الأنهار لا تمتلئ أكثر من وديان موسمية تجف في الصيف وتمتلئ بالفيضان في المواسم المطيرة ، ولكن البعض الآخر دائم طوال العام مثل تلك التي تتدفق من الجبال حتى البحر في إسبانيا والاطلنطي ومراكش والجزائر وسوريا وفوقها جميعاً وادي النهرين الكبيرين النيل ودجلة والفرات والفسرات .

وكلا النهرين يجلبان الحياة لمناطق كبيرة من الأراضي المنبسطة التي يجريان من خلالها ، ولكنهما مختلفان في أيقاعهما ، فالنيل ، تجلب روافده المياه من الأمطار التي تسقط على هضبات مرتفعات الحبشة وشرق أفريقيا في الربيع والصيف ويسبب سلسلة من الفيضانات تبدأ في النيل الأبيض . وبعداً في النيل الأزرق وروافده ، ويبدأ وصول الفيضان إلى مصر في شهر مايو ليصل إلى ذروته في سبتمبر ، ثم يبدأ في الانقضاء حتى ينتهي في نوفمبر . وفي أعالي الأناضول التي ينبع منها كل من دجلة والفرات

ينوب الجليد في الربيع ، ويتحد نهر دجلة حاملا الفيضان بدءا من شهر مارس حتى شهر مايو ، ويتمتع القراة بعد ذلك بقليل ويكون الفيضان في النهرين عنيقا بحيث يقضى على الجانبين ، حتى انه يغير من مساريهما في بعض الأحيان ، وفي جنوب العراق هبطت الأرض قبل الاسلام بفترة قصيرة وتكونت مستنقعات دائمة .

وقد تضافرت عوامل تغير التضاريس والحرارة ومصادر المياه لخلق نوعيات مختلفة من التربة في السهول الساحلية والمنحدرات الجبلية التي تمتد نحو الساحل حيث تكون التربة خصبة وغنية ، ولكن الأراضي في الجبال تحتاج الى التسموية اذا لم تجرفها المياه في المواسم المطيرة ، والتربة في السهول الداخلية خفيفة ولكنها خصبة ، وتتغير طبيعة الأراضي حيث تتحول السهول الداخلية الى وديان وصحار والأماكن التي تتوافر فيها المياه الجوفية ، تحيطها مناطق صخرية من الجصية ، وكتل الصخور البركانية . والكثبان الرملية مثل تلك الموجودة بالربع الخالي والفلود في الجزيرة العربية ومناطق الأرج في الصحارى المغربية .

وقد نشأت هذه العصور السحيقة، زراعات خضر وفاكهة حيثما وجدت التربة والمياه ، ولكون الظروف الجيدة ضرورية لبعض المحاصيل ، فقد اكتسبت ثلاثة أنماط زراعية أهمية خاصة . الأولى كانت أشجار الزيتون التي توفر الغذاء وزيت الطهي ووقود الإنارة ، وأمكن زراعتها في الأراضي الرملية حيث تزيد معدلات الأمطار عن ١٨٠ مم سنويا ، ثانيا زراعة القمح والجلبوب الأخرى للاستهلاك الأدمي . وعلف الحيوان ، وتحتاج لها الى أمطار تزيد عن ٤٠٠ مم سنويا أو الري من الأنهار أو الينابيع . والثالث كان النخيل الذي يحتاج الى درجة حرارة ١٦° مئوية على الأقل للثمار ، ويمكن أن تزدهر بالرغم من ندرة المياه ، وفي حالة وجود مياه كافية ومراع ، يمكن استغلال الأراضي لتربية قطعان الماشية أو الزراعة ، فالأعنام والأغنام تحتاج الى مراعي وكلا على فترات قصيرة حتى لا تضطر للانتقال ، أما الأبل فيمكنها الانتقال لمسافات كبيرة بين المراعي ولا تحتاج ظهري كثيرا .

كان الشرق الأوسط والمغرب بسبب هذا التنوع في الظروف الطبيعية ، مقسمين منذ ما قبل الاسلام الى مناطق إنتاج واسعة تقع بين قنصين ، ففي ناحية منها كانت الزراعة ممكنة بشكل دائم على المبرات

الساحلية حيث تنمو أشجار الزيتون ، وفي السهول ووديان الأنهار حيث تزرع الحبوب ، وفي واحات النخيل * في كل هذه المناطق كانت تزرع الخضار والفواكه وكان ادخال سلالات وأصناف جديدة أحد نتائج تشكل المجتمع الاسلامي الممتد من المحيط الهندي الى المتوسط ووجدت قطاعات الماشية والماعز والأغنام مراعى لها ، وفي الجبال العالية مجموعة متنوعة من الأشجار لانتاج الحشيش وجوز العفص (البوط) والصمغ والفلين ، وفي الطرف الآخر مناطق بها خضرة ومياه تكفي لتربية الابل أو الحيوانات الأخرى بالهجرة الموسمية على مسافات بعيدة * مثل هاتين المنطقتين كانت لهما أهمية خاصة : الصحراء العربية وامتدادها الشمالى الصحراء السورية (*) حيث يقضى مربو الابل الشتاء فى صحراء (النفود) ثم يتحركون جهة الشمال الغربى الى سوريا أو الشمال الشرقى الى العراق فى الصيف، أو الصحارى المغربية حيث يتحركون من الصحراء حتى السهول المرتفعة أو الحدود الجنوبية لجبال أطلس .

بين هذين الطرفين ، منطقة حياة شبه مستقرة من الزراعة الثابتة والأخرى من الحياة الرعوية للبدو الرحل ، حيث يمكن زراعة الأرض ولكنها غير مضمونة ويتساوى معها استخدام الأراضي والمياه للمراعى ، ويصدق ذلك بشكل خاص على المناطق التي تقع على تخوم الصحارى حيث الأمطار غير منتظمة والسهوب فى سوريا وواى الفرات والحدود الخارجية لبلدنا النيل والمناطق الأخرى المروية فى وادى النيل ، وسهوب كردفان ودارفور فى السودان والسهول العالية وجبال أطلس الصحراوية فى المغرب ، ويمكن فى ظروف خاصة أن تتحول معظم الأراضي الزراعية الى مراعى ما لم تكن محمية بتضاريسها ، فعلى سبيل المثال لم يصل الرعاة من الصحارى الى جبال أطلس العالية فى مراكش .

لذلك فمن التبسيط المخل النظر الى الريف على أنه مقسم الى مناطق انصق الفلاحون فيها بالأرض لرعاية المحاصيل ، وأخرى للرعاة الرحل المتنقلين مع حيواناتهم ، فقد كان الوضع الوسيط ممكنا بين حياة مستقرة ثابتة بالكامل وحياة تنقل تام وهو ما كان عليه الحال ، فكان هناك مجال واسع من طرق استغلال الأرض، وقد يستقر فى بعض المناطق أناس يسيطرون على أراضيهم ، وقطعان ماشيتهم يعنى بهما المستوطنون والأجراء ، وفى البعض الآخر مزارعون مستقرون ورعاة أغنام تقاسموا

(*) مراكش ببداية الفصل - (للراجع) *

استغلال الأراضي ، ثم المهاجرون الموسميون ينتقلون مع قطعانهم من الأراضي المنخفضة الى المراعى فى الأراضي المرتفعة ، ولكنهم كانوا يزرعون الأراضي فى مواسم معينة ، وفى بعض الحالات كانوا يبدؤا رحلا بالكمال ، وقد يتحكمون فى بعض الأراضي المستقرة من الواحات أو على تخوم الصحارى حيث يعمل الفلاحون لصالح البدو الرحل .

ولا يسهل وصف العلاقات بين أولئك الذين فلقوا الأراضي وأولئك المتنقلين مع حيواناتهم بمصطلح قديم ، أو فى شكل تعارض لا يمكن محوه بين الصحراء والريف المزروع ، فقد احتاج كل من المزارعين المستقرين والرعاة الرحل كل منهما للآخر لتبادل السلع التى ينتجونها ، فالرعاة لم يكن بإمكانهم انتاج ما يحتاجونه من طعام سواء أكانت حبوبا أم تمورا ، بينما احتاج المزارعون للحوم وجلود وأصواف الحيوانات التى يربئها الرعاة ، وكذلك الابل والحميز واليغال لأغراض النقل ، وفى المناطق التى تواجدت بها الجماعتان كانت لهم نفس الحقوق على المياه والأراضي والمحاصيل والمزروعات ، كما أنهم احتاجوا للاتفاق على ترتيبات مقبولة بشكل دائم لكلا الطرفين .

وكان التمايش والتكامل بين المزارعين والرعاة هشاً وعرضة للتحويل لصالح أحدهما . فقد اكتسب الرعاة الرحل وضعا نتيجة قدرتهم على التحرك وشدة احتمالهم . وينطبق هذا - بشكل خاص - على العلاقة بين الذين يربون الابل فى العراء وسكان الواحات . وقد عاشت فى بعض الواحات الكبيرة الواقعة على الممرات التجارية المهمة طبقة من التجار الذين تمكنوا من احكام السيطرة على الأسواق وزراعات النخيل . ولكن فى الواحات الأخرى كان الرعاة هم المتحكمين فى الأراضي وفلاحها على أيدي الفلاحين أو العبيد . وعلى حافة الصحراء أيضا كان الرعاة من القوة بما يمكنهم من فرض اتاوة على القرى المستقرة ، فى شكل من نظام حكم يعتبرون فيه أنفسهم سادة العالم والريف بأدعاء الحرية والنبل والشرف التى يفتقدها الفلاحون والتجار والحرفيون ، وقد عبرت هذه العلاقة الجائرة عن نفسها فى ثقافة الرعاة ، ومن ناحية أخرى كانت هناك قوى فاعلة تحد من حرية وقوة الرعاة وتجبرهم نحو الحياة المستقرة بمجرد أن يصلوا الى الوديان أو الشهبوب المنبسطة .

ولم يكن اضطراب هذا التمايش بسبب الحالة المتكررة من الحروب بين هذين النوعين من المجتمعات ، ولكن لأسباب أخرى قد تكون التغيرات

الطائرة على الطقس أو المياه والتي حدثت على مدى قرون ، ومن الثابت أن انخفاً قد ازداد في المناطق الصحراوية . وكانت هناك تحولات في الطلب على منتجات الريف والصحراء ، وطلب يتزايد أو يقل على زيت الزيتون والحبوب والحنطة والجلود والصوف واللحم ، أو الأبل لأغراض الانتقال والنقل . وفي بعض الأحيان كانت هناك أزمات ، بسبب التصادم المتزايد ، بين الرحل الذي كانوا يعيشون ، بشكل عام ، حياة صحية أكثر من سكان القرى ، وعليه ، كانوا يتوسعون بشكل أكبر مما تسمح به سبل معيشتهم ، ومن وقت لآخر كانت هناك تغيرات سياسية ، عندما يكون الحكام أقوياء فيعمدون إلى توسيع الرقعة الزراعية التي تدمهم بالطعام لتفذية المدن والفرائب للاتفاق على الجيوش .

ولم يكن الفتح العربي للبلدان المحيطة في الفترات الإسلامية المبكرة مجرد فيضان من البدو الرحل اجتاح العالم المستقر وأسقط ذلك التعاضد ، وإنما كانت الجيوش العربية جيوشاً صغيرة على قدر من الانضباط ، ومن جنود ذوي أصول مختلفة ، وكان يتبعهم في العراق وإيران على الأقل هجرات كبيرة من الرعاة العرب . وباعداد لا يمكن تقديرها ، وكانت مصالح الحكام الجدد تعتمد على الحفاظ على نظم الزراعة ، ومن ثم العائلات والفرائب ، وأولئك الذين كانوا يملكون الأرض أزيحوا أو دخلوا في الصفوة أو النخبة الحاكمة الجديدة ، ولكن بقي المزارعون المحليون والجنود والمهاجرون واستقروا في تلك الأراضي أو في المدن الجديدة . ونمت المدن الجديدة بشكل أكبر من تلك التي كانت موجودة بالفعل في خراسان حتى تركستان في الشرق وإلى الأندلس في الغرب ، مما يثبت أنه كان هناك ريف مستقر كبير ينتج ما يكفي لتوفير الطعام ، ومن ناحية أخرى أدى تنامي التجارة بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي المتراخي الأطراف ، والحج السنوي إلى مكة إلى خلق الطلب على الأبل والحيوانات الأخرى لأغراض الانتقال .

وفيما يتعلق بالاضطراب في التعاضد أو التكامل فقد حدث ذلك فيما بعد بدءاً من القرن العاشر أو الحادي عشر وما بعده ، فعل أطراف العالم الإسلامي ، كانت هناك اختراقات من مجموعات البدو الرحل أدخلت بالتوازن السكاني فقد انتقل الرعاة الأتراك إلى إيران والأراضي التي فتحت حديثاً في الأناضول ، واستمرت هذه الحركة وتزايدت أثناء الفترات المغولية وما بعدها ، وفي أقصى الغرب اتجه البربر من أطلس وأطراف الصحاري شمالاً إلى مراكش والأندلس ، إلا أن هذه العملية اختلفت في الأجزاء الوسطى من العالم الإسلامي وقد ألقت دراسة أجريت على المنطقة

الواقعة (١) حول نهر دياالى^(*)، أحد روافد دجلة في السهل المروى من جنوب العراق والتي كانت تمتد بغداد بالطعام والمواد الخام اللازمة لتعديدها الهائل الكبير ، ألقت الضوء على هذا الاختلاف . فقد تطلب نظام الري الذي تطور من عهد بابل وما بعده ، حكومة قوية للحفاظ عليه ، مثل هذه الحكومة توفرت في بدايات الفترة العباسية عندما تم اصلاح هذا النظام وترميمه بعد تحلله في نهاية فترة حكم الساسانيين . وبمرور القرون تغير الحال ، وكان تنامي بغداد وتجاريتها يعنى المزيد من الثروة الناتجة عن الفائض الريفي ، والذي كان يستخدم في المدينة بدلا من توجيهه لصيانة الريف . وقد أدى الضعف المتزايد للحكومة المركزية الى تحول السيطرة على الريف الى أيدي الولاة والحكام المحليين أو جامعي الضرائب الذين لم يكن لهم اهتمام دائم بالمحافظ على نظم الري ، وقد أدت التغيرات البيئية الى تكون مستنقعات كبيرة ، وفي هذه الظروف انهار نظام الري تدريجيا على مدى القرون . ولم تكن لدى المزارعين أنفسهم الموارد اللازمة للحفاظ عليه بحالة جيدة فقد ضعف تدفق المياه الى القنوات وتحولت المناطق المزروعة الى مراعي .

وقد يكون انتشار الرعي البدوي اذن نتيجة لانهاية الزراعة وليس سببا له . وقد يكون ما حدث بالمغرب عكس ذلك ، وقد تبني المؤرخون المحدثون فكرة منقولة عن ابن خلدون ، اذ اعتادوا نسبة انهيار الحياة المستقرة في المغرب الى وصول قبائل عربية وبالدات بنو هلال في القرن الحادى عشر ، ويمتقنون أن الغزو والسلب أثرا بعمق على تاريخ المغرب اللاحق ، بعد أن أدى الى تدمير الحكومات القوية التي كانت ترعى الحياة المستقرة ، كما أدت الى تغير استخدامات الاراضى من الزراعة الى الرعى ، وغرق السكان المحليين في بحر من الهجرة العربية الجديدة ، وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن العملية لم تكن بهذه البساطة ، فمن الثابت أن عناصر من بني هلال دخلوا تونس من مصر في النصف الأول من القرن الحادى عشر، وكانوا فاعلين في محاولات السلالة الفاطمية في مصر لاصحاف سلطة بنى زيرى ولاء القيروان المحليين والذين كانوا أتباعا للفاطميين ثم تخلوا عن ولائهم . بدأوا بالفعل في فقد قوتهم نتيجة تدنى تجارة القيروان ، وتفككت دولتهم الى امارات صغيرة قامت على المدن الاقليمية ، وقد يكون ضعف السلطة وتدنى التجارة ، هو ما مكّن الرعاة من الانتشار ، ولاشك أن

(*) نهر دياالى . Diyala
ينبع من جبال زاغروس ويلتقى بنهر دجلة الى الجنوب من بغداد - (المراجع) .

توسمهم أدى الى الدمار والافوضى ، ولا يبدو أن بني هلال كانوا معادين للحياة المستقرة بهذا الشكل فقد كانوا على علاقات جيدة مع الأمر الحاكم الأخرى ، وإذا حدث تحول في التوازن الريفي في ذلك الوقت فقد كان نتيجة لأسباب أخرى ، ويبدو أنها لم تكن عامة أو مستديرة حيث انتعشت أجزاء من الريف التونسي على أيدي الحكومة القوية للموحدين وخلقائهم الحفصيين ، وكان التوسع في الرعي على ما يبدو نتيجة وليس سببا رئيسيا في انهيار التكامل والتعايش الريفي ، وإن اعتبر فيما بعد سببا لذلك ، كانت تلك طريقة رمزية لرؤية عملية معقدة ، فلا يبدو أن بني هلال كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم إحلال العرب محل السكان البربر ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا حدث بالفعل توسع وانتشار للغة العربية وجاءت معها فكرة الرابطة أو العلاقة بين أهل الريف في المغرب وبين شسبه الجزيرة العربية ، ولكن سببها لم يكن انتشار القبائل العربية بمقدار ما كان بسبب ذوبان البربر فيها (٢) .

المجتمعات القبلية

لم يكتب تاريخ الريف في هذه القرون ، كما كان من الصعب كتابته لأن المصادر الأساسية لم تكن متوفرة ، ولكن المصادر موجودة بالنسبة للفترة العثمانية ، وفي الملفات العثمانية الهائلة التي بدأ استكشافها حاليا ، وأيضا بالنسبة للفترة الحديثة يمكن استكمال المستندات بالملاحظة المباشرة ، ومن الخطورة مناظرة ما كان موجودا منذ قرن أو اثنين ، بما هو قائم الآن أو بما كان قائما من عدة قرون مضت ، وقد يساعدنا لفهم الأحداث والتفاعلات في ذلك الوقت أن نستخدم معارفنا من العصور اللاحقة لبناء « نموذج » لما كان عليه المجتمع الريفي في بيئة الشرق الأوسط والمغرب الجغرافية .

ولو أن أسباب التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية اقتضت على ذاتها في مثل هذه المناطق الريفية ، فبإمكانها أن تفرز نوعا من المجتمعات التي يطلق عليها « قبلية » ويصبح من الضروري أن نبدأ بتعريف المقصود بالقبلية .

في المجتمعات الرعوية والقبلية على السواء تتكون الوحدة الأساسية من العائلة الصغيرة (النواة) التي تتكون من ثلاثة أجيال : الأجداد والآباء والأبناء ، الذين يعيشون معا في منازل قروية مبنية من الأحجار أو الطوب

الطينى أو أية مواد متاحة محليا أو فى الخيام المنسوجة للبدو الرجل ، والرجال مسئولون فى الأساس عن العناية بالأرض والماشية ، والنساء مهمتهن إعداد الطعام والنظافة وتربية الأطفال ، ويمكن أيضا أن يقدمن العون فى الحقول أو الرعى ، أما مسئولية التعامل مع البائل الخارجى فتقع رسميا على الرجال .

ومن المنطقي افتراض أن القيم التى نمر عنها بمفهوم (الشرف) والتى درسها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأسهاب ، قد وجدت منذ عصور سحيقة فى الريف أو على الأقل فى تلك الأجزاء التى لم تتصل بالديانات الرسمية للمدن ، وبناء على هذه الفرضية يمكن القول - مع اختلافات كثيرة فى الوقت والمكان - أن النساء فى القرى والوديان رغم أنهن لسن محجبات أو معزولات عن المجتمع كن تابعات للرجال بشكل ملحوظ . وكانت ملكية الأراضى مقتصرة على الرجال ولا يرثها إلا الأبناء الذكور ، وكان الأبناء الذكور هم ثروة البيت ، وكان جزءا من شرف الرجل أن يدافع عما يملكه وأن يستجيب لطلبات أفراد العائلة أو القبيلة أو الجماعة الكبيرة التى ينتمى إليها . والشرف عائد على الفرد من خلال اتصاله للجماعة الأكبر . والنساء من عائلته ، الأم والأخوات والزوجات والبنات هن تحت حمايته ، ولكن ما يفعلنه يمكن أن يؤثر على شرفه مثل غياب الحياء أو الحشمة أو أى تصرف يمكن أن يشير فى الرجال الغرياء ومشاعر قوية يمكن أن تهدد السلام الاجتماعى ، ويختلط احترام الرجل لنسائه بالشك أو حتى الخوف من المرأة باعتبارها ماثرا للمشاكل . وفى دراسة عن النساء البدويات فى الصحراء الغربية لمصر لفتت الأسماء والأغاني ، التى يرددنها فيما بينهم ، الانتباه الى اثارة المشاعر الذاتية ومشاعر الحب التى يمكن أن تطفئ على الواجبات المتعارف عليها أو تتخطى الحدود المحرمة ، وتلقى الشك على النظام الاجتماعى الذى تمسك تحت ظلاله والذي تعترف به رسميا :

« من لس يدك المتصلة على الوسادة ... نسي أباه .. ثم نسي
جسده » (٣) .

وعندما تكبر المرأة تكتسب نفوذا أكبر ، كأم لأولاد ذكور ، أو كالأزوجة الأولى الأرفع مقاما (أن كن أكثر من واحدة) ، ليس فقط على نساء العائلة الأصغر سنا وإنما أيضا على الرجال .

ولم تكن هذه العائلة (النسوة) مكتفية ذاتيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا فى معظم الأحوال ، ولذا يمكن أن تنضم الى نوعين من الوحدات

الأكبر ، أحدها كانت مجموعة الأقارب المنحدرين من نفس الجد الأكبر لأربعة أو خمسة أجيال مضت ، وكانت تلك المجموعة التي يمكن لأفرادها طلب المساعدة عند الحاجة والتي يمكن أن تتحمل مسئولية الأخذ بالثأر إذا قتل أو أضر أحد أفرادها .

والنوع الآخر هو تلك الوحدة التي أوجدتها المصالح الاقتصادية الدائمة لأولئك الذين يزرعون الأرض ولا يتنقلون ، فكانت الوحدة هي القرية أو الحى إذا كانت القرية كبيرة كتلك القرى الموجودة في السهول ووديان الأنهار ، رغم الخلافات بين العائلات إلا أن الترتيبات لزراعة الأرض كان لابد من الاتفاق عليها ، ويتم ذلك في بعض المناطق بالتقسيم الدائم لزماء القرية بين العائلات مع الاشتراك في أراضي المراعى ، وفي بعضها الآخر بالتقسيم الدورى بحيث يكون لكل عائلة نصيب في الأراضي المروية التي تتمكن من زراعته على المشاع ، وكان لابد من اتخاذ الترتيبات لتقسيم المياه ، وكان ذلك يتم بعدة طرق ، منها مثلا تقسيم المياه في الجداول أو القنوات لعدة أنصب ، يخصص كل منها بشكل دائم أو بالتوزيع الدورى الى مالك قطعة أرض معينة ، وكان لابد أيضا من اتخاذ الترتيبات فيما يتعلق بالزراعة ، فالمالك صاحب الحيازة غير الكافية أو من لا يمتلك حيازة يمكنه البحث عن أرض شخص آخر مقابل إعطائه جزءا محددا من الانتاج ، أو قد يقوم بالزراعة أو رعاية الأشجار والفاكهة على أرض آخرين ويعتبر مالكا لها . وفي المجموعات الرعوية التي تتكون من أولئك الذين يتحركون مما من مرعى لآخر ، كانت الوحدة الأكبر من نوع مشابه لأن الرعى المتنقل يتعذر بدون درجة ما من التعاون والانضباط الاجتماعى ، وفي هذه الحالة لا تقسم الأرض حيث اعتبرت المراعى والمياه ملكية عامة لكل من يستخدمهما .

وبين هذين النوعين من الوحدات : الأولى المرتكزة على القرابة والنسب ، والأخرى القائمة على المصالح المشتركة كانت هناك علاقة مركبة ، ففي المجتمعات غير المتعلمة يتذكر قليل منهم أجدادهم لخمس أجيال مضت ، ويصبح الادعاء بالأصول المشتركة طريقة رمزية للتعبير عن مصالح مشتركة تضفى على تلك المصالح قوة لا يمكن أن توجد بدونها . وفي بعض المواقف قد يحدث صراع ، عندما يستلصق أحدهم مجموعة الأقرباء لتقديم العون ، وقد لا يقدم بشكل كامل لاحتمال تمارضه مع بعض المصالح الأخرى أو القرابات الشخصية .

وتمتد الانتماءات الى ما وراء هذه الوحدات الصغيرة الدائمة الى وحدات أكبر تتكون من كل القرى التي تشكل منطقة أو كل وحدات الرعي التي تستخدم منطقة رعوية واحدة أو حتى المجموعات المنفصلة بشكل واسع عن بعضها البعض اذ يمكن أن يعتبروا أنفسهم منتقلين لكل أكبر ، مثل قبيلة أو عشيرة ، والتي يعتبرونها مختلفة عن المجموعات الشبيهة ومتعارضة معها ، وعادة ما يعبر الانحدار عن جد مشترك عن وجود قبيلة وتوحدتها ، الا أن الانتساب الى ذلك الجسد الأكبر لم يكن معروفا على الدوام ، وكانت الانساب تميل أحيانا الى المبالغة أو التخيل ، وبالتالي التغير أو التلاعب بين الوحدات المختلفة ، الا أنها كانت تكتسب قوة وعمقا بالتزاوج بين الجماعة .

وقد كانت القبيلة قبل كل شيء اسما موجودا في أذهان أولئك الذين يدعون ارتباط كل منهم بالآخر ، وكان لها نفوذ كامن على أفعالهم ، فمنعنا يكون هناك خطر مشترك من الخارج أو في أوقات الهجرة الجماعية على سبيل المثال ، تكون هناك روح جماعية (العصبية) تدفع الأفراد الى مساعدة كل منهم للآخر في وقت الحاجة ، أولئك الذين لهم اسم مشترك كانوا يشتركون أيضا في الاعتقاد بتسلسل الشرف . وقد اعتبر البدو الرحل من مربي الإبل في الصحراء أنفسهم أرفع شرفا باعتبار أن حياتهم هي الأكثر تحررا والأقل خضوعا للسلطة الخارجية وكان التجار من أسواق المدن الصغيرة ، والباعة الجائلون ، والحرفيون ، مثل عمال المعادن من اليهود في الصحاري والمشتغلين بالمعادن في الصحراء العربية والمعالين الزراعيين في الواحات جميعا خارج النظام القبلي من وجهة نظرهم .

واستمرت هذه الأسماء والولاءات والادعاءات المتناثرة حولها لعنة قرون ، في بعض الأحيان في منطقة واحدة ، وفي أحيان أخرى في مناطق واسعة . ويمثل بنو هلال نموذجا للطريقة التي يمكن بها للاسم - الذي تجلي في الأدب الشعبي - ان يظل ويستمر ، وأن يعطي نوعا من الوحدة لجماعات من أصول مختلفة من العرب والبربر . كذلك استمرت في جنوب عرب الجزيرة العربية أسماء « حاشد » و « باقل » في نفس المنطقة ، على الأقل منذ بدايات العصر الإسلامي حتى الزمن الحالي ، وفي أجزاء من فلسطين بقيت الأسماء العربية القبلية القديمة « قيس » و « يمن » حتى العصر الحديث . بقيت تلك الأسماء وسائل للتعرف والتضامن وطلب العون بين الحلفاء في القرى . وقد لعبت في المناطق البربرية من المغرب أسماء « صنهاجة وزناتي » دورا مماثلا :

وقد حافظ كبار السن أو رؤوس العائلات ، سواء في وحدات المراعى أو وحدة القرية أو الحي ، على الذاكرة الجمعية للجماعة حيث قاموا بتنظيم الاهتمامات العامة العاجلة وتسوية الخلافات التي تهدد بتفريق الجماعة ، وعلى المستوى الأعلى ، سواء فى المجموعات المستقرة أو الرعوية ، يمكن أن تظهر قيادة من نوع آخر ، سواء لعدد من القرى فى نفس الوادى أو نفس السهل أو تظهر فى عدة وحدات للرعى وقد تظهر عائلة مسيطرة يتولى أحد أفرادها الزعامة للمجموعة بأكملها اما بالاختيار أو بالبطيحة ، ومثل هذه العائلات قد تكون من الخارج واكتسبت وضعيتها بالمكانة العسكرية ، أو الوضع الدينى أو الحكمة فى الفصل فى المنازعات ، أو فى التوسط نيابة عن المجموعة فى تعاملاتها مع المدينة أو الحكومة ، وأيا كانت أصولها يمكن اعتبارها جزءا من القبيلة ولها نفس الأصول الحقيقية أو المختلفة .

وقد اختلفت قوة هؤلاء الزعماء والعائلات اختلافا كبيرا ، فمن ناحية ، كان شيوخ القبائل الرعوية الرحل لا يتمتعون الا بسلطة محدودة ، بصرف النظر عما تمتعوا به من نفوذ نتيجة تقدير الجماعة لهم . وما لم يتمكنوا من فرض أنفسهم فى بلدة ليصبحوا حكاما من نوع آخر ، فلم تكن لديهم القدرة على فرض أحكامهم فيما عدا قوة جاذبيتهم (الشخصية) ، وكان يمكن للقبائل الرحل أن تكبر أو تصغر اعتمادا على نجاح أو اخفاق العائلة الزعمية التى يمكن أن يلتف حولها الأتباع أو أن ينفذوا عنها ، رغم أن انضمام جماعة جديدة قد يتم باختلاق الأنساب ، ل يبدو أولئك الذين انضموا للجماعة كما لو كانوا منتسبين لها من قبل .

ومن ناحية أخرى نجد العائلات الحاكمة للمجتمعات الزراعية المستقرة خاصة المجتمعات المعزولة - على نحو أو آخر - فى وديان الجبال، هم ممن استقروا طويلا أو من الوافدين من الخارج والذين اكتسبوا وضعهم بالفرز العسكري أو المكانة الدينية أو فرضتهم حكومات المدن المجاورة ، وقد تضعف روابط التماسك التى تربطهم مع السكان المحليين ولكنهم قد يمتلكون درجة من القوة القهرية المبنية على التحكم والسيطرة على المواقع الحصينة وحيازة القوة العسكرية ، وقد حلت القوة المركزية على أيديهم ، حسب درجتها ، محل عصبية القبيلة واتخذت شكلا مختلفا ، هو علاقة السيد بالتابعين .



الفصل السابع

حياة المدن

الأسواق والمدن

يستطيع الرعاة والمزارعون إنتاج معظم ما يحتاجونه لأنفسهم ، كما يستطيع المزارعون بناء مساكنهم من الطوب اللبن ويمكن لنسائهم لسيج الإغشية والملابس ، كما أن الحرفيين المتجولين يمكنهم تصنيع أو إصلاح الأشغال المعدنية ، إلا أنهم - أى المزارعين - احتاجوا لمبادلة الفائض من إنتاجهم مقابل سلع من أنواع أخرى^(*) ، سواء أكان ذلك من مناطق أخرى من الريف أم كان السلع التى يصنعها الحرفيون المهرة كالخيام والأثاث وتجهيزات الحيوانات وأوانى الطبخ والأسلحة التى كانت ضرورية لحياتهم .

وعند نقاط التقاء المناطق الزراعية المختلفة ، كانت تتمتع الأسواق المنتظمة فى أماكن معروفة للجميع ، يسهل الوصول إليها ، ومقبولة كمكان محايد للقائه . ويمكن أن تعقد هذه الأسواق أسبوعيا وتعرف بها كمثل سوق الأربعاء ، أو مرة فى العام فى الاحتفال بمولد رجل أو امرأة من أولياء الله ، ويمرور الوقت أصبحت بعض هذه الأسواق مستوطنات فستديمية ، ومدنا حيث لا يحتاج التجار والحرفيون لزراعة طعامهم أو رعاية ماشيتهم ، واستمروا فى أداء أنشطتهم المتخصصة . وكانت معظم هذه المدن (البلدان) الأسواق صفيرة ، بل أصغر بالفعل من بعض القرى ، إذ يسكنها بضع مئات أو آلاف فى سوق مركزية ، وطريق رئيسية تقوم حول بعض المحال والورش ، ولم تكن مميزة تماما عن الريف من حولها . وفيما عدا القلب السكانى الدائم للحضرين ، فقد كان السكان ينتقلون من المدينة والريف حسب تغير الظروف . وفى المدن الصغيرة البعيدة عن المدن الكبيرة أو الواقعة على واحات كانت تسود سلطة الشيخ من قبيلة

(*) كالتسويق والإلجم والرسن وتحوما - (المراجع) .

مجاورة ، أو نفوذ ثرى محل ولم تكن العلاقات القبلية أو القروية تمارس في الأسواق حيث كان صغار التجار والحرفيون يعتبرون خارج النظام القبلي وغير خاضعين لميثاق الشرف أو النار الذى عاش عليه رجال القبائل .

وقد كانت بعض المدن اكبر من مجرد مدن أسواق محلية ، حيث كانت تقاطع التقاء عدد من المناطق الزراعية من أنواع مختلفة ، وكان تبادل المنتجات يتم على مجال واسع ومركب بشكل ملحوظ ، فحلب في شمال سوريا ، على سبيل المثال ، كانت نقطة التقاء لأولئك الذين يشترون أو يبيعون الحبوب من السهول السورية الداخلية ونتاج أشجار الفاكهة والغابات على التلال الواقعة في الشمال ، أو الأغنام أو الإبل التى تربي في امتداد الصحراء السورية . وإذا كانت المناطق المحيطة تنتج فائضا كبيرا من الغذاء والمواد الخام مما يمكن نقله بسهولة الى السوق ، فيمكن أن تصبح المدينة مركزا للحرفيين الذين ينتجون السلع المصنعة على نطاق واسع . وإذا كانت واقعة على بحر أو نهر أو طرق صحراوية تربطها بمدن أخرى من هذا النوع يمكن أيضا أن تصبح مركز تنظيم أو ميناء للشحن للتجارة البعيدة المدى في السلع القيمة والتي تموض أرباحها عن التكلفة ومخاطر النقل .

وعند توافر مثل هذه الشروط ، وإذا كان هناك ثبات واستقرار في الحياة على مدى عقود أو قرون ، يمكن أن تنمو المدن الكبيرة وتكتفى ذاتيا . وقد وفر ظهور الإمبراطورية الإسلامية ، والذي تبعه تطور مجتمع اسلامي يربط بين بلاد المحيط الهندي وبلاد البحر الأبيض ، الظروف اللازمة لظهور سلسلة من البلدان العظيمة ، تمتد من طرف العالم الاسلامي الى الطرف الآخر : قرطبة واشبيلية وغرناطة في الأندلس ، وفاس ومراكش في المغرب ، والقروان وبعدها تونس في تونس ، والفسطاط وبعدها القاهرة في مصر ، ودمشق وحلب في سوريا ، ومكة والمدينة في غرب الجزيرة العربية ، وبغداد والموصل والبصرة في العراق وبخلاف ذلك مدن إيران وتركستان شمال الهند . وقد كان بعض هذه المدن موجودا فيما قبل دخول الاسلام ، وبعضها كان من نتائج الفتح الاسلامي ، أو قوة الأسر الحاكمة اللاحقة . ومعظم هذه المدن تقع بعيدا عن السواحل حيث كانت القبضة الإسلامية على ساحل المتوسط مزعومة ، وكانت الموانئ عرضة لهجمات الإعداء من البحر .

وبحلول القرنين العاشر والحادي عشر ، كانت المدن الكبرى في البلاد الإسلامية هي أضخم المدن في النصف الغربي من العالم ، وقد لا تكون

الأرقام أكثر من تقديرات تقريبية ولكنها ليست مستحيلة على أساس حساب مساحة المدينة وعدد وحجم مبانيها العامة ، فانه بحلول بداية القرن الرابع عشر كانت القاهرة تضم ربع المليون من السكان ، وفى نفس ذلك القرن تقلص التعداد بفعل أوبئة الطاعون (الموت الأسود) ، ومضى بعض الوقت قبل أن تعود المدينة الى حجمها السابق ، وتقدير سكان بغداد خلال الفترة العباسية العظمى يبلغ مليونا أو أكثر ، ومن شبه المؤكد أنه مبالغ فيه ، ولكنها كانت على الأقل مدينته . تقارن - من حيث الحجم - بالقاهرة ، وبحلول عام ١٣٠٠ تقلصت بشكل كبير بسبب تدنى نظام الرى فى الريف المحيط وبفعل الغزو والنهب المفلو ، كما كانت قرطبة فى أسبانيا مدينة بنفس الحجم ، وحلب ودمشق وتونس كان تعدادها قرابة ٥٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ نسمة فى القرن الخامس عشر ، أما فى غرب أوروبا وفى ذلك الوقت فلم تكن هناك مدينة بحجم القاهرة ، فمدن فلورنسا ، والبندقية ، وميلانو ، وباريس كان تعداد كل منها فى حدود ١٠٠٠٠٠ نسمة ، بينما كانت مدن إنجلترا وهولندا وألمانيا وأواسط أوروبا أصغر من ذلك .

سكان المدن

ولقد تكون الجزء الفنى والمنسيطر من سكان المدن من كبار التجار العاملين فى جلب المؤن والمواد الخام من الريف ، أو من العاملين بالتجارة البعيدة المدى فى السلع الثمينة ، وكانت سلع هذه التجارة خلال تلك الفترة من المنسوجات والزجاج والخزف من الصين ، وربما كان الأهم من ذلك كله التوابل ، وكانت تستجلب من جنوب وجنوب شرقى آسيا فى العصور الاسلامية الأولى الى موانئ الخليج ، سيراك والبصرة ، وبعدها حتى شمال البحر الأحمر الى أى من موانئ مصر ، ومن ثم الى القاهرة ومنها توزع لكل عالم البحر المتوسط ، بالطرق البرية وبالتنقل البحرى من موانئ دمياط ورشيد والإسكندرية . وكان الذهب يأتى من الحبشة نزولا فى النيل ، وبالتوافل الى القاهرة ، ومن مناطق نهر النيجر عبر الصحارى الى المغرب ، وكان العبيد يستجلبون من السودان والحبشة ومن مناطق العبيد .

ولم تكن التجارة يكاملها فى أيدي التجار المسلمين ، فقد كانت السفن والتجار الأوربيون يسيطرون الى حد بعيد على التجارة فى البحر المتوسط ، فى مراكز بدأت بأمالفى ثم جنوه والبندقية ، وفى القرن الخامس عشر بدأ

الانجليز والفرنسيون أيضا في الظهور ، وقد تحكم التجار في المدن الإسلامية في الطرق البرية الكبرى في المغرب ، وغرب وأواسط آسيا ، وأيضا طرق المحيط الهندي حتى فتح البرتغاليون الطريق حول رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، وكان معظم هؤلاء التجار من المسلمين مثل «الكريسيون» الذين تحكموا في تجارة التوابل في مصر لفترة طويلة ، وكان هناك أيضا يهود بغداد والقاهرة ومدن المغرب من كانت لهم روابط عائلية واجتماعية مع مدن إيطاليا وشمال أوروبا والامبراطورية البيزنطية ، بالإضافة الى التجار من المدن الكبرى ، كانت هناك مجموعة متماسكة منهم في المدن الأصغر ، وأمكنهم السيطرة على أنواع معينة من التجارة (ظل هذا التقليد حتى العصور الحديثة ، وفي المغرب جاءت هذه المجموعات فيما بعد من جزيرة جربة على الساحل التونسي وواحة مزاب على حافة الصحراء ومنطقة سوس في جنوب مراكش) .

وقد شاع نوعان من المعاملات التجارية كانت أولاها المشاركة ، وعادة ما تكون بين أفراد من نفس الأسرة يتقاسمون المخاطر والمكاسب بنسبة ما استثمره كل منهم ، والثاني كان المضاربة ، وفيها يأتين المستثمر تاجرا على سلع أو مال يتاجر بهما ، على أن يردما فيما يحدد أموالا الى المستثمر مع نسبة متفق عليها من الربح . ويمكن أن يكون للتاجر في مدينة وكيل في مدينة أخرى ورغم أن البنوك المنتظمة لم تكن موجودة ، إلا أنه كانت هناك طرق مختلفة لتوفير الائتمان على البعد بحسب الفواتير مثلا وكانت أسس التجارة ، هي الثقة المتبادلة القائمة على القيم المشتركة والقواعد المتعارف عليها .

وكانت المدن الكبيرة أيضا مراكز للصناعة تنتج السلع الفخائية للسوق المحلية ، والمنسوجات والأشغال المعدنية والفخار والمصنوعات الجلدية والأطعمة المصنعة والسلع ذات الجودة كالمنسوجات الراقية للأسواق أوسع ، وهناك بعض الدلائل على أن الانتاج للأسواق خارج العالم الإسلامي أصبح أقل أهمية منذ القرن الحادي عشر وما بعده ، أما التجارة العابرة للسلع المصنعة في أماكن أخرى في الصين والهند أو شرق أوروبا فقد أصبحت أكثر أهمية ، وكان هذا التغيير مرتبطا بانبعاث الحياة الحضرية في أوروبا ، وخاصة بازدهار صناعات النسيج في إيطاليا .

وعلى وجه العموم ، كانت وحدات الانتاج صغيرة ، ويكون لدى صاحب العمل بضعة عاملين ومتدربين في ورشته ، أما الصناعات على المستوى الأكبر فقد كانت تلك التي تنتج لحاكم أو لجيش ، مثل ترسانات الأسلحة

أو الورش الملكية للمنسوجات ومصانع السكر في مصر وغيرها ، ولم يكن التجار هم الطبقة الوحيدة ذات الجذور الراسخة في المدينة ، فقد شغل أصحاب المحال والحوانيت والحرفيون المهرة طبقة حضرية لها استثماريتها الذاتية ، وانتقلت المهارات من الأب إلى الابن ، وكانت ملكية حانوت أو ورشة تنتقل لأجيال ، وكان عددها محدودا لقلة المبانى أو في بعض الأحيان للضوابط التي تضعها السلطات . وقد أشار أحد مؤرخي فاس الحديثة إلى أن وضع وحجم الأسواق الرئيسية ومساحات الورش ظلت في بدايات القرن العشرين كما كانت في القرن السادس عشر حسب ما ذكره كتاب الرحالة ليو أفريكانوس (١٤٨٥ - ١٥٥٤) (*) وكان أفراد هذه الطبقة من المجتمع ذوى مستوى دخل أقل من كبار التجار ، إذ أن الثروات التي يمكن تكوينها من العمل الحرفي أو تجارة التجزئة لم تكن كبيرة كتلك التي تدرها التجارة البعيدة المدى في السلع الثمينة . لم يكن لدى غالبية الحرفيين موارد رأسمالية كبيرة ، وقد أظهرت دراسة عن القاهرة أن نسبة ملحوظة من المحال والورش كانت مملوكة لكبار التجار أو المؤسسات الدينية ، وقد تمتعوا بالمكانة كسكان مستقرين يسعون إلى تجارة شريفة طبقا للأصول المتعارف عليها من الأمانة وجودة الصنعة ، وكان هناك تسليسل هرمي من الاحترام في الحرف ، ويتفاوت بين العمل في المعادن الثمينة أو الورق أو المطور حتى تلك الحرف « غير النظيفة » مثل الدباغة والصباغة والجزارة .

وحول هذا المجتمع المستقر من الحرفيين وأصحاب المحال ممن لهم مواقع دائمة وثابتة في المدينة ، كان يعيش مجتمع أكبر من ذوى المهارات الأقل من أولئك المشتغلين بالمحال ، والباعة الجائلين ، ومنظقي الشوارع ، البروليتاريا شبه العاملة والعمالة المؤقتة المرتبطة بالمدن الكبرى . وفي معظم الأحوال شملت هذه الطبقة نسبة كبيرة من مهاجرى الريف . ولم يكن الخط الفاصل بين المدينة والريف محددًا ، حيث كانت حول المدينة أسواق وحدائق ، مثل تلك الموجودة في القوطة وهي منطقة زراعة

(*) الرحالة العربي المشهور الحسن بن الوزان والذي عرف بالاسم اللاتيني ليو الأفريقي أو Leo Africanus ، ونسب لتمييزه هذه أن المسيحيين أسروه ولقدروه للبابا فير العاشر الذي هبمه لحاشيته وأطلق عليه اسمه . ويبدو أن المؤلف قد أخطأ في تاريخ ميلاده على الأقل ، إذ أن الحسن بن الوزان قد ولد سنة ١٤٩٣ في غرناطة ، ونشرت رحلاته بالإيطالية سنة ١٥٥٠ . وقد قامت جامعة محمد بن سعود بالرياض بنشر للنص العربي لرحلته في طبعة أثقة - انظر أيضا : Bovill, E. W. : Caravan of the old sahara, London, 1933. (المراجع)

مروية شاسعة المساحة حول دمشق ، فكان الرجال الذين يزعمون الحدائق يعيشون في المدينة ، وكانت على مشارف المدينة مناطق تنظم فيها قوافل التجارة وتشترى الحيوانات وتجهز وهو ما اجتذب بعض السكان النازحين من الريف ، كما أن فترات الجفاف والقوضى كانت تجلب الفلاحين الفارين من قراهم أيضا .

القانون والعلم

كانت احتياجات الحياة في المدن الكبيرة تختلف عن احتياجات سكان القرى والخيام . وكان التفاعل بين العمال المتخصصين والمتعاملين في المنتجات والالتقاء بالناس من أصول وديانات مختلفة ومشاكل الحياة في الشوارع والسوق كلها تتطلب توقعات مشتركة لما يمكن أن يفعله الآخرون في مواقف معينة ، ومعايير لما يجب أن يكون عليه تصرفهم ونظام من القواعد والعادات مقبول بشكل عام ومتبع في أغلب الأحيان ، ولم تعد المعدات المحلية (العرف) التي يحافظ عليها ويفسرها كبار السن في المجتمع ، كافية في حد ذاتها . ومنذ العصر العباسي وما بعده كانت الشريعة مقبولة بشكل عام من سكان المدن المسلمين ، ودعمها وطيقتها الحكام لأنها ترشد الى أسلوب تعامل المسلم مع المسلم ، وقد نظمت الشريعة أشكال التعاقد التجاري وحدود الربح المكتسب شرعيا ، والعلاقات بين الأزواج والزوجات وتقسيم الملكية .

وكان القضاة الذين يطبقون الشريعة يتلقون تدريبهم في مدارس خاصة . ويجلس القاضي في منزله أو في مقر المحكمة مع كاتب لتسجيل القرارات . ولاتقبل الشهادة الشفهية الا من الشهود ذوي السمعة الحسنة من حيث المبدأ ، وقد ظهرت جماعة من الشهود القانونيين (المدول) يستطيعون اضافة وضعية مقبولة على شهادة الآخرين، وكان بالامكان القبول عمليا - بالوثائق والمستندات المكتوبة اذا صدق عليها المدول وعليه تتحول الى دليل كتابي ، وبمرور الوقت اعتبرت الأسر الحاكمة في العصر المملوكي المذاهب الأربعة « مدارس القانون » مقبولة بشكل متساو ، وكان هناك قضاة من كل المذاهب يعينون رسميا ، ويصدر كل قاضي أحكامه وفقا لتعاليم مذهبه ، ولم يكن هناك نظام للالتباس ولا يمكن إلغاء حكم القاضي على أيدي قاضي آخر الا لأخطاء قانونية .

ومن حيث المبدأ فإن القاضي يفصل بناء على القانون الوحيد المعترف به ،
والمتشقت من الوحي ، ولكن عند الممارسة لم يكن النظام القانوني عاما
بلا مرونة كما قد يفهم من ذلك ، إذ لم تغط الشريعة في الواقع كل مجال
الأنشطة الانسانية ، كانت دقيقة الى أقصى درجة في المسائل المتعلقة
بالأحوال الشخصية (الزواج ، الطلاق ، الميراث) ، بينما كانت أقل دقة
في المسائل التجارية وأقل من ذلك فيما يتعلق بالقضايا الدستورية
والجنائية ، وكانت للقاضي صلاحية معينة في المسائل الجنائية فيما يتعلق
بأفعال معينة حرمت بشكل واضح في القرآن حيث وضعت لها عقوبات
محددة هي الحدود (الزنا ، السرقة ، شرب الخمر) وكانت له أيضا صلاحيات
عامة لمراقبة تصرفات التي تسمى الى الدين (كان معظم القضاء جنائيا ،
أما للمسائل التي تمس صالح الدولة فيفصل فيها الحاكم أو موظفوه
وليس القاضي) *

ولم يكن القانون المعمول به عديم المرونة كما يبدو في كتب الشريعة ،
وإنما كان الفصل للقاضي ، والذي قد يفسر دوره كما لو كان التوفيق
ومحاولة الحفاظ على الانسجام الاجتماعي ، بالتوصل الى حل يتفق عليه
للتفوز بدلا من تطبيق القانون حرفيا ، بالإضافة الى القاضي كان هناك
نوع آخر من الاختصاصيين القانونيين (*) (المفتي) الذي كان من صلاحيته
إصدار الفتاوى حول المسائل القانونية ، ويمكن للتضام قبول الفتاوى
وتضمينها في مراجع التشريع *

وكان القاضي شخصية محورية في حياة المدينة ، ولم يكن يفصل
بالقانون فقط ، وإنما كان أيضا مسئولاً عن توزيع أملاك الشخص بعد وفاته
وفقا لقوانين الميراث ، ويمكن أن تكون له سلطات اشرافية يخولها له
الحاكم *

وأصبح الذين درسوا وفسروا وقضوا بالقانون (**) والذين مارسوا
وظائف دينية معينة أخرى - ممن يؤمنون الصلاة في المساجد أو يلغون
خطبة الجمعة - طبقة متميزة في مجتمع المدينة : (العلماء) ، وهم رجال

(*) أو من علماء الشريعة أو الفقهاء بلغة ذلك العصر - (المراجع) *

(**) استخدم الأستاذ المترجم القانون كترجمة للكلمة الانجليزية Law بدلا من
مصطلح الشريعة أو الأحكام الشرعية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وقد اقرئناه على
الترجمة هذه لأن المؤلف يوجه حديثه للقارئ الأجنبي ، ويحاول تقريب المفاهيم للقارئ
الأجنبي المعاصر - (المراجع) *

العلم والتعليم الدينى ، وهم رعاة نظام المعتقدات والقيم والممارسات ، ولا يمكن اعتبارهم طبقة واحدة لأنهم كانوا منتشرين فى كل المجتمع يؤدون وظائف مختلفة ، ويتمتعون بدرجات متفاوتة من الاحترام الشعبى . على رأسهم جماعة هى جزء من صفوة المجتمع الحضرى هم كبار العلماء ، والتي تتكون من القضاة فى المحاكم الرئيسية ، والمدرسون فى المدارس الكبرى ، ووعاظ المساجد الأساسية ، وخدام الأضرحة ممن عرف عنهم العلم والتقوى ، وأعلن بعضهم انتسابه لنسل النبى صلى الله عليه وسلم من خلال ابنته فاطمة وزوجها على بن أبى طالب . فى ذلك الوقت كان نسل النبى صلى الله عليه وسلم من السادة والإشراف ينظر إليهم باحترام خاص ، وفى بعض المواقع يمارسون القيادة ، وفى مراكش كانت مطالبة الأستين اللتين حكمتا بدءا من القرن السادس عشر وما بعده بالحكم ، مبنية على شرعية وضعيتها كإشراف .

وكان كبار العلماء على اتصال وثيق بالعناصر الأخرى من صفوة المجتمع الحضرى ، من التجار ، ومعلمى الحرف المحترمة ، وكانت لهم ثقافة مشتركة فقد كان التجار يرسلون أبناءهم للتعلم على أيدي علماء الدين فى المدارس يتعلمون اللغة والقرآن والقانون ، ولم يكن مستغربا أن يصل الرجل كمدرس أو عالم وأيضا بالتجارة . وكان التجار يحتاجون للعلماء كأخصائيين قانونيين لكتابة المستندات الرسمية بلغة دقيقة . ولتنسوية المنازعات حول الأملاك ، والإشراف على تقسيم تركاتهم وأملأهم بعد الوفاة . كما كان كبار التجار والمحترمون منهم شهداء عدولا ، كرجال ذوى سمعة طيبة وشهادتهم مقبولة عند القاضى .

وهناك دلائل على التزاوج بين عائلات التجار وكبار الحرفيين والعلماء ، وعن تشابك المصالح الاقتصادية التى عبر عنها هذا التزاوج ، وقد سيطروا بشكل جماعة على معظم الثروة فى المدن ، وقد جعلت الطبيعة الشخصية للعلاقات التى اعتمدت عليها التجارة ، من الارتفاع السريع ثم السقوط ، للثروات المستثمرة فى التجارة . ولكن عائلات العلماء عاشت لوقت أطول ، وقد درب الآباء الأبناء ليخلفوهم فى المراكز العليا فى الدولة ، واستخدموا نفوذهم لصالح أفراد العائلة الأصغر سنا .

كان بإمكان أولئك المقتردين ماليا من التجار أو كبار العلماء ، أن يتناقلوا الثروة من جيل إلى جيل ، عن طريق الوقف ، الذى أقرته الشريعة (وقف الحبوس) . والوقف هو تخصيص دخل مستديم عائد من منطقة

أو عقار لأغراض خيرية ، مثل صيانة المساجد ، أو المدارس والمستشفيات والناظورات العامة ، والنزل للمسافرين ، وتحرير المساجين أو العنسية بالحيوانات المريضة ، وكان يمكن أيضا استخدامها لصالح عائلة الواقف الذي بإمكانه أن ينص على قيتام أحد أفراد العائلة بالإدارة ، وتخصيص راتب له ، أو أن ينص على أن يعطى الفائض من الميراث لسلالته طيلة حياتهم ، ثم تخصص لأغراض الخير عند انتهاء السلالة ، وقد يساه تنفيذ تلك البنود ، لذا كانت الأوقاف تحت إشراف القاضي وفي النهاية تحت إشراف الحاكم ، وبهذا توفر الضمان حيال انتقال الثروة كحماية من تقلب حالة التجارة ، أو إشراف الوارثين أو جور الحكام .

العبيد

تقاطع التقسيم الرأسي لسكان الحضرة على أسس الثروة ، والمكانة الاجتماعية مع أنواع أخرى من التقسيم ، بين العبيد والأحرار ، وبين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الرجال والنساء .

وكان الخدم يمثلون أحد العناصر المتميزة في الشريحة الاجتماعية للعاملين ، وكانوا منفصلين لأن الكثير منهم كن من النساء وكانت الخدمة أو العمل في المنزل تكاد أن تكون هي تقريبا النوع الوحيد من المهن المحظرة للنساء ، كما كان كثير منهن من العبيد (*) . لم يكن للفكرة العبودية نفس المعنى في المجتمعات الإسلامية التي كان لها في بلاد شمال وجنوب أمريكا التي اكتشفتها وعمرتها شعوب من غرب أوروبا منذ القرن السادس عشر وما تلاه ، فالعبودية كانت وضعية يعترف بها القانون الإسلامي ، وطبقا لذلك القانون ، فإن المسلم الذي ولد حرا لا يمكن أن يستعبد ، والعبيد هم من غير المسلمين ، ومن الأسرى في الحروب أو المستجلبين بشكل آخر ، أو الأبناء من أبوين عبيدين ، أو المولودين في العبودية ، وليست لهم كامل الحقوق القانونية كالرجال الأحرار ، ولكن نصت الشريعة على وجوب معاملتهم بالعدل والإحسان واللطف ، وكان من أعمال الفرف ، العمل على تحريرهم . والعلاقة بين السيد والعبد يمكن أن تكون وثيقة ويمكن أن تستمر بعد أن يحرر العبد ويمكن له أن يتزوج ابنة سيده أو يقوم بإدارة أعماله .

(*) مصطلح العمر كما لا يخفى هو الجوارى ، وقد اقرونا ترجمة الأستاذ المترجم لأسباب سبق تبيانها في حاشية سابقة - (المراجع) .

وقد ضمت الوضعية القانونية للعبودية مجموعات اجتماعية مختلفة ، ومنذ وقت مبكر في الحقبة العباسية استخدم الخلفاء العبيد من الشعوب التركية لأواسط آسيا في جيوشهم ، واستمرت هذه الممارسة ، وكان العبيد الجنود والرجال المحررون المستجلبون من أواسط آسيا والقوقاز والمغرب والأندلس ومن بلاد السلاف أتباعا للسلاط الحاكمة (٢) ، ويمكن أن يكونوا مؤسسيها ، فالمماليك الذين حكموا مصر ومسوريا من (١٢٥٠ - ١٥١٧) كانوا مجموعة تنامت ، فيما بينها ، من الجنود الذين استخدموا ودربوا كمبيد وتحولوا الى الاسلام ثم أعتقوا (٣) .

وقد شكل هؤلاء العبيد المحاربون طائفة متميزة لا يمكن اعتبارها بنفس وضعية معظم أولئك الذين استعبدوا ، ففي بعض المناطق كان هناك عبيد زراعيون ، هم المستجلبون من شرق أفريقيا ، واكتسبوا أهمية في جنوب العراق خلال الفترة العباسية ، كما فلح العبيد الأرض في أعالي وادي نهر النيل والواحات في الصحاري ، وكان العبيد في معظم الأحوال خدما منزليين ومخطيات في المدينة ، وكانوا مستجلبين من أفريقيا السوداء مروراً بالمحيط الهندي والبحر الأحمر أو نزولاً في النيل أو من خلال الطرق الصحراوية . وكان معظمهم من النساء كما كان هناك أيضاً خصيان (٤) للحفاظ على خصوصية المنازل .

المسلمون وغير المسلمين في المدن

كانت المدينة مكاناً للقاء والفصل . وكان كل سكان المدن خارج شبه الجزيرة العربية تقريباً من مجتمعات مسيحية ويهودية تلعب دوراً في الأنشطة العامة في المدن ، ولكنهم شكلوا قسماً معزلاً في المجتمع في تلك المدن ، وقد فصلتهم عن المسلمين عدة عوامل ، فكانوا يؤدون ضريبة الرأس الخاصة (الجزية) للحكومة . وبموجب القانون الإسلامي (٥) والعادة ، كان مطلوباً منهم أن يعملوا . ما يشير إلى اختلافهم ، مثل ارتداء ملابس من

(*) الموالى أو المالك فيما بعد ، وفي ظل الدولة العثمانية عرفه فئة منهم باسم المملوك (حفيد : حلق) - (المراجع) .

(**) أو لم يمتلكوا من الناحية الرسمية ، لأن سيدهم الصالح نجم الدين آخر سلاطين الأيوبيين (قبل شجرة الدر) لم يعتقهم - (المراجع) .

(***) عرفوا فيما بعد باسم الطواشيعة - (المراجع) .

(****) ليس في الشريعة الإسلامية (القانون الإسلامي) ما يحتم ذلك - (المراجع) .

نوع خاص ، والامتناع عن استخدام ألوان معينة مرتبطة بالنبي صلى الله عليه وسلم والاسلام (خاصة الأخضر) ، وعدم حمل السلاح أو ركوب الخيل ، والامتناع عن بناء أماكن عبادة جديدة أو اصلاح القديم منها بدون إذن ، أو بنائها بشكل يتفوق على أماكن عبادة المسلمين ولم تكن مثل هذه الضوابط مطبقة دائما بشكل منظم ، ولكن قوانين الزواج والميراث كانت تفرض بدقة ، فلا يمكن لغير المسلم أن يرث المسلم ، ولا يحق للرجل غير المسلم أن يتزوج امرأة مسلمة ، ولكن يحق للرجل المسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ، وكان التحول من الاسلام الى الديانات الأخرى ممنوعا بشكل بات .

وقد كان ميل اليهود والمسيحيين لشغل مواقع ذات أهمية خاصة في أنشطة اقتصادية معينة علامة على الوجود المنفصل لهم ، الا أنهم استبعدوا فعليا من بعضها الآخر . فعلى المستويات العليا شغل اليهود والمسيحيون مواقع ومناصب مهمة في قصور بعض الحكام أو في ادارتهم . ففي مصر الفاطمية والأيوبيية ، والملوكية احتل المسؤولون الأقباط واليهود مواقع عامة في الخدمات المالية ، وكان الطب مهنة برز فيها اليهود ، وكان لأطباء القصور اليهود نفوذ كبير ، وإذا تحول مسيحي أو يهودي للإسلام يمكن أن يرتقى الى مستوى أعلى ، وأصبح من تحولوا للإسلام رؤساء وزارات وتمتعوا بسلطات فعالة .

وقد لعب اليهود في المدن الإسلامية دورا كبيرا في التجارة الخارجية مع موانئ البحر المتوسط وأوروبا ، وربطها مع موانئ المحيط الهندي حتى العصر المملوكي ، وكانت الحرف التي ترتبط بالمقايير والذهب والفضة تكاد تكون بكاملها في أيدي المسيحيين واليهود الذين يعملون لحسابهم أو لحساب بعض المسلمين .

وكانت العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين تشكل جانبا واحدا فقط من مجمل تركيبة العلاقات الاجتماعية المعقدة ، والتي تربط بين أولئك الذين عاشوا جنبا الى جنب في نفس المدينة ، وقد شامت الظروف أن يسيطر جزء أو آخر من هذه التركيبة في زمن أو آخر وفي مكان أو آخر ، ففي القرون الأولى من الحكم الاسلامي يبدو أنه كان هناك تواصل وتفاعل بين أتباع الديانات الثلاث ، وكانت العلاقات بين اليهود والمسلمين في اسبانيا الأموية وبين المسلمين والمسيحيين النسطوريين في بغداد العباسية قوية وسلسة ، مرور الوقت زادت الحواجز ، وتحول المسيحيون وربما

تحويل اليهود بنسبة أقل الى الاسلام مما حول الأغلبية الى أقلية متلاشية ويتحول الاسلام من كونه دين النخبة الحاكمة ، ليصبح العقيدة المسيطرة لسكان المدن والحضر ، وطور الاسلام مؤسساته الاجتماعية التي يمكن من خلالها للمسلم أن يعيش بدون التعامل مع غير المسلمين .

وقد تخلل القرون الاسلامية الطويلة بعض الفترات من الاضطهاد المتعمد المقصود لغير المسلمين على أيدي الحكام المسلمين . مثل فترة حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١) في مصر ، والموحدين في المغرب ، وفترات حكم بعض الحكام المفلول في ايران والعراق بعد تحويلهم الى الاسلام . مثل هذا الاضطهاد لم يكن يقره أو يحرض عليه زعماء الاسلام السنيون ، ولكن العلماء كانوا مهتمين بالعمل على ضمان عدم انتهاك غير المسلمين للقوانين التي نظمت أوضاعهم ، ولكنهم قالوا بضرورة الحماية التي وفرتها الشريعة لهم . وقد كانت الضغوط على اليهود والمسيحيين أساسا من الجموع في الحضر ، خاصة في أوقات الحرب. أو الصعوبات الاقتصادية عندما يتركز المعاد تجاه رجال الحاكم من غير المسلمين ، وفي مثل هذه الأوقات يكون رد فعل الحاكم هو التطبيق الحرفي الصارم للقانون ، أو التخلص من المسؤولين غير المسلمين لحن من الوقت فقط وقد وقعت هذه الأزمات عدة مرات خلال الحكم المملوكي لمصر وسوريا .

وإمكان للتنظيم الاجتماعي للمسيحيين واليهود أن يوفّر نوعا من الحماية ويحفظ التضامن في مواجهة الضغوط القبلائية عند وقوعها ، واحتمال المصاعب المستقبلية التي تتعرض لها الأقلية . وكانت المجتمعات المسيحية واليهودية مترابطة بفعل تضامن الجماعة المحلية الملتفة حول الكنيسة أو المعبد ، وأيضا بتأثير من يحتلون السلطات العليا بين اليهود في فترة الخلفاء العباسيين ، وكان هناك نوع من التميز الشرفي لرؤساء طوائف الأسرى وهي وظيفة تعود للبولئك الذين يدعون الانحدار من نسل الملك داود ، ولكن القيادة الأكثر فاعلية كانت لرؤساء الجماعات أو المدارس الرئيسية من رجال العلم ، اثنتان في العراق وواحدة في فلسطين ، وكان هؤلاء الرؤساء هم الذين يمينون القضاة في المحاكم المختلفة . وعندما انشقت الخلافة فيما بعد ظهرت القيادة المحلية ، من قضاة ، ودارسين ، وزعماء علمانيين ، مثل « تاجد » رئيس اليهود في مصر وهو منصب قام عليه رجال من سلالة المفكر العظيم (موسى بن ميمون) .

وقد مارس البطارقة والمطارنة فى المجتمعات المسيحية سلطات ونفوذاً مشابهاً . وفى عهد الخلافة العباسية كان للبطركية النسطورية فى بغداد ، والبطركية القبطية أثناء حكم الأسر اللاحقة فى القاهرة وضع خاص من النفوذ والاحترام . وكان رؤساء الطوائف مسؤولين عن ضمان احترام بنود عهد الحماية بين حكام المسلمين والرعايا من غير المسلمين أهل الذمة بالسلم والطاعة وقد لعبوا دوراً فى تقييم ضريبة الرأس ، وعادة ما كان يصممها مسئولون فى الحكومة ، وكانت لهم أيضاً وظيفة داخل الطائفة هى الاشراف على المدارس والخدمات الاجتماعية ، ومحاولة منع الانحراف عن المذهب والممارسات الكهنوتية . وأشرفوا أيضاً على المحاكم التى يطبق فيها القانون فى الحالات المدنية التى تقوم بين اثنين من الطائفة ، وفى تسوية المنازعات ، وإذا رغبوا فبإمكان اليهود والمسيحيين رفع قضاياهم للقاضى المسلم ، ويبدو أنهم لجأوا لذلك كثيراً .

المرأة فى المدينة

حسب معلوماتنا فقد لعبت المرأة دوراً محدوداً فى الحياة الاقتصادية فى المدينة . كن خادعات فى المنازل وبعضهن كن يسهون أزواجهن فى تجارتهم أو حرفتهم ، وكانت هناك نساء للترفيه ، من مطربات وراقصات ، وعموماً لم يكن لهن نصيب فى الأنشطة الرئيسية للمدن الكبرى وهى إنتاج السلع الثمينة على نطاق واسع من أجل التصدير . أولئك اللاتي كن نشطات بشكل صريح كن بنات المائلات الفقيرة . فعل قدر غنى ونفوذ واحترام العائلة ، يكون انعزال نساها فى جزء خاص من المنزل (الحريم) ويضعن الخمار عند خروجهن من البيوت الى الطرقات أو الأماكن العامة ، وأفشى المفتى المصرى ، من المدرسة المالكية ، ابن الحاج (و ١٣٣٦) بأن المرأة لا يجب أن تخرج لشراء حاجياتها من السوق ، لأن ذلك قد يؤدى الى انسياقهن الى أفعال غير سليمة إذا ما جلسن الى أصحاب الحوائث :

« قال بعض القدماء الصالحين (رضى الله عنهم) ان المرأة يجب ألا تنادر منزلها الا فى ثلاث مناسبات : عند ذهابها الى منزل الزوجية ، وفى حالة وفاة أحد أبويها ، وعندما تشيع الى قبرها » (١) .

ولم يكن العيش فى عزلة الحريم انعزالا تاماً أو شاملاً عن الحياة ، فقد كانت النساء تلتقى فى أجنحة فى البيوت الكبيرة ، وفى زيارتهن لبعضهن البعض ، وفى الحمامات العامة التى كانت تقتصر على النساء

فقط في أوقات معينة ، وفي احتفالات الزواج أو ميلاد الأطفال ، وكانت
نبن ثقافتين الخاصة بهن ، وكان لبعضهن دور فعال في ادارة أملاكهن
من خلال وسطاء ، وسجلت حالات عن نساء مثلن أمام القاضي للمطالبة
بمقوقهن ، وكما كان الأمر في الريف : عندما تكبر المرأة ، وإذا كان لها
أبناء ذكور يكون لها نفوذ قوى في العائلة .

وكان النظام الاجتماعي مبنيا على تفوق الرجل ونفوذ ، وكان
الحجاب والحريم علامات واضحة على ذلك ، وتأكدت النظرة الى العلاقة ، ذات
الجذور العميقة في تراث الشرق الأوسط ، بين الرجل والمرأة والتي كانت
موجودة منذ وقت طويل قبل مجيء الاسلام ، وظلت سائدة في الريف
بمادات بعيدة الغور في التاريخ ، ولكنها تغيرت في المدينة مع تطور
الشريعة .

وقد أكد القرآن بنصوص محددة واضحة القيمة الأساسية للرجل
والمرأة ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون
الجنة (٢) كذلك دعا الى العدل والاحسان في التعامل بين المسلمين ،
ويبدو أن تعاليمه فيما يتعلق بالزواج والميراث أعطت المرأة وضعية أفضل
مما كان لها في الجزيرة العربية قبل الاسلام (وليس بالضرورة في البلاد
التي فتحتها الاسلام) ، وقد أعطى النظام القانوني ، والأخلاقيات الاجتماعية
المتأالية الشريعة شكلا رسميا لحقوق المرأة ، ولكنها أيضا وضعت لها
حدودا .

فيجب وفقا للشريعة أن يكون لكل امرأة ولي أمر من الرجال ، الأب
أو الأخ أو أي فرد من الصائلة . وكان زواج المرأة عقدا مدنيا بين الزوج
وولي أمر العروس ، وكان من حق الأب كولي أمر أن يزوج ابنته بدون
رغبتها أو موافقتها إذا لم تكن قد وصلت الى سن الرشد ، وعند بلوغها
هذه السن كانت موافقتها ضرورية ، ولكن إذا لم يكن قد سبق لها الزواج
يعتبر السكوت علامة على القبول ، وينص عقد الزواج على الصداق الذي
يؤديه العريس الى العروس ويكون ملكا لها ، ويظل ما كان لها قبل من
تركة ملكية خاصة لها ، وعلى الزوجة اطاعة زوجها ، وفي المقابل لها
الحق في اللبس المناسب والاقامة والاعاشة والمعاشرة الجنسية مع زوجها .
ورغم أن علماء الدين أقروا بأن منع الحمل مسموح به في بعض الحالات ،
فليس للرجل ممارسته الا بموافقة زوجته (٣) .

(*) وهو ما كان يعرف بالعزل (يلقح البين وتمسكين الزاءه) وهو لا يخرج في
نتيجته عن منع الحمل - (المرجع) .

وهناك نواح عديدة تكون فيها العلاقة بين الزوج وامراته علاقة غير متوازنة . فبينما لا يحق للمرأة أن تطلق من زوجها الا لأسباب قوية (المته والجنون وانكار حقوقها) وليس قبل اللجوء للقاضي ، أو بالتراضي بين الطرفين ، الا أنه يحق للزوج طلاق زوجته بدون ابداء أى أسباب وبلفظ كلمات بسيطة بحضور شهود الطلاق (فى الشيعة قواعد الطلاق أكثر صرامة ولكنها تمنح حق الزواج المؤقت أو المتعة لفترة محدودة) وقد توفر عقود الزواج ضمانات حيال ذلك اذا ما نصت على قيام الزوج يدفع المؤخر من الصداق عند طلاق الزوجة ، ويمكن للزوجة أن تعتمد على العون والحماية التى يوفرها لها الرجال ممن لهم قرابة بها ، واذا طلقت يمكن أن تعود هى وممتلكاتها الى منزل أهلها ، ويمكن أن تكون لها حضانة الأطفال من هذه الزيجة وواجب تربيتهم حتى يبلغوا سنا معينة تختلف باختلاف القوانين ، وبعدها تثول حضانتهم للوالد أو أسرته .

وقد سمحت الشريعة المبنية على القرآن والتأسى بالرسول ، للرجل أن يتخذ أكثر من زوجة حتى أربع ، اذا كان بإمكانه أن يعاملهن كلهن بالمعدل والتساوى ولا يهمل واجباته الحميمة مع أى منهن ، ويمكن له أيضا أن يتخذ خليات بأى عدد من بين عبيده (*) ، ويدون أن يكون لمن أى حقوق عليه ، ويمكن أن ينص عقد الزواج على عدم أحقية الزوج فى اتخاذ زوجات أخر أو خليات .

وكان عدم المساواة ظاهرا أيضا فى قوانين الميراث ، وهى أيضا مشتقة من الشريعة وعن نص القرآن . فبإمكان الرجل أن يهب حسب رغبته بما لا يزيد عن ثلث ما يمتلك لأشخاص ، أو أغراض لا تنأت من خلال الميراث ، وما يتبقى يتم تقسيمه طبقا لقواعد صارمة ، تحصل الزوجة على الثلث(**) اذا كان لديه أبناء وبنات، وتحصل الابنة على النصف فقط من نصيب الابن ، واذا لم يكن له سوى بنات فيحصلن على نسبة معينة من أملاكه ، والباقى لأقربائه من الذكور (وفقا لقانون السنة ، أما عند الشيعة فترث البنات كل شيء اذا لم يكن هناك أبناء) ، والنص

(*) وهو ما يعبر عنه « بملك لليمين » أو ما حلتكم ، ومن المفهوم أنها اذا اتجبت كان لها حق نسبة أهلها الى ابيه ، وعادة ما تكون لها وضعية خاصة بعد الانجاب كما اتفقت ضوابط لضبط الانساب اذ تسمى عليها حدة العدة وغير ذلك مما يصر على الزوجات المرائر - (المرجع) .

(***) اذا كان للزوج اولاد وبنات ، فنصيبها كما هو معروف ثمن الزركة - (المرجع) .

على أن نصيب الاناث نصف ما يرثه الذكور هو صدى لنص أخسر في الشريعة ، ففي القضايا القانونية يكون لشهادة المرأة نصف وزن أو قيمة شهادة الرجل .

شكل المدينة

كانت المدينة مكانا يميل فيه التجار والحرفيون ، وفيها تلقى العلماء العلم وعلومه ، وعقد الحكام والولاة اجتماعاتهم في حراسية جنودهم ، وطبق القضاة القانون ، واليهاء جاء القرويون وسكان الصحراء لبيع منتجاتهم وشراء احتياجاتهم ، وجاءها التجار من بعيد للبيع والشراء ، والطالب للدرس على أيدي مشاهير العلماء ، وكانت بنية المدينة تسمح باستيعاب كل احتياجاتهم .

وكان في قلب كل مدينة كبيرة ، (وليس بالضرورة مركزها الجغرافي) نوعان من المجتمعات المعمارية ، أحدهما يشمل المسجد الجامع الرئيسي ، والذي كان مكانا للالتقاء والدراسة والصلاة ، وفيه يعبر الوعي الجماعي للسكان المسلمين عن نفسه في أوقات الأزمات . بجواره يكون مقر أو بيت قاضي القضاة ، ومدارس التعليم العالي ، والمحال التي تباع الكتب أو الشموع ولوازم الشعائر الدينية ، وقد يوجد أيضا ضريح لولي ارتبطت حياته بشكل خاص بحياة المدينة . والمجمع المعماري الآخر يشمل السوق المركزي ، وهو الموقع الرئيسي للتبادل التجاري ، وفيه أو بقربه تقع محال بيع المنسوجات والمجوهرات والتوابل والسلع الأخرى الثمينة ، ووكالات البضائع المستوردة ، ومحال الصرافة لاستبدال العملة التي كانت تقوم بأعمال البنوك من ناحية تمويل التجارة الخارجية . هذه المحال والمخازن والمكاتب يمكن أن تكون في خط واحد أو بشكل رباعي في الشوارع المتوازية أو المتقاطعة ، أو في كتلة متقاربة من المباني والمرتبطة ببعضها البعض بحيث لا تخترقها الطرق . وهناك تجمع ثالث قرب مراكز المدن الحديثة ولم يكن متميزا ، فقوة الحكومة كانت واضحة في مجال المراقبة والحراس والمشرقيين على الأسواق (*) ولكنهما لم تعبر عن نفسها في المباني الكبيرة أو الفاخرة (**).

(*) أو المتتميين ، وهو الاسم الذي كان يحمل أولئك الذين يعملون في خدمة

نظام الحسية : (يكسر الحاء وتسكين التين) - (المراجع) .

(**) بمعنى أن الحاسب قد لا يجرى على محاسبة الأثرياء وسكان القصور -

(المراجع) .

وكانت منطقة السوق موقعا للمبادلات التي كان معظمها يجرى فى الأماكن التي تودع فيها السلع الثمينة لأمكان حفظها وحراستها خلال الليل ، وتقع الورش ومحال المتسوجات والأشغال المعدنية على مقربة منها ، وكذلك أيضا مساكن العاملين بها . وكان التجار الأغنياء وطلاب العلم يعيشون على مقربة منها ، ولكن معظم السكان عاشوا خارج هذه المراكز فى أحياء سكنية ، كل منها عبارة عن مجموعة من الطرق الصغيرة والأزقة التي تصب فى شوارع رئيسية ، وفى بعض الفترات كانت لهذه الأحياء بوابات قفلت وتحرس خلال الليل ، ويمكن أن يكون للحى الذى يضم بضعة مئات أو بضعة آلاف من السكان مسجد أو كنيسة ، ومعبد يهودى ، والسوق المحلية الثانوية (السوقة) التي توفر الاحتياجات اليومية ، وربما احتوى أيضا الحمام العام وهو موقع التقاء مهم ، وقد تسكن فيه بعض العائلات القوية النافذة حيث يمكنهم فرض سطوتهم وممارسة الزعامة ، ولكن البعض الآخر يمكن أن تكون لهم فى ضواحي المدينة مساكن أكثر اتساعا ومحاطة بالحدايق ، والحى مملوك لسكانه وكان يعنى من المعانى امتدادا للمساكن . اذ يحى خصوصيته شباب الحى الذين ينتظمون فى مجموعات (الزعران والعمارين والفتوات) ممن لهم وجود دائم ومثاليات خلقية معينة ، مثل هذه المجموعات يمكن أن يكون لها دائرة أوسع من العمل فى أوقات الاضطرابات فى المدينة .

وبعيدا عن المركز قرب الأسوار أو ما بعدها تتكون هناك أحياء فقيرة حيث يعيش المهاجرون من الريف . تجهز فيها القوافل وتنظم وترسل ، وتستقبل حيوانات نقل الأحمال وتبباع وتشتري ، وسكان الريف يجلبون الفاكهة والخضروات والماشية لمرضاها للبيع ، وهنا أيضا توجد الورش حيث تجرى الأعمال ذات الموضوع أو الروائع الكريهة ، كالجزارة والدباغة ، وفيما وراء هذه الأحياء وخارج أسوار المدينة تقع المقابر التي كانت أماكن التقاء وليس فقط فى أوقات الجنائزات .

كان سكان كل حى يميلون الى الارتباط بمتشأ مشترك دينى أو عرقى أو اقليمى أو عائلى بالقرابة أو النسب ، ومثل هذه الروابط أوجدت نوعا من التضامن القوى . فمال اليهود والمسيحيون للعيش فى أحياء معينة دون غيرها لأسباب القرابة أو المتشأ أو لرغبتهم فى البقاء الى جوار أماكن عبادتهم ، أو بسبب اختلاف عاداتهم فيما يتعلق بمزل النساء مما جعل الاختلاط مع العائلات المسلمة صعبا . وقد عاش اليهود من الأصول البربرية أو الشرقية فى المغرب بشكل منفصل عن اليهود الذين

جاءوا من الأندلس . ولم تكن الأحياء التي عاشوا فيها مسيحية أو يهودية بالكامل ، ولم يكن هناك « جيتو » في معظم الأماكن ، وبنهاية القرن الخامس عشر أصبحت مراكش استثناء ففي فاس والمدن الأخرى ظهرت أحياء يهودية منفصلة بناها الحكام لحماية اليهود من الاضطرابات الشخصية .

وكانت هناك اختلافات كثيرة عن هذا النسق المصمم تبعاً لطبيعة الأرض والتراث التاريخي وتصرفات الأسر الحاكمة . فمدينة حلب على سبيل المثال كانت مدينة قديمة نامية قبل مجيء الإسلام . وظل قلب المدينة في نفس موقعه خلال العهد الهلينيستي والبيزنطي لكن الشوارع الرئيسية أصبحت أكثر ضيقاً عما كانت عليه ، لأن النقل بالجمال والحمير حل محل المركبات ذات العجلات ، بحيث يكون الاتساع كافياً لحيوانين محمليين للمرور في اتجاهين متقابلين ، وما زال النسق المربع للشوارع الرئيسية يظهر في متاحة الحواري المغطاة بالأقبية في السوق ، والمسجد الكبير (*) يقع في نقطة يتسع فيها الطريق الرئيسي للمعهد (ذو الأعمدة) في المدينة ذات الطابع الهلينيستي ليفضي إلى ميدان أو ساحة forum أو مكان اجتماع الناس (**).

أما القاهرة من ناحية أخرى ، فكانت ابتكاراً جديداً في القرون الأولى للحكم الإسلامي في مصر ، وقد انتقل مركز القوة والحكم إلى الداخل من الاسكندرية إلى نقطة تفرع النيل إلى الدلتا ، وبنييت سلسلة من المراكز الحضرية إلى شمال الموقع الحصين للبيزنطيين المعروف باسم بايبلون : الفسطاط ، والقطائع وفي النهاية القاهرة التي بنى مركزها الفاطميون والتي ظلت ثابتة بالفعل حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي قلبها يقع الجامع الأزهر الذي بناه الفاطميون لتعليم الإسلام على المذهب الاسماعيلي ، وظل باقياً كأحد أعظم مراكز تعليم المذاهب السنية ، والمسجد الجامع الرئيسي للمدينة ، وإلى القرب منه كان ضريح الحسين ابن الحليفة الرابع علي وزوجته فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم وكان الاعتقاد الشعبي أن رأس الحسين قد نقلت إلى ضريحه بصد مقتله في كربلاء ،

(*) وهو المعروف بالمسجد الجامع أي الذي تعقد فيه صلاة الجمعة . مثل جامع مسجد ، وليس كل مسجد جامعاً - (المراجع) .

(*) الفوريم Forum هو الميدان أو الساحة ، وقد شاع هذا المصطلح في الحقبة الرومانية على نحو خاص . انظر معجم الفنون تأليف هيلين ألدوني (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) - (المراجع) .

وعلى مقربة من ذلك يقع الشارع الرئيسى الذى يمتد من البوابة الشمالية للمدينة (باب الفتوح) الى الجنوبية (باب زويلة) ، وتقع على الجانبين فى الطرق المتفرعة منه ، المساجد والمدارس والمحال والمخازن وتجار الأقمشة والتوابل والذهب والفضة .

كما أنشئت فاس بشكل مختلف - حيث قامت بإدماج مستوطنتين تقعان على جانب نهر صغير ، وقد تحدد مركز المدينة فى النهاية فى نقطة فى واحدة من البلدتين حيث يقع ضريح المؤسس المفترض للمدينة « مولاى إدريس » ، وكان يقع بقربه المجمع التعليمى الكبير مسجد القروان ومدارسه ، وشبكة من الأسواق تحميها البوابات ليلا حيث تخزن وتباع التوابل وأشغال الذهب والفضة والمنسوجات المستوردة والتعال الجلدية . وهى أحد المنتجات التقليدية للمدينة .

وكان المسجد الجامع والسوق المركزى مراكز إشباع ثقافى واقتصادى ، ولكن الحاكم كان يمارس سلطته من موقع آخر ، وفى العصور الإسلامية الأولى يمكن أن تكون قصور الحاكم وولاته المحليين فى قلب المدينة ، ولكن فيما بعد كان هناك انفصال على نحو ما ، وأصبح شائعا بين المدينة - مركز الأنشطة الحضرية الأساسية - والقصر الملكى ، ولهذا انتقل العباسيون لفترة من مدينة بغداد التى بنوها الى سامراء الى شمال دجلة ، وحذا حذوهم الحكام اللاحقون . وفى القاهرة كان بلاط الأيوبيين والمماليك فى القلعة التى بناها صلاح الدين على تلال المقطم التى تطل على المدينة . والأمويون فى أسبانيا ، بنوا قصورهم فى مدينة الزهراء خارج قرطبة وأنشأ الحكام المراكشيون مدينة ملكية هى فاس الجديدة على مشارف المدينة القديمة . وليس من السهل فهم أسباب ذلك الانفصال . فلم يكن بسبب القوة أو العظمة أو رغبة الحاكم فى أن يكون معزولا عن ضغوط الرأى العام ، وإنما للحفاظ على جنوده بعيدا عن الانخراط فى مصالح المدينة التى يمكن أن تضعف من ولائهم لمصلحته وحدها .

وداخل المدينة الملكية أو المجمع يقع القصر نفسه بخزائنه الملكية ، ويكون المسئولون والكتبة فى الساحات الخارجية للقصر ينظرون القضايا والمصالح العامة ويستقبلون السفراء . ويجرى امتحان القضاة الملكة ، وينظر المجلس فى القضايا ويستمع للالتماسات ممن لهم مصالح والذين يمكن السماح لهم بالدخول الى هذا الجزء من القصر ، وقد يحضر الحاكم بنفسه فى بعض الأوقات لأغراض محددة ، أما القاعات الداخلية فهى للحاكم

نفسه وعائلته ونسائه يحرسهن الحصيان وعبيد القصر الذين يشكلون نوعا من الامتداد لشخصيته ، وتفاوتت درجات الانعزالية من أسرة الى أخرى ، فقد عاش الحفصيون مع عامة الشعب مع القليل من الانعزالية ، بعكس الماليك .

وفي المدينة الملكية تكتنات للحرس الملكي ، وقصور وبيوت كهـار المسئولين ، والأسواق المتخصصة التي تنتج السلع لاحتياجات القصر والجيش والترسانة ، وأسواق الخيل والسلاح والورش حيث تصنع المنسوجات الراقية لاستعمال القصر ، والعاملون في مثل هذه الحرف يمكن أن يعيشوا الى جوار الحى الذى يعيش فيه تجار الذهب والفضة وصنابعها من اليهود ، وكان واقعا داخل القصر الملكى فى فاس .

البيوت فى المدينة

بحلول القرن الخامس عشر كانت أسواق المدن تضم ابنية كبيرة مبنية حول أحواش مكشوفة ، يتكون الطابق الأرضى من المخازن ، وفوقها نزل أو خان للتجار الزائرين ، مثل هذه المباني بأشكالها المختلفة كانت تعرف باسم الخان فى سوريا والعراق ، والوكالة فى مصر ، والفندق فى المغرب ، وهناك نوع آخر من المباني فى المغرب على الأقل ، يعرف بالقيصرية حيث تخزن السلع الثمينة ، ومعظم هذه المباني يتأها حكام أو رجال نظام من المدينة نفسها وحولها الى أوقاف بحيث يستخدم المالد للأغراض دينية أو خيرية .

وكانت المباني السكنية فى المدينة على ثلاثة مستويات : فى بعض المدن كان أسكان الفقراء ، ويتكون فى معظمه من ساحات مفتوحة بها أكواخ وفى المراكز المزدهمة للقاهرة ، كان القراء وكذلك الحرفيون وتجار التجزئة الذين يحتاجون للقرب من أماكن أعمالهم ، يعيشون فى مبان ذات شقق، وكان البيت النمطى مبنى حول مساحة بحيث تكون الورش فى الطابق الأرضى، وثبة درج يؤدى الى طابقين علويين أو ثلاثة يتكون كل منها من شقق منفصلة من عدة غرف، وكان للماثلات التى تمشى فى ظروف أفضل أو فى مناطق أقل ازدحاما ، أنواع أخرى من المنازل تطورت تدريجيا ، ففى جنوب غرب الجزيرة العربية كانت ذات طابع متميز ، مبنية ببناء جيدا من الأحجار ، ومصممة بشكل متكرر وترتفع لعدة طوابق ، وكانت الحيوانات تعيش فى الطابق الأرضى ، والمحجوب والأعلاف فوقها ، ويملوها طابقان

أو ثلاثة من غرف المعيشة ، وتقع غرفة الاستقبال الرئيسية فى الطابق الأعلى حيث انه الأفضل من حيث الهواء والمنظر ، وفى أماكن أخرى تطور الشكل النمطى لمنزل العائلة الكبيرة مسح تغيرات كثيرة ارتبطت بالمكان والزمان ومن تولىفة من الطرز اليونانية الرومانية للبحر المتوسط مع بعض التقاليد من إيران أو العراق *

وقد يكون مدخل البيت على هيئة ممر خارج من الشارع الرئيسى ، ولا يدخل على غنى صاحب البيت سوى حجم البوابة حتى لا يثير حسب الحكام أو فضول المارين ، وكانت المنازل مبنية لتتربى من الداخل وليس من الخارج . وكان الباب - وهو السمة الخارجية الرئيسية - يصنع من الحديد أو الخشب فى إطار من الأحجار المنحوتة ، وقد تعلوه نافذة يرى منها المقربون أو القادمون ، ومن داخل الباب رواق يحنى فى زاوية بحيث لا يرى من الشارع ، ويؤدى الى ساحة رئيسية تفتح عليها مجموعة من الغرف وتشمل غرفة الاستقبال الرئيسية (المجلس أو القاعة) ، وفى المناطق المزدهجة قد تستبدل الساحة بغرفة مركزية مغطاة هى غرفة الاستقبال ، وغالبا ما تقع على جانب من الساحة فى مواجهة المدخل ، ويمكن أن يجعل لها مدخل خاص (إيوان) وهو قبو دائرى ضخم انتشر غربا من إيران ، وفى بعض المناطق كالقاهرة الملكية كانت للغرفة الرئيسية غرفة ملحقة فى مقابله ، ثم تطورت الغرفة الى نوع من الساحة المغطاة مع مساحة منخفضة ونافورة فى الوسط ، ومساحات للجلوس على الجانبين ، وكانت غرف النساء وأطفالهن وخدمتهن منفصلة عن منطقة الاستقبال بملحقاتها من الغرف والمكتبات ، انفصالا نسبيا حسب رغبة صاحب المنزل ، وفى المنازل الواسعة كان الفصل بين مناطق الاستقبال ومناطق السكن يحتم وجود مساحتين ، فى المنازل الأصغر باختلاف وظائف الطابق الأرضى عن الطابق العلوى ، وفى المنازل الكبيرة يمكن أن يكون لها سبام ..

وكان البناء بالأحجار مكلفا فى معظم المناطق ، وكانت المساكن تبنى من الطوب الأحمر ، أو الطوب اللبن ، وكانت الأبواب والمداخل الرئيسية ذات إطار حجرى . وأسقف الغرف الرئيسية على الطابق الأرضى كانت عادة آتية من الطوب . وكانت أسقف الأدوار العليا عادة من الخشب لثمن الخرطبة وتضيق وزن المبنى ، وكانت الأسقف تحتوى على فتحات لضبط التهوية ، كما كانت الحوائط والأبواب والأسقف مزينة . وكان الخشب مدهونا بألوان مختلفة (قد غلب اللون الأخضر على زخارف

المغرب في حين غلب اللون الأزرق في تونس) كانت الحوائط مدهونة وموشاة بتصميمات وأشكال نباتية ، والأحجار منحوتة بالتطويع أو الزخارف النباتية والنوافذ لها شبائيك من الخشب المخروط (المشربيات) التي كانت معروفة في مصر في العصر الفاطمي وأصبحت شائعة في العصر المملوكي .

وكان بالمنازل القليل من الأثاث الدائم فيما عدا أصدونة الملابس ودواليب التخزين ، وقد استنتج أحد مؤرخي القاهرة أن الدور الذي لعبه الأثاث الخشبي في البيوت الأوربية حلت محله هنا المنسوجات والأقمشة، فكان يشرف الاستقبال أرائك عليها وسائد ، وحلت المراتب المحشوة والمخدّات الموضوعة على الأرض أو على قواعد من الخشب أو الحجر محل الأسرة ، وكانت الحوائط مغطاة بالمعلقات والأرضيات والأسرة بالسجاد ، وفي الليل توقد المصابيح الزيتية النحاسية للإضاءة وفي الطقس البارد يحضر المنقد النحاسي لإحراق الفحم أو البخور . وكان الطعام يقدم على خوان مستديرة كبيرة من الفضة أو النحاس ، ترتكز على قواعد خشبية ، وكانت الأوعية والأكواب من الفخار أو الخزف ، وعند الأغنياء من الصينيين ، وكانت أواني الطعام من النحاس ، والزجاج أو الفخار للشرب ، وكانت قطع الخبز الرقيق تستخدم لتناول الفومس من الطبق الرئيسي ، ولكن الملاحق والسكاكين كانت مستخدمة لدى الأغنياء .

وكان للخبز أهمية أساسية في حياة الفقراء ، فكانت الحكومات تملق أهمية كبرى على ضمان تموين الجيوب للمدن ، وقد اندلعت الاضطرابات الشعبية عندما شجعت الواردات من الجيوب ، وكان الخبز يصنع في معظم المناطق من القمح ويطهى بزييت الزيتون ، ويؤكل بالخضروات كالبصل والثوم وثمار مثل الباذنجان الذي استجلب الى عالم البحر المتوسط مع التوسع الاسلامي ، ومعظم الناس كانوا ناذرا ما يأكلون اللحم الا في الإحتفالات والأعياد والمناسبات الكبرى . أما نظام تغذية الموسرين فكان أكثر تنوعا ، ويحتوي على عدد أكبر من الخضروات والفاكهة (حسب امكانات الزراعة أو الاستيراد للأعشاب والمواالح والبرقال والمشمش والبرقوق في بلدان البحر المتوسط ، والبلح والتمر في العراق على حدود الصحراء والواحات) كما كان يحتوي على اللحوم الضأن أكثر من البقرى ، والدواجن. والسماك في المناطق قرب البحر والأنهار والبحيرات ، وكان اللحم يطهى في زيت الزيتون أو السمسم مع اضافة البهارات، ورغم

أن القرآن حرم شرب الخمر إلا أن النبيذ والمشروبات القوية الأخرى التي كان يصنعها المواطنون المسيحيون أو المسيطودة من غرب أوروبا كانت تستخدم بكثرة *

سلسلة المدن

كانت الثروة تنتقل من جيل إلى جيل ومعها تراث ثقافي ونظام للتعليم ، ومنظومة للقيم وأنماط للسلوك ، ونماذج نمطية للشخصية ، طالما استمر النظام الحضري والسيطرة على الريف ، والتي كان يحميها تحالف الحكام والصفوة الحضرية ومن المعتقد أن (قواعد) التصرف المقبول التي كانت موجودة في فاس في بدايات القرن العشرين كانت مشابهة تقريبا لتلك التي وصفها ليو أفريكانوس (*) في القرن السادس عشر (٣) *

وكانت شرائع التصرف والفكر السليم والتعليم والمهارات العالية قد ربطت الأجيال كما ربطت المدن ببعضها البعض - اختزلت شبكة من الطرق العالم الإسلامي وما وراءه ومرت عبرها ليس فقط القوافل من الإبل والحمر تحمل الحرير والتوابل والزجاج والمعادن الثمينة ، ولكن الأفكار والأنبياء والموضوعات وأنماط التصرف والفكر أيضا ، وعند تقابل التجار وقادة القوافل في الأسواق كانوا يتبادلون الأخبار ويتفهمون معانيها ، واستقر التجار من بعض المدن في مدن أخرى ، واحتفظوا بعلاقات وثيقة ودائمة بينهم ، ومن وقت لآخر وقعت حركات أكثر عنفا وحيوية على هذه الطرق ، كجيش حاكم آخر أو تمرد على القوة المسيطرة وكلها أيضا يمكن أن تحمل معها أفكارا جديدة حول كيفية العيش في المجتمع وعناصر عرقية جديدة تضاف للناس والسكان *

ومعد بداية التاريخ الإسلامي أيضا تحرك الرجال بحثا عن المعرفة لنشر تراث السنة عما فعله النبي أو قاله من أولئك الذين تلقوه عن طريق صحابته ورفاقه ، وبمرور الوقت توسعت أغراض السفر لتشمل السعي لاكتساب علوم الدين عن أستاذ مشهور ، أو تلقي التدريب الروحي على أيدي أستاذ معلم للحياة الدينية ، وقد جاء الباحثون عن المعرفة أو الحكمة

(*) هو الرحالة الحسن بن الوزان ، وسبق أن ذكرنا الملامح عنه في حاشية

سابقة - (المراجع) *

من القرى أو المدن الصغيرة الى المدن الكبيرة ، من جنوب مراكش الى جامع القرويين في فاس ، ومن شرق الجزائر وتونس الى الزيتونة في تونس ، وقد اجتذب الأزهر في القاهرة طلابا من مجال أوسع كما تدل أسماء منازل الطلبة : أروقة المغاربة وسوريا والعيشة ، كما اجتذبت المدارس الشيعية في المدن الشيعية المقدسة في العراق مثل النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية على أطراف بغداد ، طلابا من مجتمعات شيعية أخرى من سوريا وشرق الجزيرة العربية •

وتصور حياة الرحالة الشهير ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) الروابط بين المدن والأراضي الإسلامية • كان قيامه بالحج في سن الحادية والعشرين مجرد البداية لحياة من الترحال حملته من موطنه طنجة في مراكش الى مكة مروراً بسوريا ، وبعدها بغداد وجنوب غرب إيران، ثم الى اليمن وشرق أفريقيا ، وعمان والخليج وآسيا الصغرى والقوقاز وجنوب روسيا الى الهند وجزر المالديف والصين وبعدها العودة الى موطنه في المغرب ومنها الى الأندلس والصنعاى ، وأينما ذهب زار أضرحة الأولياء ، واختلط بالدرائش وطلاب العلم ، الذين ربطته بهم الثقافة المشتركة التي عبرت عنها اللغة العربية ، وقد لقي استقبالا حسنا في قصور الأمراء واختير عند البعض منهم في منصب القاضي ، وهذا الشرف الذي اكتسبه بعيدا عن بلاده في دلهى وجزر المالديف أظهر المكانة التي يتمتع بها شراح التعاليم الدينية باللغة العربية (٤) •

الفصل الثامن

المدن وحكامها

تكون الأسرات الحاكمة

تطلب الحفاظ على القانون والنظام في المدن قوة تفرضه ، أي حاكم له وضع مختلف عن شيخ القبيلة الذي يستمد سلطته المزعومة من العادة والتراخي .

وغالبا ما كانت الأسر الحاكمة تستمد قوتها من الريف، وكان لبعضها جنود فيهم ، وإمكانهم السيطرة على المدن بفرض أنفسهم ، واستمدوا قوة جديدة من محصلة مجموعة المصالح المشتركة مع السكان في الحضر ، ورغم ما قد يبدو في ذلك من مفارقة في التاريخ الإسلامي ، (وقد يكون الأمر كذلك في تواريخ أهم أخرى) .

وقد احتاجت الأسر الحاكمة ، في استمرار بقائها ، إلى أن تضرب في المدينة ، سواء بالثروة المستمدة من التجارة والصناعة ، أو من الشرعية التي يمكن للعلماء فقط إضافتها على حكمهم ، وكان تكون الأسرات الحاكمة متوقفا على فتح المدن ، فالفتح قد يستولى على سلسلة من المدن على طريق تجاري ، كما أن نشأة المدن ونموها تعتمد بدورها على قوة الأسرة الحاكمة ، وقد قامت بعض المدن الكبرى في العالم الإسلامي بالفعل على يد أسر حاكمة : فبنى العباسيون « بغداد » ، وبنى الأدارسة « فاس » . وبنى الأمويون « قرطبة » وبنى الفاطميون « القاهرة » ، وقد يستطيع الحاكم القوي أن يحول طرق التجارة إلى عاصمته ، وقد تنهار مدينة إذا هجرها الحاكم أو عجز عن الدفاع عنها ، مثلما انهارت « القيروان » عندما هجرها الزيريون الصنهاجيون Ziriids (١) .

(*) بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ترك المعز لدين الله الفاطمي الأمر في المغرب كله للصنهاجيين للرأيين له ، فعهد إلى بلقين بن زير ، الصنهاجي بالامارة على المغرب باستثناء طرابلس ، وبعد سنة ٣٧٣ هـ لم تلبث الدولة الزيرية أن انقسمت إلى امارتين : (١) شرقية عاصمتها القيروان : (ب) وغربية عاصمتها قلعة بني حماد في =

وقد كان الهدف الاساسي للأسرة الحاكمة ، هو البقاء في الحكم ، ولذلك عاش الحكام في مكان منعزل ، محاطا بحاشية تتكون غالبيتها من العسكر من ذوى الأصول الأجنبية ، وتتكون عائلته (حريمه) وماليكه الخاصة من الأفارقة السود أو من المسيحيين الذين أسلموا في الغرب ، ومن الأتراك والأكراد والمراكسة في الشرق ، وغالبا ما يكون كبار رجال الدولة هم المنحدرين من تلك المجموعات من الممالك ، وكان جيش المحترفين الذين يحلون محل أولئك الذين توصلت الأسرة عن طريقهم للحكم ، يأتي أيضا من خارج المدينة ، فالجيش السلجوقي كان من الأتراك أساسا ، وكان الجيش الأيوبي مختلطا : ففى سوريا كانت قيادته من الأرستقراطيين ذوى الأصول المختلفة من الأتراك والأكراد واليونانيين الذين اعتنقوا الاسلام ، كما كان فى مصر مكونا من الممالك الذين اقتنأهم الحكام أو ألوا اليهم من أسلافهم وتلقوا تدريبهم فى مدارس القصر ، وكان لكل من كبار قادة الجيش رجاله الذين تدربوا فى قصره ، ويجرى عليهم الرواتب، وكان التضامن بين الأفراد الذين تدربوا فى نفس البيت مستمرا مدى الحياة ، ولم يكن الجنود الممالك مجموعات وراثية ، فلم يكن أبناءهم قادرين على الانضمام الى القوة العسكرية المركزية ، ولكن كانت هناك قوة أخرى مكونة من المسلمين الذين ولدوا أحرارا ، وكان يمكن أن ينضم اليها أبناء الممالك ، ويترقون فى المناصب ، وكان الجيش الفعلى للمفصليين مكونا من قبائل الريف ، ولكن عندما استقر بهم الحكم ، اعتمدوا بشكل أوسع على الجنود المرتزقة من عرب الأندلس والأوروبيين الذين أسلموا والترك .

وكانت الأسرة الحاكمة التى تريد ترسيخ حكمها ، تلجأ الى محاولة تعيين حكام اقليميين من أعضاء الأسرة ، ولكن نجاح هذه السياسة كان متفاوتا حيث تضاعفت طبيعة الريف وتقاليده الأسر الحاكمة فى زيادة العقبات ، فقد حكم السلاجقة مملكة متراصة الأطراف من المناطق الحصينة ، والتى يفصلها عن بعضها البعض جبال وصحارى ، وورثت تقاليد تحتم إسدان السلطة الى عائلة وليس لفرد منها بعينه . وقد كانت امبراطوريتهم لذلك السبب أقرب الى أن تكون دولة غير مركزية من أن تكون مهيمنة

= الجزائر ، وعندما خلع الزيريون ولاءهم للخليفة الفاطمى ومالوا للخليفة العباسى اطلق عليهم الفاطميون والقبائل العربية الموالية لهم (بنو سليم وبنو هلال) فاجتاحوا المغرب واستطاعوا القيروان .

راجع على سبيل المثال :

عبد الرحمن محمد الجيلاني : تاريخ الجزائر للعام ، ١٩٥٤ ج ١ ص ٢٩٨ .
(المراجع) .

ممالك شبه مستقلة يحكمها أفراد مختلفون من الأسرة الحاكمة ، وقد حكم الأيوبيون في سوريا بشكل مقارب ، حيث حققوا كونه ذاتية من ولايات تمركزت في مدن مختلفة ، يحكم كلا منها عضو من الأسرة الأيوبية ، نادى بالبيعة لكبير الأسرة ولكنه لم يسمح له في نفس الوقت أن يتدخل كثيرا في شئونه ، أما في مصر ، فقد كانت طبيعة الأرض وتقاليده الحكم المركزي المريقة تسمح للأيوبيين بحكم مباشر ، وأثناء حكم المماليك أيضا لم يكن الحكم الأقليمي لسيوريا - بالرغم من أصولهم في الصفوة العسكرية ، أكثر خضوعا للحكم المركزي في القاهرة من الذين حكموا أقاليم الدلتا ، أما عن الصعيد ، فقد وجد الحكم المماليك صعوبة بالغة في فرض سيطرتهم نتيجة ازدهار عائلة قوية من شيوخ القبائل (الهوارة) ، وفي حالة الحفصيين فقد كان متباين القبائل وحكام المدن البعيدة يعيشون في استقلال شبه كامل ، إلا أن سلطة الحكومة المركزية وقوتها زادت مع الزمن .

وقد احتاجت السيطرة المحسنة على الامبراطوريات الكبيرة الى بيروقراطية حاذقة ، ولقد ظل تقسيم الادارة بين المسؤولين كما كان في ظل الدولة عباسية ، فكان هناك ديوان الانشاء حيث تدبج الخطابات والوثائق في لغة محكمة الاتقان من المسابير المرعية والسوابق المسجلة ، ثم يتم حفظها ، كما كانت الخزنة تشرف على تقييم وجمع وانفاق العوائد ، ومنها ادارة تحفظ حسابات الجيش وسجلاته ، وقد كان منصب الوزير في ظل السلطنة هو الذي يهيمن على كافة البيروقراطيات المدنية . وكان كذلك في حكم العباسيين ، ولكن سلطته تقلصت في حكم بعض الاسر الأخرى ، فقد كان في العصر المملوكي لا يعدو أمينا على الخزنة ، وفي ظل الحفصيين كان هناك وزير مستقل لكل من الادارات الثلاث ، وقد كان الحاجب الذي يتحكم في بلاط الحاكم ويعتلى مسئولية المقابلات معه أكثر أهمية من أيهم .

وكان الوزير وباقي كبار المسؤولين أحيانا من الصفوة العسكرية ، إلا أن الرعايا الحضريين المحليين كانوا يقومون بدور الادارة ائندنية برجه عام ، فند كان التعليم والتدريب على شئون ديوان الانشاء أو الخزنة من نصيبهم أكثر من العسكريين ، وقد كان اختيار المسؤولين يجري من بين أولئك الذين وصلوا في التعليم الى درجة « العالم » ، ولكن كان الأكثر شيوعا هو دخول الطامحين الى السلطة في الخدمة في سن مبكرة بعد التعليم الأساسي في اللغة والدين ، لكي يتعلموا المهارات الخاصة في انشاء وحفظ الوثائق ، وأعمال الحسابات فيما يشبه نظام التلميذة العملية ، وقد يربط أحد الطامحين نفسه بمسئول كبير ويأمل في أن يستفيد من الاقتداء به أو ينتفع برعايته ، وفي مثل تلك الظروف لابد من

ظهور عنصر وراثي في السلطة المدنية ، مثل الابناء الذين يتدربون ويتقنون على يد آبائهم ، ومن الأرجح أنه كانت هناك استمرارية من الحكم السابق في الحكم الجديد ، فلا مناص من ضرورة استمرار الخدمات البيروقراطية للنخبة وديوان الانشاء .

وهكذا كان أعضاء المجتمع الحضري الذي تحكمه أسرة أو جماعة حاكمة دخيلة ، يستطيعون دخول طبقة الصفوة الحاكمة حتى مستوى معين على الأذل : فقد كان الاداريون الفرس يخدمون السلاجقة الأتراك ، وكان المصريون والسوريون يعملون لدى المماليك ، الا أن الحكام يدورهم كانوا أحيانا يعينون مستولا من خارج الصفوة الحضرية ، وكان الأرجح والحال كذلك أن يكون أكثر اعتمادا عليهم ، فقد استخدم الأيوبيون في سوريا مسئولين من مصر والعراق وغرب إيران ، كما استخدم المماليك المنفيين من الأندلس ، وكان اليهود والأقباط في مصر يعملون في الإدارة المملوكية ، واعتنق معظمهم الاسلام .

وقد كان تطبيق العدالة أحد الواجبات الرئيسية للحاكم الاسلامي ، كما كان عليه أيضا أن يجتنب المتعلمين من السكان الحضريين الى العمل في خدمته ، فكان يعين منهم القضاة على المذاهب الدينية التي يرغب في نشرها ، وقد كانت مناصب القضاء والافتاء في معظم الأحوال يشغلها السكان المحليون ، ولكن الحكام الاقوياء كانوا يقومون بشغل هذه المناصب بالوافدين من الخارج ، وكان الخصيصون يمنحون الوظائف العليا لعلماء الأندلس .

وقد يتجلى التحالف بين القادة العسكريين وأعضاء النخبة الحضرية المتعلمين عندما يقوم الحاكم بنفسه أو أحد ولاته الاقليميين بمهمة القضاء ، فلم تكن النزاعات جميعها تنتظر أمام القاضي ، وكان بإمكان الحاكم أن يقر أي القضايا تحول الى القاضي وأيهما تحتجز ليفصل فيها بنفسه ، وعادة ما كانت تلك القضايا تشمل معظم الجرائم الجنائية التي من شأنها تعكير صفو النظام العام ، أو تؤثر على مصالح الدولة ، كما تضمنت أيضا القضايا التي كانت تمثل إشكالات قانونية عويصة ، وكان الاستماع الى الشكاوى (المظالم) في حق المسئولين الذين خولوا السلطة أمرا مهما للغاية ، وكان عليه أن يبقى التواصل قائما مع رعيته ، وكانت تعقد في مصر العباسي جلسات استماع منتظمة يتولى فيها مسئول كبير مهمة الاستماع الى الشكاوى والمظالم ، وقد استمر ذلك الاجراء ساريا في النظم التي خلفته ، وكانت بعض المشاكل تحسم بالطرق الادارية المعتادة ،

الا انه تعين على الحاكم أن يعقد جلسات بنفسه يتولى فيها اصدار المراسيم وتلقى الشكاوى ، وكان والى القاهرة المملوكى يرأس مجلسا قضائيا مهيبا كل أسبوع ، يحيط به قواده العسكريون وكبار المسئولين وقضاة المذاهب الأربعة ، وقاضى الأحكام العسكرية والمفتى حيث يصدر أحكامه بمد استشارتهم ، ولم يكن التزامه بالقوانين صارما ، كما كان الحكام الحفصيون فى تونس يجتمعون أسبوعيا بالقضاة والمفتى .

تعالفات المصالح

كانت العلاقات وثيقة ومعقدة بين قطبي المدينة : القصر والسوق ، وكانت المدينة مبنية على الاحتياج المتبادل بين المصالح المتناقضة ، فقد كان الحاكم بحاجة لأنشطة السوق الاقتصادية لتوفير السلاح والمهمات لجيشه وسفنه ، والآثاث والرياض لشخصه ولأسرته ، والنقود للانفاق على ذلك كله، سواء أكان ذلك عن طريق فرض الضرائب المباشرة أم المكوس والأتاوات الخاصة ، وكان التجار يوفرون له الاحتياطى التقضى حينما يحتاج نقودا أكثر من التى توفرها له الضرائب المنتظمة ، وقد وفرت له الطبقة المتعلمة كذلك، احتياطيا من المسئولين عن الخدمة المدنية والقضاء والشعراء والفنانين الذى زينوا بلاطه ليكسبه هبة وسمعة وعظمة ، وكان السكان الحضريون من ناحيتهم - وعلى الأنص أصحاب المال والجاه ، يحتاجون الى قوة الحاكم لضمان استمرار ورود المؤنة والحامات من الريف ، وحراسة طرق التجارة، وعقد الاتفاقات مع الحكام الآخرين لتأمين مسارات التجارة .

واحتاجوا أيضا الى الحاكم لاقراء النظام ووضع القوانين ، والتى تستحيل الحياة فى مجتمع معقد متحضر بدونها ، وكان من الضروري تنظيم أنشطة السوق ، وإنارة الشوارع ونظافتها ، وحمايتها من المصوص ومشرى الشغب ، ونقل القمامة ، وتنظيف مجارى وأنابيب المياه وصيانتها، وكان الحاكم يعين لهذه الأغراض مسئولوا على المدينة عرف بأسماء عدة فى الأماكن المختلفة ، وتحت امرته قوة شرطة عادة ما يتم تجنيدها محليا ، كما كان هناك حرس للأحياء وخفر ليل للأسواق والشوارع ، ويشرف على الأسواق (محاسب) لمراقبة الأسماعر والموازين والمكاييل ، وجودة البضائع وسير اتفاقات الأعمال ، وكانت سلطته مبنية على آية من القرآن تحت المسلمين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (*) ، وكان المحاسب يختار

(*) النص القرآنى : « كَلَّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجَتَ لِلنَّاسِ تِمْثَارًا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » آية ١١٠ - آل عمران - (المراجع) .

من طبقة علماء الدين أحيانا ومن طبقة العسكر أحيانا أخرى، وكان هناك فى بعض المدن مثل صنعاء قانون مكتوب يمثل الاتفاق العرفى على طرق التعامل التجارية •

ارتبط حفظ النظام مع جمع العائدات بشكل مباشر ، فقد كان الجزء الأكبر من عائدات الحاكم من الضرائب يأتى من انتساج الريف ، ولكن الضرائب الحضرية كانت كثيرة ، ذلك بالإضافة الى ضريبة الرأس على اليهود والمسيحيين ، وكانت هناك رسوم جمركية على السلع الواردة أو الصادرة من المدينة • ورسوم من مختلف الأنواع يدفعها أصحاب المحال والورش •

ولم يكن حكم المدينة ممكنا بدون درجة من التعاون بين الحاكم والسكان أو على الأقل مع من كان فى صالحهم استقرار الأمن ، بالإضافة الى من كانوا مسئولين بالمعنى الكامل للكلمة ، وكان هناك أعضاء من المجتمعات الحضرية يعتبرهم الحاكم مندوبيه أو متحدثين باسمه ، ومسؤولين عن حفظ النظام والطاعة وتقسيم أية ضرائب مستحقة بين أعضاء هذا المجتمع أهمهم أولئك المسئولين عن حفظ النظام فى المدن وهم رؤساء الأحياء الذين يحصلون على الضرائب المستحقة على البيوت والمباني ، كما كان هناك أيضا رؤساء الطوائف المختلفة من الحرفيين أو التجار ، ولم يكن كل من مارسوا نفس الحرفة يعملون كمجموعة واحدة حيث يمكن أن تكون هناك مجموعات مقسمة حسب المنطقة • وليس هناك دليل قوى على أن تكون هذه المجموعات كانت منظمة على هيئة طوائف حرفية بالمعنى الأوروبي فى المصور الوسيطة ، مع وجود مؤسسى مستقل يصبر عن نفسه فى التعاون المتبادل أو القواعد المحددة للالتحاق أو التلمذة بها ، ولكن كانت معاملة الحاكم لهم ككيان واحد وتستحق عليهم رسوم محددة أو تقديم خدمات خاصة ، وكان عملهم معا فى نفس الجانب من السوق لابد وأن يخلق بينهم تضامنا معيناً ، وكان هناك نوع ثالث من المجموعات تلك المكونة من أفراد من مجتمعات يهودية أو مسيحية معينة وكان لابد لهم من متحدث باسمهم يكون مسئولاً عن تحصيل ضريبة الرأس ، وعن ولائهم الذى يمكن فى ظروف معينة أن يصبح محوطاً بالشكوك •

وكان هناك على مستوى أعلى متحدث يصبر عن مصالح أكثر عمومية ، وفى حكم المحفصيين على سبيل المثال ، كان « أمين الأمانة » هو الذى يتحدث باسم رؤساء كل الحرف ، كما يمكن أن يكون رئيس التجار ممثلاً لكبار

انتجار العاملين في مجال التجارة الخارجية ويصبح مهما بدرجة خاص عندما يحتاج الحاكم الى جميع مبالغ كبيرة من المال على عجل ، وعلى المستوى الأعلى ، كان أولئك الذين يتحدثون باسم المدينة ككل تحت ظروف معينة ، ورغم أن المدينة قد لا يكون لها مؤسسات متضامنة فان لها نوعا من الوحدة الروحية تعبر عن نفسها في لحظات الأزمات ، وعلى سبيل المثال عندما تخلف الأسرة الحاكمة أسرة أخرى ، يتصرف قاضي القضاة كمستول معين من قبل الحاكم ورأس أولئك الذين يحافظون على الشريعة وهي التعبير المعيارى عما يجب أن تكون عليه الحياة بشكل عام ، ثم ان عليه التعبير عن الوعي الجمعي للمجتمع ، وفي بعض الأماكن كان هناك في بعض الأحيان أيضا رئيس للمدينة ككل ولكن مهامه ، أو ما كان يفعله ، لم تكن واضحة المصالح .

لا يعرف الا القليل عن الطرق التي يعين بها الرؤساء أو المتحدثون عن المجموعات ، ولا بد أنها كانت طرقا مختلفة ، ويبدو مؤكدا أنه لم يكن بإمكانهم ممارسة وظائفهم ما لم يحوزوا ثقة كل من الحاكم أو المحافظ التابع له من ناحية ، والمجموعة التي يتحدثون باسمها من ناحية أخرى .

وقد كانت الروابط بين الحاكم والمدينة ، والتي يصل على تماسكها المسؤولون والمتحدثون ، روابط مزعجة ومتغيرة تتحرك على محور من التحالف والعداء ، وكانت هناك مجموعة أساسية من المصالح يمكن أن تقوى بالتماؤن الاقتصادي ، فلا بد وأن أعضاء النخبة العسكرية يستثمرون في مشروعات تجارية مشتركة ، وامتلكوا نصيبا كبيرا من المباني العامة والحمامات والأسواق والفنادق . وقد أنشأ الحاكم وكبار المسؤولين مباني عامة وأوقفا عليها الأوقاف ، وقد بينت دراسة عن المدن الكبرى في العصر المملوكي تناولت ١٧١ مبنى بنيت أو خصصت للأغراض الدينية في دمشق ، أن السلطان قد تحمل تكلفة ١٠ مبان منها ، بينما أنفق كبار قادة الجيش على ٨٢ مبنى ، وقام مسئولون آخرون ببناء ١١ منها ، ثم أنشأ التجار ٢٥ مبنى ، والعلماء تكفلوا بإنشاء ٤٣ (١) ، كما أن مسحا للمباني في القدس خلال الحكم المملوكي تناول ٨٦ قلعا ، بين أن ضباطا من المائيك قد أنشأوا منها ٣١ مبنى على الأقل ، وهم الذين استقروا في المجتمع المحلي ، كما بنى مسئولون وعلماء وتجار أقل من ذلك (٢) .

وقد كان تحالف المصالح جليا في الاحتفالات الكبيرة التي تشارك فيها المدينة كلها ويظهر فيها الحاكم للشعب عند اعتلاء العرش ، وكان هناك احتفال للبيعة ، وهي عادة من المعتقدات الإسلامية المبكرة يختار

المشعب فيها من يحكمه (*) . وفي تونس في عهد الحفصيين على سبيل المثال كان هناك احتفالان من هذا النوع : الأول يتلقى فيه الحاكم البيعة من مسترلى الدولة ، وفي الثاني يقام فيه الحاكم لشعب العاصمة . وكان ذلك العرض يتكرر بشكل أو بآخر كل يوم جمعة عندما يذكر اسم الحاكم الشرعى فى خطبة الجمعة ، وكانت هناك احتفالات سنوية كبيرة لبعضها معنى دينى ، وفيها يظهر الحاكم للشعب . وفي تاريخ عن القاهرة فى العصر المملوكى ، وهى فترة ابن اياس (**) ، ورد ذكر احتفالات مولد النبى صلى الله عليه وسلم كل عام ، كما تصف فتح الخليج من النيل لتدخل المياه الى القنوات التى تجرى عبر القاهرة فى موسم الفيضان ، واحتفالات بداية ونهاية رمضان ، وخروج قافلة الحج من القاهرة الى مكة وعودتها ، وكانت هناك أيضا مناسبات خاصة : عند استقبال السفراء الأجانب أو عند ولادة ابن للحاكم . فكانت المدينة تزدهر بالأضواء على نفقة التجار وأصحاب الحوانيت وفيها يمكن أن يظهر الحاكم للملا .

ويمكن لتحالف المصالح التى عبرت عن نفسها بهذه الطريقة أن ينهار فى حالة اختلال توازن القوى بين الحاكم وأولئك الذين اعتمد عليهم، وفى الدولة المملوكية على سبيل المثال ، كانت بعض الوظائف الرئيسية للحاكم تنتقل الى القواد من كبار المماليك وأهل بيته، وفى بعض الظروف يمكن أن يتمرّد الجنود ويعكروا صفو السلم فى المدينة أو يهددوا سلطة الحاكم ، وقد خلف الأيوبيون الفاطميين فى القاهرة بهذا الشكل وبعدها خلف المماليك الأيوبيين على نفس المتوال وتولى أحد المماليك بدلا من آخر . أما من ناحية سكان الحضر فقد كان المتحدثون يملنون رغبات وأوامر الحاكم الى الشعب ، وبإمكانهم أن يعبروا أيضا عن شكواى ومطالب المجموعات التى يمثلونها ، وعند تزايد الضرائب كان الجتود يعيشون فسادا وكان المسئولون يسيئون استخدام سلطتهم ، ويشع الطعام وكان على العلماء حينئذ دور يلعبونه ، وهو محاولة الحفاظ على استقلالية الحاكم (***).

(*) لكثبات عند التطبيق أصبحت بعد عصر الخلفاء الراشدين ، مسألة شكلية خالية من مضمون الاختيار الطبقي - (المراجع) .

(**) صاحب كتاب « يدائع الزهور فى وقائع الدهور » - (المراجع) .

(***).

They tried therefore to preserve a certain independence of the ruler.

بمعنى النأي بالمصالح عن المسئولية عما حدث من نقص فى الغذاء وزيادة الضرائب . . الخ - (المراجع) .

ولم يتخذ سخط الطبقات القادرة في المدينة شكل التمرد الواضح ، فقد يمكن أن يفقدوا الكثير في فترات الفوضى ، أما اللحظات النادرة من الحرية ، فكانت تأتي فقط عندما ينهزم الحاكم على أيدي عدو أو منافس ، ويبدأ كبار رجال المدينة في التفاوض حول استسلامها وخضوعها للحاكم الجديد ، أما عامة الناس فكان يمكن أن يأخذ السخط أو الغضب عندهم شكل الاخلال بالنظام ، وأما الحرفيون المهرة وأصحاب المحال فلا يثورون بسهولة سوى تحت ضغط الضائقة والمصاعب الاقتصادية أو قهر المستوليين أو ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية أو المواد الخام ، وكانت الظروف العادية فترات هدوء حيث إن مصالحهم مرتبطة أيضا بالحفاظ على النظام ، أما البروليتاريا والسود الأعظم من مهاجري الريف والمسال الموسمين غير المهرة والشحاذين ومحترفي الاجرام على أطراف المدينة ، فقد كانوا أقرب الى حالة مستديمة من الاضطراب .

وكان سكان المدينة في حالات الخوف يصابون بالاضطراب، ويتأثرون بالخطب الشعبية التي تندد بالظلم ، وتصر عن رؤية النظام الاسلامي العادل ، ولم يندفع الدهماء الى السوق ويخلق التجار حوائثهم ، ويقدم بعض ممثل الشعب الشسكاوى للحاكم ضد المستوليين أو التجار الذين يشكون في اصطناعهم أزمة الخبز ، وفي مواجهة مثل هذا التحرك يعدل الحاكم من سياسته لتلبية بعض هذه المطالب ، فيفصل أو يعمد بعض المستوليين ، وتفتح مخازن تجار الحبوب ، وتفتح السوق من جديد ، عندها يذوب تحالف هذه القوى الشعبية ، ولكن سكان الحضر كانوا دائما هادئين أو تحت سيطرة مؤقتة ، ولكنهم يظلون ، كهدهم دائما ، يعيدون عن النظام الاسلامي العادل .

السيطرة على الريف

كان للحاكم وأيضا سكان الحضر (أو على الأقل العنصر المسيطر منه) مصلحة مشتركة في السيطرة على الريف وضمان انتقال ما يفيض عن حاجة المزارع الى المدينة بأفضل الشروط الممكنة ، وكان الحاكم محتاجا سواء للمنتجات ذاتها أو قيمتها النقدية للاتساق على مقره ومستولييه وجيشه ، وكان محتاجا أيضا للسيطرة على الريف لمنع الهجمات من الخارج أو منع تكون وظهور أسرة جديدة تهدد سيطرته على العاصمة . وكان سكان المدن من ناحيتهم في احتياج للفائض من الريف لاطعام أنفسهم والحصول على المواد الخام اللازمة لصناعاتهم . وكانت العناصر المسيطرة تميل الى النظر الى اعتبار الريف وسكانه ، كما لو كان خطرا مائلا على باب عالم

الحضر والمدينة والشرعية ويهددها ، لذلك فإن كاتبها مصريا من القرن السادس عشر هو « الشمراني » (ت ١٥٦٥) يشكر الله على هجرته « ببركة النبي صلى الله عليه وسلم من الريف الى القاهرة من مناطق الخشونة والجهل الى مدينة الرقة والمعرفة » (٣) .

ولم تكن الحدود قبل العصر الحديث مرسومة بدقة أو وضوح ، ومن الأفضل تجنب الاعتقاد بأن سيطرة الأسرة الحاكمة كانت فعالة . بشكل منتظم على منطقة مميزة أو محددة بشكل عام ، ولكن سلطتهم كانت تشع من مراكز حضرية بقوة تميل الى الضعف مع بعد المسافات ووجود العقبات البشرية والطبيعية . وينقسم مجال هذا الإشعاع الى ثلاثة أنواع من المناطق ، تختلف في كل منها طبيعة السيطرة ومداه . تأتي أولا وقبل كل شيء الوديان أو البساتن الصحراوية أو الجبلية الفقيرة النائية أو المنعزلة مما يجعلها لا تساوى الجهد المبذول لاختضاعها ويكتفى الحاكم بالحفاظ على الطرق التجارية مفتوحة ومنع العصيان . ولم تكن السيطرة على زعماء القبائل المحليين كاملة ، كما لم يكن إجبارهم على تسليم فائض الانتاج ميكانا ان وجد الا بشروط في صالحهم ، وقد تكون لهم علاقات اقتصادية مع المدينة ، حيث يبيعون انتاجهم لشراء ما لا يمكنهم انتاجه بأنفسهم ، ولدى مثل هذه المناطق يمكن للحاكم ضمان نوع من النفوذ بالمناورات السياسية بمجرد أن يستعدى زعيم قبيلة على آخر ، أو تشريف أحد أفراد عائلة بلقب رسمي بدلا من عائلة أخرى ، وفي بعض الظروف يمكن أن يكون له نوع آخر من النفوذ الذي يكتسبه بالوضعية الدينية المتوارقة ، وهذا ينطبق على الأئمة الزيديين في اليمن ، والأباضية في عجمان ، وحكام مراكش منذ القرن السادس عشر وما بعده الذين أعلنوا أنفسهم أشرافا منحدرين من نسل النبي .

وكانت هناك منطقة ثانية من الجبل . تتكون من الواحات والسهوب ، حيث يمكن للحاكم أن يمارس المزيد من السلطة المباشرة لأنها أقرب الى المدينة أو طرق التجارة الرئيسية ، كما تنتج فائضا أكبر ، وفي مثل هذه المناطق لا يحكم الحاكم بشكل مباشر ، وإنما من خلال الزعماء المحليين ، ووضعهم أكثر إبهاما من أولئك الزعماء في المناطق الجبلية أو الصحراوية المنعزلة . ويتم تعيينهم رسميا مقابل اتاوات سنوية أو دورية ، ويجرى دعمهم عند الحاجة بالتجريدة العسكرية ، أو سحب الاعتراف بهم وتعيين آخرين .

ولم يكن خط التقسيم بين هاتين المنطقتين ثابتا ، حيث كان معتمدا على قوة الحاكم، وتغير التوازن بين استخدام الأرض في الزراعة أو استخدامها في الرعى ، وكانت المناطق المستقرة أسهل عند السيطرة عليها من مناطق الرعى البدوى المتنقل، وهناك بعض الدلائل على أنه بداية من القرنين العاشر والحادى عشر وما بعدهما تنامت المنطقة الأولى على حساب المنطقة الثانية ، ففي مصر العليا ، حل الهوارة - وهم رعاة من أصل بربرى - محل عرب الطاعة في العصر المملوكى والذين كانوا تحت سيطرة القاهرة ، واستمر نفوذ الهوارة على معظم المنطقة حتى القرن التاسع عشر ، وبالمثل ، أدت العملية الاجتماعية الاقتصادية المركبة في المغرب والتي عبرت عن نفسها رمزيا في قصة غزو بنى هلال ، الى تقليص قوة حكام المدن ، واستمر ذلك لعدة قرون .

كانت هناك منطقة ثالثة : وهي منطقة السهول المفتوحة ووديان الأنهار حيث تزرع الحبوب (الحنطة) أو الأرز أو التمر ، وفيها أسواق الحدائق التي تأتي منها الفاكهة والخضروات الى المدينة ، وفي مثل هذه المنطقة كان على الحاكم، وسكان الحضر المرتبطين به، احكام السيطرة المباشرة بشكل أكثر فاعلية ، خاصة في الأماكن التي يعتمد الانتاج فيها على أعمال رى ضخمة - وكانت الحاميات العسكرية المستندية - أو البعثات العسكرية المنتظمة تسيطر على هذه المناطق وتحفظ النظام فيها لمنع ظهور زعامات محلية .

في هذا الريف غير المستقل يجرى التبادل الاقتصادى لمصلحة المدينة، فالوسيلة الرئيسية التي أمكن بها جلب الفائض الريفى بشروط جيدة كانت نظام الضرائب . وقد كان سائدا في كل الدول الإسلامية ، فكان الحاكم يستمد موارده من ثلاثة أنواع من الضرائب ، ضريبة الرأس التي يدفعها أفراد المجتمعات غير الإسلامية المعترف بها (الذميون) ، وضرائب مختلفة على التجارة الحضرية والحرف ، وأخرى على انتاج الأرض، وفي المناطق المزروعة تستحق الضرائب أما على الأرض وفقا لتقديرات تختلف من وقت لآخر في بعض البلاد (على سبيل المثال في مصر حيث ربط العواكف القديمة) أو أن تكون نسبة ثابتة من الانتاج ، فالضريبة على الحنطة والمحاصيل الأخرى القابلة للتخزين عادة ما كانت تدفع منها عينا ، أما على المنتجات القابلة للتلف كالفاكهة فيتم الدفع نقدا ، وبالمثل كانت الضريبة على الأراضى الرعوية في المناطق الواقعة تحت النفوذ الحكومى ، اقوى القادر على تحصيلها ، يمكن تقديره أما بالمساحة أو بنسبة معينة من قطعان الماشية .

ومعذ عصر بنى بويه فى العراق فى القرن العاشر توسع استخدام هذه الطريقة ، وتطور فى بعض البلاد الى تعيين اقطاعية لجمع حصيلة الضرائب الريفية ، ويمكن أن يعهد بهذه المهمة الى أحد أفراد العائلة الحاكمة او الى مسئول كبير بدلا من الراتب (٥) ، فكانت موارد الضرائب من حصيلة المحافظة يكاملها يمكن أن تعطى لمحافظة الذى يتحمل نفقات الإدارة وتحصيل الضرائب مع الاحتفاظ بنسبة منها بدلا من الراتب ، أو أن تخصص الضرائب على قطعة معينة من الأرض لضابط فى الجيش ، نظير خدماته مع مجموعة من الجنود يحصلها ويدفع رواتبها ويجهزها بنفسه . وقد أصبح هذا النوع الأخير فيما بعد ذا أهمية خاصة ، وانتشر وتطور بشكل خاص لدى السلجوقيين فى إيران والعراق ، وانتقل على أيدي الأيوبيين وتبهم المماليك ، وفى المغرب ظهر نظام مشابه . حيث أمضى لرعي القبيلة حق السيطرة على منطقة معينة مقابل خدمات عسكرية ، وكانت القبائل التى استخدمت أو تشكلت بهذه الطريقة تسمى (قبائل الجيش) .

ولم يكن إلغاء الضرائب بشكل دائم من نوايا أى من الحكام ، كما لم تكن من نواياهم إعطاء أولئك الذين أوكلت اليهم مهمة تحصيل الضرائب سيطرة وتحكما دائمين على الأرض ، واستخدمت وسائل مختلفة للحد من الاقطاع ، ففى مصر المملوكية ، وهى التى توفرت عنها معلومات كاملة ، كان نصف الأرض فقط مخصصا للاقطاع ، والباقي مخصصا للحاكم وعائلته ، وكان ذلك الجزء المخصص للاقطاع يعطى اما للمالك الحاكم نفسه أو كبار مسئولى الجيش الذين سمح لهم مبدئيا بالاحتفاظ بنسبة معينة منها لأنفسهم ، ويفترض أن يستخدم الباقي لدفع رواتب ما يتراوح بين عشرة وأربعين فارسا من المجندين فى الجيش ، ولم يكن لصاحب الاقطاعية عادة اتصال شخصى بمنطقة اقطاعيته ، وإذا كان له أكثر من اقطاعية فلم تكن متجاورة ولم يكن يقوم بتحصيل الضرائب بنفسه وإنما تركت حله للمهمة لمسئولى الحاكم ، كان ذلك على الأقل حتى نهاية العصر المملوكي ، ولم تكن الاقطاعية تنتقل الى أبنائه بالوراثة ، وفى أزمان أو بلاد أخرى لم يكن من توكل اليه هذه المهمة تحت السيطرة الدائمة ، وتحول حق الاحتفاظ بعائدات الضرائب الى قوة لجمعها ، والاشراف على الانتاج وفمارة القيادة على الفلاحين .

(٥) بدلا من تقديم راتب له ، بمعنى أن يحتفظ بنسبة من الضرائب للمجموعة المنتسبة .
وهو نظام قريب من نظام الالتزام - (المراجع) .

وكان تحصيل الضرائب يمثل إحدى الطرق التي تتحول فيها السيطرة المباشرة على الأراضي الريفية بواسطة الحاكم ، الى سيطرة الأفراد من أهل المدن الذين كان بإمكانهم تخصيص جزء من فائض إنتاج الريف لأنفسهم ، ويمكن الإشارة إليهم باعتبارهم ملاك الأراضي ، ولكن هذه التسمية غير معبرة تماماً وتعطي انطباعاً خاطئاً ، المهم أنهم كانوا قادرين على المطالبة بالفائض الزراعي والتنفيذ باستخدام القوة العسكرية للحاكم ، وكان من يجرى تكليفهم يحصلون على نصيب الأسد ، ولكن المسؤولين الذين يلعبون دوراً في تحصيل الضرائب ، والتجار الذين يساهمون بالأموال في تمويل الزراعة أو دفع الضرائب عند استحقاقها ، والعلماء الذين يديرون الأوقاف - كانت لهم جميعاً وضعية مماثلة .

ويمكن الاعتقاد بأن أشكال العقود الزراعية التي تنظمها الشريعة كانت منتشرة حتى في غياب المستندات التي تدل على ذلك ، ويبدو أن أحدها على وجه الخصوص كان موجوداً على الدوام ، وهو نظام (المزارعة) ، وكانت اتفاقاً بين المالك والمزارع لقطعة من الأرض ، بحيث يقتسمان المحصول بنسبة ما يقدمه كل منهما ، فإذا وفر المالك البذور وحيوانات العمل والمعدات ، فمن حقه الحصول على أربعة أخماس ، والمزارع الذي قام بالعمل يحصل على الخمس المتبقى فقط ، ومثل هذه الاتفاقية يمكن أن تكون قانوناً لفترة محددة ولكن في التطبيق الفعل غالباً ما تدرج وكانت هناك اختلافات عدة ، لأن تقسيم المحصول بدقة كان يعتمد على المتاح من الأرض والأيدى العاملة والقوة النسبية للطرفين ، ويمكن أن يظل المزارع ، في أسوأ الحالات ، مرتبطاً بالأرض ، لأنه كان مدينًا على الدوام للمالك ولم يكن باستطاعته مقاومة نفوذه أو إيجاد أرض أخرى يزرعها .

السلطة السياسية

كانت العلاقات بين الحاكم والريف النائي ووديان الجبال والسهوب والصحاري بعيدة وغير مباشرة ، فكانت سلطة الحاكم مقبولة إذا لم تكن أقرب من اللازم ، وكان رجال الجبال والوديان يمثلون مدداً من الجنود لجيشه ، ولكنهم كانوا يستطيعون أيضاً تغذية منافسيه بالرجال وينقلبون عليه ، كما لم تكن العلاقة بين الحاكم ورعاياه من المسلمين قائمة على الروابط المعنوية ، حتى وإن كانت سلمية ومستقرة ، وكان هناك إحساس بأن المسيحيين واليهود خارج المجتمع ، ولم يكن بإمكانهم تحقيق التحالف القوى الإيجابي النابع من هوية وتوحد المعتقدات والأهداف مع الحاكم . إلا أن سكان المدن من المسلمين كانوا في موقف مختلف ، فقد كان الحاكم

ومستولوه يفرضون أنفسهم بشكل مباشر ومستمر على حياتهم ، من تحصيل الضرائب الى حفظ النظام وتحقيق العدالة ، وقد مارسوا السلطة التي لا تزدهر بدونها الصناعة أو التجارة ، ولا يمكن أن تستمر تقاليد القانون أو التعليم ، وفي مثل هذه الظروف كان من الطبيعي أن يتساءل أولئك الذين أوجعوا وحافظوا على أخلاقيات عالم الإسلام من العلماء ، عن هو الحاكم الشرعي وما هي حدود طاعته ، وكان الحاكم من ناحيته يطلب بحقه عليهم في الطاعة كما يفرضها عليهم بالقوة .

وكان هناك الكثير من الروابط التي تكونت بين الحاكم وبين عدة أفراد ، وجماعات خاصة ، حيث كانوا يقسمون له بالولاء ، ويشكرون له المعايير ، ويأملون بين يديه في فضل خيره ، وفيما عدا هذا كانت هناك مفاهيم عامة معينة عن السلطة الشرعية التي يمكن قبولها للجماعات الأكبر أو للمجتمع ككل .

وقد ثارت وبشكل حاد قضية الأحقية بالحكم خلال القرن الأول من التاريخ الإسلامي ، ومن هو الخليفة الشرعي للنبي صلى الله عليه وسلم كرأس للمجتمع ؟ وهل هو خليفة أم امام ؟ كيف تكون مبايعته ؟ ، وما هي حدود سلطته ؟ وهل له حق الطاعة بلا شروط ؟ أو أن الثورة والتمرد عليه وخلعه أمر مشروع ؟ وكانت لدى الإباضية (*) والشيعية على اختلاف مذاهبها اجابات على مثل هذه الأسئلة ، أما علماء السنة فقد تطوروا تدريجيا الى الاعتقاد بأن الخليفة رأس المجتمع ولكنه ليس المفسر الذي لا يخطئ ولا يمان أو الدين ، وأن العلماء هم رعاة الدين ، وعليه ، وبمعنى من المصاني هم ورثة النبي ، فقد تقبلوا فكرة أن الخليفة قد يجانبه الصواب ، وأن من واجب المؤمنين رفضه أو عزله ، وكان هذا هو المنطق الذي اتخذه خلفاء العباسيين لتبرير ثورتهم على الأمويين الذين حولوا سلطتهم الى ملك علماني عضود .

وفي القرن الرابع الإسلامي (العاشر الميلادي) أخذت نظرية الخلافة شكلها النهائي المكتمل ، فعندما تنبأت الظروف بما حدد وضع الخلفاء العباسيين مما أدى الى ظهور محاولات للدفاع عنها عن طريق وضع تعريف

(*) الإباضية نسبة الى عبد الله بن إباض الذي اظهر دعوته أيام مروان بن محمد آخر خليفة أموي ، ولم يكتفوا بمخالفتهم ، والامام عندهم هو اعلم الجماعة والقائم بصرف النظر عن منصبه .

انظر على سبيل المثال : المال والنحل للهرستائي (طبع بيروت - دار المعرفة) ، ج ١ ، ص ١٢٤ - ١٢٦ - (المرجع) .

محدد لها ، جاء التهديد من قطاعين مختلفين ، ظهور الخلافة الفاطمية في القاهرة ، وإعادة احياء الخلافة الاموية في الأندلس ، مما طرح الأسئلة ليس فقط عن هو الخليفة الشرعي ؟ ولكن أيضا : امكانية أن يكون هناك أكثر من خليفة ؟ ألا تعنى وحدة الأمة ضمنا أن يكون لها رأس واحد ؟ وداخل المنطقة التي دانت بالسيادة للمباسيين أصبح الحكام المحليون (الولاة) مستقلين فعليا ، وحتى في بغداد العاصمة فرض البويهيون - وهم أسرة عسكرية - سيطرتهم على الخلافة ، وأصبحوا قادرين على إصدار القرارات والمراسيم باسم الخليفة عندما استطاعوا اعلان استقلالية سلطتهم باحياء استخدامهم الخاص للقب الايراني القديم الشاهنشاه .

وفي ذلك السياق وضعت أشهر نظرية للدفاع عن الخلافة على يد المواردي (ت ١٠٥٨) ، والتي قال فيها بأن وجود خليفة ليس ضرورة طبيعية (٣) ، فشرعتها (الخلافة) مستمدة من القرآن « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » (٤) وعليه فهي من أوامر الله ، والهدف منها حماية المجتمع وإدارة شئونه على أسس من الدين الحق الصحيح ، ويجب أن يكون الخليفة على معرفة بالدين واحساس بالعدل والشجاعة ، ويجب أن ينتمي الى قبيلة قريش التي ينحدر منها النبي صلى الله عليه وسلم ويجب أن يكون هناك خليفة واحد في الوقت الواحد ، ويمكن أن يفرض سلطاته اما لغرض محدد أو بلا حدود ، في منطقة من امبراطوريته أو في الامبراطورية كلها ، وعلى الأمير أو الوزير الذي خول هذه السلطة الاعتراف بسلطة الخليفة وأن يمارس سلطاته في حدود الشريعة ، وقد صالحت هذه الصياغة بين السلطة الواقعية وبين السلطة النظرية للخليفة ، وأعطت الخليفة الحق في الحفاظ على هذه السلطة طالما ظل حائزا لها ، والحق في سحب السلطة من الأمير التي فوضها لهم .

وأمكن الحفاظ على مثل هذا التوازن بين السلطة والقوة بشكل أو بآخر حتى نهاية عصر الخلافة في بغداد ، وأمكن للعلماء الاعتراف بالسلطان أو القائد ، وأصبح من حق ممارسة سلطته على أن ينظر مواليا للخليفة وأن يحكم وفقا للدين الصحيح ، الا أن ذلك لم يكن توازنا ثابتا ، وظلت للخليفة بقية من القوة الفعالة في العاصمة وما حولها ويحاول

(*) لا يخفى على قلّة القاريّة أنّ هذا القول كما مثاله المؤلف عن المواردي غير صحيح ، فقد عرفت الحضارة الإنسانية وفي أماكن مختلفة ضرورة وجود حاكم بصرف النظر عن اسمه (خليفة - حاكم - ملك - إمبراطور ... الخ) وذلك قبل نزول هذه الآية الكريمة بألآف السنين ، فقد اكتشف البشر أنّ ضرورة وجود حاكم - (المرجع) .

توسيع نطاقها خاصة في عصر الخليفة الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ، وكان السلطان القوى يتحو الى زيادة قوته المستقلة ، كما كانت هناك سلطة ثالثة هي سلطة العلماء الذين كانوا يحددون ماهية الدين الصحيح . وقد قام الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) وطائفة من العلماء بتعريف الخلافة (بين الحاكم والمحكوم) وضرورة ثباتها في إطار التراث الديني ، ووضعوا فكرة أن القوة هي من حق الخليفة أما ممارستها فيمكن أن تكون لأكثر من شخص . والخلافة (أو الإمامة كما كان يسميها المنظرون عادة) تتكون من ثلاثة عناصر هي الخلافة الشرعية للنبي ، وتوجيه أمور الدنيا ، ورعاية أمور الدين ، وقال الغزالي أن الحالة المثلى هي اتحاد هذه المفاهيم الثلاثة في شخص واحد ، ولكن في حالات الضرورة يمكن فصلها كما كان الحال في ذلك الوقت ، فقد جسد الخليفة الخلافة عن النبي ، وحاز السلطان السلطة العسكرية ، ومارس مهام الحكم ، وأشرف العلماء على المعتقدات والممارسات الدينية .

ومع الوقت تحولت هذه العلاقة الثلاثية الجوانب لتصبح علاقة ثنائية . وانتهت الخلافة في بغداد عندما احتلها المغول عام ١٢٥٨ ، وظلت الخلافة العباسية في القاهرة على أيدي السلاطين المماليك ولم تكن معترفا بها بشكل عام ، ورغم أن ذكريات الخلافة استمرت وأقرتها كتب القانون كشكل مثالي للسلطة الإسلامية ، ورغم أن بعض الحكام الأقوياء كالحفصيين استمروا في الاحتفاظ باللقب ، فقد كان الهدف الرئيسي للفكر السياسي بين أولئك الذين كتبوا من منطلق التقاليد والتراث القانوني ، هو تحديد العلاقة بين الحاكم الذي يمتشق السيف وبين العلماء الأمناء على الدين الصحيح والذين من حقهم التحدث باسم الأمة ، وهناك قول قديم منذ عصر الساسانيين ويتردد كثيرا بأن « الدين والملك أخوان وليس بإمكان أحدهما الاستغناء عن الآخر » (٥) وكان الاعتقاد العام أن السلطة التي تكتسب بالسيف ، مع الخضوع الذي يتجلى في احتفال البيعة ، يمكن أن تصبح سلطة شرعية إذا استخدمت للحفاظ على الحرية وعلى نسيج الحياة المتعددية الفاضلة ، وعلى الحاكم دعم محاكم العدل ، واحترام العلماء ، وأن يحكم بالتشاور معهم . ويمكن أن يمارس مهام الحكم ويضع الضوابط ويتخذ القرارات وأن ينفذ العدالة في المسائل الجنائية التي تتعلق بمصالح المجتمع وأمن الدولة ، والعلماء بدورهم عليهم الاعتراف بالسلطان العادل بالبيعة له في خطبة الجمعة .

وقد استنتج ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) - وهو أحد العلماء البارزين في العصر المملوكي - الآثار المنطقية للوضع في عصره ، سواء في هذه المسألة أم في المسائل الأخرى ، فكانت وحدة الأمة عنده هي وحدة

الاعتقاد في الله وقبول رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس بمعنى الوحدة السياسية ، مع وجوب أن تكون في الأمة سلطة لتحقيق العدل والحفاظ على الأفراد ضمن الحدود ، ويمكن أن يمارس ذلك أكثر من فرد واحد ، أما كيفية وصول الحاكم الى السلطة فكانت أقل أهمية من كيفية استخدامه لها ، وكانت الممارسة العادلة للسلطة في نظره نوعا من الخدمة الدينية ، ويجب أن يمارس السلطة في إطار الشريعة وأن يحكم بالتعاون مع العلماء ، وتضمنت هذه العلاقة بين الحكام والعلماء وجوب احترام الحاكم لمصالح النخبة الإسلامية في الحضر ، أما في البلدان الى الشرق من المغرب حيث كان الحكام من القرن العاشر وما بعده من أصول تركية أو أجنبية ، فكان لابد من استشارة السكان المحليين ممن يتحدثون العربية ويجب أن يكون لهم نصيب في عملية الحكم .

وكان من المتفق عليه ، حتى وإن كان الحاكم غير عادل أو فاسدا ، بأن يظل مطاعا ، لأن أي نوع من النظام هو أفضل من الفوضى ، وكما قال الفزالي : « إن طغيان السلطان لمائة عام يسبب ضررا أقل من طغيان الرعايا لعام واحد على بعضهم البعض » (٦) والثورة مشروعة فقط ضد الحاكم الذي يخالف بوضوح تعاليم الله أو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يعني أن العلماء ينظرون لحاكم غير عادل نفس نظرهم لحاكم عادل ، وكان أحد التقاليد الراسخة بين العلماء (السنة والشيعة على السواء) بأن عليهم الإبقاء على المسافة بينهم وبين الحكام * وقد أورد الفزالي حديثا شريفا عن أن في الجحيم واديا مخصصا للعلماء الذين يزورون الملوك الظالمين ، فالعالم الفاضل يجب أن يمتنع عن زيارة الأمراء أو المسئولين الظالمين ، وبإمكانه زيارة حاكم عادل ولكن بدون خضوع ويجب عليه توجيه اللوم له إذا رأى منه فعلا منكرا ، فإذا خاف فبإمكانه أن يظل صامتا ، ولكن الأفضل عدم زيارته على الإطلاق ، وإذا زاره أمير فإن عليه رد التحية ودعوته للفضيلة ، ولكن من الأفضل تفاديه وتجنبه على الإطلاق (وهناك علماء آخرون يرون بأن عليهم دعم الحاكم في كل شيء حتى وإن كان غير عادل) .

وقد تصافرت مع هذه الأفكار التي وضعها علماء الدين والقضاة ، آراء أخرى مستمدة من التراث الثقافي والتي ساعدت على تشكيل ثقافة العالم الإسلامي ، ففي القرن العاشر وضع الفيلسوف الفارابي ترميما للمقاييس التي تقوم عليها الأمم في كتابه « المدينة الفاضلة » . وكانت أفضل الدول عنده هي تلك التي يحكمها من هو نبي وفيلسوف في وقت واحد ، حيث انه يستطيع باستخدام ذكائه وخياله الاتصال « بالعقل الفعال » والذي يصدر عن الله ، وفي غياب مثل هذا الحاكم المثالي يمكن أنه تكون

الدولة فاضلة اذا حكمها جماعة من الذين يستمعون فيما بينهم بالخصائص اللازمة أو الحكماء الذين يحفظون القانون ويفسرون القوانين التي وضعها المؤسسون (كمثل الحال مع الخلافة الأولى) وعلى النقيض من ذلك هناك مجتمعات لا يتمتع العنصر الحاكم فيها بمعرفة الخير وليس لهذه المجتمعات مصالح عام ، وترتبط ببعضها بالقوة أو ببعض الخصائص الطبيعية كالانحدار من نفس النسب أو الشخصية أو اللغة .

وكانت النظريات المستمدة من أصول أخرى ذات تأثير أكثر عمومية : الفكرة الإيرانية القديمة عن الملكية كانت تتجلى أحيانا على هيئة دائرة ، فالعالم حديقة سياجها الحاكم ، والحاكم تدعّمه الجند ، وحفظ الجند ، يتطلب أموالا ، والأموال مستمدة من الرعايا ، والرعايا يحميهم القانون ، والقانون يفرضه الحاكم ، واذا عبرنا عنها بشكل آخر ، فالعالم الانساني يتكون من عدة أنظمة كل منها يسمى بأنشطته نحو مصالحه ، واذا كان عليهم أن يعيشوا معا في انسجام ويبدلوا ما لديهم خدمة للمجتمع ، فلا بد من سلطة منطقية ، ولهذا وجدت الممالك ، وهو نظام بشرى طبيعي من وضع الله ففي كل عصر أو زمن يختار الله سبحانه وتعالى فردا من الجنس البشري ، ليهبه فضائل الخير والسمو ويأتمنه على مصالح العالم وخير عبيده (٧) وهو في احتياج قبل كل شيء للحكمة والعدل لأداء وظائفه ، وعندما يفتقدان أو يفقد القوة للحفاظ عليهما ، ينتشر الفساد والفوضى . . وتختفي الممالك تماما وتعلو السيوف ويفعل الأقوى ما يريد (٨) .

ولكن يقوم الحاكم بما أقدره الله فعليه أن يضع نفسه خارج أنظمة المجتمع المختلفة لأنهم لم يختاروه ، فالفرض الرئيسي لهذه النصوص هو التأكيد على وضعه المتوارث وأنه ليس مسئولاً أمامهم ، بل هو مسئول فقط أمام ضميره ، وفي يوم القيامة أمام الله ، وعليه أن يقدم له حسابا عن خدمته ، ويجب أن يكون هناك تمييز واضح بين الحكام والمحكومين ، فالملك ورجاله يجب ألا يخرطوا في المصالح التي ينظمونها .

وخلال التاريخ الإسلامي تتابعت سلسلة من النصوص التي عبرت عن مثل هذه الأفكار وحاولت استنباط الدلالات ، مثلما عبرت كتابات الفقهاء عن اهتمام العلماء ونظرتهم الى تلك الطبقات التي كانوا يصبرون عنها ، أما النوع الآخر من الكتابة فقد كان ذلك الذي عبر عن اهتمامات القريبين من ممارسة السلطة ، وهم البيروقراطيون الذين يخدمون حكاما بعد حكام مع الحفاظ على تقاليد الخدمة لديهم ، ومن أشهر هذه الكتابات « كتاب الحكومة » لنظام الملك (١٠١٨ - ٩٢) كبير الوزراء لأول سلطان

سلجوقي يحكم بغداد ، وكان كتابه مثل كتاب غيره لا يحتوى على مبادئ عامة ولكن على نصائح عملية حول ادارة الدولة ، ويستفاد منه فى تعليم الامراء ، ولهذا كان الاسم الذى عرف به هذا النوع من الكتابة « مرايا الامراء » (وهو اصطلاح يطلق على نوع مشابه من الكتابة فى اوربا) ويتلقى الامير النصيحة عن كيفية اختيار المسئولين ، وكيفية السيطرة عليهم ببت العيون حولهم ، وكيفية التعامل مع المظالم والالتماسات المقدمة من رعاياه ، لمنع رجاله من اساءة استخدام السلطة التى يمارسونها باسمه ، وكيفية استشارة كبار السن والحكماء والتداول منهم ، وكيفية اختيار رفاقه وأوقات اللهو والراحة ، وكيفية استخدام الجند من اجناس مختلفة والحفاظ على ولائهم ، والنصيحة موجهة بشكل مباشر أساسا ضد المخاطر التى يتعرض لها الحاكم المطلق اذا أصبح معزولا عن رعاياه ، أو سمح لرجالہ وتابعيه باساءة استخدام السلطة التى يمارسونها باسمه .

الفصل التاسع

طرق الاسلام

أركان الاسلام

كانت هناك وشائج مشتركة بين هذه المجتمعات المختلفة ، رغم أنها تعيش في دائرة واسعة من الأراضي الممتدة من الأطلنطي حتى الخليج، والتي تفصلها الصحاري، وتتبادلها الأمور الحاكمة التي ارتفعت ثم سقطت، وتنافس مع بعضها للتحكم في موارد محدودة وكان المسلمون في البداية مجموعة حاكمة ، ثم أصبحوا أغلبية مسلمة تعيش تحت حكم كلمة الله (القرآن) الذي تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، وأولئك الذين قبلوا الاسلام شكلوا أمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) . عبرت هذه الكلمات من القرآن عن أمر مهم في اتباع الاسلام للذين التزموا بالسعي الجاد لفهم وطاعة تعاليم الله ، وأسس الناس رجالا ونساء صلة صحيحة بالله ، وكذلك بين بعضهم البعض ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع : « تعلمن أن المسلم أخ المسلم وأن المسلمين أخوة ، فلا يعمل لأمريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه » (٢) .

ولقد لمبت شعائر وتصرفات معينة دورا خاصا في الحفاظ على الاحساس بالانتماء للمجتمع ، وكانت اجبارية على كل مسلم من القادرين على أدائها ، وأوجدت رابطا ليس فقط بين أولئك الذين قاموا بأدائها معا ولكن بين الأجيال المتعاقبة كذلك ، وتمتد فكرة السلسلة من الشهود من عصر النبي حتى نهاية العالم ، وهي تنقل الحقيقة من جيل لآخر ، وكانت ذات أهمية قصوى للثقافة الاسلامية ، وبشكل ما فإن هذه السلسلة شكلت التاريخ الحقيقي للجنس البشري فيما وراء صعود وسقوط السلالات والشعوب .

عرفت هذه الشعائر عامة باسم « أركان الاسلام » أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان نطق هذه الشهادة هو الفعل الرسمي الذي يصبح به الإنسان مسلما ، ثم يتكرر يوميا مع شعائر

الصلوات وحوت هذه الآيات في جوهرها أدوات الايمان التي يميز المسلمون بها أنفسهم عن الملحدين والمشركين ، كما تميزهم أيضا عن المسيحيين واليهود الذين يعيشون ضمن نفس التراث التوحيدي ، وأن هناك لها واحدا ، وأنه قد بين مشيئته للجنس البشرى من خلال سلسلة من الأنبياء ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء الذي تنتهي به هذه السلسلة ، ويقوم المسلم يوميا في شعائره وصلاته بتكرار هذا المعتقد الأساسي والصلاة هي ثاني الأركان ، وفي البداية كانت تؤدي مرتين يوميا (*) .

ولكن ساد الاعتقاد بأنها يجب أن تؤدي خمس مرات يوميا : الفجر ، الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ويعلم عن أوقات الصلاة علنا بالأذان ويقوم به المؤذن من مكان عال عادة ما يكون المئذنة الملحقة بالمسجد ، وللصلاة شكل محدد فبعد الوضوء يؤدي المصلون عددا من الحركات الجسدية من انحناء وركوع وسجود ، مع ترديد عدد من النصوص التي لا تتغير ، وتعبّر عن عظمة الله وخضوع الإنسان في حضرته ، وبعد اتمام هذه للصلوات يمكن أن يعقبها الدعاء والاسترحام الفردي (الدعاء) .

ويمكن أن تؤدي هذه الصلوات في أي مكان الا الأماكن التي تعتبر غير طاهرة ، وتفضل الصلاة في الجماعة مع الآخرين في الزاوية أو المسجد ، وهناك صلاة معينة على وجه الخصوص يجب أدائها مع الجماعة وهي صلاة الجمعة ، وتقام في مسجد من نوع خاص (المسجد الجامع) وفيه (المنبر) وبعد صلاة تحية المسجد يعتلي الخطيب المنبر لالقاء خطبة تكاد تكون تقليدية : تحتوي على حمد الله والثناء عن النبي ، ثم موعظة أخلاقية غالبا ما تتناول المسائل العامة للمجتمع ككل ، وتختتم بالدعاء الى الله وبمباركة الحاكم الذي أصبح ذكره في الخطب بهذا الشكل واحدا من علامات السيادة .

وكان الركن الثالث بشكل ما امتدادا لفعل الصلاة ، وهو الزكاة أي إعطاء الصدقات من دخل المسلم لتصرف للفقراء والمحتاجين والمدينين . واعتاق العبيد وضيافة المسافرين . كان اخراج الزكاة التزاما على أولئك الذين يتعدى دخلهم حدا معينا باخراج نسبة من دخلهم يجمعه ويوزعه الحاكم أو مستولوه ، ولكن المزيد من العطايا يمكن اعطاؤه لرجال الدين ليقوموا بتوزيعه أو يعطى مباشرة للمحتاجين .

(*) كانت الصلاة ركعتين في كل وقت ، ثم اختلف عدد ركعاتها - (المترجم) :

كان هناك ركنان لا يقلان الزاما على المسلم ، ولكنهما يؤديان بمعدل أقل . وهما تزكيات رصينة وقورة بسيادة الله وخضوع الانسان له في اوقات معينة من السنة الهجرية وقد استخدمت السنة القمرية لأسباب دينية ، وهى تقل أحد عشر يوما تقريبا عن السنة الشمسية ، وهذا التقويم المستخدم في الأغراض الدينية والمعتمد بشكل عام في المدن لم يكن من الممكن استخدامه لدى المزارعين،الذين تحتل الأحداث المهمة عندهم أهمية فصول المطر وفيضان الأنهار والتغيرات الجوية بين الدفء والبرودة وقد استخدم معظمهم (التقويم الشمسي القديم) .

هذان الركنان هما الصوم مرة في العام في شهر رمضان ، والحج الى مكة مرة واحدة على الأقل في العمر ، وخلال رمضان وهو الشهر الذى أنزل فيه القرآن يتعين على كل المسلمين فوق سن العاشرة ، الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من شروق الشمس حتى غروبها ، باستثناء المرضى ممن هم أضعف من احتمال ذلك والمختلين عقليا ، والمرتبطين بأعمال شاقة أو حرب أو المسافرين ، وكان ذلك تعبيرا وقورا عن التوبة عن الخطايا وانكار الذات حبا في الله . وعلى المسلم الصائم أن يبدأ يومه بذكر النية(*)، ويجعل الليل لصلوات خاصة ، وفي حين يتقرب المسلمون الى الله بهذه الشعائر يقتربون من بعضهم البعض ، وتجربة الصوم الجماعي مع القرية كلها أو المدينة تقوى الشعور بالمتجمع الواحد ، لينتشر ذلك الشعور عبر الزمان والمكان ، وساعات ما بعد هبوط الليل تنفضى في الزيارات والواجبات الاجتماعية ، ويحتفل بنهاية شهر رمضان ، كأحد عيدين في التقويم الهجرى ، بالفرحة والزيارات والهدايا وهو عيد الفطر .

وعلى المسلم القادر أن يحج الى مكة مرة واحدة في العمر على الأقل . ويمكنه زيارتها في أى وقت من السنة (العمرة) ولكن الحج الكامل بمعناه هو زيارتها مع غيره من المسلمين في وقت خاص من السنة (شهر « ذو الحجة ») ولم يكن الحج مفروضا على غير الأحرار ، أو المختلين عقليا ، أو من لا يملكون الموارد المالية الكافية ، أو من تقل أعمارهم عن حد معين وحسب بعض المصادر والآراء ليس الحج مفروضا على النساء بلا زوج أو راع لمصاحبتهم ، وهناك أوصاف لمكة والحج كما كان يؤدي في القرن الثاني عشر ، مما يبين أنه في ذلك الوقت كان هناك

(*) ليس هذا ضروريا كما هو معروف لأن النية محلها القلب - (المراجع) .

اتفاق حول الطريقة التي يتصرف بها الحاج وما يتوقع أن يجد في نهاية رحلته (٣) .

ومعظم الحجاج يذهبون في جماعات كبيرة تتجمع في إحدى المدن الكبيرة في العالم الإسلامي ، كان أهمها جميعا في العصر المملوكي انج من القاهرة ودمشق ، وكان الحجيج من المغرب يذهبون عن طريق البحر أو البر إلى القاهرة حيث يلتقون بالحجيج المصريين هناك، ثم يسافرون برا عبر سيناء ثم جنوبا في غرب الجزيرة العربية إلى المدن المقدسة في قوافل منظمة تحت حماية وقيادة مصر ، وكانت الرحلة من القاهرة تستغرق بين ثلاثين وأربعين يوما وبنهاية القرن الخامس عشر كان حوالي ٣٠ - ٤٠ ألف حاج يقومون بهذه الرحلة سنويا ، حيث يلتقى القادمون من الأناضول وإيران والعراق وسوريا في دمشق ثم الرحلة بالقوافل التي ينظمها حاكم دمشق ، وتستغرق قرابة ثلاثين إلى أربعين يوما يقوم بها ما بين ٢٠ - ٣٠ ألف حاج سنويا . وكانت تذهب مجموعات أصغر من غرب أفريقيا عبر السودان والبحر الأحمر ، ومن جنوب العراق وموانئ الخليج عبر أواسط الجزيرة .

في نقطة معينة عند الاقتراب من مكة يطهر الحاج نفسه بالوضوء (٤)، ويضع لباس الاحرام الأبيض المصنوع من قماشة واحدة ، ثم يعلن عن نية الحج بنوع من القسم « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك » (٥) .

وبمجرد وصوله إلى مكة ، يدخل الحاج المنطقة المقدسة (الحرم) ، حيث توجد مواقع ومبان لها مكانة خاصة وذكريات ، وبحلول القرن الثاني عشر على أكثر تقدير اتخذت شكلها الحالي : بئر زمزم التي فتحها سيدنا جبريل لينقل هاجر وابنها اسماعيل ، والحجر الذي انطبع عليه قدم ابراهيم عليه السلام ، وأماكن معينة مرتبطة بالأئمة على اختلاف المذاهب الشريعية ، وفي قلب الحرم تقف (الكعبة) البناء المربع الذي طهره محمد صلى الله عليه وسلم من الأصنام والأوثان ليصبح مركز الالتزام الديني الإسلامي والحجر الأسود (الأسعد) موجود في أحد حوائطها ، ويطوف الحجيج بالكعبة سبع مرات مع لمس أو تقبيل هذا الحجر كلما مروا به ، وفي اليوم الثامن من الشهر يخرجون من مكة متجهين شرقا إلى جبل .

(*) للحج شكل ثابت منذ البداية والقصد هنا الحمل ومكعب كسوة الكعبة ونقله إلى الحجاز - (المترجم) .
(**) يفضل الاستحمام كما هو معروف - (المراجع) .

عرفات حيث يقفون لفترة (وقفة عرفات الفعل الأساسى فى الحج حيث الحج عرفة) * وفى طريق العودة الى مكة هناك شعيرتان رمزيتان أخريان ، يتم أداؤهما وهما رجم شاة يمثل الشيطان بالأحجار (*) والتضحية بالأغنام ، وبهذا تنتهى فترة النذر التى بدأت بالأحرام ، ويخلع الحاج ملابس الاحرام ويعود الى الحياة الطبيعية العادية .

ويعتبر الحج من نواح عديدة الحدث المركزى فى العام ، وربما فى العمر كله ، فهو تمير عن وحدة المسلمين مع بعضهم البعض فى أبهى صورها ، وبمعنى ما كان تمثيلا لكل أنواع السفر ، وكان أولئك الذين يذهبون للحج فى مكة قد يبتغون لتحصيل العلوم والدراسة ، ويمكن أن يضرروا معهم بضائهم لبيعها فى الطريق أو فى المدن المقدسة ، وكان الحج أيضا سوقا لتبادل الأخبار والأفكار من كل أجزاء العالم الاسلامى .

وقد عبر الرحالة الشهير ابن بطوطة عن معنى تجربة الحج بقوله : « من أعجب صنائع الله سبحانه وتعالى أن خلق قلوب الرجال على الرغبة الفطرية فى البحث عن المزارات المقدسة والتوق الى تقديم أنفسهم فى مواقعها الزاهرة وقد أعطى حبهم قوة على قلوب الرجال بحيث لا ينبرها القلب كله أو يتركها الا بالحزن على فراقهم » (٤) .

والحج من شعائر الخضوع لله التى نص عليها القرآن « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٥) ، فيحج اليه الآلاف من العالم الاسلامى مما فى وقت واحد، يطوفون جميعا حول الكعبة ، ويقفون بعرفات ويرجمون ابليس ، ويقدمون أضحياتهم ، فيرتبطون بعالم الاسلام بكامله ، وكان سفر وصودة الحجاج مناسبة احتفال رسمى تسجل فى مسارد التاريخ ، وترسم على جدران المنازل ، وكان الحاج عندما يقدم أضحيته فى منى ، يقوم كل بيت مسلم بذبح أضحيته ليرمز الى غنى الإحمياد الكبرى للسنة الهجرية ، وهو عيد الأضحية .

وكان الإحساس بالانتماء لجباة من المؤمنين يعبر عن نفسه فى فكرة أن من واجب المسلم رعاية مصالح وحماية المجتمع ، وتوسيع آفاقه ما أمكن ، وكان الجهاد ضد أولئك الذين يهددون المجتمع سواء أكانوا من الكافرين الماديين من خارجه ، أم غير المسلمين بداخله ممن انتكحوا عهد

(*) الصغيرة للعروة برى الجمرات - (المراجع) .

الحماية (*) وكان الجهاد يعتبر فريضة تعادل أحد أركان الاسلام ، وكان واجب الجهاد كغيره من الفرائض مبتئا على آية قرآنية : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجندوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » (٦) .

وقد أسهب الفقهاء في تعريف طبيعة هذه الفريضة وحدودها ، ولم يكن الجهاد التزاما فرديا على المسلمين ، ولكنه كان فريضة جماعية ، على المجتمع (**). لتوفير عدد كاف من المقاتلين، وبعد التوسع الكبير للإسلام في القرون الأولى ومع بدايات الهجوم المضاد من أوروبا الغربية ، أصبح ينظر للجهاد بمنظور دفاعي أكثر توسعيا .

بالطبع ، فلم يلتزم كل من سمي نفسه مسلما بهذه الالتزامات بقدر متساو من الجدية أو أعطى نفس المعنى لتحقيقها ، فكانت هناك مستويات مختلفة من الإيمان الفردي واختلافات عامة بين اسلام المدينة والريف ، وكان هناك نطاق متباين من الالتزام يتراوح بين طالب العلم والتاجر اليتيم في المدينة ممن يؤدون الصلوات اليومية والصوم السنوي ويدفعون الزكاة ويؤدون الحج ، وبين البدوي العادي الذي لا يصل بانتظام ولا يصوم رمضان ، لأنه يقضي حياته على حافة الجوع والحرمان ولا يؤدي الحج ولكنه يشهد بأن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله .

أوليه الله

منذ البداية كان هناك بعض أتباع للنبي لم يكن لالتزامهم الظاهري قيمة ، ما لم يعبروا عن إخلاص النية والرغبة في طاعة تعاليم الله من منطلق الاحساس بعظمته وضآلة الانسان ، وما لم يعتبر هذا الاخلاص أساسا للنظام الأخلاقي الذي يجب أن يمتد ليشمل حياتهم كلها .

ومنذ تاريخ مبكر ، أثارت الرغبة في نقاء النية ميلا الى التنسك ربما كان مصدره تأثير رهبان المسيحية الشرقية ، وكان وراء ذلك فكرة تقول بأن هناك علاقة بين الله والانسان خلاف مجرد اطاعة التعاليم : علاقة يطبع فيها الانسان مشيئة ربه حيا فيه ورغبة في التقرب اليه ، وبذلك يصبح قادرا على الاحساس بحب الله له . ومن مثل هذه الأفكار والممارسات التي

(*) الشعيبة المعروفة برمي الجمرات - (المراجع) .

(**) فرض كفاية بمعنى ان المجتمع ككل اذا قام بهذا الواجب يسقط عن الافراد الذين لم يجاهدوا لسبب أو لآخر . أما ان تقاصر المجتمع عن هذا الفرض ، فإن كل الافراد ياثمون ؛ فالجهاد فرض كفاية وليس فرض عين - (للترجم) .

نشأت على أساسها خلال هذه القرون ، نفساً تفصيل تدريجي حول فكرة الطريق التي يتقرب بها المؤمن الحق من الله . والدين آمنوا بهذه الفكرة وحاولوا تطبيقها ، عرفوا تدريجياً باسم الصوفية . وبالتدريج أيضاً ظهر مفهوم عام وإن كان غير مكتمل حول المقامات على هذه الطريق ، وكان المقام الأول هو التوبة أى التخلي عن خطايا الحياة السابقة : قد يؤدي الى الاقلاع حتى عن الأمور الميسحة والتي تؤدي الى تشييت الروح عن البحث عن المقصد السليم ، ويمضى الساعي على هذه الطريق ليتدرج الى مقام التوكل على الله والصبر على مشيئته ، وبعد فترة من الخوف والأمل قد يأتي الإلهام أو التجلي من الذات المقدسة : صحوة روحية تدب فيها كل الغايات والمقاصد ولا يتبقى سوى الله ، وتفتى الصفات الانسانية للساعي فى هذه الطريق عندما يصل الى هذه النقطة ، ويحل محلها قدرات الهية تترك آثارها ، اذ تتحول الروح بمجرد عودتها الى عالم الحياة اليومية .

وهذه الخطوة تجاه التوحد مع الله تؤثر على المشاعر والعقل والروح ، وتعمل مع المقامات المختلفة بركات أو أحوال ، وهى حالات مشاعر فياضة أو تجارب عنيفة لا يمكن التعبير عنها سوى بالاستعارات والرموز والصور ، وقد تطور تدريجياً ، فى اللغة العربية واللغات الادبية الأخرى فى عالم الاسلام ، نظام من الصور الشعرية يحاول الشاعر فيها أن يوضح حالات التجلي ، التى يمكن أن تتجلى على الطريق نحو العرفان وهدفه من التوحد . وقد استخدمت صور الحب الانساني التى يكون فيها المحب والمحبوب كل منهما مرآة للأخر ونشوة من النبيل ، وعبر عن الروح كقطرة ماء فى المحيط الالهى المقدس ، أو كطائر يبحث عن زهرة يتجلى فيها صورة لاله ، والصور الشعرية غامضة بحيث لا يسهل دائماً القول هل يقصد الشاعر التعبير عن الحب الانساني أم عن الحب الالهى .

وكان المسلمون الجادون واعين لخطورة هذه الطريق ، حيث ان الساعي فيها يتسوه ، وقد تعصف بعقله التجليات . وكان من المعتقد أن بعض الأرواح الانسانية قادرة على السعى فيه وحدها ، كما أن تفرق فجأة فى المتنة أو أن تقوده روح معلم ميت أو النبی صلى الله عليه وسلم بنفسه ، الا أن معظم الساعين كانوا يعتقدون أنه من الضروري قبول وتعليم وتوجيه من هم أكثر تقدماً على هذه الطريق من أساتذة الحياة الروحية (شيخ أو مرشد) وطبقاً للقول الذى أصبح شائعاً « من لا شيخ له فالشیطان شیخه » وعلى المرید أو التلميذ أن يتبع شيخه خاضعاً مستسلماً كالجنّة بين يدي من يقوم بقبيلها .

وفي أواخر القرن العاشر والحادى عشر بدأ تطور جديد، إذ أن أولئك الذين كانوا أتباعا لنفس المعلم بدؤوا فى تعريف أنفسهم كعائلة روحية واحدة تمضى على نفس الطريق (طريقة) ، واستمرت بعض هذه العائلات لفترة زمنية طويلة وأعلنت انتماءها لإساتذة عظام للحياة الروحية التى سميت الطريقة بأسمائهم، وينتمون بدورهم الى النبى صلى الله عليه وسلم من خلال على أو أبى بكر (*) . وانتشرت بعض هذه الطرق فى مساحات واسعة فى العالم الإسلامى حملها تلاميذ أعطاهم الشيوخ عهدا بالتدريس على طريقتهم ، وفى معظم الأحوال لم يكونوا على قدر كبير من التنظيم ، وكان يمكن لتلاميذ أستاذ ما أن يؤسسوا طرقهم الخاصة ولكنهم على وجه العموم اعترفوا بتبعيةهم للأستاذ الذى تعلموا عليه الطريقة ، ومن بين أكثر هذه الطرق انتشارا ودواما كان بعض الذى بدأ منها فى القرنين مثل « الرفاعية » التى تعود الى القرن الثانى عشر و « السهروردية » فى القرن الثالث عشر و « القادرية » المسماة باسم عالم بغداد عبد القادر الجيلانى (١٠٧٧/١١٦٦) والتى لم تظهر بوضوح الا فى القرن الرابع عشر ، ومن الطرق التى نمت فى مصر كانت « الشاذلية » أكثرها انتشارا ، خاصة فى المغرب حيث نظمها الجزولى (ت ١٤٦٥) وفى أجزاء أخرى من العالم الإسلامى كانت هناك طرق وجماعات مهمة على سبيل المثال « المولوية » فى الأناضول و « النقشبندية » فى آسيا الوسطى ، وبعض هذه الطرق انتشرت فيما بعد فى البلاد التى تحدثت العربية .

وقد وهب البعض من أتباع هذه الطرق حياتهم بالكامل للطريقة ، حيث يعيشون فى زاوية (خانقا) بمنسج قد تكون مباني صغيرة فى المدن، ولكن بعضها الآخر قد يكون أكبر ، وتضم مسجدا وخلوات للرياضة الروحية ، ومدارس ونزلا للزائرين ، وكلها تتناثر حول مقام شيخ الطريقة الذى سميت باسمه ، وعاش معظم أفراد الطريقة بشكل معتاد فى الدنيا بمن فيهم من نساء ورجال ، وقد كان الانضمام الى الطريقة عند بعضهم اسميا ولكن عند الآخرين كان ذلك معنى بداية جادة بالالتزام بالمذهب وطقوسه التى يمكن أن تساعدهم فى صميمهم فى الطريق نحو المثمرة فى التوحيد .

وتختلف الطرق فيما بينها فى نظرتها للعلاقة بين طريقتى (**)

(*) ليس بالضرورة - (المراجع) .

(**) ظل الإسلام حتى بداية القرن الثانى للهجرة على الأثر وليس فيه إلا طريق واحد هو طاعة الكتاب (القرآن الكريم) والسنة (أحاديث الرسول وأفعاله وأقواله) مع المحافظة على أشكال الشريعة والروح (المضمون) بمعنى أن الأعمال بالنيات ، أما الطريق الثانى الذى يشكركه المؤلف فهو واحد من حضارات وعائلات أخرى - (المراجع) .

الإسلام : طريق الشريعة وهو طاعة القانون المستمد من تعاليم الله في القرآن ، وطريقة «الحقيقة» التي تبحث عن العرفان المباشر للذات الإلهية ، فكانت هناك من ناحية الطرق العقلانية التي قالت بأن غناء الذات ونشوة الرؤى الصوفية ، يجب أن يتبعها المؤمن إلى عالم الحياة اليومية ليعيش ضمن ضوابط الشريعة لأداء واجباته تجاه الله والبشر ، بحيث يمنحه معنى جديدا ، وعلى الجانب الآخر يقف أولئك المفتونون بتجربة التوحد مع الذات الإلهية مع الاحساس بالحضور الإلهي المقدس بحيث يعيشون حياتهم في عزلة ، وأصبحوا لا يابهون عما إذا كانوا يستحقون اللوم عن إهمالهم واجباتهم التي فرضتها عليهم الشريعة ، وقد يرجعون بعثل هذا اللوم بطريقة تساعدهم على الابتعاد عن العالم (الملاطية) ، وقد كان الجنوح الأول من أولئك القائلين بالانحدار من فكر الجنيد ، والثاني لأولئك الذين اتخذوا أبا يزيد البسطامي أستاذا شيخا ومعلما .

وقد كانت هناك إجراءات للدخول في الطريقة في أخذ العهد بالاخلاص والولاء للشيخ ، ثم تسلم عبادة خاصة منه (الخرقه) ، وتعلم صلاة غير معلنة (ورد أو حزب) ، وبالإضافة إلى الصلوات الفردية كانت هناك طقوس تمثل السمات المركزية للطريقة والخصائص التي تميزها عن الطرق الأخرى ، وهي الذكر (تكرار اسم الله) بنية تحويل الروح عن كل ما يشغلها من ملهيات الدنيا ، وتحريرها للرحلة تجاه التوحد مع الله ، ويمكن للذكر أن يأخذ أكثر من شكل واحد ، ففي بعض الطرق خاصة في والنقشبندية هو تكرار صامت تصنحه طريقة معينة للتنفس ، مع تركيز انتباه الحقل على أجزاء معينة من الجسد ، وعلى الشيخ مؤسس الطريقة التسمية باسمه أو على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي معظم الأحوال كانت الطقوس الجماعية (حضرة) تؤدي بانتظام في أيام معينة من الأسبوع في زاوية خاصة بالطريقة ، والمشاركون فيها ينتظمون صفوفًا لتكرار اسم الله (الفكر) ، وقد تصاحب ذلك الموسيقى أو الشعر ، وفي بعض الطرق رقصات طقسية كالرقصة الشقيقة الدائرية عند المولويين ، وقد يكون هناك بعض التعبير عن فضائل ونعم معينة بسكاكين تخترق الخدود أو بنثرين توضع في الأنف ، ويتسارع التكرار والحركة حتى يفقد المشاركون الوعي بالعالم الحسي من حولهم .

وقد أحاط بهذه المشاهد العامة بعض الظلال من العبادات الخاصة : مدح الله ، والتعبير عن الحب له ، والتضرع لأسباب النعم الروحية يعضها

كان تدفقات موجزة لمحذ الله أو طلب الرحمة والبركة ، والصلاة على
النبي ، وبعضها كان أكثر إحكاما :

تبارك الله الذي تحمده الجبال وما تعمل

وتحمده الأشجار وهي تثبت أوراقها

وتحمده النخل عند نفث ثمارها

وتحمده الرياح السارية في طرق البحر !! (٧) .

وقد نسبت مقتطفات من هذا الشعر الى شيوخ وأساتذة عظام
للمعينة الروحية .

ولقد كانت فكرة وجود طريقة يتقرب بها الانسان الى الله تختلف
من مجرد كونه مخلوقا وعبدا مواليا له الى الدوام ، تجد صدى لها في آية
قرآنية : « وب فيه آيتين من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر
السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة » وتدرجيا ظهرت نظرية
الولاية ، فولى الله هو الذي يكون دائما في حضرته ، وأفكاره لا تنتزع
لغيره ، والذي يسيطر على الشهوات البشرية التي تبعد الانسان عن الله ،
ويمكن أن يكون الرجل أو المرأة وليا . وقد كان في العالم دائما أولياء
وسوف يبقون فيه ليظل مستقرا متزنا وقد اتخذت هذه الفكرة مع الزمن
تعبيرا نمطيا ، هو أن ، هناك دائما عددا معيناً من الأولياء في العالم ، اذا مات
أحدهم يخلفه ولي آخر ، وهم يمثلون الحكام غير المعروفين للعالم ،
يتوسطهم القطب الذي تدور حوله الدنيا .

و أولياء الله يمكن أن يتشفعوا لديه نيابة عن الآخرين ، ويمكن أن
تكون لشفاعتهم نتائج مريئة في العالم ، ويمكن أن تؤدي الى شفاء الأمراض
والعقم أو التخلص من سوء الحظ ، وهذه الكرامات هي اثبات لقداسة هؤلاء
الأولياء ، وأصبح من المعتقد أن القوى الخفية التي يحقق الولي بها الكرامات ،
يمكن أن تستمر بعد موته أو موتها ، ويمكن الدعا للشفاعة عند قبره
أو قبرها (٨) ، وقد أصبحت الزيارات لأضرحة الأولياء ولمسها أو الصلاة
الى جوارها جزءا مكملا لممارسات التعبير عن الولاء رغم أن بعض المفكرين

(*) المؤلف هنا يوزع الاعتقادات المسائدة بغير النظر عن صحتها - (المراجع) .

المسلمين اعتبروا ذلك بدعة خطيرة ، لأنها أوجدت وسيطا بشريا بين الله وعباده ، وأضرحة الأولياء ريعية الشكل ولها قبة ذات لون أبيض من الداخل ، تبني مستقلة أو داخل مسجد ، أو أن تكون نواه تنمو حولها زاوية وكان ذلك من الخصائص المنتشرة للمشاهد والمباني الإسلامية .

وكما لم يرفض الإسلام الكعبة وإن أعطاها معنى جديدا ، كذلك قام معتنقو الإسلام باستحضار تراثهم الثقافي الفارسي . ولقد كانت فكرة أن بعض الأماكن هي بيوت الآلهة أو الأرواح ذات القوى الخارقة منتشرة منذ قديم الأزل فالأحجار من أنواع غير عادية ، والأشجار المتينة ، وينابيع المياه المنبثقة بشكل طبيعي من الأرض ، كان ينظر إليها كعلامات مريية لوجود الله أو الأرواح التي توجه إليها الابتهالات والرجاء ، وتقدم إليها القرابين بتطبيق السجود أو ذبح الأضاحي ، وقد أضحت مثل هذه الأماكن في العالم الذي انتشر فيه الإسلام مرتبطة بالأولياء المسلمين ، وبهذا اكتسبت مدلولات جديدة (*) .

ولقد أصبحت بعض هذه الأضرحة مراكز كبرى للشعائر الدينية الضمنية . فاصبح يوم مولد أو ذكرى يوم خاص في تاريخه (الولي) مناسبة احتفال شعبي يتجمع فيه المسلمون من المناطق المحيطة أو البعيدة للمس مقام أو الصلاة أمامه ويشاركون في الاحتفالات من مختلف الأنواع ، وبعض هذه التجمعات كانت لها أهمية محلية فقط ، ولكن البعض الآخر كان يجتذب زوارا من أماكن بعيدة ، وكان من بين هذه الأضرحة التي أصبحت (وطنية) ، ضريح مولاي إدريس (ت ٧٩١) مؤسس مدينة فاس الدائع البصيت ، وأبو مدين (١١٣٦ - ٩٧ ت) في تلمسان غرب الجزائر ، وسيدى مجرؤ الولي الأكبر للمعارة في تونس ، وضريح أحمد البدوي (١١٩٩ - ١٢٧٦ ت) في طنطا من دلتا مصر . وهو مركز الثقافة الذي وجد فيها المدارس أحياء لعبادة « بوياست » المصرية القديمة ، وعبد القادر الذي سبمت الطريقة القادرية في بغداد باسمه .

وبمرور الوقت أصبح ينظر الى النبي صلى الله عليه وسلم وعائلته من منظور الولاية ، وساد الاعتقاد بأن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ستعمل على خلاص كل من آمنوا به ، وأصبح ينظر إليه كولي ونبي وأصبح قبره في المدينة مكانا للصلاة والتوسل ، ويزار بشكل مستقل

(*) رأى الرأى نفسه الرحالة ونوفا الذي زار مصر في أواخر عهد اسماعيل .
انظر رحلته . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب : (سلسلة الألف كتاب الثاني) -
(المراجع)

كامتداد للحج (*) ، وأصبح مولد النبي مناسبة للاحتفال الشعبي ،
ويبدو أن هذه العادات بدأت وتنامت في عصر الخلفاء الفاطميين في القاهرة
وانتشرت بشكل واسع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وقد ساد الاعتقاد بأن للولي الحي أو الميت قوى دنيوية ، خاصة في
الريف حيث تنعدم البيروقراطية المنظمة مما يسمح بالحركة الحرة للقوى
الاجتماعية . وقد أصبح محل إقامة الولي الحي أو ضريح الولي المتوفي
أرضا محايطة يمكن أن يتخذها الناس ملجأ ، وكان أفراد الجماعات المختلفة
المتباعدة أو المتخصصة ، يمكن أن يلتقوا فيها للتصالح والاتفاق . وكان
مولد الولي أيضا معرضا ريفيا تبايع وتشترى فيه السلع، ويمكن أن يصبح
المقام شاهدا لسوق ثابتة أو مخزنا للحبوب من البسود الرحل ،
ويمكن أن يستفيد الولي أو سلالته ورعاة ضريحه من سمعته بجمع التبرعات
من الزائرين بشكل يمكن أن يجعلهم من الأغنياء ، وتضفي عليهم الشهرة ،
وتجعلهم مقصدا في التحكيم في المنازعات .

أما رجال العلم والورع ممن عرف عنهم الكرامات وحل المنازعات ،
فيمكن أن يكونوا النقطة التي تتجمع الحركات السياسية حولها في مواجهة
حاكم ظالم أو غير شرعي ، وفي بعض الظروف تستمد وضعية مثل هذا المعلم
الديني قوتها من فكرة شعبية منتشرة هي فكرة (المهدي) ، الرجل الذي
يهديه الله ويرسله لاستعادة النظام والعدل للذين سيسودان قبل نهاية
الآلهم ، ويمكن أن نجد أمثلة من هذه الفكرة عبر التاريخ الإسلامي كله ،
وربما كان أشهر وانجح من اعترف به مريدوه كمهدي هو « ابن تومرت »
(١٠٨٧ - ١١٣٠) وهو مصلح ديني ولد في مراكش وعاد الى المغرب بعد
دراسة في الشرق الأوسط ، حيث بدأ في المطالبة بالعودة الى طهارة الاسلام
الأولي ، وقد كون هو ومن التفت حوله امبراطورية « الموحدين » ، والتي
امتدت في ذروتها على طول المغرب والأجزاء الاسلامية من اسبانيا ، وكان
قراؤها أساسا لشرعية السلالات اللاحقة وخاصة الحفصيين في تونس .

(*) المؤلف يذكر عادات الناس ، ومن المعروف أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ليست من مناسك الحج - (المراجع) .

الفصل العاشر

تراث العلماء

العلماء والشرعة

نشأ في قلب المجتمع المؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم رجال تعلموا القرآن والحديث والفقه ، واعتبروا أنفسهم رعاة المجتمع وخطباء النبي .

وقد كان الصراع حول الخلافة السياسية للنبي خلال القرن الاسلامي الاول يحمل في طياته السؤال حول السلطة الدينية ، وعين له الحق في تفسير الرسالة التي نزل بها القرآن وتفسير العبرة في حياة محمد (صلم) ، وعند الشيعة والجماعات المختلفة المنبثقة عنها كانت السلطة تنحصر في سلسلة من الائمة هم المفسرون المصومون للحق الذي جاء به القرآن، الا أنه منذ المصور الاسلامية الاولى كانت الاغلبية من السليبين في البلاد التي تتحدث العربية من السنة ، بمعنى أنهم رفضوا فكرة الامام المصوم الذي يمكن بشكل ما أن يكون امتداداً لتبليغ الوحي الالهي ، لأن ذلك الوحي قد تبلور بشكل تام ونهائي في القرآن وسنة النبي ، وأولئك الذين يستطيعون تفسيره (العلماء) هم حفظة الوعي الاخلاقي للمجتمع .

وبحلول القرن الحادي عشر كان هناك تمييز واضح بين المذاهب المختلفة أو مدارس التفسير الشرعي والأخلاقي ، وعلى الأخص المدارس الأربع الأكثر انتشاراً ودواماً : الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة . وقد كانت العلاقة بين أتباع المذاهب المختلفة عاصفة في بعض الأوقات ، ففي بغداد خلال العصر العباسي تكونت جماعتان حضريتان : الحنفية والشافعية تقاطعتا فيما بينهما ، ثم أصبحت الخلافات بعد فترة أقل إثارة للجدل ، وفي بعض المناطق كان هذا المذهب أو ذاك سائداً وعاماً ، وأصبح المالكية تقريباً هم المدرسة الوحيدة في المغرب ، والشافعية كانت واسعة الانتشار في مصر وسوريا والراق وإيران والحجاز ، والحنفية في آسيا

الوسطى والهند ، وأصبح الحنابلة عنصرًا مهمًا في بغداد والمدن السورية بدءًا من القرن الثاني عشر وما بعده ، وكما تعايشت المدارس الدينية مع بعضها ، كذلك كان الحال مع مدارس الفقه ، وعندما كانت إحدى الأسر الحاكمة تعين أفرادًا من مدرسة معينة في المناصب الشرعية كان للآخرين فضائهم وخبراتهم في الشرع .

كانت بعض الخلافات بين المذاهب متعلقة بالتميز المحدد والوزن النسبي لمبادئ الفكر الشرعي (أصول الفقه) ، وفيما يتعلق بالاجماع اعترف الحنابلة باجماع الصحابة فقط وليس باجماع العلماء اللاحقين ، ولهذا فقد فتحوا مجالًا أوسع للاجتهاد على أن يقوم به الدارسون وفقوا للقواعد الصارمة للقياس ، وهناك مدرسة أخرى هي « بنو زيري » والتي كانت قوية في الأندلس لفترة من الوقت ولكنها اختفت فيما بعد ، التزمت فقط بالمعنى الحرفي للقرآن والحديث حسب تفسير الصحابة ورفضت الاجماع والاجتهاد ، كما كان هناك مذهب آخر مماثل قال به ابن تومرت مؤسس أسرة الموحدين حيث ادعى لنفسه موقع المفسر المعصوم الوحيد للقرآن والحديث ، مدرستان فقط سمحتا بشيء من المرونة في ممارسة الاجتهاد فأكد الحنفيون أن القياس الدقيق لا يستخدم بالضرورة على الدوام ، وأن بإمكان العلماء الاعتماد على بعض المفاضلة الفردية في تفسير القرآن والحديث (الاستحسان) ، وكذلك اعتقد المالكيون بأن طالب العلم يمكنه الذهاب إلى أبعد من المائلة الدقيقة لو كانت في ذلك مصلحة إنسانية (الاستصلاح) .

هذه المبادئ لم تطور أو تناقش لذاتها ، وإنما لأنها شكلت قواعد أصول الفقه ، أو السمي الإنساني المستول عن توصيف تفاصيل الحياة أي الشريعة التي يجب على المسلمين اتباعها لاطاعة إرادة الله ، وكل الأفعال الإنسانية في صلتها المباشرة بالله أو البشر ، يمكن اعتبارها على ضوء من القرآن والسنة كما يفسرها أولئك المؤهلون لممارسة الاجتهاد وتنقسم إلى خمسة معايير :

الواجب (فرض الكفاية ، وفرض العين) ، المستحسن ، والجائز ، والمكروه ، والمحرم .

وتدريجياً وضع علماء المذاهب المختلفة دساتير للسلوك الإنساني تغطي كل التصرفات الإنسانية التي يمكن الرجوع إليها في القرآن والحديث ، ويعتبر ابن أبي زيد القيرواني (ت ٩٩٦) وهو أحد أساتذة

المدرسة المالكية نموذجاً شائعاً مثل هذه الأصول وينبأ بالشهادة التي يجب أن ينطق بها اللسان ويؤمن بها القلب وهو إعلان الإيمان ، ثم يتناول مع الأعمال الموجبة مياثرة إلى الله (الإمادات) الصلاة بعد الوضوء ، والصيام وإيتاء الزكاة ، وأداء الحج وواجب القتال من أجل قضية الإسلام (الجهاد) ثم يتناول بعد ذلك ، الأعمال التي يقوم بها الأفراد مع بعضهم البعض (المعاملات) ، أولاً تأتي مسائل العلاقات الإنسانية الحميمة ، الزواج وعقده وحله ، ثم العلاقات ذات المجال الأوسع وهي البيع والعقود الماثلة وتشميل الاتفاقيات التي تهدف إلى الربح ، والمواثيق ، والأوقاف ، ثم المسائل الجنائية ، وبعض الأعمال المحرمة كالزنا وشرب الخمر والتي يضع القرآن لها عقوبات محددة ، ثم يذكر الضوابط التي يجب على القضاة الذين يقضون في المسائل المحرمة اتباعها ويخلص إلى باب بلوصايا الأخلاقية :

« أن على كل مؤمن أن يضع حب الله نصب عينيه في كل كلمة يقولها أو في كل فعل يفعله ، ومن لا تتوخى كلماته أو أفعاله حب الله فليست مقبولة ، فالنفاق شرك أصغر ، والتوبة عن كل ذنب واجبة ، ويشمل ذلك عدم الصبر على الذنوب ، ورفع الظلم ، والامتناع عن ارتكاب الإخطاء ، والنية على عدم العودة إليها وليلتطلب للذنوب من الله العفو ، وليأمل في الغفران ، وليخف من العقاب ، وليفكر على نصابه ، ولا يياس من رحيمته (١) » .

وقد كانت هناك بعض الاختلافات بين المذاهب حول مبادئ التفسير سواء من حيث المبدأ أم من حيث التفاصيل ، ولكن معظم تلك الخلافات كان قليل الأهمية ، وقد حدثت اختلافات طفيفة حتى بين علماء المذهب الواحد ، حيث لا يوجد قانون مهنا كان مفصلاً ومحكماً يستطيع أن يتناول كافة الاحتمالات المختلفة من المواقف ، وقد كان هناك قول مأثور ظهر منذ القرن العاشر وما زال يتكرر ، حول أنه لا مجال لمزيد من الاسهام الفردي في التفسير في الأمور التي وصل إليها العلماء إلى الإجماع ، فقد « قفل باب الاجتهاد » ، ولا يبدو هناك دليل واحد على أن ذلك القول المأثور قد تم العسل به أو لاقى قبولا عاما ، واستمر الاجتهاد في واقع الأمر في داخل كل مذهب على حدة ، كما أنه لم يتم فقط على أيدي القضاة الذين كان عليهم اتخاذ قرارات ، ولكن أيضاً من موقع المفتي ، والمفتي أساساً عالم يعرف عنه القدرة على إصدار الأحكام حول القضايا الخلافية ، وذلك عن طريق الاجتهاد ، وقد جمعت الفتاوى التي أفتى بها من أئمة من الأئمة في الافتاء في أمهات كتب الفقه فيما بعد ، إلا أن نشاط الفتوى كان لا بد

ان يستمر ، وقد قام الحكام بتعيين مفتين رسميين برواتب ، ولكن الفقيه الذي يتقاضى أتعابه ممن يطلب منه رأيا ، وليس في نفس الوقت ملزما تجاه الحاكم ، كان يحظى باحترام اجتماعي خاص .

ومن المعتاد الاشارة الى نتائج الفقه بالشريعة باعتبارها القانون الاسلامي وكان لهذا ما يبرره ، حيث انها كانت منذ العصر العباسي وما بعده ، تمثل كيانا من الفكر الذي اعتمد عليه القضاة الدين عيهم .
الحكام لاصدار الأحكام أو تسوية المنازعات ، وفي الواقع ، فقد كانت أكثر من ذلك لأنها احتوت على أعمال خاصة لا تهم الجار أو الحاكم ، وهي أفعال العبادة أو السلوك الاجتماعي أو ما يسمى بالأخلاق ، والتي كانت تعتبر نموذجا معياريا لكل التصرفات الإنسانية ، في محاولة لتصنيفها ، وضوابط للمسلمين بحيث تصبح الطريقة التي شاء الله لهم أن يعيشوا بها ، وكانت من الناحية الأخرى أقل من قانون لأن بعض أحكامها كانت نظرية فقط ولم تستخدم في الواقع إطلاقا ، ولأنها تركت مجالات كاملة من الأفعال التي يمكن أن تشملها القوانين بمعناها المعتاد ، فكانت حقيقة للغاية فيما يتعلق بالأحوال الشخصية في الزواج والطلاق والميراث ، وأقل دقة فيما يتعلق بالتماقلات والالتزامات وكل ما يرتبط بالأنشطة الاقتصادية ، ولم تغط على الإطلاق ما يسمى الآن بالقانون الجنائي ، وكان القتل يعتبر مسألة خاصة ، وشأننا من شئون العائلات المعنية أكثر من كونه شأننا يجب أن يتدخل فيه المجتمع بكامله مثلا في التضيقة (*) ، ولم تذكر الشريعة شيئا على الإطلاق عن القوانين الدستورية أو الإدارية (**) .

وجتي في هذه المجالات التي كانت فيها الشريعة دقيقة للغاية ، فقد نازع نفوذها قوة الحاكم أو الممارسات الفعلية للمجتمع ، ففي معظم الأنظمة كان الحاكم أو مسؤولوه يتعاملون مع الكثير من الأفعال الاجرامية ، وخاصة تلك التي تتعلق بأمن الدولة ، وكان الحاكم يقرر بنفسه الاجراءات

(*) تقضى الشريعة بقتل اللعان عمدا ، وأن يكون ذلك على يد ولي الأمر (الحكومة) .
وما ذكره المؤلف ربما كان عادات انتشرت في عصور الانحطاط - (المراجع) .

(**) اشارات قرآنية ولشريعة عن الضرر ، ووضع نظام الحسبة بنام ولي .
اشارات قرآنية بجدها المصرون توجب فرض هذا النظام ، واعتبر القرآن الكريم دستوراً أو حكما ، ولو بالمعنى اللغوي للكلمة - وهذه مسألة خلافية على أية حال - (المراجع) .

والعقوبات ، وفي الريف بالمثل كان الفصل في المسائل طبقا للعرف ، وهو عادات المجتمع التي يحافظ عليها ويطبقتها كبار السن في القرية أو القبيلة ، وفي بعض الأماكن كانت هناك قوانين مكتوبة عن العادات ، وفي البعض الآخر كانت هناك منحاكم أو مجالس عرفية وقد يكون ذلك صحيحا بشكل خاص في مجتمعات البربر في المغرب ، ولكن ربما كانت على أية حال ، أمرا استثنائيا في المجتمع الاسلامي .

وكما كانت الشريعة نتيجة عملية بطيئة ومعقدة من الحوار بين المعايير المنصوص عليها في القرآن والحديث وبين العادات والقوانين في المجتمعات التي سيطر عليها الحكم الاسلامي ، فكذلك كانت هناك عملية مستمرة من التعديل المتبادل بين الشريعة بمجرد اتخاذها شكلا محددا وبين الممارسات الاسلامية للمجتمعات ، وقد اتضح على سبيل المثال أن مفاهيم المذهب الحنفي فيما يتصل بالمعاملات التجارية قد توافقت مع ممارسات التجار المصريين التي سجلت في وثائق مختلفة ، واتضح أن ما ذكرته الشريعة عن العقود قد جرى وضعه بحيث تكون الفاتحة (٢) أمرا شرعيا (٣) ، وكذلك كان إصدار الضوابط وممارسات التشريع على أيدي الحكام ومستولاهم تبررها مبادئ السياسة الشرعية ، بناء على أن الحاكم قد قبضه الله للمجتمع الانساني للمحافظة على الدين والأخلاق ، وحيث أن سلطته اكتسبت المشروعية بالقبول من المجتمع ، فقد كان من حقه إصدار مثل هذه الضوابط واتخاذ هذه القرارات الضرورية للحفاظ على نظام اجتماعي عادل على ألا يتخطى الحدود التي وضعتها الشريعة ، وكان للحاكم الحق في تحديد أي القضايا يجب إرسالها إلى القاضي لإصدار الحكم ، وأياها يقضى فيها بنفسه .

ورغم أن العرف والشريعة كان يعارض كل منهما الآخر لأسباب نظرية إلا أنهما لم يكونا بالضرورة متصارعين ، وما كان في العرف ولم تمارسه الشريعة اعتبار « جائزا » ، وفي بعض أجزاء من المغرب بالفعل كانت هناك محاولة لتفسير الشريعة في ضوء العادة منذ القرن الخامس عشر وما بعده ، وهناك سجلات في المغرب عن استخدام القضاة في إجراء يسمى « عمل » ، كان من حق القاضي فيه أن يختار من بين آراء

(*) استخدم المؤلف لفظ interest وليس usuary أو الربا ، لكن السياق يدل على أنه يقصد الربا ، ولا تعلم أن المذهب الحنفي يجيزه أو ابتدع حيلة تجيزه ، وهي مسألة نظرية على أية حال تترك للقهاء التطبيق عليها - (المراجع) .

الحكيم بالعرف ، ما يتطابق مع العادات والمضالغ المحلية حتى وان لم تتفق
جميع اجماع العلماء .

ونحن لا نعرف الكثير عن القانون العرفي في الريف خلال تلك الفترة
ولكن الدراسات التي تناولت فترات لاحقة تثبت أن العملية التكنسية قد
حدثت ، وهي اختراق الشريعة بشكل معين للعادات العرفية ، فالزواج
يمكن أن يعقد طبقا للأصول الاسلامي ، ولكن حقوقه وواجباته وقضايا
الطلاق والميراث النابعة منه يمكن الفصل فيها بالعرف ، وفي الكثير من
المناطق كان حوزة الأرض للبنات مخالفا للعادة رغم أنه متفق مع الشريعة .
وكانت المنازعات حول الأملاك والمسناركة ترفع للقاضي في أقرب
مدينة حتى تتم صياغتها بشكل شرعي ، كما كانت الاتفاقات والعقود التي
يرغب طرفاها في إضفاء مصداقية عليها ترفع للقاضي ، ويبرع عنها رسميا
بصفة الشريعة ، ولكن الوثائق يمكن أن تفسر في ضوء العادات المحلية ،
ويصف أحد الدارسين لهذه الوثائق في وادي الأردن أن « العادات غالبا
ما كانت المضمون في حين كانت الشريعة هي الشكل » (٣) .

ميراث العلم

كان أساتذة الفقه الذين حافظوا على اجماع الأمة أقرب معادل
للسلطة التعليمية في الاسلام السني ، وكان من الأساسي لديهم التأكيد من
أن فهم الفقه وقواعده قد انتقل بالكامل من جيل لآخر .

وعند وقت مبكر يبدو أنه كان هناك اجراء رسمي لانتقال التعليم
الديني ، فكانت حلقات الطلاب تلتف في المساجد - وخاصة في المساجد
الجامعة - حول المعلم الذي يستند إلى عنود لشرح موضوع بالقراءة
والتعليق على كتاب ، وقد نشأ على الأقل منذ القرن الحادي عشر نوع من
المؤسسات المتخصصة للدراسات الشرعية والفقهية (المدرسة) ، تعزى
بدايتها غالبا لنظام الملك (١٠١٨ - ١٠٩٢) الذي كان وزيرا لأول حاكم
سلجوقي لبغداد ، ولكن ذلك يرجع إلى زمن سابق ، فرغم أن المدرسة
لم تكن دائما ملحقة بمسجد ، كانت تضم مكانا لإقامة الطلاب ، وكانت
تشأ كوقف أوقفه أحد الوهابين مما أكسبها صفة الدوام ، ولهذا فقد
كان العائد مخصصا لأغراض دينية أو خيرية ولا يمكن حله وكانت
تستخدم الوهبة (*) لصيانة المبنى ودفع أجر المدرسين الدائمين ، وفي

(*) أو الهبة .

بعض الأحوال يشمل الجراية أو توزيع الأغذية على الطلاب ؛ ومثل هذه الأوقاف كان ينشئها شخص غنى ؛ ولكن أعظمها وأكثرها استمراراً كانت تلك التي ينشأها الحكام أو كبار المسؤولين في العراق وإيران أبان حكم المملجوقيين ، وفي سوريا ومصر خلال الفترة الأيوبية والمملوكية ، وفي المغرب في حكم بني مرين والحفصيين .

وقد بنيت بعض المؤسسات لتعليم القرآن والحديث ولكن الغرض الأساسي لمثلها كان دراسة وتعليم الفقه ، فعل سبيل المثال : كان بالمدرسة التتكرية في القدس والتي أوقفت في العصر المملوكي أربع قاعات (إيوانات) تنفتح على ساحة مركزية ، كانت أحدها لتعليم الحديث ، والثانية للفقه الحنفي ، والثالثة للصوفية ، وكان المسجد هو القاعة الرابعة ، وقد أوقف الوقف للاتفاق على خمسة عشر طالباً في الفقه ، وعشرين من طلاب الحديث ، وخمسة عشر من طلاب الصوفية ، والأستاذ لكل منها ، وكان الطلاب يسامون في المدرسة وكان هناك أيضاً ملجأ لاثنتي عشرة أرملة (٤) ، وكانت المدرسة يمكن أن توقف على تعليم مذهب واحد فقط أو أكثر من مذهب أو المذاهب الأربعة كلها ، وقد كانت مدرسة السلطان حسن بالقاهرة تحتوي على مدرسة لكل مذهب ، وفتحت جميعاً على ساحة مركزية ، تقدم البرامج التقليدية للتعليم ، وكان استاذ الكرسى يترك معاونيه تدريس الموضوعات الثانوية ، والطلاب الذي يلتحق بالمدرسة عادة ما يكون قد مر بمدرسة أقل في المستوى (كتاب) ، حيث تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن . وفي المدرسة يتعلم موضوعات ثانوية مثل قواعد اللغة العربية ، وحوليات الفترة المبكرة من الإسلام ، ولكن الدراسة الرئيسية هي العلوم الدينية : وهي تلاوة وتفسير القرآن والحديث ، وأصول الدين والفقه ، وكانت الطريقة الرئيسية للتعليم هي أن يعرض المدرس النص ، وقد يميده فيما بعد مساعدوه بشيء من التفصيل ، وكان التركيز على حفظ ما يلقى على الطلاب وتفهم ما يمكن تذكره .

وفي المرحلة الأولى من الدراسة التي تستمر عادة لمدة سنوات يتعلم الطالب الفقه الذي يجب عليه أساتذة المذهب ، وكان الكثير من الطلاب لا يتقدمون إلى ما هو أبعد من ذلك وقليل منهم يتجربون للحصول على وظائف في القضاء وربما كان ذلك من حظ أبناء التجار ، وكان الآخرون يتلقون السنوات مثل هذا التعليم ، وعلى مستوى أعلى كانت هناك شريحة من المسائل الفقهية التي تثار حولها خلافات في الرأي حتى في إطار المذهب الواحد ، وحيث إن اختلاف الظروف التي طبقت فيها المبادئ القانونية

كان بلا حدود ، فكان على الطلاب الراغبين في أن يصبحوا أساتذة في
الفقه الاستمرار في التعليم لفترة أطول ، لبلوغ مستوى عال من التدريب
على الاجتهاد ، الذي كان يتم بطريقة المناظرة المنطقية الرسبية ،
والتي تبدأ بإعداد البحث ، ثم يجرى الرد عليه يبحث أو مناقضة على أن
يعقب ذلك مناظرة من المعارضات والاجابات .

وعندما ينتهي الطالب من قراءة كتاب مع أستاذه يمكنه أن يطلب
منه الاجازة وهي شهادة تقييد بأن فلانا قد درس كتابا تحت اشراف
فلان ، وعلى مستوى أعلى يمكنه أن يطلب اجازة من نوع آخر تشهد بأنه
قادر على ممارسة الاجتهاد كمفت ، أو قادر على تدريس كتاب أو موضوع
معين ، وعلى هذا المستوى العالي كان من المعتاد أن ينتقل الطالب من مدرس
الى آخر ، ومن مدينة لأخرى ، وأن يطلب اجازات من كل من تتلمذ على
أيديهم ، ومثل هذا الاجراء كان له ما يبرره في الحديث الشريف الذي
يحض المسلم على طلب العلم (اطلبوا العلم ولو في الصين) .

والاجازة يمكن أن تكون وثيقة دقيقة أعدت بعناية تذكر فيها
السلسلة من الاساتذة الذين تلقى العلم على أيديهم بالتتابع على مدار
الاجيال ، وهكذا يدخل اسم الطالب ضمن سلسلة طويلة من الاسلاف
المتقنين ، ويمكن أن يعبر ذلك ضمنا عن فكرة معينة عما يجب أن تكون
عليه حياة المسلم المتعلم ، وبلا شك كانت هناك انتهاكات لهذا النظام فنحن
نقرأ عن اجازات أسيء استخدامها أو حُرِفَت لاستخدامات أخرى ، ورغم
ذلك فإن طالب العلم كان أحد الأنماط المثالية للرجل المسلم ، والتي دامت
طوال قرون ، هذه هي الطريقة التي سار في دربها طالب طب وعلوم شرعية
في بغداد هو عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢/٣ - ١٢٣١) الذي يصف
ما يجب أن يكون عليه طالب العلم فيما معناه :

« عليكم ألا تستقوا العلم من الكتب بلا عون ، رغم أنكم قد تكونون
واقفين في قدرتكم على الفهم ، عليكم بالنجوة لأساتذة في كل علم تريدون
اكتسابه ، وإذا كان المعلم ضاحكاً في مغارله خذوا كل ما يستغلج أن
يقلبه حتى تجلدوا من هو أكثر منه غلما ، ولا بد من تبجيله واحترامه ،
وعندما تقرأون كتابا عليكم ببذل كل الجهد لنخطفه عن ظهر قلب وتفهم
معانيه ، وتخيّلوا أن الكتاب قد اختفى وأن بإمكانكم الاستغناء عنه بدون
أن يكون لفقدانه أي تأثير ، غل الغر أن يقرأ التنازع ، وأن يدرس
السيز ، وتجارب الأمم ، وسيكون ذلك كما لو كان في مدى حياته القصير

قد عاصر أهل الماضي بشكل حميم وغسرف الطين والغيبث من بينهم .
ويجب أن تتمثلوا في تصرفاتكم نهج المسلمين الأوائل ، ولهذا فعليكم
قراءة سير النبي صلى الله عليه وسلم وأن تدرسوا أعماله وإهتماماته وأن
تقتفوا خطواته ، ويذل أقصى الطاقة للتمثل به وتقليده ، وعليكم عم
الثقة بطبائعكم بدلا من الرضا عنها ، وطرح أفكاركم ، على رجال العلم ،
وأعمالكم مع التقدم بحذر وتقاضى المجلة ، وذلك الذي لم يتحمل صعوبات
الدرس لن يتفوق خلاوة المصرفة ، وعندما تنتهون من دراساتكم وتأمل
أفكاركم اشغلوا السنتكم بذكر الله وتغنوا بخمده ، ولا تشتكوا إذا أدارت
الدنيا ظهرا لكم فإن ذلك سوف يشغلكم عن اكتساب القدرات المتميزة ،
واعلموا أن العلم يترك آثارا ونكهة على من يكتسبه ، شعاع من النور يجمع
فيه ويميزه عن حوله ٠٠ (٥) .

وكان هناك أيضا نمط مهم ومتميز من الكتابة الإسلامية ، نشأ
من دافع مماثل لذلك الذي يؤدي إلى إعطاء الإجازة ، ونعتى به كتب التراجم
التي نشأت للتأريخ لرواة الحديث ، والذي كان من الضروري معرفة من
الذي رواه ومن أين تلقاه ، وكان من الأهمية التاكيد من أن الرواية كانت
مستمرة (*) وأن يكون الرواة من الأئمة الموثوق بهم . وتدرجيا اتسع
نشاط جمع التراجم فلم يعد قاصرا على رواية أحاديث الرسول ، وإنما تم
جمع تراجم الفقهاء والأطباء والمتصوفة ، وهكذا ، ونشأ طراز متميز من
المعاجم هو القاموس المحل المخصص لسيرة الرجال المبرزين ، وأحيانا
النساء ، من مدن أو مناطق معينة ، مع مقدمة حول طبوغرافيتها وتاريخها ،
وأول مثال مهم عن هذا الضرب كان ذلك الذي أعد في بغداد في القرن
الجادى عشر على يد الخطيب البغدادي (١٠٠٢ - ١٠٧١) ، وكانت لبعض
المدن سلسلة من هذه الأعمال ، ففي دمشق لدينا معاجم عن شخصيات
القرن التاسع والعاشر والحادي والثاني والثالث عشر الإسلامية (من
القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر الميلادي) . وكان أكثر اكتساب
طموحا أولئك الذين حاولوا تغطية التاريخ الإسلامي (**) بالكامل خاصة
ابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢) :

(*) المصطلح : متصلة أي ليس بين راي ورأي فاصل زمني - (المراجع) :

(*) المصنوع تغطية تراجم (سيرة) التاريخ الإسلامي كله حتى أيامه ، لأن ابن
خلكان لم يكتب تأريفا عاما - (المراجع) :

وقد تناولت أعمال ابن خلكان سيرة الحكام والوزراء والشعراء
وعلمية النحو وأيضا علماء الدين . وكان للعلماء والمساجد والمدارس
موقع مركزي في هذه الكتب ، لظهور أن تاريخ المجتمع الاسلامي كان أساسا
توارثا للحقيقة والثقافة الاسلامية الرفيعة ، وكانت سيرة الدارس تبدأ
برواية أسلافه وتاريخ ومحل ميلاده ، وتورد تفاصيل عن تعليمه : الكتب
التي درسها وعلى أيدي من تلقاها ، والجازات التي حصل عليها ، فهي
تضمه في سياقين من النسب والتراث الثقافي ، لم يكونا مختلفين دائما
لأن الابن قد يبدأ التعلم على يدي أبيه ، وكانت هناك سلالات وعائلات
للعلماء ، تصف أعماله وأسفاره والكتب التي كتبها وعمن تلقى العلم ، وقد
تكون هناك بعض النواذر الشخصية ، ويمكن أن يحوى تقريرا لقدراته ،
ولم يكن الهدف منها تمييزه عن العلماء الآخرين بقدر ما كان وضعه في
إطار النموذج المثالي .

علم الكلام

الذين درسوا الفقه في المدرسة ، تلقوا أيضا الأسس الجوهرية
للمعتقد الديني ، ذلك أن العملية التعليمية التي تطوَّروا على أساسها ،
لم تلبّ دورا كبيرا في تاريخهم الدراسي . وعندما اكتمل تطور نظام
المدارس في شكله النهائي انتهت القضايا الخلافية الكبرى التي تحددت على
أساسها المذهب السني .

وقد استمرت مدرسة الاعتزال مزدهرة لفترة تقرب من مائة عام
بعد أن حظيت بتأييد العباسيين ، وكان آخر مفكريها المعبرين عنها القاضي
عبد الجبار (٩٣٦ - ١٠٢٥) ولم تتعرض أفكار المعتزلة للاضطهاد إلا في
القرن الحادي عشر في بغداد وغيرها بسبب مقاومة الخلفاء العباسيين
والسلاجقة لها ، ولكنها استمرت في لعب دور مهم في تشكيل علوم الدين
الشيعية وفي التدريس في مدارسها ، ولكنها كانت تيارا مقمورا من الفكر
في نطاق السنة حتى جرى إحياء الاهتمام بها في العصور الحديثة .

وكان انحسار المعتزلة راجعا بشكل جزئي لازدياد نفوذ التعاليم
التقليدية لأبن حنبل خاصة في بغداد ودمشق ، وأيضا إلى تطور
الخط الفكري الذي بدأ بالأشعرى : في تفسير ما جاء به القرآن والحديث

بالجدل العقلاني المبني على مبادئ المنطق (التولوجيسية الديالكتيكية : علم الكلام) ، وقد كان قبول كثير من علماء الفقه لمبادئ الأشعرية علامة على انتشارها وزيما سببا لظهورها كتقاعدة إيمانية يركز عليها فقههم ، وكان هذا صحيحا على وجه الخصوص في حالة طلاب العلم من الشافعية .

ولم تلق هذه التوليفة من علم الكلام الأشعري والفقه قبولا عاما ، فقد كأل الحنابلة وبعض الشافعيين معارضي لعلم الكلام ، وقد كانت المدرسة المالكية المسيطرة في المغرب تعارض التكهات الدينية ، وحظر المراتبون تعليم علم الكلام ، إلا أن ابن تومرت ، والموحدين شجعوا علم الكلام في شكله الأشعري ، بالرغم من أن قضائهم كانوا يتبعون مبادئ المدرسة الزيرية بشكل حرفي ، وقد انتشرت في شمسال شرق العالم الإسلامي مدرسة أخرى من علم الكلام تعود إلى الماتريدي (ت ٩٤٤) ، لقيت قبولا في مدارس الفقه الحنفي ، وكانت تختلف عن الأشعرية في عدة مسائل تتعلق بحرية الإرادة الإنسانية وعلاقتها بقوة الله المطلقة وعدالته ، وقد قال الماتريديون بأن أفعال الإنسان تحدث بقوة الله ، ولكن فعل الخطيئة لا يتأتى برضاه أو بمطفه ، وقد حاول سلاطين السلاجقة الأولون ، والذين أتوا من المنطقة التي انتشر فيها توليف علم الكلام الماتريدي بالفقه الحنفي ، أن ينشروا هذه المبادئ أثناء حركتهم إلى الغرب ، ولم يكن هناك توتر أو عداة دائمة بين مفكرى الأشعرية والماتريدي ، ولم تكن الخلافات بينهم ذات أهمية ، وقد لخصت أمهات كتب الفقه في مدارس السنة طوال القرون التالية ، قواعد الدين الأساسية بشكل أجمع عليه العلماء .

القرال

وزعم أن المدرسة الرئيسية للسنة قد اتفقت مع علم الكلام الأشعري يوما توصل إليه من خلاصات ، إلا أن ذلك الاتفاق كان مشروطا ببعض التحفظات ضمن حدود ، وقد عبر القرال عن تلك التحفظات ، وهو كاتب تميز برؤية شاملة لكل التيارات الرئيسية في عصره ، وما زالت أفكاره مؤثرة حتى الآن ، وقد كان أستاذا لعلم الكلام الأشعري ، وكان واعيا بالمرأى الخطرة التي يمكن أن يؤدي إليها علم الكلام على المذهب الأشعري ، وحاول رسم الحدود التي يصبح في إطارها استخدام علم الكلام ، والذي كان في جوهره نشاطا دفاعيا وجدلا متظفيا حيال من لا يؤمن بصحيح الدين القائم على القرآن والحديث ، ومواجهة من يحاول

تفسيره بشكل كهوتي زائف ، وينجب ألا يستخدمه سوى من يستطيعون المحافظة على إيمانهم ، كما لا يجب استخدامه في بناء هيكل فكري من شأنه الاتجاه إلى ما وراء القرآن والحديث ، وهو مسألة قاصرة على المتخصصين الذين يعملون مستقلين عن المدارس الفقهية .

وقد كان مبدأ الفكر عند الغزالي هو أن على المسلمين الالتزام بالشرائع المستمدة من إرادة الله التي يعبر عنها القرآن والحديث ، والاعراض عن هذه الشرائع يعنى الضياع في عالم من الرغبات الانسانية الهوان والكهانة ، وأن على الانسان أن يطيع الأوامر الالهية بشكل يقربه من الله ، وكانت تلك الفكرة هي التي عبر عنها الغزالي في أعظم وأشهر الكتب الاسلامية « أحياء علوم الدين » :

ويصف الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » - ويعتبره البعض منبره الذاتية وأن لم يكن كذلك على وجه الدقة - الطريق الذي أدى به إلى هذه الاستنتاجات ، فبعد أن أنهى دراساته المبكرة في خراسان في هذيتي طوس ونيسابور ، عمل مدرسا في مدرسة شهيرة في بغداد أنشأها نظام الملك ، وزير السلطان السلجوقي ، وهناك توصل إلى اقتناع بأن الالتزام الظاهري بالتحريم لا يكفي ، والتشغل في البحث عن الطريق القويم في الحياة ، فيقول أن « شهوات الحياة الدنيا قد بدأت في التضييق على هي أبقى كسنا كنت ، ولكن بغير الإيمان كان يصرح بي أن ألهي وأبتعد » (١) :

وقد توصل إلى الاقتناع بأنه لن يحقق ما يحتاج إليه باستخدام عقله وحده ، فاتبع طريق الفلاسفة لاستنتاج حقيقة الكون من المبادئ الأولية يعنى الضياع في شرك من البدع والضلالات ، كما أن الطريق الضياعي الذي يؤدي إلى اتباع تعاليم مفسر معصوم طريق خطر ، حيث يمكن أن يؤدي إلى عجز ما نزل به الوحي إلى بعض ما يتبدى كحقائق باطنية ، وقبول فكرة انقطاع التكاليف الشرعية عن ذلك الذي يصل إلى تلك الحقائق الباطنية .

ويرى الغزالي أن المعلم الوحيد المعصوم من الخطأ هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الطريق القويم هو قبول ما أوحى إليه بإيمان ، « ذلك الفرد الذي يلقيه الله في قلوب عباده منة منه وكرما » (٧) . واتباع وصاياه بأخلاص وقلب حاضر ، وهجر كل شيء عدا السعي في سبيل الله .

ويتناول كتاب « أحياء علوم الدين » تلك العلاقة الحميمة بين العمل والميول - أو بشكل آخر - بين الالتزام الظاهري بالتكاليف الشرعية ، وبين الروح التي يكتسبها قيمة ومعنى ، ويعتقد أن هناك علاقة متبادلة بين الفضائل والتخصيص الطيبة وبين السلوك القويم الذي يشكلهما ويقويهما ، فيقول ما معناه :

« إن الذي يريد أن يظهر روحه ، ويكملها بحلاوة فعل الخير ، لا يستطيع أن يصل إلى ذلك بميادة يوم واحد ، أو أن يتمرد عليها بثورة يوم واحد ، وهذا ما نمنيه من قولنا إن خطيئة واحدة لا تستحق عقاباً أبدياً ، ولكن غيبة يوم واحد عن القضيبة يؤدي إلى غيره ، وتسقط الروح درجة فأخرى حتى تسقط في الوحل » (أ) .

ويكتسب السلوك قيمة فقط ، عندما يؤدي بالروح والعقل الموجه لمعرفة الله والجهاد في سبيله .

وقد كانت الرغبة في لقاء الضوء على هذه العلاقة هي التي حددت محتويات وترتيب كتاب الأحياء ، والجزء الأول من أجزائه الأربعة يناقش أركان الإسلام ، والواجبات الدينية الأساسية من الصلوة والزكاة وأداء الحج ، وينتهي في كل منها إلى ما وراء الالتزام الظاهري والقواعد الدقيقة حول كيفية أدائها ، إلى تفسير معانيها والفوائد المكتسبة من أدائها بالروح الحق ، فلا تتأثر القيمة الكاملة للصلوة إلا عند أدائها بالروح ، ويتفهم الكلمات المتلوة ، مع نقاء الباطن ، ونبيذ الفكر إلا في الله مع الخضوع والخوف والرجاء ، والصوم لا قيمة له إلا إذا كان أداة لتحرير الروح للاتجاه نحو الله ، والزكاة يجب أدائها رغبة في طاعة الله ، مع اعتبار كل متاع الدنيا نافلة القيمة ، كذلك أداء الحج يكون بنقاء خالص في النية والتفكير في نهاية الحياة وفي الموت والمصائب .

وينتهي الجزء الثماني من الكتاب فيما وراء الالتزام الشعائري إلى أعمال أخرى تتعلق بالمضمون الأخلاقي خاصة تلك التي تربط الأفراد كلا بالآخر ، مثل الطمس والشراب والزواج والحيازة والاستماع للموسيقى ، فليما يتعلق بكل منها وما إذا كانت أعمالاً صحيحة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإلى أية حدود وتحت أية ظروف ينظر إليها في ضوء هدف الإنسان الأسمى وهو التقرب من الله ، فالزواج على سبيل المثال يندو كتوازن بين المزايا والمعيوب ، فيهب الرجل ذرية ، ويحميه من العلاقات

الجنسية غير الشرعية ويمكن أن ينتهك اللغة الدينية عن الجنة ، ومن ناحية أخرى يمكن أن يمتطيه عن البحث عن المعرفة بالله يمنع عن البذل والأداء الصحيح والسليم لواجباته الدينية .

والجزء الثالث مراجعة منهجية لتلك الفواظ الانسانية والرياضات التي اذا اتفمس الانسان فيها بشكل غير سليم ، تحرمه من اكتساب الفوائد الروحية لمراعاة الفرائض وتؤدي به الى الهلاك ، ويدخل الشيطان القلب من خلال الحواس الخمس والخيال والشهوة الجنسية . ويستعرض الغزالي نماذج شهوة الطعام والجباع والكلام ، وكيف تلعب دورها في إكثاء الصراع وقلة الحياء والاكاذيب والسخرية والرياء والغضب والكراهية والغيرة والشهوة الى الثروة والمجد الدنيوي ، والى التطلع الروحي الذي يقود الى النفاق والافتخار بالملم أو التقوى ، أو المحتد أو القوة أو الجمال .

ومثال هذه الدوافع يمكن السيطرة عليها بالتسليم لله ، ويفضل مقاومتها بالتزام الصلاة في وقتها ، والصيام والحج والتسبيح وتكرار اسم الله وبالتأمل ومعرفة النفس وبمعونة رفيق أو موجه روحي ، يمثل هذه الطرق يمكن أن ينعكس الطريق الذي تتخطه الروح ، ويمكن توجيهها الى طريق آخر يؤدي الى المعرفة بالله .

والجزء الأخير من الكتاب يتناول هذا الطريق الى الله والغاية النهائية منه هي النقاء الكامل للروح من كل شيء سوى الله الأعلى . الاستغراق التام للقلب في ذكر الله (٩) جل جلاله وفي هذا تعبر أفكار الغزالي عن أفكار أئمة الصوفية ، الطريق الى الله سلسلة من المقامات أولها التوبة وخلص الروح من سجنها في مثل زائلة ، ويأتي الصبر ، والخوف والرجاء والإقلاع عن الأشياء التي قد تكون مباحة ولكنها معوقات على الطريق ، والاعتماد على الله والتوحد معه في كل هذه المقامات التي ترتبط بها تجليات وروى معينة ، وعندما تتأني الراحة الروحية لسالك هذا الطريق ، تكون فضلا من الله ولكنها لا تدوم .

وكما تقدمت الروح على هذا الطريق تضعف سيطرتها على ذاتها ، وتضعف قيادها لله ، وتكون مهمتها الوحيدة « النقاء والتطهر وبعدا الاستعداد والانتظار ولا شيء أكثر من ذلك » في كل مرحلة تواجه الروح خطرا هو البقاء فيها بدون المضي لما بعدها ، أو الضياع في الأوهام ، ويمكن أن يتدخل الله ويهب الروح عطية التدبر فيه ، وهي أسنى موائع الترقى ولكنها لا تتحقق الا بنعمة من الله يمنحها أو يمتنعها .

•• تلمح لوامع الحق في قلبه ، ويكون في ابتلائه كالبرق الخاطف ،
لا يثبت ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عباد فقد يثبت وقد يكون
مختطفًا ، •• (١٠) •

في هذه النقطة الأسمى عندما يفقد الإنسان وعيه بذاته في تدبير
الذات العلية التي تجلت عليه بالحب عندما يفهم المعنى الحقيقي للفرائض
التي أمرت بها الشريعة ويكون قادرًا على أدائها بشكل صحيح سليم ،
ويمكن أن يصبح أيضًا وإعيا بحقيقة أخرى ، ويشير الغزالي إلى نوع آخر من
(المعرفة) بالملائكة والشميطين والجنة والجحيم وعن الله بذاته وعن جوهره
وقدراته واسمه معرفة يكشفها الله للإنسان في صميم روحه ، وهو لا يكتب
عنها في أعماله رغم أن هناك كتبًا أخرى نسبت إليه يتناولها فيها
بالتفصيل ، وهذه الحالة ليست عن الاستغراق الكامل في الله أو التوحد
معه ، فهي في قمتها اقتراب لحظي منه ولمحة من مذاق ، عندما يتأثر
للإنسان رؤية الله عن قرب وإن ظل بعيدًا •

الفصل الحادى عشر

اسلام الفلاسفة

فى المساجد والمدارس ، كان الفقه (والعلوم المتصلة به) هو الموضوع الرئيسى للدراسة ، أما خارج المسجد والمدارس فكانت ثمة أفكار من نوع آخر حظيت بحى الأخرى باهتمامات الدارسين، ذلك كان فكر الفلاسفة الذين آمنوا بأن العقل البشرى يعمل وفقا لقواعد المنطق الأرسطى ، وأن اتباع هذه القواعد يمكن أن يؤدى الى الوصول الى حقائق يمكن اثباتها أو البرهنة عليها .

وكان رواد هذا الخط الفكرى فى العالم الاسلامى هم الكندي والفارابى ، وبلغ هذا الفكر ذروته فى أعمال ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) ، وكان تأثيره عميقا على مجمل الثقافة الاسلامية اللاحقة ، ويعرض ابن سينا فى جزء مختصر من سيرته الذاتية لتعليمه ، والذي أصبح فيما بعد تقليديا ، فقد تعلم القرآن ، وعلوم اللغة العربية ، والفنوى والعلوم العقلية وعلوم المنطق والرياضيات والميتافيزيقا :

« عندما بلغت سن الثامنة عشرة كنت قد انتهيت من كل هذه العلوم . معارفى الآن أكثر نضجا وبخلاف ذلك فهمى نفسها لم أستفد شيئا جديدا منذ ذلك الحين » (١) .

وكانت له اسهامات فى أكثر من علم من هذه العلوم ولكن أعظم أعماله عمومية وتأثيرا على الفكر الذى خلفه كانت محاولته لتفصيل حقائق الاسلام بمصطلحات منطق أرسطو والميتافيزيقا اليونانية اللاحقة ، ولقد كانت المشكلة الأساسية التى طرحها الوعى الاسلامى أمام أولئك الذين حاولوا اثبات الحقيقة الكامنة ، فى التناقض الظاهر بين وحدانية الله وتعدد المخلوقات ، وقد جرى التعبير عن هذه المشكلة بمصطلحات التناقض بين الخير المطلق لله والشر الظاهر للعالم . وقد وجد الفكر الفلسفى الذى جلب ذروته على يد ابن سينا ، فى الفكر اليونانى تمثلا فى الأفلاطونية

الجديدة ، حلولا لمثل هذه القضايا ، وأصبح - أى فكر الفلاسفة - أكثر قبولاً من واقع أن العمل الرئيسى لهذه المدرسة الفكرية كان نوعاً من الصياغة الجديدة لجزء من تساعيات أفلوطين Plotinus's Enneads التى كان ينظر إليها - بشكل عام - كعمل من أعمال أرسطو ، ذلك العمل الذى سُمى بالنظرية الأرسطية . وقد توصلت هذه المدرسة إلى أن العالم هو سلسلة من الاشراقات من الله سبحانه وتعالى ، وبهذه الطريقة أصبحت قادرة على التوفيق بين واحدة الله وتمددية مخلوقاته ، وفى تصور ابن سينا ، كان الله هو العلة الأولى أو الخالق الذى يتوجه فيه الجوهر والوجود ، والذى تنبثق منه سلسلة من عشرة عقول تمتد من العقل الأول إلى العقل الفعال الذى يتحكم فى عالم الكائنات ، وكانت الأفكار تتواصل إلى الجسد البشرى بأشعاع من النور المقدس ، وبهذا خلقت الروح البشرية .

ولقد كانت رمزية النور شائعة لدى الصوفية كغيرها من الفكر الفيلسوفى ، وكانت تسبغ قوتها من القرآن :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقه من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يطفى ولو لم تمسه نار ، نور على نور ، يهتدى الله لنوره من يشاء » (٢) .

وكما أن الروح تخلق بالانبياء من الكائن الأول . وهى عملية يحركها تدفق الحب الإلهى ، فإن الحياة البشرية يجب أن تكون عملية ارتقاء وعودة خلال المستويات المختلفة فى الوجود نحو الكائن الأول بالرجة والحب .

وإذا كان النور المقدس يشع فى الروح الانسانى ، وإذا كانت الروح بجهوداتها الذاتية يمكن أن تعود متجهة إلى الخالق ، فما هى الحاجة إلى النبوة أو الوحي ؟ لقد اعترف ابن سينا بالحاجة للأنبياء كمعلمين ينقلون الحقائق عن الله والحياة الأخرى ، ويحثون الناس على الأفعال التى تجعلهم أكثر إدراكاً وإحساساً ووعياً بالله والخلود ، كالمصلاة وشعائر العبادة الأخرى ، وكان يعتقد أن النبوة ليست مجرد نعمة من الله ، ولكنها نوع من الذكاء الانسانى وهى أعلى مستوياته بالتحايد ، فالنبي يشترك فى

مراتب العقل ويمكن أن يصلو إلى مستوى العقل الأول (*) ، ولم تكن هذه الهبة وفقاً على الأنبياء فقط ، فالإنسان الذي يتمتع بنبضات روحية عالية يمكن أن يصل إليها عن طريق الزهد .

وقد يبدو هذا الهيكل الفكري كما لو كان متعارضاً مع الوحي المقدس المنزل في القرآن ، إذا أخذ بالمعنى الحرفي على الأقل . وقد كانت أشهر الخلافات المثيرة للجدل في التاريخ الإسلامي هي انتقاد الغزالي العنيف للمسائل الرئيسية التي تناقضت فيها فلسفة ابن سينا مع فهمه للوحي المنزل في القرآن ، وقد ركز في كتابه « تهافت الفلاسفة » على ثلاثة من الأخطاء يراها في طريقة تفكير هؤلاء الفلاسفة : فقد آمنوا بخلود المادة ، إذ أن تجليات الله تشع المادة ولا تخلقها ، ثم أنهم حددوا معرفتهم بالله بالعموميات والأفكار التي شكلت بنية خاصة وليس بالكائنات ذاتها ، وأن هذه النظرة لا تتفق مع الصورة القرآنية لله الذي يعني بكل كائن حي في فرديته ، وثالثاً آمنوا بخلود الروح وليس الجسد ، والروح في تصورهم كانت كائناً منفصلاً يحقن في الجسد المادي بفعل العقل الفعال ، وعند نقطة معينة - خلال عودتها إلى الله - فإن الجسد الذي ارتبطت به يشكل عائقاً ، وكان من الضروري أن تتحرر منه ، فلم يعد مجدياً في شيء .

وما ذهب إليه الغزالي هو أن اله الفلاسفة ليس هو اله القرآن الذي يخاطب كل إنسان يحكم عليه ويحييه ، ومن وجهة نظره لم تكن الخلاصات التي يمكن أن يتوصل إليها الذكاء الإنساني الناطق بدون توجيه خارجي متفقة مع تلك التي تجلت للبشر من خلال الرسل ، وهذا التجدي رده عليه بعد قرن ، أحد أبطال طريق الفلاسفة هو ابن رشد (١١٢٦ - ٩٨) ، الذي ولد وتعلم في الأندلس حيث كان التراث الفلسفي حديشاً وفكره راسخ الجذور ، وكرس ابن رشد نفسه للتفنيد التفصيل لتفسير الغزالي للفلاسفة في كتاب يشير عنوانه إلى عنوان كتاب الغزالي نفسه « تهافت التهافت » ، وفي عمل آخر « فصل المقال » ، تناول صراحة ما بدا للغزالي من تناقض بين الوحي المنزل على الرسل وبين ما توصل إليه الفلاسفة ، فالفكر الفلسفي لم يكن غير شرعي كما ادعى الغزالي ، بل على

(*) ان كان المقصود بالعقل الأول هنا - الذات العليا - فإن الفكر البشري يرفض ذلك ، كما يرفض فكرة الاتحاد ، وفكرة الطول سواء اتحاد الذات الانسانية بالانسان أو حلولها فيه . ويصرف النظر عن وجهة النظر الفلسفية ، فالذين لا شك فيه أن مثل هذه الأفكار - على المستوى العملي - غير مجدية . وتعمل الشرائع والقوانين ، ومن المفهوم أن هذه الأفكار كانت شائعة في ديانات سابقة على الإسلام - (المراجع) .

النقيض يمكن أن يبرره الرجوع الى القرآن [ويتفكرون في خلق السموات والأرض] وما خلقت هذا باطلا سبحانه ٠٠ [(٣) ، وكان واضحا من هذه الكلمات القرآنية أنه لا تعارض هناك بين ما توصل اليه الفلاسفة ونصوص القرآن .

وإذا كانت هذه الشريعة حقا ، داعية الى النظر المؤدى الى معرفة الحق ، فانا ، معشر المسلمين ، نعلم ، هل القطع ، أن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ما جاء به الشرع فان الحق لا يضاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد له (٤) .

كيف يمكن اذن شرح ما يمكن أن يبدو بينهما من تعارض ؟ وكانت اجابة ابن رشد هي أنه يجب ألا تؤخذ كلمات القرآن على معناها الحرفي ، وعندما يبدو المعنى الحرفي للآيات متعارضا مع الحقائق التي توصل اليها الفلاسفة بأعمال العقل ، فيجب تفسير هذه الآيات بالاستعارة ، ومعظم الناس غير قادرين على التفكير الفلسفي أو على قبول التفسير التمثيلي للقرآن لذلك يجب ألا نخطبهم بها ، ويقتصر خطبنا على القادرين على فهمه :

وأما من كان من غير أهل العلم ، فالواجب (في حقه) حمله (ظاهريا) ، والتأويل في حقه كفر ، لأنه يؤدي الى الكفر ، فمن أفسده له من أهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، ٠٠ ولهذا يجب ألا تثبت التأويلات الا في كتب البراهين ، لأنها اذا كانت في كتب البراهين لم يصل اليها الا من هو من أهل البرهان (٥) .

لقد كانت الفلسفة للخاصة فقط ، أما العامة فكان يكفيهم المعنى الحرفي ، والنبوة ضرورية لكليهما : فهي ضرورية للحفاظ على الخاصة وضرورية للعامة للتعبير عن الحقائق في صور مقبولة ، أما المنطق الجدي (الكلام) فكان للقول من المرتبة المتوسطة لأنه استخدم المنطق لتأكيد مستوى الحقيقة الذي يناسب العامة ولكن كانت له خطورته لأن مبادئه العقلية لم تكن مثبتة بشكل كاف .

ويبدو أن أفعال ابن رشد لم يكن لها انتشار أو نفوذ مستمر على الفكر الإسلامي اللاحق رغم أن الترجمة اللاتينية لبعض كتبه كان لها تأثير عميق على الفلسفة المسيحية الغربية ، الا أن فكر ابن سينا ظل له أهمية

مركزية كبرى في الفكر الديني والفلسفي أيضاً ، وبحلول القرن الثاني عشر كان هناك - رغم الغزالي - نوع من العتاپ بين الكلام والفلسفة ، ومنذ عصر فخر الدين الرازي (١١٤٩ - ١٢٠٩) وما بعده بدأت أعمال الكلام بتفسيرات المنطق وطبيعة الكينونة وامتدت منها الى التفصيل العقلي لفكرة الله ، وبهذه الطريقة نشأ هيكل منطقي لتفسير القرآن والدفاع عنه ، ومنذ ذلك الوقت تناولت هذه الأعمال المسائل التي يجب قبولها كلية على أمس من الوحي .

ابن عربي وحكمة التصوف

وفي كتابات ابن سينا اشارة عن الاشراف ، وهو شعاع من النور المقدس الذي يمكن للبشر بواسطته الاتصال بهيكل المعقولات . وقد استخدم بعض الكتاب اللاحقين لفظ (اشراف) للاشارة الى الحكمة الصوفية القديمة للشرق ، واستخدم كمصطلح للصياغة المنهجية للحقيقة المطلقة . فيما وراء الفاظ القرآن ، وأعطى معنى لتجارب الصوفية .

وفي محاولة السهروردي لصياغة مثل هذه النظرية الثيوصوفية ، حدثت ضجة أدت الى اعدامه على يد حاكم حلب الأيوبي في ١١٩١ ، وقد كان أكثر الصياغات دقة وبقاء هي تلك التي عبر عنها ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) ، وكان عربياً من الأندلس ، وكان والده صديقا لابن رشد ، والتقى بهذا الفيلسوف وشهد جنازته ، وقد قام بالدراسات المعتادة في الأندلس ثم المنسرب ، وانشغل بصددها بالسفر في الأراضي الشرقية ، وقام بالحج الى مكة ، ويبدو أن هذا كان عاملا حاسما في تشكيل فكره ، وأصبح واعيا ، من خلال رؤيا بأن الكعبة هي النقطة التي تشرق منها الحقيقة المطلقة على العالم المرئي ، ومنها بدأ أهم أعماله وهي « الفتوحات المكية » ، وبعد أن عاش فترة في السلطنة السلجوقية في الأناضول ، استقر في دمشق حيث مات وقبره على جبل قاسيون الذي يطل على المدينة من الغرب وقد ر له أن يصبح مزارا .

وقد حاول في « الفتوحات » وأعماله الأخرى التعبير عن رؤية العالم كتدفق لا نهائي من الوجود الذي يبدأ من الذات العليا ويعود اليها . كان تدفق النور هو الرمز المبدئي له ، ويمكن اعتبار هذه العملية في أحد مفاهيمها كفيض من الحب الالهي وغبية الكائن الأول لمعرفة نفسه برؤية وجوده منعكسا الى ذاته . وكثيرا ما يورد الكتاب الصوفيون الحديث

القنسى : « كنت كنزا مغفيا وارتد أن اعرف ، ولهذا خلقت المخلوقات .
لأعرف » •

قد جرى ذلك الخلق بأن تجلى الله على أسمائه وصفاته ، ويمكن تناول الأسماء من ثلاثة جوانب ، أما بذاته كجزء من جوهر الذات العلية ، وأما كاشكال أزلية أبدية ، وأما كتجليات تتحقق في كائنات عارضة الوجود ، وتعرف الأسماء حال فعلها كسادة يشاهدون في صور أبدعها الخلاق ، تتجسد على شاكلتها المخلوقات الملموسة •

كانت كل المخلوقات اذن تجليات لأسماء معينة بواسطة الصور ولكن الانسان كان قادرا على جلائها جميعا • وهذه الفكرة عن الوضعية المتميزة للجنس البشرى ارتبطت بالمشاق الذي أخذه الله على بني الانسان فيما قبل خلق العالم حسبيما جاء في القرآن ، وقد أطلق ابن عربي وغيره من الصوفية اسم « النور المحمدي » أو « الحقيقة المحمدية » على تلك النماذج الأصلية التي خلق الانسان على شاكلتها ، وكانت تلك هي « المرأة الصافية » التي شاهد الحق فيها صورته ، ويصبح البشر جميعا بمعنى ما ، تجليا للذات الالهية ، الا أن هناك معنى آخر تقتصر فيه تلك التجليات على صلوة محدودة • والأنبياء هم بشر متميزون تتجلى فيهم أسماء الله • وفي عمل مشهور « قصص الحكم » كتب ابن عربي عن تسلسل الأنبياء من آدم عليه السلام حتى محمد ، وبين الأسماء التي مثلها كل منهم ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء أكثر هذه التجليات النبوية اكتمالا ، وكان هناك أيضا أولياء أصبحوا مرآة يشع منها نور الله بالمجاهدة في التنسك والمعرفة ، وقد كان الأنبياء أولياء ، ولكن بعض الأولياء لم يكونوا أنبياء ، لأنهم لم يتولوا وظيفة ابلاغ وحى أو شريعة ، وكان هناك هيكل غير منظور من الرسل الذين حافظوا على نظاسم العالم وعلى رأسهم قطب لكل عصر ، وكان ابن عربي يعتبر نفسه قطبا ، بل خاتمهم أو أكثرهم كمالا •

وسواء أكان الانسان عارفا أم غير عارف ، فإن عليه أن يعيش في حدود الشريعة التي يمض بها النبي (ص) ، وابن عربي نفسه كان ملتزما بمدرسة بني زيري في التفسير الحرفي الصارم للقانون المتجلى في القرآن . ولطديث ، واعتقد بأن كل التجليات من خلال الأنبياء والمرسعين كانت وحيا لنفس الحقيقة ، فكل الناس يعبدون نفس الاله بأشكال مختلفة •

ويمكن أن نرى فيض الله من جانبيه الآخر كتدفق الى العاكس في المخلوقات مرآيا تنكس المعرفة بالله الى الله ، وأنحسار المخلوقات من الكائن الأول هي أيضا تسام اليه ، وطريق التسامي الذي تضيق المعرفة يؤدي من خلال مراحل الى تسام دائم في التقدم الروحي ، وهي مراحل (مراقى) على طريق معرفته بنفسه : « من يعرف نفسه يعرف ربه » ، فيمكن أن يصل على الطريق للصور الأولى ، والتجلى المنطقي للموسم لاسماء الله في (عالم المثال) ، وفيما وراء ذلك يمكن أن تتجلى عليه رؤية الله ، وفيها يتكشف الحجاب لحظيا ويتجلى الله بنفسه للباحث عن الذات الالهية ، وهناك لحظتان في مثل هذه الرؤية : اللحظة التي يتوقف الانسان فيها عن الاحساس والوعي بذاته وهدوات المخلوقات الأخرى في خضم اشباع رؤية الله (الفناء) وفي الأخرى يرى الله في المخلوقات (البقاء) ، والتي يعيش ويتحرك بينها ولكنه يظل واعيا بهذه الرؤية .

وقد استخدم ابن عربي في محاولاته لوصف حقيقة الكون كمسما تكشف عنها لحظات الرؤية اصطلاح «وحدة الوجود» ، وقد نشأ فيما بعد خلاف كبير حول معناه ، فقد كان يمكن فهمه بمعنى أن لا وجود سوى لله ، وأن كل ما عداه إما غير حقيقي أو هو جزء من الله ، ويمكن أيضا النظر اليه باعتباره اشارة الى التمييز الشائع بين الفلاسفة ما بين الكائن بالقوة ، والكائن بالفعل ، فالحق فقط هو الكائن بالقوة ، فهو موجود بطبيعته الذاتية ، بينما تدبر كل المخلوقات الأخرى بوجودها للفعل خلق أو انبعاث ، ويمكن أيضا أن تشير الى التجارب اللحظية من الرؤية عندما يفقد الباحث الوعي بذاته في الوعي بتجلى الله ، فالحق موجود في ذاته أو أنه موجود في ذات الله ، وتحل الصفات المحسنة محل صفاته الانسانية ، ومن الصعوبة التوفيق بين فكرة «وحدة الوجود» وفكرة الفصل بين الله ومخلوقاته والبعد اللانهائي بينهما فيما يبدو كتماليم واضحة للقرآن ، اذا كان تفسيرها يتراوح بين تلك المعاني ، وقد سجل أحد العلماء عددا كبيرا من الأعمال النقدية التي تناولت ابن عربي في عصور تالية ، وتكاد تتساوى معارضة من يرى اختلافه عن المفاهيم الأساسية للإسلام ، والذين دافعوا عنه ، وقد أصدر عدد كبير من فقهاء الدين والشريعة فتاوى معارضة له ، ولكن الحال لم يكن دائما على هذا النوال (٧) ، وقد كان أكثرها دفاعا عن اتباعه للنسبة شهادة السلطان سليم الأول (١٢ - ١٥٢٠) ، والذي قام باصلاح قبر ابن عربي بعد فتحه لسوريا عام (١٥١٦) ، وصدرت بهذه المناسبة فتوى لصالحه عن عالم عثمانى شهير هو كمال باشا زاده (١٤٦٨/٩ - ١٥٣٤) ، الا أن

أعماله ظلت قضية خلافية بين أساتذة الصوفية ، فرفض بعض أئمتهم قبولها كتعبير مشروع عن البحث عن المعرفة ، وقد أبدى الشاذلية في المغرب ، والنقشبندية في شرق العالم الإسلامي تشككا فيها .

ابن تيمية والتراث الحنبلي

ليس في الإسلام السني كيان تعليمي سلطوي تدعمه قوة الحاكم ، وقد استمر طوال التاريخ الإسلامي ، تيار فكري معاد للفلاسفة والنيو صوفيين (*) متناقض مع محاولات علم الكلام الذي كان يفسر ما استقر من الإيمان بشكل عقلائي .

وقد ظل التراث الفكري المستمد من تعاليم ابن حنبل حيا باقيا في البلاد الإسلامية المركزية المهمة خاصة في بغداد ودمشق ، وبالرغم من وجود عدد من الخلافات بين أتباع ابن حنبل فقد اتفقوا على أحياء ما كانوا يعتبرونه الدين الحق للذين التزموا بوحى الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بشكل مباشر ، وكان الإله في عقيدتهم هو الله القرآن والحديث الذي يجب قبوله وعبادته في حقيقته كما أوحى بها ، وأن المسلم الحق هو ذلك المؤمن الذي لا يقتصر إيمانه على التسليم بالله المتجلى ، ولكنه يجب أن يعمل طبقا لتعاليمه ، وأن المسلمين مجتمع واحد ، ويجب أن يظل موحدا ، ولا يخرج عنه أحد إلا أولئك الذين عزلوا أنفسهم برفضهم طاعة تعاليم الدين ، بنشر المذاهب التي لا تتفق مع الحق الذي أوحى للأنبياء ، وأنه يجب تفادي الجدل والتكهنات التي يمكن أن تؤدي إلى التفكك والتعارض .

وفي سوريا في القرن الثالث عشر في ظل الحكم المملوكي عبر هذا التراث عن نفسه مرة أخرى من خلال صنوت فردى قوى هو ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) . ولد في شمال سوريا وعاش معظم حياته بين القاهرة ودمشق ، وقد واجه موقفا جديدا ، حيث كان المماليك وجنودهم من المسلمين السنة ، ولكن كثيرا منهم كانوا حديثي عهد بالإسلام وعلى إيمان سطحي ، وكان من الضروري تذكيرهم بمعنى دينهم ، وكان ابن تيمية يرى في الأمة بأسرها ، أخطاء خطيرة منتشرة ، منها ما كان يمس سلامة الدولة مثل الشيعة والجماعات المنشقة ، ومنها ما يمكن أن يؤثر على إيمان المجتمع كالفكر ابن سينا وابن عربي .

(جد) Theosophy.

وفى مواجهة مثل هذه الأخطار أخذ ابن تيمية على عاتقه إعادة تعميق
واقرار المسار الوسطى للحنبالية ، والذي لا يقبل حلولاً وسطاً فى التزامهم
بالحق المنزل ، ولكنهم كانوا يقبلون بالتنوع داخل المجتمع بين الذين
أسلموا •

فقد قال الرسول : « المسلم أخو المسلم » ، إذن ، كيف يسمح لمجتمع
محمد صلى الله عليه وسلم بالانقسام حول هذه الآراء المتعارضة بحيث
يمكن للفرد أن ينضم لجماعة ويكره الجماعة الأخرى ببساطة على أساس
افتراضات أو خلاصات شخصية وبلا دليل منزل من الله ؟ الوحدة علامة
على الرحمة الإلهية والخلاف عقاب من الله (٨) •

فأله واحد وكثرة • • واحد فى جوهره - وكثرة فى صفاته التى
يجب التسليم بها تماماً كما وصفها القرآن الكريم ، وأهم هذه الصفات
ذات الأثر على الحياة الإنسانية هى مشيئته ، فقد خلق كل الأشياء من
العدم وتجل على بنى الإنسان بأظهار مشيئته فى الرسائل الموحاة للرسل.
وانتهت بمحمد صلى الله عليه وسلم • وهو بعيد وقريب مما يشكل لا نهائى
عن مخلوقاته ومنهم ، ويعلم الخصائص والعموميات ويعلم السر وأخفى
ويحب أولئك الذين يطيعونه •

والحياة الإنسانية يجب أن تعاش فى خدمة الله وفى هدى النبى
والتسليم بكلمة الله الموحاة ، والالتزام المخلص لحياة الإنسان فى المثاليات
التي يتضمنها الوحي ، فكيف يمكن تفسير ارادة الله ؟ وقد نظر ابن تيمية
كما فعل ابن حنبل أولاً وقبل كل شئ الى القرآن ، وفهمه فهماً حرفياً
دقيقاً ، وبعمد الحديث وبعد ذلك الصحابة الذين يعطى اجماعهم للحديث
مصداقية ، وبخلاف ذلك ، اعتمد الحفاظ على الحقيقة فى نقل المعرفة
الإدنية عن طريق المسلمين المهتمين ذوى السلم ، وكانت هناك حاجة
مستمرة « للاجتهاد » من الأفراد القادرين عليه ، ويمكنهم ممارستها
والقيام به بقدر من المرونة ، بالموافقة على تصرفات معينة لم تنص عليها
الشريعة بشكل محدد ولكن أداها يمكن أن يعود بالنفع ما لم تحرمها
الشريعة ، ولم ينظر ابن تيمية لأولئك الذين مارسوا الاجتهاد كما لو كانوا
يشكلون كياناً متضامناً ، فأجماع الدارسين والعلماء فى عصر ما كان له
ثقل معين ولكن لا يمكن اعتباره مصموماً •

وقد كانت رؤيته للإسلام مناقضة لبعض الأفكار التي وضعها ابن سينا : حول خلق العالم من عدم بفعل الإرادة الإلهية ، وليس بفعل الانبعاث ، وإن الله يعرف المخلوقات والكائنات البشرية بخصوصيتها ، وهم يعرفونه ليس بأعمال العقل ، ولكن بوحيه وتجليه ، وقد كانت معارضة ابن تيمية لأفكار ابن عربي أكثر حدة لأنها تسببت في مشاكل أكثر صعوبة والحاحا للمجتمع بشكل عام ، سواء في نظره أو نظير الجنائفة ، فوجود الأولياء لم يكن أمرا مرفوضا ، إذ أنهم أولئك الذين توصلوا للحقائق الهاما وليس عن طريق الوحي ، وقد يتلقون هذه النعم الإلهية والتي تجعلهم وكأنهم تجاوزوا القدرات البشرية ، ويجب احترام هؤلاء الرجال والنساء ، ولكن لا يجب أن تكون هناك أشكال أخرى من ظواهر الالتزام تجاههم ، فلا زيارات لقبورهم ولا صلوات عليها ، كما أن الاحتفال الصوفي (الذكر) بتكرار أسماء الله كان شكلا مشروعا من أشكال العبادة ولكن يقل في القيمة الروحية عن شعائر الصلاة أو ترتيل القرآن ، والصوفية الشيعية التي فسرها ابن عربي وآخرون التجارب الروحية الفاضلة كانت مرفوضة تماما ، فالإنسان ليس اشراقا للنور الإلهي ولكنه كيان مخلوق ، ولا يمكن أن يتحد مع الكيان الإلهي ، والطريقة الوحيدة التي يمكنه بها التقرب من الله هي طاعة مشيئته المنزلة .

وقد لعب ابن تيمية دورا مهما في المجتمع الإسلامي في عصره ، وبعد مماته ، وقد ظلت صياغته للتراث الحنبلي عنصرا متميزا في التراث الديني للمناطق الإسلامية المركزية ولكنه كان بشكل عام عنصرا كامنا ، حتى تصاعد الوعي به في القرن التاسع عشر على أيدي حركة دينية ذات آثار سياسية ، وهي الوهابية (٥) التي أدت إلى ظهور الدولة السعودية في وسط الجزيرة العربية ، ورغم التناقض الصريح بين نظراته للإسلام ونظرة ابن عربي ، فإن النزعة الغريزية للمجتمع السني نحو التسامح جعل من الممكن لهما التعايش معا ، واستطاع بعض المسلمين بالفعل التوفيق بين الاثنين ، فقد سجل أحد الدارسين لقاءه في حلب مع مجموعة من الصوفيّين النقشبندية الذين كانوا يدرسون أعمال ابن تيمية وابن عربي جنباً إلى جنب ، فكان ابن تيمية في نظرهم (إمام الطريقة) ، وابن عربي (إمام الحقيقة) التي يتوق لها السامع على درب الصوفية ، وأن على المسلم الكامل أن يكون قادرا على توحيد هذين المهومين لحقيقة الإسلام في نفسه (٦) .

(٥) يذكر أصحاب هذه الدعوة هذا الاسم ويسمون أنفسهم بالسلفيين .

(٦) (راجع)

تطور الشيعة

عاشت جماعات من الشيعة الاثني عشرية بين أغلبية من المسلمين الناطقين بالعربية من أسلموا على الصورة السنية ، فى تعارض أحيانا وفى سلام أحيانا أخرى . وبالتدريج طوروا نظرتهم الخاصة حول ما حدث فى التاريخ وما كان يجب أن يحدث ، ونادوا بحق (على) فى الخلافة واعتبروا الخلفاء الثلاثة الأول مقتضيين لحقه ، واعتبروا التاريخ الظاهرى للمسلمين وقضية السلطة السياسية انحرافا عن التاريخ الباطنى الحق .

وكان التاريخ الباطنى عند الشيعة هو الحفاظ على الحق الذى نزل به الوحي وتداوله بين سلسلة من الأئمة ، ووفقا لنظرية الإمامة التى تطورت تدريجيا منذ القرن العاشر وما بعده ، جعل الله الإمام حجة له فى العالم فى كل زمان كسلطة تعليمية لحقائق الدين ، ويحكم بين الناس بالعدل ، وأن الأئمة منحدرون عن النبى صلى الله عليه وسلم من نسل ابنته فاطمة وزوجها على الإمام الأول ، وكل منهم اختاره من سبقه ، وكان معصوما فى تفسيره للقرآن وسنة النبى صلى الله عليه وسلم خلال العلم الخفى السرى الذى وهبهم الله إياه ، وكلهم كان بلا خطيئة .

واعتقد الشيعة من التيار الرئيسى بأن المخطوط المعروفة للأئمة قد انتهت بالإمام الثانى عشر (محمد) الذى اختفى فى العام ٨٧٤ ، وهى الواقعة المعروفة بالخفية الصغرى لأنه كان من المعتقد أن الإمام المختفى كان على اتصال بمريديه من المؤمنين عن طريق مبعوثيه وقد حدثت بعدها (الخفية الكبرى) عندما انتهت هذه الاتصالات المنتظمة ، ولم يعد الإمام المختفى يرى الا فيما ندر ، وفى لمحات خاطفة من الأحلام أو الرؤى ، وسوف يظهر فى نهاية الزمن ليعيد سيادة العدالة ويكون هو المهدي (وهو مصطلح له معنى أكثر دقة فى الفكر الشيعى عنه فى التراث السنى الشيعى) .

وسبب كل الجنس البشرى فى احتياج للهدى الى أن يظهر الإمام ، واعتقد بعض الشيعة أن القرآن والحديث كما فسرها الأئمة كانا إرشادا كافيا ، وكان هناك آخرون يعتقدون أن هناك احتياجا مستمرا للتفسير والقيادة ومنذ القرن الثالث عشر كانوا يتوجهون لرجال العلم الذين كانوا قادرين بفطانتهم وشخصياتهم وتعليمهم على تفسير الموروث من الإيمان

بالاجتهاد ومنها جاء اللقب الذى أطلق عليهم (المجتهد) ، ولم يكونوا معصومين ولم يحظوا بوحى مباشر من الله ؛ ولكن كان بإمكانهم تفسير تعاليم الأئمة حسب غاية جهدهم ، وقد ظهر فى كل جيل احتياج لمجتهدين جدد ، وكان المسلمون مضطرين لاتباع تعاليم مجتهدى عصرهم .

وقد ظهرت مع الزمن نظرية عقلانية لشرح وتبرير إيمان المسلمين من الشيعة ، وكان الشيعة الأول من التقليديين ، ولكن فى نهاية القرن العاشر قال المفيد (٩٤٥ - ١٠٤٤) بأن من الممكن تأكيد حقائق الدين بفهم الكلام ، ومنذ ذلك الوقت ضمت تعاليم الشيعة الأكرس انتشارا ، عناصر مستمدة من مدرسة المعتزلة .

وقد أدخل مفكرو الشيعة اللاحقون فى نظرياتهم عناصر من النظريات الأفلاطونية الجديدة التى أخذت شكلا اسلاميا على يدى ابن مسينا وآخرين ، فمحمد صلى الله عليه وسلم وفاطمة والأئمة كانوا تجسيدا للمعقول التى خلقت منها الدنيا ، وكان ينظر الى الأئمة كقادة روحيين على طريق المعرفة بالله ؛ ولهم عند الشيعة نفس مكانة « أولياء الله » عند السنة .

وقد أدى نفس التركيز على استخدام العقل البشرى لشرح الدين الى تطوير المدرسة الشيعية للأفتاء ، وكان ذلك نتاجا لمجموعة من العلماء فى العراق وبالأخص أولئك الذين عرفوا (بالمحقق) (١٢٠٥ - ٧٧) والعلامة الحل (١٢٥٠ - ١٣٢٥) [الحسن بن يوسف الحل ، فقيه الشيعة فى عصره ، ويعرف بالعلامة وبابن المطهر] وكانت أعمال محمد بن مكي العامل امتدادا لأعمالهم (١٣٣٣/٤ - ٨٤) وهو المعروف باسم أول الشهداء بسبب الطريقة التى مات بها فى سوريا ، وقد جاءت مبادئ فتاوى الشيعة فى معظمها من السنة ولكن كانت هناك اختلافات ملحوظة ولها دلالة نابعة من نظرة الشيعة الخاصة للدين والدنيا ، فلم يقبلوا من أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - سوى تلك التى انتقلت عن أحد أفراد أسرته ، كما أن أحاديث الأئمة وسيرهم كانت فى حكم القرآن والسنة بالرغم من أنها لا تنسخها ، ولم يكتسب إجماع الأمة نفس الأهمية التى اكتسبها فى السنة ، وإذا كان هناك امام معصوم فإن الإجماع الوحيد ذا الحجية هو إجماع المجتمع الملتف حول الامام . كما أن استخدام العقل بشكل منطقي - من أولئك القادرين على استخدامه - كان له وضع مهم كمصدر للفقه .

وقد أصبحت أعمال المجتهدين المتعاقبين القائمة على المصادر ، يمرور الزمن ، كيانا من الفقه الشيعي الذي اختلف في بعض جوانبه عن المدارس البينية الأربع ، وقد سمح الفقه الشيعي بعدة ضروب من الزواج المؤقت ولم تكن فيه حقوق والتزامات الزواج الكامل ، واختلفت قواعد المواريت أيضا عن الفقه السنني ، وظلت مسائل معينة موضع اختلاف بين العلماء ، وعلى وجه الخصوص التزامات الشيعة حيال من يحكمون العالم في غياب الأئمة ، وليس لهم السلطة الشرعية بنفس المعنى الذي كان للأئمة ، ولكن هل كان شرعيا أداء الضرائب لهم أو الخدمة لديهم اذا استخدموا قوتهم في دعم العدالة والقانون ؟ وفي غياب الامام هل تصح صلاة وخطبة الجمعة ؟ وهل يمكن اعلان الجهاد ؟ واذا كان كذلك فمن يحق له الدعوة اليه ؟ وقد أفتى الفقهاء أن بإمكان المجتهدين اعلان الجهاد ، ويمكنهم أيضا جمع وتوزيع الزكاة والهبات الخيرية ، وكانت هذه المهمة هي التي أضفت عليهم دورا اجتماعيا مستقلا ، وجعل من نزاهتهم محل اهتمام المجتمع ككل .

ومنذ بداية القرن العاشر على الأقل ، أصبحت أضرحة الأئمة مزارات ، وقد دفن أربعة منهم في المدينة ، وستة في العراق بالنجف (حيث قبر علي) وكربلاء (ضريح الحسين) والكاظمية وسامراء وواحد في مشهد في خراسان ، وحول أضرحتهم ، ثمت مدارس وخانات وجبانات لمقابر أبناء الأئمة وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مشاهير العلماء يكرمون بالدفن فيها أيضا .

وليس هناك اختلاف بين أماكن عبادة السنة والشيعة ، فالكمل يحجون الى مكة يزورون قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، والشيعة يزورون أضرحة أئمة الصوفيين ، وفي بعض الأماكن كان المسلمون السنة يوقرون الأئمة وعائلاتهم ، وفي القاهرة أصبح ضريح رأس الحسين مزارا دينيا شعبيا .

وثمة احتفال سنوي واحد كان له معنى خاص لدى الشيعة هو « عاشوراء » ذكرى معركة كربلاء التي قتل فيها الامام الحسين كرم الله وجهه في اليوم العاشر من شهر المحرم عام ٦٨٠ ، وأصبح ذلك اليوم عند الشيعة أكثر الأيام دلالة في التاريخ ، حيث كان نقطة التحول في مسار التاريخ المشهود نحو الطريق الذي أراده الله له ، فكان مقتل الحسين استشهادا لصالح المجتمع ووعدا بأن الله سيعيد الحق في النهاية ليسود ويعيد

الأمور الى نصايبها الصحيح ، وفي هذا اليوم يضع الشيعة شارات الحداد وتلقى الخطب في المساجد عن توضيحات الحسين وبيان معانيها ، وعند نقطة معينة يتحول القص الى إعادة تمثيل درامي لها •

ومنذ مرحلة مبكرة من تاريخ الشيعة ، كان توقيهم لائمتهم يكاد يضمني عليهم صفات تفوق صفات البشر ويرفعهم الى مصاف الظواهر النابتة من روح الله ، وآمنوا أن هناك معنى خفيا وراء المعاني الظاهرة للقرآن •

وقد لاقى مثل هذه الأفكار تأييدا من الفاطميين في فترة حكمهم بصر وسوريا ، فالإسماعيلية - وهي طائفة شيعية ينتمي اليها الفاطميون أو يدعون ذلك - لهم معتقدات جرى اغفاؤها (التعتيم عليها) فيما بعد ، بنظام فكرى طورته علماء الإسماعيلية تحت رعاية الفاطميين ، وتم نشره - أى هذا النظام الفكرى بمساعدة السلطة الفاطمية •

وقد كان المذهب الذى فضله الفاطميون هو الذى أعطى شرعية لادعاءاتهم بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق الى حفيده محمد الامام السابع وهو آخر الأئمة المشهودين من نسله ، ولزم لتبرير وشرح هذا الاعتقاد ، وضع تعريف (للإمام) مبني على نظرة تاريخية موحدة • فكان المعتقد أن الجنس البشرى ، طوال التاريخ ، فى احتياج لمعلم يتولاه الرشيد الإلهى ، وبلا خطيئة ، وكانت هناك سبع دورات لمثل هذا المعلم ، يتبعه مفسر كل دورة تبدأ برسول (ناطق) ، يكشف الحقيقة للعالم ، يتبعه مفسر (وصى) يعلم مجموعة مختارة المعنى الباطنى لوصى الرسول ، هذا المعنى يختفى تحت الأشكال الظاهرية لكل الأديان ، فالله واحد لا تدركه العقول ، ومنه تنبع المعرفة الدنيوية التى تفصل كل أشكالك الكائنات المخلوقة ، وهذه الأشكال تتجسد بالانتماءات (الاشراف) ، ويتبع كل وصى سبعة أئمة يكون آخرهم رسول الحقبة التالية والناطق فى الحقبة السابعة والأخيرة هو المهدي المنتظر الذى يعلن الحقيقة الباطنية للكافة • وتنتهى حقبة الشريعة الظاهرة وتبدأ حقبة المعرفة المطلقة عن طبيعة الكون •

وقد انتشرت العقيدة الشيعية للفاطمية لفترة من الزمن استمرت في سوريا بشكل أوسع منها في مصر والمغرب ، واعتنقها ضعفت قوة الفاطميين حتى حل عليها الأيوبيون ، انكمشت المجتمعات الإسماعيلية ، ولكنها ظلت باقية في الجبال على طول الساحل السوري الشمالى ، وفي اليمن ، وكذلك

في إيران ، واختلطت بهم في الجبال الساحلية في سوريا جماعتان تمثلان اختلافات عن المعتقدات الشيعية ، معتقد الدروز التابع من تماليم « حمزة بن علي » الذي ظل على الايمان بالفكرة الاسماعيلية من أن الائمة هم تجسيد للقدرات المنبعثة من اله واحد ، وأكد أن الاله الواحد حاضر في كل الكائنات الحية ، وأخيرا تجسد في الخليفة الفاطمي الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١) ، الذي اختفى عن نظر البشر ولكنه سوف يعود . وكانت الجماعة الثانية هي النصيريين الذين يرجع أصلهم الى محمد بن نصير ، الذي دعا الى اله واحد لا يمكن وصفه ، انبعث منه هيكل من الكائنات وأن « عليا » كان تجسيدها لأسمى ما فيهم ، ومنها جاء لقب الملوك الذين عرفوا به .

وكان هناك مجتمعان من أصول أكثر غموضا وجددا أساسا في العراق ، هما الزيديون في الشمال ، وكان لهم دين شمل عناصر مستمدة من كل من المسيحية والاسلام ، وآمنوا بأن الله خالق الوجود ولكن ذلك الوجود قائم على هيكل من المخلوقات التابعة وأن المخلوقات البشرية سوف تصل الى الكمال تدريجيا في سلسلة من الحيات ، وكان في جنوب العراق المانويون الذين حافظوا على التقاليد الدينية القديمة ، واعتقدوا أن الروح الانسانية البشرية تتسامى بالاستئثار الداخلية لتتوحد مع الله « الكائن الأعظم » . وكان التصيد جزءا مهما من ممارستهم الدينية كاجراء للتطهير والتنقية .

وقد انسحبت تلك المجتمعات بانقطاعها عن مصادر القوة والثروة في المدن ، ونظرات الشك والعداء من الحكام السنيين ، وانكفأت على نفسها ، ومارسست مناسكها التي اختلفت عن نساك الأغلبية ، وفي حين لم تكن مذاهب وشرائع الأباضية والزيدية مختلفة بشكل جوهري عن السنة ، ولكن اختلافات الدروز والنصيريين بلغت حدا اعتبره شيوخ السنة واقما ، على أحسن الفروض ، على أقصى حدود الاسلام .

وكانت هناك فترة حكموا فيها تحت الحكم المملوكي ، وكانت لهم أماكن خاصة لأداء عبادتهم الدينية التي كانت مختلفة عن عبادات السنة والشيعية ، فكانت للدروز خلوة بسيطة تقع على تل مطل على البلدة أو القرية ، حيث يعيش رجال الصلح والمصرف والورع في عزلة ، أو مجالس الاسماقيين ، حيث انتقل تراث التصليم على أيدي علماء الدين في المدارس أو في بيوتهم ، وفي غياب الائمة كانت لهم السلطة الروحية في مجتمعاتهم .

التعاليم المسيحية واليهودية

كانت مراكز التجمع اليهودي والثقافة الدينية حتى بدايات المصور الحديثة واقعة في دول يحكمها المسلمون ، وكان معظم اليهود ينتمون للتيار الرئيسي من الحياة اليهودية التي خضعت لتعاليم التلمود ، وهو المرجع الذي يفسر ويشرح الفريضة اليهودية والذي جمع في بايل أو العراق ، ورغم أنه كانت هناك مجتمعات أصغر للقرائن الذين آمنوا بأن التوراة هي تعاليم الله الموحدة والمتجسدة في مخطوطات هي المصدر الوحيد للشرعية وأن كل دارس أن يدرسها لنفسه ، والسامريين(*) الذين انشقوا على التيار الرئيسي لليهودية في المصور القديمة .

وفي باكورة المصور الاسلامية ، ظلت العراق هي المركز الرئيسي للتعليم الديني اليهودي ، وفي أكاديميتها الرئيسيتين ، عمل العلماء الذين اعتبروا حفظ التراث الشفهي الطويل للدين اليهودي ، وكانت ترسل اليهم الأسئلة عن مسائل التفسير من كل أنحاء العالم ، وبعد ذلك ومع تفكك الامبراطورية العباسية مارست كليات ويوشيفوت، سلطة مستقلة تفاعت في مراكز التجمع اليهودية الرئيسية : القاهرة والقروان ومدن اسبانيا الاسلامية .

ومنذ وقت مبكر في الحقبة الاسلامية ، اعتمد اليهود من قاطني البلاد التي كانت العربية فيها هي لغة الحكومة والسكان المسلمين ، العربية كلغة للأغراض الدينية بينما استمرت العبرية في الاستخدامات الكهنوتية والدينية . وقد كان تأثير الدين اليهودي والأفكار الفقهية كبيراً على تفصيل الاسلام في نظام فكري كان له بدوره تأثير على اليهودية ، وتطورت نظرية دينية يهودية وفلسفة تأثرت بعلم الكلام والفلسفة الاسلامية ، واُدهر أيضاً الشعر العبري الديني والديني في الأندلس تحت تأثير الشعر العربي . وبمجيء الموحدين في القرن الثاني عشر ، انتهى تراث الثقافة والحياة اليهودية في الأندلس ، ووجد موسى بن ميمون - مؤسس اليمونية (١١٣٥ - ١٢٠٤) وهو الرمز الأعظم للشخصية اليهودية في المصور الوسيطة - بيئة أكثر تحرواً في القاهرة تحت حكم الأيوبيين منها في الأندلس التي جاء منها ، وقد احتوى كتابه « دلالة الحائرين » المكتوب بالعربية تفسيراً فلسفياً للديانة ، وشرحت أعماله الأخرى بالعربية

(*) نسبة إلى السامرة في فلسطين - (لراجع)

والعبرية الفقه اليهودي ، وكان طبيبا للباطل لدى صلاح الدين وابنه وأعطت حياته دليلا على العلاقات الطيبة بين المسلمين واليهود في الوضعية والتعليم في مصر في ذلك الوقت ، وفي القرون اللاحقة اتسعت الهوة ، ورغم أن بعض اليهود ظلوا ناجحين مزدهرين كتجار ، وأقوياء كمشغلين في القاهرة وغيرها من المدن الإسلامية الكبيرة إلا أن الفترة الذهبية للثقافة والتراث اليهودي في عالم الإسلام بلغت نهايتها .

وقد كانت الفترة الإسلامية الأولى فترة من العلاقات المثمرة بين المسلمين والمسيحيين مثلهم في ذلك مثل اليهود . وظل المسيحيون يشكلون أغلبية من السكان على الأقل في ذلك الجزء من العالم الإسلامي الواقع الى غرب إيران .

وقد حسن مجيء الإسلام من وضعية كنائس النسطوريين والتوحيديين لعلاج الضعف والمخوقات التي عانوا منها تحت الحكم البيزنطي ، وكان بطريرك النسطوري شخصية مهمة في بغداد إبان الخلافة العباسية ، وامتدت سلطة الكنيسة التي كان يرأسها شرقا حتى أواسط آسيا والصين ، وقد تطور الإسلام في إطار بيئة مسيحية الى حد كبير ، ولعب العلماء المسيحيون دورا في نقل الفكر العلمي والفلسفي الاغريقي اليوناني الى العربية ، واستمرت اللغات التي تحدث بها المسيحيون من قبل وكتبوا بها (اليونانية والسريانية والقبطية في الشرق واللاتينية في الأندلس) وكانت بعض الارشاليات مراكز للفكر والتعليم مثل دير النطرون في جنوب الأناضول ودير مار مطاي شمال العراق ، ووادي النطرون في الصحراء الغربية من مصر ، وبمرور الوقت تغير الوضع ، فالأقلية الإسلامية المسيطرة تحولت الى أغلبية واكتسبت قوة واستقلالية وثقة بالنفس في الحياة الثقافية والروحية ، وانتهت تقريبا في الشرق سلطة الكنيسة النسطورية العالمية بفزوات تيمور لك ، وفي الغرب اختفت المسيحية ، وفي الأندلس أدى التوسع التدريجي للدوللات المسيحية من الشمال الى تزايد التوتر بين المسلمين والمسيحيين ، وفي كل من الأندلس والدول الشرقية التي عاش فيها المسيحيون تغل معظمهم عن لغتهم الأصلية ليستخدموا العربية ولكن لم يكن للعربية ذلك التأثير الحيوي بينهم مثل المجتمعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر .

ورغم العلاقات السلسة الوثيقة بين المسلمين واليهود والمسيحيين ، بقيت هوة من الجهل والتعصب بينهم ، فكانوا يؤدون عباداتهم بشكل

منفصل (*) ، وكان لكل مكان عبادته وحجته الخاصة : القدس لليهود ،
وقدس أخرى للمسيحيين ، وأضرحة محلية للقديسين ، وقد يكون
الاختلاف في المدن أكبر منه في الريف . فالمجتمعات التي عاشت قريبة
من بعضها البعض خاصة في المناطق التي لم يكن تأثير الحكومة فيها
واضحا مباشرا . عاشت في تكافل وثيق مبنى على الاحتياج المتبادل
أو الطاعة المشتركة للزعماء المحليين . وظلت الينابيع والأشجار والأحجار
التي كانت تعتبر أماكن مقدسة أو للعلاج منذ ما قبل ظهور الاسلام
أو حتى المسيحية في بعض الأحيان مقدسة لاتباع مختلف الأديان ،
ولذلك أمثلة ملحوظة في المصور الحديثة ، ففي سوريا ، الحضر هو الروح
الغامضة التي يعتبرها المسيحيون القديس جورج وكانت موقرة في الينابيع
والأماكن المقدسة الأخرى ، وفي مصر يحتفل الأقباط والمسلمون بعيد
القديسة دميانة التي استشهدت خلال فترات اضطهاد المسيحيين في
الامبراطورية الرومانية ، وفي المغرب ، سشارك المسلمون اليهود في
احتفالات حول غزارات وأضرحة لأولياء المسلمين واليهود .

(*) وهل يتصور الكاتب ألا يكون بينهم انفصال في دور العبادة والحج ؟

(الترجمة) .

الفصل الثاني عشر

ثقافة القصور والشعب

الحكام وعاة الثقافة

أدى تفكك الخلافة العباسية وسقوطها في النهاية إلى انهيار المؤسسة المركزية للسلطة والرعاية ، والتي مكنت من تنامي الحضارة والثقافة العربية الإسلامية ، فقد كان الشعراء ورجال العلم الديني والديوبى يلتقون في بغداد ، حيث تتفاعل الثقافات المختلفة مع بعضها البعض لتنتج شيئاً جديداً ، وقد صاحب الانقسام السياسي للبلاد نوع من التشتيت للطاقت والمواهب ، ولكنها أدت أيضاً إلى صعود عدد من القصور والمواضع لتكون مراكز للنتاج الثقافي والفني ، ولم يكن الانقسام تاماً : فقد أنجزت بالفعل لفة مشتركة للتعبير الثقافي ، وكانت حركة العلماء والدارسين والكتاب من مدينة لأخرى تحافظ عليها وتنميتها ، ومرار الوقت ازداد اتساع الاختلافات في الأساليب والاهتمامات التي كانت موجودة على الدوام بين المناطق الرئيسية للعالم الإسلامي ، ولتبسيط الأمر ، ظلت العراق واقعة تحت تأثير الإشعاع الإيراني ، وشكلت مصر وسوريا وحدة ثقافية امتد أثرها إلى أجزاء من الجزيرة العربية والمغرب ، وفي أقصى الغرب تنامت ثقافة أندلسية مختلفة في بعض جوانبها عن ثقافة الشرق .

وقد تشكل المجتمع الأندلسي من خليط من عناصر مختلفة : المسلمين واليهود والمسيحيين ، والعرب والبربر والأسبان المحليين والجنود المرتزقة من شرق وغرب أوروبا (الصقالبة والسلاف) ، جميعهم معا الخلافة الأموية في قرطبة ، وحول قصور الخلافة ، كانت هناك الصفوة الأندلسية من العائلات المستقرة ذات الأصول العربية المنحدرة من المهاجرين الأوائل من ذوى المال والنفوذ الاجتماعي ، المستمد من المناصب والمواقع الرسمية ومن السيطرة على الأرض ، وقد ظهرت بدايات الثقافة المتميزة الرفيعة ، في هذه القصور وحولها ، في الخلافت الأموية اللاحقة ، فكان

غالبية علماء الدين والفقه من المالكيين ولكن بعضهم انتمى بالمنحىب الظاهرى (*) الذى دعا الى التفسير الحرفى للدين واختفى بعد فترة ، ودرس الأطباء والمستولون الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وتجلت قوة الحكام والصفوة فى المباني الفخمة الرائعة ، وكذلك فى الشعر .

وقد استمرت هذه الثقافة فى الازدهار حول بعض القصور فى الممالك الصغيرة التى انقسمت اليها الخلافة الأموية (ملوك الطوائف) ، وقد جلب المرابطون الذين أتوا من تخوم الصحراء فى المغرب ، معهم روحا متشقة من الالتزام الصارم بالقانون المالكي (***) والشك فى التكهن العقلانى الحر ، كما نشأت قوة خلفائهم (الموحدين) أيضا نتيجة نوع من احياء التقوى ، مع التركيز على وحدانية الخالق والالتزام بالقانون (***) ولكنه اكتسب مصداقية من الفكر الاسلامى فى شرق العالم الاسلامى حيث أسسه وصاغه ابن تومرت ، وقد جاء الذين حملوا ذلك الفكر خلال المغرب والأندلس من شعوب البربر فى جبال أطلس ، وكان عصرهم آخر العصور العظيمة للثقافة الأندلسية ، وكانت ذوته فكر ابن رشد الذى كان التعبير النهائى عن الروح الفلسفية بالعربية . كما .قدر لابن عربى أن يكون بالغ الأثر على التراث الصوفى فى الشرق والغرب لعدة قرون ، وبعد الموحدين اطفأت عملية التوسع المسيحى مراكز الحياة العربية الاسلامية واحدا تلو الآخر ، حتى لم تبق الا مملكة غرناطة ، وقد استمرت الحضارة والتقاليد التى أوجدتها بأشكال مختلفة فى مدن المغرب ، ومراكش على وجه التحديد التى هاجر اليها الأندلسيون .

وقد كانت المباني أطول الآثار الفنية الانسانية عمرا ، وبقيت تعبيرا دائما عن الدين والثروة والقوة للحكام والنخبة ، وكانت المساجد الكبرى هى العلامات الدائمة الباقية بعد المسلمين الأوائل فى البلاد التى فتحوها . وبزوغ المراكز المحلية للقوة والثروة الذى أعقب اضمحلال السيطرة العباسية تم تلاتسيها ، وأهدعت البنايات الخاصة بالقشون الدينية والحياة المدنية بأساليب مختلفة . وتطور نظام الأوقاف وشجع على تأسيس

(*) النص : Zahiri madhhab.

(**) الله المالكي ، وقد أقرنا الأستاذ للترجم على ترجمته لأن المؤلف يقصد توضيح الأمور لمقارنه - (المراجع) .

(***) الماصد كما هو مفهوم الحرية الاسلامية التى كانت بمثابة قانون توالى على امتقائه من الأصول الفقهاء والعلماء - (المراجع) .

مثل هذه المباني من المدارس والزوايا ، والمستشفيات ، والنافورات العامة ، ووكالات التجار ، بنى بعضها موسرون من المتنفذين ، ولكن اكبرها بناء الحكام الذين بنوا أيضا القصور والقلاع ، ومراكز هذه المدن التي مازالت موجودة في القاهرة وتونس وحلب ودمشق وفاس ومواقع الحج والقدس ، كانت معظمها تتناح القرون اللاحقة لهذه الحقبة ، وكانت القاهرة هي الأكبر والأعظم بنينا ، حيث القلعة وقصور المالك على منحدرات تلّال المقطم ، وأضرحة السلاطين ومساجدهم في الجبانات الشاسعة خارج أسوار المدينة والمجمعات كمسجد ومدرسة السلطان حسن التي بنيت على الجهات الأربع من فناء المسجد .

وبحلول القرن العاشر كان الشكل الأساسي للمباني العامة قد تحدد: فالمسجد بالقبّة والمحراب والمآذن والمداخل من الفناء المسور وفيه النافورة للوضوء ، وقصر الحاكم تعزله الأسوار أو المسافات عن المدينة ، ومعارض حياته في سلسلة من القاعات والاكتشاك الواقعة في الحدائق ، وفي مثل هذه المباني وفي الفترات الأولى ، لم تكن الواجهة الخارجية تعني الكثير ، وإنما الحواط الداخلية هي التي كانت معبرة عن القوة أو العقيدة ، تزيينها أشكال بنائية أو هندسية أو كتابات ، وفي الفترات اللاحقة كانت المباني في المدن المتباعدة تشترك الى حد ما في لغة الزينة ، فمن بغداد الى قرطبة تجد حواط من الجص أو القيشاني أو الخشب المنحوت تحمل أنساقا من النقوش باللغة العربية ، ومن بعض النواحي ظهرت أنساق متميزة . فاصبح التركيز بشكل أكبر على المظهر الخارجي للواجهات والمداخل التذكارية والقباب والمآذن ، وكانت بينها اختلافات ملحوظة ، وفي المدن المصرية والسورية في العصرين المملوكي والأيوبي ظهرت الواجهات ذات المداميك التبادلية من الألوان وهو ما يسمى بالطراز الأيلق ، وهو تراث روماني كان مستخدما في سوريا وامتد الى مصر ، ويشاهد أيضا في الكنائس في لبارديا وتوسكاني في إيطاليا ، وأصبحت القبّة أكثر أهمية من الخارج ، تزين بأشكال هندسية متنوعة ومن الداخل ظهرت مشكلة الانتقال من القاعات الرباعية الشكل الى القباب المستديرة وأمكن حل هذه المشكلة باستخدام المتتاليات الزخرفية والملقّات والمقرنصات التي غالبا ما كانت بقرض الزينة .

وفي أقصى الغرب من العالم العربي الاسلامي استحدث طراز انشائي متميز للمسجد العظيم في قرطبة بممراته العديدة ، وزخارفها من الرخام المنحوت وأعمدتها المستقيمة ذات الأشكال المتميزة التي تعلوها العقود

على هيئة حدود الحصان ، وقد تركت أسرتا الموحدين والمرابطين آثارهما في المساجد الكبرى في الأندلس ومراكش والجزائر وتونس ، وجامع القرويين في فاس من أعمال المرابطين يمكن أن يكون مثالا لذلك الطراز بفنائه الطويل الضيق ، والمثلثتين المتماثلتين في طرفيه وقاعة الصلاة بصفوف الأعمدة المتوازية مع الحائط الذي يقع عليه المحراب ، ويكسر السطح قيشاني أخضر ، وكانت المآذن في المغرب تميل إلى المقطع المربع مع مربع أصغر يبرز من الأفرز في أعلاها ، وبعضها كان فائق الطسول والعظمة مثل مثذنة غرلادة في أشبيلية ومثذنة الكتبية في مراكش .

ولم تكن أكثر الآثار جمالا وبقاء في الطراز الأندلسي مسجدا ، بل كانت قصرا هو الحمراء في غرناطة ، بنى معظمه في القرن الرابع عشر ، ولم يكن مجرد قصر ، فهو أقرب إلى أن يكون مدينة ملكية منفصلة عن المدينة الرئيسية الواقعة تحتها ، داخل أسوارها مجموعة من المباني، وتقع التكنات والتحصينات إلى الخارج ، وفي المراكز فناء ملكيان ، فناء الريحان ، وفناء الأسود ، حيث تحوط أحواض المياه بالحدائق والمباني ، وفي نهاياتها تقع قاعات الاحتفالات ، وهو مبني من الطوب الذي تغطيه زخارف غنية من الجص والخزف ، وتحمل نصوصا من القرآن والشعر العربي المكتوب خصيصا لها ، وكان وجود الماء يشير إلى خصائص عامة للطراز المغربي والأندلسية من حيث أهمية الحدائق ، ففي قلب الحديقة تبني فسقية أو حوض تحيطها الحدائق والممرات بشكل مربع، وكانت الأزهار والشجيرات تختار وتزرع بعناية ، تحوطها أسوار وحوائط عالية من البناء المخطط بزخارف الجص .

كان تزيين الحوائط الداخلية يتم أساسا بالجص أو الخزف أو الخشب - وفي القصور والحصانات العامة ، كانت هناك على حوائطها رسوم للمخلوقات البشرية والحيوانات تعبر عن عملية الصيد أو الحرب أو حفلات اللهو ، وهي الموضوعات التي يستحيل تصويرها في المساجد بسبب المذاهب أو التعاليم الدينية الصارمة التي تحرم تصوير الكائنات الحية . باعتبارها محاولة لمحاكاة القدرة الإلهية الخالقة المتفردة ، ولم تكن هناك صور معلقة ، ولكن قد تضاف رسوم إلى بعض الكتب ، فكانت هناك مقتطفات من كلية ودمنة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وتحوى صورا للطيور والحيوانات ، وأيضا من مقامات الحريري وفيها صور من الحياة في المسجد ، والمكتبة ، والسوق ، والمنازل وبعضها أيضا لصور الأدوات العلمية ، وقد استمر هذا التراث خلال العصر المملوكي ولكنه لم يكن بنفس قوته في إيران .

وقد كانت أعمال الزجاج والخزف والمعادن هي الأكثر أهمية في تزيين وتجميل المنازل والمباني العامة على السواء ، ولم تقتصر أهميتها على قيمتها الاستعمالية أو جمالها الشكلي ، ولكنها كانت تحمل صورا ترمز الى حقائق الدين أو قوة السلطة ، أو صورا للأشجار والأزهار والكلمات والحيوانات أو الحكام . وكان السيراميك في البداية مصنوعا من الخزف المزيج ، وعرف بعدها الخزف ذو اللبنة المعدنية ، وكان يستورد الخزف الصيني الأبيض والأزرق ، ولكنهم قلدهه منذ القرن الرابع عشر ، وكانت مصر هي المركز الرئيسي للإنتاج ، ولكن بعد تدمير الفسطاط في القرن الثاني عشر هاجر الوطنيون الى سوريا وما وراءها ، وكانت تصنع الأواني من البرونز والنحاس في الموصل ودمشق والقاهرة وغيرها ، كما كانت تصنع المسابيح الزجاجية المتقنة للتعليق في المساجد .

الشعر والقصة

لعب الشعر دورا مهما في ثقافة الحكام والأغنياء ، وإنما وجد راعون للشعراء ، ظهر شعراء يمتدحونهم ، وعادة ما اتخذ المديح شكلا مألوفا هو شكل القصيدة كما تطور على أيدي الشعراء في العصر العباسي ، أما في الأندلس فقد ظهرت أشكال جديدة من الشعر داخل وحول قصور بني أمية وبعض خلفائهم ، كان أهمها الموشح الذي ظهر بنهاية القرن العاشر (*) ، وظل ينمو لمئات السنين لا في الأندلس فقط ، وإنما أيضا في المغرب ، وهو قصيدة مقطعية غنائية لا ينتهي البيت فيها بنفس القافية ، ولكن يلتزم كل مقطع بنفس القوافي في المواضع المناظرة ، والتي تتكرر طوال القصيدة ، أما البحور واللغة فقد كانت هي ذاتها المستخدمة في القصيدة ، إلا أن كل مقطع كان ينتهي (بخارجة) (**) ، جرى كثير من الجدل المدرسي حول أصولها ، وكانت تكتب بلغة أقرب الى الدارجة ، وأحيانا

(*) تذكر كتب تاريخ الأدب أنه نشأ على يد حاتم بن حمار في منتصف القرن الثالث للهجرة ، وتابعه احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى ٣٢٨ هـ ثم انتشر بعد ذلك - (المراجع) .

(**) الموشحات ، والمفرد موشحة ، سميت بذلك لأنهم شبهوها بالمرأة المزيينة بالوشاح ، وقد خرجت الموشحات أحيانا على أوزان الشعر العربي ، وتتكون الموشحة من عدة (ادوار) أو مقطوعات ينتهي كل منها بلازمة وتسمى (قتل - بضم القاف وتسكين اللام) - (المراجع) .

كانت تكتب بلغة ليست عربية ، وهى الرطانة الرومانسية(*) الشائعة فى ذلك العصر ، وكانت غالباً ما تتناول الغزل ، حيث يتحدث الشاعر عن نفسه بضمير الغائب ، وكانت موضوعات الموشحات تشمل نفس مواضيع الشعر المربى من وصف الطبيعة الى مدح الحكام ، والحب ، والابتهاال الى الله والوجد الصوفى ، وفيما بعد ظهر شكل آخر هو الزجل ، وهو أيضاً شعر مقطعى ولكنه مكتوب بالعربية الدارجة فى الأندلس .

وكانت المشاعر الشخصية مرتفعة النبرة فى بعض اشعار الحب الأندلسى ، كالتمبير عن المصير الفردى الذى ظهر فى أشعار ابن زيدون (١٠٠٣ - ٧١) والذى نشأ فى قرطبة فى فترة اضطهاد الخلافة الأموية . وكان نشاطاً فى المشاركة فى الحياة السياسية فى عصره ، وسجن على أيدى حكومة الخليفة ، وحاول الاحتشام واللجوء الى أحد الحكام المحليين أولاً ، وبعدما لجأ الى حاكم محلى آخر فى أشبيلية ، وعندما قهر حاكم أشبيلية قرطبة ، عاد إليها لفترة . وقضى معظم حياته منفياً عن مدينته ، ينوب حينئذ الى مسقط رأسه المفقود ، مشحوناً بالأسى على شبابيه الضائع ، والقصيدة صدى لبعض الأفكار التقليدية من القصيدة الكلاسيكية ولكن بشكل يبرر عن شخصيته ، وفى قصيدة له عن قرطبة يتذكر فيها المدينة وأيام شبابيه ، ويبدوها بصورة عن المطر الذى يهطل على أطلال مهجورة كان يسكنها الأحياء ، موشاة بالأزهار ، وكيف كانت تخطر ببينها اللفتيات كالصور الرقيقة فى زمان أسعد أهله :

واقزم بأيام الغلاب السوائف

وهو الزمان جلك المعاطف

بسود اثيث الشعر يبيض السوائف

إذا دقلوا فى وشى تلك المعاطف

فليس على خلع الأزار ملام

ثم يخاطب الأقدار التى منعت فضائلها ، ولكنه يصور ذلك السارى فى ليل النجوم التى ما زالت تتلألأ ويرسل معه تحية حب واشتياق الى قرطبة (١) .

(*) لا يلزم من هذه العبارة الرومانسية كذب ابنى ، وإنما رطانة مجموعة اللغات ذات الأصول اللاتينية ، وهذا واضح من الشياق - (نراجع) .

نفس اللمسة الشخصية من الأسى والمعاناة يمكن أن نلمسها في قصائده الماطفية لولادة ، الأميرة الأموية التي أحبها في شبابه والتي هجرته لشخص آخر (٢) :

اني ذكرك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ومر في الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أحبائه	كانه رق لي فاعتل اشغالا
والروض عن مائه الغنى مبسم	كبه شقلت عن اللباب أطواقا
يوم كايام لذات لنا انصرفت	بتنا لها نام الدهر سراقا
وزاد تالق في ضاحى مناعته	فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق	وستنان نبه الصبح احداقا
يلتقى الأخطر الأسنى الحبيب الى	نفسى اذا ما اقتنى الأحياب اعلالا
كان التجارى بمحض الود من زمن	ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم	سلوتم وبقينا نحن عشاقا

وكان ذلك هو الازدهار الأخير للشعر الفنائى الأصيل قبل العصور الحديثة ، واستمر الانتاج الشعرى بوفرة كنشاط تقليدى للرجال المتعلمين ، ولكن القليل منه استرعى الانتباه في العصور اللاحقة ، والاستثناء الوحيد من هذا كان بعض الشعر الذى ألهمته الصوفية كسعر عمر بن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٥) الذى تميز بصور عن الحب والنشوة ويحتمل أكثر من معنى .

وكان أحد أسباب ازدهار الشعر الأندلسى هو ذلك الخليط من البشر واللغات والثقافات . كانت هناك خمس لغات مستخدمة على الأقل ، اثنتان منها كانتا العربية والأندلسية المتميزة والرومانسية الدارجة التى تطورت لتصبح الأسبانية فيما بعد ، وكنتاها كانت مستخدمة بدرجات متفاوتة عند المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت هناك أيضا ثلاث لغات مكتوبة هي العربية الفصحى واللاتينية والعبرية ، وقد استخدم المسلمون العربية ، والمسيحيون اللاتينية ، واليهود العربية والعبرية ، واليهود الذين كتبوا فى الفلسفة أو العلوم استخدموا العربية أساسا ، ولكن الشعراء كتبوا بالعبرية فى شكل جديد ، وللمرة الأولى تقريبا استخدم الشعر العبرى لأغراض أخرى خلاف الأغراض الدينية وتحت رعاية اليهود الاقمناء والمتنفذين الذين لعبوا دورا فى حياة القصور والمدن ، تبنى

الشعراء أشكالا من الشعر العربي كالقصيدة والموشح ، واستخدموها في الأغراض الدينية والدنيوية على السواء وكان جودة هاليقي (١٠٧٥ - ١١٤١) أكثر هؤلاء الشعراء شهرة وبقاء .

كان الشعر الرأقي مكتوبا بلغة وقواعد صارمة وحفل بموضوعات مألوفة وشاعت فيه أصداء أشعار الماضي ، ونشأ حوله أدب أكثر انتشارا ، ومن التبسيط المخل ، أن نعتبره أدبا شعبيا . ولقي تقديرا في طبقات واسعة من المجتمع وكان معظمه وليد المناسبات ، سريع الانطفاء ، يرتجل ولا يكتب ، وينتقل شفاهة وضاع معظمه مع الزمن ولكن بمضبه بقي ، وقد انتشر الزجل الذي ظهر أولا في الأندلس في القرن الحادي عشر في كل العالم الناطق بالعربية ، وكان هناك أيضا ترات من المسرحيات وخيال الظل ، الذي كتبه ابن دانيال في القرن الثالث عشر ، ويؤدي بالعراس أو الأيلق أمام الضبوء وخلف شاشة وهو مازال موجودا حتى الآن .

وأكثر هذه الأنواع انتشارا وبقاء كان الرواية وقد نمت عبر العصور ملامح عظيمة من الروايات عن أبطال ، وضاعت أصولها في طيات الزمان ، وبقيت منها أشكال مختلفة في الثقافات المختلفة ، ولا بد أنها كانت متداولة بالشفاهة قبل أن تسجل كتابة ، وشملت قصص عنترة بن شداد ، ابن الجارية الذي أصبح بطلا قبليا عربيا ، والاسكندر الأكبر ، وببيروس الذي انتصر على المفلو وأسس الحكم المملوكي في مصر ، وسيرة بني هلال القبيلة العربية التي هاجرت الى بلاد المغرب . وتختلف موضوعات هذه الملاحم ، بعضها قصص عن مغامرات أو أسفار تروى لمجرد القص ، وبعضها يتناول عالم القوى الخارقة وما وراء الطبيعة التي تحيط بالحياة البشرية ، والأرواح ، والسنيوف ذات الصفات السحرية ، ومدن الأحلام ، وفي قلب تلك الملاحم تكمن فكرة البطل أو الجناعات البطولية عن رجل أو مجموعة من الرجال تقاوم قوى الشر ، من الناس أو الشياطين أو حتى نزواتهم الخاصة وتغلب عليها .

وكانت هذه التراكمات تتلى في مزيج من التسمير والنثر المسجوع والنثر المعتاد ، ولذلك أسباب فالتسجيع يعين على الحفظ ، وأيضا يفرق بين القصة وبين لغة الحياة العادية ، وكان الراوى يستطيع الانتقال من تركيبة الى أخرى وفقا للانطباع الذي يبقى أن يوصله للسامعين ، وللمستمعين في الريف . توقعات مختلفة عن تلك لدى سكان المدن ، وتختلف أيضا بين الأميين والمتعلمين ، ويروى الوقت استجلت هذه القصص كتابة

على أيدي كتاب من ذوى المهارات الأدبية ، وكان هناك أيضا مجال للارتجال أو التعديل حسب احتياجات المكان أو الزمان .

لم يخضع تاريخ تطور هذه السير للدراسة الكافية وقد لا يكون ذلك ممكنا ، ومن الواضح رغم ذلك أن بعضها تنامي تدريجيا بضي القرون. واختلف من بلد لآخر ، وقد أظهرت دراسة عن سيرة عنتره أن جذورها ترجع الى بعض القصص الشعبية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام . ولكنها أصبحت مواد أخرى يانتقالها من مكان لآخر ، وقد تشكل النص الحالى قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، ومن المتفقد أن مثل هذه العملية من التطور لها دلالة تفوق مجرد الدلالة الأدبية ، حيث انها عملت على اضافة الشرعية على الشعوب المستعمرة أو التى أسلمت حديثا بتشكيل تاريخها على النسق العربى ، وكان رجال القبائل البدو الرحل من الصحارى عندما يقصون روايتهم لسيرة عنتره أو بنى هلال ينسبون لأنفسهم جنودا عربية .

وسلسلة القصص المعروفة بـ « ألف ليلة وليلة » تعرف فى أوروبا بـ « ليالى عربية » رغم أنها تختلف عن الروايات من نواح عدة ، الا أن لها صدى فى بعض أفكارها ، ويبدو أنها تطورت بنفس الطريقة ، ولم تكن قصة مبنية على حياة ومغامرات رجل أو مجموعة من الرجال ، ولكنها قصص من أنواع مختلفة ، ارتبطت تدريجيا ببعضها من خلال راوية واحدة تحكى القصص لزوجها ليلة بعد ليلة ، ويعتقد أن لهذه المجموعة أصولا من القصص المترجمة من اللغة البهلوية الى العربية فى القرون الاسلامية الأولى ، وهناك بعض المؤشرات على حدوث ذلك الانتقال فى القرن العاشر ، فى جزء من مخطوط أقدم ، ولكن أول نسخة كاملة ترجع الى القرن الرابع عشر ، وهذه السلسلة من القصص يبدو أنها نشأت فى بغداد بين القرنين العاشر والثانى عشر ، وامتدت الى القاهرة فى العصر المملوكى ، والقصص التى أضيفت أو اختلفت تمزى الى بغداد فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد ، وهناك إضافات أيضا بعد ذلك من بعض القصص التى ظهرت مع الترجمات الأولى الى اللغات الأوروبية فى القرن الثامن عشر ، وليست واردة إطلاقا فى المخطوطات الأولى .

وهناك عمل روائى آخر مختلف عن ذلك ، أنتج فى آخر المصور العظيمة من الحضارة الأندلسية فى عصر الموحدين ، وهى رواية « حى بن يقظان » التى كتبها ابن طفيل (ت ١١٨٥ / ٦) وهى معالجة فلسفية على شكل قصة تحكى عن طفل نموا مغزولا فى جزيرة ، ويرتقى

في مراحل مختلفة من الفهم للعالم والعالم من حوله بالتفكير المنفرد ، واستقرت كل مرحلة سبع سنوات ولها شكل يناسبها من الفكر ، وفي النهاية يتوصل الى جماع الفكر الانساني عندما يستوعب الكون والايقاع الابدئي للبعث والعودة للروح الواحدة تتحرك من مستوى الى آخر حتى مستوى النجوم ، وهي النقطة التي تتخذ فيها شكلها المادي ، ثم الروح التي تنوق للتتحرك لأعلى ، الى الواحد . ومثل هذا الفهم لا يتاح الا للقلّة .

وعندما يلتقي « حى » في النهاية بكائن بشرى آخر ويرحل الاثنان من الجزيرة الى العالم الماهول ، ويدرك أن هناك هيكلًا من القدرات البشرية ، وأن القلة فقط يمكنها التوصل الى الحقيقة باستخدام العقل وحده وقلة أخرى يمكنها التوصل اليها عن طريق اعمال العقل في حل الرموز الدينية التي تصلهم في الوحي والبعض الثالث يتقبل القوانين المبنية على هذه الرموز وليس بإمكانهم تفسيرها عقليا ، والأغلبية من الناس لا تأبه بالحقيقة العقلانية أو قوانين الدين ولا يهتمون سوى بالأشياء في هذا العالم ، وكل من هذه المجموعات الثلاث لها كمالها وأيضا حدودها ، وليس عليها السمو لأكثر من ذلك ، وعن زيارته للعالم الماهول لرجال المجموعة الثالثة يقول ابن طفيل :

... وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم ، واحتدى بمثل هديهم ، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة خوضهم فيما لا يعنيهم ، والإيمان بالمتشابهات ، والتسليم لها ، والاعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من أهمال الشريعة والاقبال على الدنيا ، وحذروهم عنه غاية التحذير ، وأعلم .. أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق ، وأنها ان رفعت عنه الى بقاع الاستبصار اختل ما هي عليه ، ولم يكن لها أن تلحق بدوجة السعداء ، وتذبذبت وانتكست وسامت عاقبتها (٣) .

الموسيقى

كانت الموسيقى في اغلب العصور والأماكن زينة لحياة الأغنياء وذوى النفوذ ، وكانت مصاحبة للشعر من لون معين ، وقد كتبت الموشحات الأندلسية كي تفتى ، وعملت على استمرارها تقاليد بدأت في النوفى القرون الإسلامية الأولى والتي كانت بدورها استمرارا لثقافة الجاهليين قديم ، وفي العصور الأموية كانت الموسيقى من معالم العصور ، تعرف

لحاكم الذى يحافظ على مكانته بالستر خلف.مستارة ، وكتاب الأغاني
يسجل مثل هذه المناسبة فى القصور العباسية . يتحدث أحد ملحنى
الأغاني قائلا :

.. حتى حاصرت الى دار قوراء ، فيها أسرة فى وسطها ، قد أضيف
بعضها الى بعض ، فامرئى الرجل بالصعود فصعدت ، واذا رجل جالس عن
يمينه ثلاث جوار فى حجرهن الميدان ، وفى حجر الرجل عود ، فرحب
الرجل بى ، .. فلم ألبث أن خرج خادم من وراء الستر فقال للرجل :
تفن ، .. [وبعد أن تغنى هؤلاء الأربعة تغنيت بفناء لى .. فقال الفضل
ابن الربيع : هذا أمير المؤمنين قد أقبل إليك] (٤) .

وقد انتقل هذا الفن من البلاط العباسى الى قصور الأمويين فى
قرطبة حيث ازدهر تراث أندلسى ومغربى مختلف عن التراث الايرانى
للقصور القرطبية .

وحيث ان الموسيقى كانت تنتقل شفاهة بشكل مباشر ، فلا توجد
أى سجلات لما كان يعزف أو يغنى حتى القرون اللاحقة ، ولكن يمكن أن
نعلم بعض الأمور من أعمال الذين كتبوا عن نظرية الموسيقى . وفقا
للمفكرين اليونان كان الفلاسفة المسلمون ينظرون للموسيقى باعتبارها
علما من العلوم ، حيث يمكن تفسير نظام الأصوات وفقا للمبادئ
الرياضية ، وكان تفسيرها مهما عندهم لأنهم اعتبروا الأصوات أصدا
لموسيقى الأكون ، وتلك الحركات السماوية التى تبع منها كل ما يتحرك
فى الدنيا ، وكانت أعمال ابن سينا - الى جانب ما فيها من تفكير
فلسفى - تتناول تفاصيل عن أنماط التلحين والأداء والأدوات ، وتبين أن
الموسيقى فى القصور كانت صوتية أساسا ، حيث كانت الاختار تغنى
بمصاحبة الآلات الوترية بنوعها : ما يعزف منها بفق الاوتار أو الأوتار
والنايات وأدوات الإيقاع ، وكانت الأصوات حسب « مقامات » متعارف
عليها ، ولكن ضمن هذه الأنماط الثابتة، هناك مجال للارتجال والتنويعات
والزخارف التى كانت تصاحب الرقص ، التى كانت تؤديه راقصات
محترفات فى القصور والمنازل الخاصة .

وقد كانت لكل طبقة من طبقات المجتمع فى الصحراء والريف والمدن
موسيقاها الخاصة للمناسبات المهمة من الحرب والحصاد والعمل
والزواج ، وكان لكل منطقة تراثها من الأغاني التى تغنى بمصاحبة دقات
الطبول أو بدونها ، أو مع النايات أو الوترية ، وبعض المناسبات يغنى

كان يحتفل فيها بالرقص ، ليس رقص الراقصات المحترفات ، ولكن يؤديه الرجال أو النساء فرادى أو مجموعات ، وربما تسببت هجرة الشعوب وانتشار اللغة العربية وما صاحبها في توجيه ذلك التراث ولكن الاختلافات ظلت باقية من قرية لأخرى ، ومن قبيلة لأخرى .

وقد كانت موسيقى القصور مرتبطة بحياتها الدينية ، كما كانت الموسيقى الشعبية أيضا مرتبطة باحتفالاتهم الدينية ، وقد عارض رجال الدين ذلك ولم يوافقوا عليها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحريم الموسيقى بالكامل ، لأنها سرعان ما لعبت دورا في الشعائر الدينية ، فلأذن إيقاعه الخاص ، وكان القرآن وجود بأشكال معتمدة ، وكذلك الذكر كان مصحوبا بالموسيقى وبحركات جسمانية في بعض الطرق الصوفية ، ولذلك فقد كان من الأهمية لمن يكتبون في الفقه أن يضعوا تعريفا للشروط التي يسمح فيها بمزف وسماع الموسيقى ، وفي جزء مهم من كتاب « أحياء علوم الدين » للامام الغزالي يمبر عن تأثير الموسيقى على القلب الانساني :

« ولا منفذ للقلب الا من دهليز الأسباع ، فالنفثات الموزونة المستتلة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساوئها ، .. » فلا يظهر من القلب عند التحريك الا ما يحويه ، .. » فالسماخ للقلب محك صادق ، (٥) .

ولذلك ، فمن الضروري تنظيم هذه القوة الطاغية فالموسيقى والشعر ليسا محرمين في حد ذاتهما ولكن طبقا للظروف ، فهما جائزان عندما يثيران الرغبة للحج ، أو حث الرجال على القتال في المواقف التي يكون فيها القتال مشروعا أو لاثارة الأسي المحمود (أسي الإنسان على نقائصه في واجبات الدين أو على خطايه) (٦) أو الحب عندما يكون موضوع الحب مشروعا ، أو حب الله (ليس هناك صوت يطرق مسامع الإنسان الا وكان من الله وفي الله) (٧) . الا أنها محرمة اذا كان المطرب يثير الاغراء أو تكون الأغنية خارجة أو ملحدة ، أو تثير الشهوات ، وقد حرمت آلات النفخ والآلات الوترية لارتباطها بالسكاري والمخنثين .

فهم العالم

لم تكن قراءة الكتب قاصرة على علماء الدين وأساقفته في المدارس ، ولكن كان يمارسها أيضا أفراد العائلات الحضرية الذين اكتسبوا القدرة على القراءة ، وكان أمامهم كم هائل من الأعمال المكتوبة بالعربية ، وتنامى نوع من الوعي الثقافي بالذات في دراسة الثقافة المتراكمة بالعربية وفي التفكير فيها .

وكان الشرط اللازم لمثل هذا النشاط أن تكون الكتب متاحة بشكل ميسور ، وقد جعل التوسع في صناعة الورق واستخدامه منذ القرن التاسع وما بعده من نسخ الكتب عملية سهلة ورخيصة ، وكان الكتاب يمل على الكتب وبعدها يستمع الى النسخة أو تقرأ وتوثق بالاجازة وهي شهادة بصحة النقل ، وقد توسعت هذه العملية حتى ان الذين نسخوا الكتب فوضوا آخرين في نسخها وكانت النسخ تباع لدى الوراقين الذين تقع محالهم قريبا من المساجد الكبرى في المدينة ، وكانت المكتبات تشتري نسخا من الكتب .

وكانت اول المكتبات الكبيرة التي وصلنا اخبارها من انشاء الحكام ، فقد اقام المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) « بيت الحكمة » في بغداد ، كما انشا الفاطميون « دار العلوم » في القاهرة في بداية القرن الحادى عشر وكتلتها كانتا أكثر من مجرد مستودع للكتب، فكانتا أيضا مراكز للدراسة ونشر الأفكار التي يشجعها الحكام ، فقد كانت العلوم العقلانية مرغوبة في عصر المأمون ، وعلوم الاسماعيلية رائجة في القاهرة ، وفيما بعد تساثرت المكتبات جزئيا لأنه أصبح من المتعارف عليه أن الكتب التي أسهمت في العلم وتعليم الدين يمكن أن تتحول الى وقف ، وكان للعديد من المساجد والمدارس مكتبات ملحقة بها ليس فقط لاستخدام الدارسين وطلاب العلم في دراساتهم الخاصة ، ولكن أيضا كمراكز للنسخ والتداول .

ولم يعترف الفقهاء الا بالكتب المتعلقة بالمعارف الدينية كموضوعات للوقف ، ولكن الحكام والامخنياء لم ينصاعوا بالضرورة لمثل هذا التمييز ، وكانت للقصور والبيوت الكبيرة مكتبات يحوى بعضها كتباً مكتوبة بخط جميل ومزودة بالصور .

وكان معظم من قرأ هذه الكتب أو كتبها ينتصون الى من يطلق عليهم الدارسون المحدثون « أدباء الذكريات » والذين تداولوا المعاجم والقواميس والحواشي على الأدب ودلائل العمل الادارى وقبل كل ذلك التواريخ والجغرافيا، وكانت كتابة التاريخ من خصائص الأدب الحضري في المجتمعات الاسلامية وكانت الموضوعات المعرفية الجزء الأكبر من الكتابات في اللغات الرئيسية للإسلام بخلاف الأدب أو الكتابة الدينية ، ورغم أنها لا تشكل جزءا أساسيا من منهج المدرسة ، الا أن كتب التاريخ كانت تقرأ بشكل واسع بين الدارسين والطلاب ، وكذلك من القاعدة الشعبية الأوسع ، وكانت لها أهمية خاصة عند قطاع معين من القراء كالحكام ومن في

خدمتهم • حيث شُكل التاريخ ليس فقط سجلات للأعجاز والإنجازات
للأسر الحاكمة ، ولكن أيضا مجموعة من الأمثلة التي أحاطت بهم ، وتعتبر
دروسا في فنون الحكم •

ومع انتهاء وحدة الخلافة و ظهور الأسر الحاكمة يقصروهم
ويروقاتبيتهم وبرجوازياتهم تطورت كتابة التواريخ المحلى فى العالم
الإسلامى ، وقد كتب الدارسون ومؤرخو القصور حوليات عن تاريخ
المدينة أو المنطقة ، وفى مثل هذه الأعمال قد يكون هناك موجز عن التاريخ
العام منقولا عن المؤرخين العظام فى العصر العباسى ، على أن يلى ذلك تحليل
وتفقد للأحداث والوقائع المحلية أو الأسرة الحاكمة مسجلة عاما بصد
عام وسير أولئك الذين ماتوا خلال ذلك العام وقد استطاع ابن الأثير
(١١٦٣ - ١٢٣٣) فى سوريا أن يضع أحداث عصره وموقعها فى سياق
التاريخ العام ، وفى مصر غطت الفترة المملوكية التاريخ المحلى الذى كتبه
المقريزى (ت ١٤٤٢) وابن إياس (ت ١٥٢٤) :

• فقد زلت أقدام كثير من الالبات والمؤرخين الحفاظ فى مثل هذه
الأحاديث والآراء ، وعلقت بأفكارهم ، وتقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر
والغفلة عن التباس ٠٠٠ حتى صار فى التاريخ أهيا مختلطا ٠٠ فلذا
يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات
واختلاف الأمم والبقاع والأمصار فى السير والأخلاق والموائد والنحل
والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه
وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها
والمختلف والقيام على أصول الدول والمثل ، ومبادئ ظهورها وأسباب
حدوثها ودواعى كونها، وأحوال القائلين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا
لأسباب كل خبرة ، يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول
فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والا زيفه واستغنى
عنه • (٨)

وقد غطى التاريخ المحلى الذى كتبه المقريزى (ت ١٤٤٢) وابن إياس
(ت ١٥٢٤) فى مصر فترة الحكم المملوكى ، كما أن تاريخ ابن خلدون
غطى تاريخ الأسر الحاكمة من العرب والبربر ، وسبقها مقدمته الشهيرة
التي يتناول فيها مبادئ الاختيار والتفسير فى الكتابة الجادة للتاريخ •
توصل إليها فى ضوء مبادئه للشرح والتفسير اذا كانتا منسجعتين
فمعلوماته صائبة سليمة والا فهي مختلقة غير صائبة •

وقد ظهر نتيجة الاهتمام بتنوع التجارب الانسانية فرع آخر من الكتابة هو الجغرافيا وأدب الرحلات، والذين كتبوا عن الجغرافيا خلطوا بين المعرفة المستمدة من الاغريق والايوانيين والهنود، وبين ملاحظات المسكر والمرحالة، في حين اقتصر بعضهم على رواية قصص أسفارهم الخاصة، وما شاهدوه بأنفسهم مثل كتابات ابن بطوطة (ت ١٣٧٧) التي كانت أكثرها ايفالا في البلاد، وأعطت مفهوما لامتداد العالم الاسلامي وتنوع المجتمعات الانسانية فيه، وانكب الآخرون بشكل منظم على دراسة بلدان العالم وعلاقتها ببعضها لتسجيل اختلافات التنوع في خصائصها الطبيعية عن الشعوب والعادات وتتبع المسارات التي ربطت بعضها ببعض، والمسافات بينها، وعليه، فقد كتب المقدسي توثيعة للجغرافيا الطبيعية والانسانية عن العالم المعروف، مبنية على تعليقاته الخاصة على ملاحظات شهود عاين، والياقوتي (ت ١١٢٩) الذي ألف نوعا من المعاجم الجغرافية.

وقد اختلف ذوق البرجوازية عن ذوق علماء الدين وطبلايه في المدارس، وخاصة العائلات التي قدمت أبنائها من الكتبة والمحاسبين والأطباء للحكام، فكانت منجذبة بحكم طبيعة عملها للفكر الذي كان نتاجا للملاحظة والاستدلال المنطقي من المبادئ العقلانية، وكانت تكمهات الفلاسفة تثير الشك عند مدارس الفقه وبعض الحكام، ولكن الطرق الأخرى لاستعمال العقل للوعى بطبيعة الأشياء أثارت شكوكا أقل وكانت لها منافع صليبة.

وقد كانت لعلم الفلك قيمة عملية، لأنه وفر وسائل حساب التواريخ والمواقيت، وكان ذلك أحد القطاعات التي جرى فيها استعمال اللغة العربية على نطاق واسع من البحر المتوسط الى المحيط الهندي، وجعل بالامكان ربط التراث الاغريقي العلمي بنظائره من الهند وايران.

وهناك علم آخر كان أكثر شيوعا في الاستعمال، فقد اكتسب الأطباء أهمية كبرى في المجتمعات الاسلامية من خلال عنايتهم بصحة الحكام والأميين، وأمكنهم اكتساب نفوذ سياسي كبير، ولم يكن بإمكانهم تحقيق أعمالهم بدون قدر من التفهم بطبيعة وأنشطة الجسم البشري وعن العناصر الطبيعية التي يتكون منها، وكان جوهر المعرفة الطبية الاسلامية مأخوذا من النظرية الفسيولوجية الطبية اليونانية وخاصة عن أعمال جالينوس الجامعة العظيمة، وتأسست هذه النظرية على الاعتقاد بأن الجنس البشري مكون من أربعة عناصر يتكون منها كل العالم المادي هي النار والهواء والتراب والماء، وهذه العناصر يمكن خلطها بأكثر من طريقة.

وهذه الخلطات المختلفة أوجدت اختلافا في الأمزجة والطبائع ، والتوازن المناسب من هذه العناصر يحافظ على صحة البدن ، وغيبابه يؤدي إلى المرض الذي يحتاج إلى فن الطبيب .

وقد تجلت عظمة مبادئ الطب خلال العصر العباسي في عملين عظيمين ، هما (الحاوي) الذي كتبه أبو بكر الرازي (٨٦٣ - ٩٢٥) ، و (القانون) لابن سينا ، وكانا مبنيين على أعمال كبار العلماء اليونانيين إلا أنهما أثبتا تبلور تراث إسلامي متميز في الطب ، وعملا على استمرار تداوله ، وقد كان كتاب ابن سينا الذي ترجم إلى اللاتينية ولغات أخرى ، أهم النصوص التي يعتمد عليها الطب الأوروبي حتى القرن السادس عشر على الأقل .

وفن الطب كما تفهمه الأطباء المسلمون لم يكن يدرس بالمدارس ، ولكن بالتدريب العملي في (البيمارستان) وهي المستشفيات التي كانت ترعاها الأوقاف في المدن الرئيسية ، ويبدو أن الممارسين المسلمين العظام في فن الشفاء قد أسهموا بأجل أعمالهم من واقع الممارسة ، فقد راقبوا تطور الأمراض ووصفوها ، وقد يكون ابن الخطيب (١٣١٣ - ٧٤) أول من تفهم ظاهرة الأوبئة والطاعون وانتشارها بالعنوى ، ودسروا صناعة العقاقير من النباتات الطبية وآثارها على الأجسام البشرية ، وكانت الفارماكوبيا منتشرة ، ويقال إن الصيدلة كانت ابتكارا إسلاميا ، وكذلك أدركوا أهمية العوامل التي يمكن أن تمنع اختلال التوازن بين العناصر مما يؤدي إلى المرض في اعتقادهم ، وهي النظام الغذائي الصحي والهواء البقي والتمارين الرياضية .

وفي القرون اللاحقة جرت محاولة لايجاد نظام يديل للعلوم الطبية هي (الطب النبوي) وكان هذا الكتاب رد فعل في مواجهة التراث الذي وضعه جالينوس ، وكان نظاما مبنيا على الأحاديث النبوية والملاحظات المسجلة عن ممارسات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته حيال الصحة والمرض ، ولم يضعه رجال طب ، ولكن وضعه فقهاء وأصوليون ممن تبنا نظرة مسارمة بأن القرآن والحديث يحويان كل ما هو ضروري لتسيير الحياة الانسانية ، وقد كان ذلك اعتقاد الأقلية حتى بين علماء الدين ، وقد عارضه رأى نقدي رزين لابن خلدون ، بأن هذا النوع من الطب يمكن أن يصيب أحيانا وبالصدفة ، ولكنه ليس مبنيا على المبادئ العقلية ، وأن الأحداث والآراء التي سجلت فيها يتعلق بحياة النبي لم تمثل جانبا من الوحي الإلهي المقدس :

• فانه صلى الله عليه وسلم اثما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب . ولا غيره من العادات ، • • • فلا ينبغي أن يحل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع • (٩) •

وقد كان هناك بين التعليم الرسمي للعلوم الدينية وبين تكهنات الفلاسفة منطقة واسعة من خلال المعتقدات والممارسات التي أمل الإنسان أن يتمكن من خلالها من تفهم القوى الكونية والتحكم فيها ، وقد عكست مثل هذه المعتقدات الخوف والحيرة في مواجهة ما لا يدرك من مصير قاس ، ولكنها قد تكون أكبر من ذلك ، فالخط الفاصل بين العلم والخرافة لم يكن بنفس وضوحه اليوم ، وقد آمن كثير من الرجال والنساء المتعلمين بمثل هذه المعتقدات والممارسات ، لأنها كانت مبنية على أفكار واسعة الانتشار ، ورفضها بعض الفلاسفة وعلماء الدين لأسباب مختلفة •

وقد كانت ادعاءات علماء الفلك مبنية على فكرة منتشرة ولها أساس سلفي جدير بالاحترام : ومؤداها أن العالم السماوي يحدد شئون العالم البشري وأن الحشود ما بين العالمين تتمثل في الكون والنجوم ، وفي دراسة تكوينها وحركتها بحيث تفسر ما مضى وما يأتي ، وحتى أن تجعل من الإمكان تغييره ، وكانت هذه الفكرة منتشرة بين اليونانيين ، وتبناها بعض المفكرين الإسلاميين ، واتخذت شكلا إسلاميا محمداً على أيدي المفكرين الصوفيّين ، وهي أن أشياء العالم ينظر لها باعتبارها انبعاثات من الله ، وقد طور علماء الفلك المسلمون تقنيات التكهّنات والتأثيرات على سبيل المثال بكتابة الحروف والأرقام في ترتيبات معينة على مواد من أنواع مختلفة (الأوقاف) • حتى أن بعض المفكرين المتميزين قبلوا بادعاءات الفلكيين واعتقدوا بأن النجوم لها تأثير على صحة الجسد ، ولكن المشرعين المحافظين والفلاسفة العقلانيين رفضوا ذلك ، فكان ابن خلدون يرى أن لا أساس لها في حقيقة الإلوهي ، وأنها تؤدي إلى انكار دور الله كقوة صمدية قادرة •

كذلك ساد الاعتقاد بين الكيميائيين (*) بأن الذهب والفضة يمكن انتاجهما من المعادن الخسيسة إذا أمكن إيجاد طريقة لذلك ، وقد كانت لممارسات الكيمياء أسسها في نظرية علمية مأخوذة عن اليونانيين ، وذلك في الفكرة القائلة بأن كل المعادن تشكل نوعاً طباعياً واحداً ، وتتميز عن بعضها البعض عن طريق العوارض وأن هذه العوارض تتغير ببطء لتصبح

(*) يسمى بالمسيميائيين ، تمييزاً لهم عن الكيميائيين - (راجع) •

أكثر قيمة ، وعليه فتحويلها الى فضة أو ذهب ليست حركة في اتجاه معاكس لقوانين الطبيعة ، وإنما هو تعجيل ، عن طريق التدخل الانساني ، بانجاز عملية كانت جارية بالفعل ، ومرة أخرى كان هناك جدل حول ذلك بين المتعلمين ، واعتقد ابن خلدون بأن من الممكن انتاج الذهب والفضة عن طريق السحر أو المعجزات الالهية ، وليس بالحرفة البشرية ، وحتى اذا كان ذلك ممكنا فليس مطلوباً ، لأنه اذا لم يعد الذهب والفضة نادرين ، فلن يصلحاً مقياساً للقيمة .

وقد كان الاعتقاد في الأرواح والحاجة لإيجاد طريقة ما للتحكم فيها والسيطرة عليها أكثر انتشاراً ، بل كان عالمياً في الواقع ، فكان الجن عندهم أرواحاً بأجساد من الأيخنة أو النار يمكن أن تظهر للنحوس ، وغالباً على هيئة حيوانات ، ويمكن أن يكون لها تأثير على حياة الانسان ، وكانت في بعض الأحيان شريرة أو على الأقل خادعة مضللة ، ولهذا كان من الضروري محاولة السيطرة عليها ، ويمكن أن يكون هناك أيضاً اناس لهم القدرة على السيطرة على أفعال وحياة الآخرين ، اما لانهم ذوو خصائص معينة لا سيطرة لهم عليها مثل الجسد أو من خلال الممارسة المقصودة لأعمال معينة ، على سبيل المثال الاتيان ببعض الحركات الطقسية في ظروف معينة ، يمكن أن تستثير قوى ما وراء الطبيعة ، وكان هذا انعكاساً مشوشاً عن القوى التي يحوزها الفضلاء من أولياء الله مئة مئة ، وحتى ابن خلدون المتحفظ اعتقد بأن السحر موجود بالفعل ، وأن بإمكان بعض الأفراد أن يتوصلوا الى السيطرة على الآخرين ، ولكنه اعتقد بعدم إمكان تفسيرها ، وكان هناك اعتقاد سائد بأن مثل هذه القوى يمكن التحكم فيها أو تحويلها بالتعاون والأحبة التي توضع على أجزاء معينة من الجسم ، أو الترتيبات السحرية من الكلمات والأرقام ، أو ممارسات استخراج الأرواح بالقضاء والطقوس مثل الزاز وهو طقس ما زال واسع الانتشار في وادي النيل .

وقد ساد الاعتقاد في كل ثقافات ما قبل المصنوع الحديثة بأن الأحلام تنفتح باباً لعالم آخر خلاف العالم المحسوس ويمكن أن تأتي عن طريقها رسائل من الله ، ويمكن أن تكشف أبعاداً خفية عن روح الانسان ، كما يمكن أن تأتي من الجن أو الشياطين ، ولا بد أن الرغبة في استكناه معنى الأحلام كان منتشراً واعتبر أمراً مشروعاً بشكل عام ، فالأحلام تعبرنا عن أشياء من المهم أن نعرفها ، وقد نظر إليها ابن خلدون باعتبارها

أحد علوم الدين ، وحينما ينتهى الاستيعاب الحسى بالنوم يمكن أن
ينكشف للروح جانب من حقيقتها ، حيث انها انطلقت من جسدها ،
فانها تستطيع استيعاب ما ينتمى الى عالمها ، وتعود بعد ذلك الى الجسد ،
بحيث تنقل ما استوعبته الى الخيال الذى يقوم باختلاق الصور المناسبة
التي يمكن للنائم أن يجس بها كما لو كانت استيعابا حسيا ، وقد أخذ
علماء المسلمين تفسير الأحلام عن اليونانيين ، ولكنهم أضافوا اليه ، وقيل
عن كتب تفسير الأحلام الاسلامية انها أغنى الكتب فى هذا الفرع على
الإطلاق •

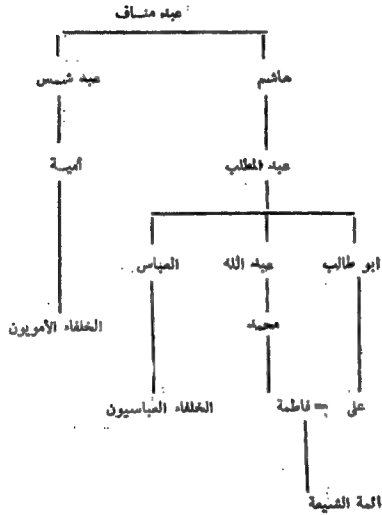


الإنساب والأسى العاكمة

هــوامش

مراجع

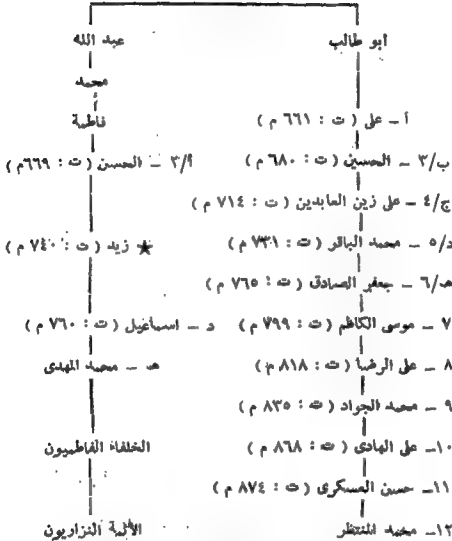
أميرة الرسول



من كتاب ملخص دراسات الشرق الاوسط ، ج . ل .
 ياشاراش ، سيقل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .

أئمة الشيعة

عهد المطلب



الأرقام تشير الى تتابع الأئمة الذي يعترف به الشيعة الاثنا عشرية .

الحروف تشير الى تتابع الأئمة في نظر الاسماعيلية .

★ يعترف به الزيديون كإمام .

عن كتاب « ملخص دراسات الشرق الأوسط » ج ١٠ ، باشاواش ،

سيتل ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ .

الخلفاء

الراشدين

يسمى السنيون الخلفاء الأربعة الأوائل بالراشدين :

- أبو بكر [٦٣٣ - ٦٣٤ م]
- عمر بن الخطاب [٦٣٤ - ٦٤٤ م]
- عثمان بن عفان [٦٤٤ - ٦٥٦ م]
- علي بن أبي طالب [٦٥٦ - ٦٦١ م]

الأمويون

- معاوية بن أبي سفيان [٦٦١ - ٦٨٠ م]
 - يزيد الأول [٦٨٠ - ٦٨٣ م]
- معاوية الثاني [٦٨٣ - ٦٨٤ م]
- مروان الأول [٦٨٤ - ٧٠٥ م]
- الوليد الأول [٧٠٥ - ٧١٥ م]
- سليمان [٧١٥ - ٧١٧ م]
- عمر بن عبد العزيز [٧١٧ - ٧٢٠ م]
 - يزيد الثاني [٧٢٠ - ٧٢٤ م]
- هشام [٧٢٤ - ٧٤٣ م]
- الوليد الثاني [٧٤٣ - ٧٤٤ م]
- يزيد الثالث [٧٤٤ م]
- إبراهيم [٧٤٤ م]
- مروان الثاني [٧٤٤ - ٧٥٠ م]

المبانيون

- أبو العباس السفاح [٧٤٩ - ٧٥٤ م]
- المنصور [٧٧٥ - ٧٧٥ م]
- المهدي [٧٧٥ - ٧٨٣ م]
- الهادي [٧٨٣ - ٧٨٦ م]
- هارون الرشيد [٧٨٦ - ٨٠٩ م]
- الأمين [٨٠٩ - ٨١٣ م]
- المتصم [٨١٣ - ٨٤٢ م]
- الواثق [٨٤٢ - ٨٤٧ م]
- المتوكل [٨٤٧ - ٨٦١ م]
- المستعين [٨٦٢ - ٨٦٦ م]
- المعتز [٨٦٦ - ٨٦٩ م]
- المهتدي [٨٦٩ - ٨٧٠ م]
- المعتصم [٨٧٠ - ٨٩٢ م]
- المتضد [٨٩٢ - ٩٠٢ م]
- المكتفي [٩٠٢ - ٩٠٨ م]
- المقتدر [٩٠٨ - ٩٣٢ م]
- القاهر [٩٣٢ - ٩٣٤ م]
- المتقي [٩٤٠ - ٩٤٤ م]
- المستكفي [٩٤٤ - ٩٧٤ م]
- الطائغ [٩٧٤ - ٩٩١ م]
- القادر [٩٩١ - ١٠٣١ م]
- القائم [١٠٣١ - ١٠٧٥ م]
- المقتدي [١٠٧٥ - ١٠٩٤ م]

- المسترشد [١٠٩٤ - ١١٣٥ م]
 - الراشد [١١٣٥ - ١١٣٦ م]
 - المقتضى [١١٣٦ - ١١٦٠ م]
 - المستنجد [١١٦٠ - ١١٧٧ م]
 - المستضيء [١١٧٠ - ١١٨٠ م]
 - الناصر [١١٨٠ - ١٢٢٥ م]
 - الظاهر [١٢٢٥ - ١٢٣٦ م]
 - المستنصر [١٢٣٦ - ١٢٤٢ م]
 - المستعصم [١٢٤٢ - ١٢٥٨ م]
- عن الدول الإسلامية ، ص ٥ - د. بوزورث ، ادنبرج ، ١٩٦٧ .

الأسر الحاكمة في القرنين

التاسع عشر والعشرين

السلطين المتناهيون

- سليم الثالث [١٧٨٩ - ١٨٠٧ م]
- مصطفى الرابع [١٨٠٧ - ١٨٠٨ م]
- محمد الثاني [١٨٠٨ - ١٨٢٩ م]
- عبد المجيد الأول [١٨٢٩ - ١٨٦٧ م]
- عبد العزيز [١٨٦١ - ١٨٧٦ م]
- مراد الخامس [١٨٧٦ م]
- عبد الحميد الثاني [١٨٧٦ - ١٩٠٩ م]
- محمد الثاني الرشاد [١٩٠٩ - ١٩١٨ م]
- محمد الخامس وحيد الدين [١٩١٨ - ١٩٢٢ م]
- عبد الحميد الثاني (اعترف به خليفة وليس سلطانا) [١٩٢٢ - ١٩٢٤ م]

ملوك العربية السعودية

- عبد العزيز [١٩٢٦ - ١٩٥٣ م]
- سعود [١٩٥٣ - ١٩٦٤ م]
- فيصل [١٩٦٤ - ١٩٧٥ م]
- خالد [١٩٧٥ - ١٩٨٢ م]
- فهد [١٩٨٢ - الآن]

أسرة محمد علي

- محمد علي ، والي مصر [١٨٠٥ - ١٨٤٨ م]
- إبراهيم ، وال [١٨٤٨ م]
- عباس ، وال [١٨٥٤ - ١٩٤٨ م]
- اسماعيل ، خديو [١٨٦٣ - ١٨٧٩ م]
- سعيد ، وال [١٨٥٤ - ١٨٦٣ م]
- توفيق ، خديو [١٨٧٩ - ١٨٩٧ م]
- عباس حلمي ، خديو [١٨٩٧ - ١٩١٤ م]
- حسين كامل ، سلطان [١٩١٤ - ١٩١٧ م]
- فؤاد الأول ، سلطان ، ثم ملك [١٩١٧ - ١٩٣٦ م]
- فاروق ، ملك [١٩٣٦ - ١٩٥٢ م]
- فؤاد الثاني ، ملك [١٩٥٢ - ١٩٥٣ م]

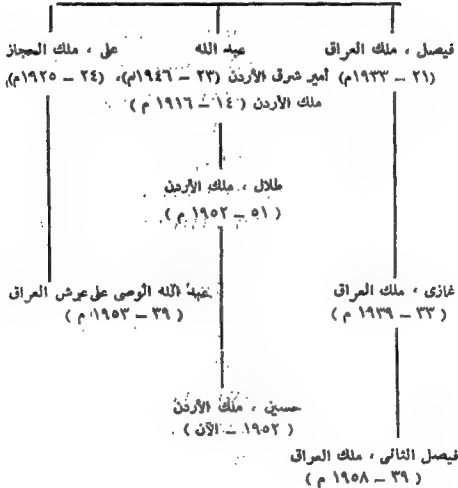
العلويون في المغرب

- سليمان ، سلطان [١٧٩٦ - ١٨٢٢ م]
- عبد الرحمن ، سلطان [١٨٢٢ - ١٨٥٩ م]
- محمد ، سلطان [١٨٥٩ - ١٨٧٣ م]
- عبد الميز ، سلطان [١٨٩٤ - ١٩٠٨ م]
- يوسف ، سلطان [١٩١٢ - ١٩٣٢ م]
- الحسن الثاني [١٩٦١ - الآن]



الهاشميون

حسين ، ملك الحجاز [١٩١٦ - ١٩٢٤ م]



الهوامش

الهوامش الواردة في هذا الكتاب ثم اختصارها الى الحد الأدنى ، حيث أنها لم تعد الإشارة الى النصوص المباهرة ، الا أن قليلا منها أشار الى مراجع نقلت مبادئها بلا تصرف ، وكما تبين من ترجمة الانجليزية يعتمد عليها أخذت منها مباهرة أو استعملت بها في الترجمة .

المقدمة :

- (١) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، (القاهرة) ، ص ٣٣ .
- (٢) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .
- (٣) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، م.ت. الطنجي ، (القاهرة ١٩٥١) ، ص ٢٤٦ .

الفصل الأول :

- (١) B. B. Serjeant « Haram and Hawia » A.B. Badawi
- (٢) البستاني وآخرون : الحاشي الحنيئة ، الجزء الأول ، (بيروت - ١٩٤٦) ، ص ١٠٣ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ١١٢-١١٣ .
- (٤) نفس المرجع ، ص ٨٨ .
- (٥) A. Guillaume « The life of Mohamed » (London 1955).
- (٦) قرآن كريم ، ٩٦ - ٨١ .

الفصل الثاني :

- (١) « The formation of Islamic art » Grabar (New Haven 1973)
- (٢) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ ، تعليق م. ابراهيم ، ج ٧ ، (القاهرة ١٩٦٦) ، ص ٤٢١ - ٤٣١ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ٦١٤-٦٢٢ .
- (٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، الجزء ١ ، (القاهرة ١٩٣١) ، ص ١٠٠ .

الفصل الثالث :

- R. W. Bulliet « Conversion to Islam in Medieval Period » (Cambridge, Mass). (١)
- (٢) أبو الطيب المتنبي ، ديوان ، تحقيق ح. عزام ، (القاهرة ١٩٤٤) ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ٣٢٢-٣٥٥ .
- (٤) عمرو بن بحر الجاحظ « النيل ودم الكبر » (لندن ١٩٦٤) .
- C. Pellat : The life and works of Jahiz (London, 1989), p. 5783.
- (٥) محمد أبو رجوح البيروني ، تحقيق مالهند ، (حيدر آباد ، ١٩٥٨) ، ص ٥ .
- (٦) المرجع نفسه .
- (٧) المرجع نفسه .
- (٨) كتاب « الصينيات في الطب » ، ص (١٢) .
- (٩) المصادر الدينية في مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، مجلد ٤٢ (١٩٨٠) .

الفصل الرابع :

- J. Crone & M. Hinds, God's Caliph Cambridge, 1986. (١)
- (٢) القرآن الكريم .
- (٣) محمد بن اندريس الضافى ، الرسالة ، تحقيق محمد شاكر ٧٧٧ ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- (٤ - ٥) القرآن الكريم .
- (٦) أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٢٨ .
- (٧) محمد بن علي الترمذي ، كتاب خاتم الأولياء ، (المراجع : لمحة خطأ مطبعي أو أن الأمر للنس على المؤلف ، فلا نعلم للترمذي كتاب بهذا الاسم) .
- (٨) الأصبهاني ، حلية الأولياء ، مجلد ١٠ ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٧٩ .
- (٩) يعقوب بن اسحق الكندي ، في الفلسفة (في رسائل الكندي للفلسفة لأبي رخط ، القاهرة ، ١٩٥٠) .
- (١٠) أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ، عيون الألباء في طبقات الألباء ، (بيروت ١٩٧٩) ، جزء ١ ، ص ٤٣ . (ليس له مقابل في المتن ، ولعله خطأ مطبعي - (المراجع)) .
- A. I. Sabra The Scientific Enterprise (London 1976). (١١)

الفصل السادس :

- R. M. Adams « Land Behind Baghdad », Chicago 1965. (١) انظر : .
- (٢) انظر : م. بيروت « ابن خلدون وتصريب شمال أفريقيا » .
- L. Abul-Lughod « Veiled Sentiments », (Berkely 1986). (٣) انظر : .

الفصل السابع :

- (١) ابن الحاج ، المجلد ، القاهرة ١٩٢٩ (جزء ١ ، ص ٢٤٦٠)
- (٢) قرآن كريم ، ٤٠ : ٤٠ ، ١٦ : ٩٧
- (٣) انظر B. Le Tourneau « Fay avant le protectorat » (Casablanca (1948).
- (٤) انظر « رحلة » محمد بن عبد الله بطرقة .

الفصل الثامن :

- (١) انظر : لايبونز « لندن الإسلامية في اواخر الممصر العثماني » ١٩٦٧ .
- (٢) انظر : Burgoyne, Richards « Mamluk Jerusalem » (London 1987).
- (٣) انظر : لطائف الدين والافلاق « الامام الشيرازي »
- (٤) قرآن كريم ، ٥ : ٥٩
- (٥) « النبوة والحكمة في المصير الإسلامية المتوسطة » - لايبونز (اكسفورد - ١٩٨١)
- (٦) نصيحة الملوك للفرزاني ، (طهران ١٩٧٢)
- (٧) انظر : نظام الملك « كتاب الحكمة » (لندن ١٩٧٨)
- (٨) انظر : المرجع نفسه . Ibid.

الفصل التاسع :

- (١) قرآن كريم ٣ : ١٠٥
- (٢) انظر : جيلوم « حياة محمد » ، ص ٦٥١
- (٣) انظر : Grunebaum « Mohammedan Festivals » (NY, 1951).
- (٤) انظر : رحلة ابن بطرقة ، ص ١٥٣
- (٥) قرآن كريم ٣ : ٩٧
- (٦) قرآن كريم ٩ : ١٢٧
- (٧) Muslim Devotions C. Padwick, (London 1961).
- (٨) قرآن كريم ، ١٢ : ١٠١

الفصل السادس :

- (١) انظر : آبن أبي زيد القيرواني ، « الرسالة » ، بيرش .
- (٢) انظر : Udovitch « Partnership and Profit in Medieval Islam »
- (٣) انظر : عشرة مؤلفات للرسائل الشرقية والأفريقية
مجلد ٤٧ ، ص ٢٩ (١٩٧٩)
- (٤) انظر : « Burgoyne » « Mamluk Jerusalem » ص ٧١ - ٧٢ .
- (٥) ابن أبي أصيبعة ، حيون الألبا ، جزء ٢ ، ص ٤٢ - ٢٤٤ .
- (٦) الغزالي ، المنقذ من الغلال ، تحقيق سلبية وعياد ، الطبعة الثالثة ، (دمشق ١٩٣٩) ، ص ١٢٧ .
- (٧) الغزالي ، فيصل المارقة بين الإسلام والزناطة ، تحقيق س . دنيا ، (القاهرة ، ١٩٦٦) ، ص ٢٠٢ .
- (٨) أحياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، الكتاب الثاني (القاهرة ١٩١٦) ، ص ٥٢ .
- (٩) الغزالي ، المنقذ ، ص ١٣٧ .
- (١٠) الغزالي ، أحياء ، الجزء ٣ ، الكتاب ١ ، مجلد ٢ ، ص ١٧ .

الفصل السابع عشر :

- (١) الحسين بن عبد الله ابن سينا « حياة ابن سينا » W. Gohlman
- (٢) قرآن كريم ٢٤ : ٢٩-٣٥ .
- (٣) قرآن كريم ٣ : ١٩١ .
- (٤) محمد بن أحمد بن رشد ، فصل المثل ، تحقيق ج . ف . حوراني ، (لبنان ، ١٩٥٩) .
- O. Yahia, Histoire et classification De L'Oeuvre d'Ibn Arabi (Damascus 1984).
- (٥) نفس المرجع ، ص ١٧ .
- (٦) تحقيق الشيخ ابن عربي : « شجرة الكون » ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٤٥ .
- (٧) (٨-٧) أحمد بن تيمية ، مجموعات الرسائل الكبرى (القاهرة ١٩٠٥) ، جزء ١ ، ص ٣٠٩ .
- (٩) انظر : O. Yahia Vol. 1, p. 18.

الفصل الثامن عشر :

- (١) أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ديوان ، تحقيق ك. الهستاني ، (بيروت ١٩٥١) ، ص ٢٢-٢٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٩٨ .

(٣) محمد بن عبد الملك بن طاهر ، حي بن يقطين ، تطبيق صليبة وعباد ، الطبعة الخامسة ، (دمشق ١٩٤٠) ، ص ١٩٢-١ .

(٤) أبو الفرج الأصبهاني ، كتاب الألفاني ، (بيروت ١٩٥٥) ، جزء ١ ، ص ٩٤-٢٩٨ .

(٥) الفزالي ، أحياء ، جزء ٣ ، كتاب ٨ ، مجلد ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٤٩ .

(٨) ابن خلدون ، ص ٢٨ .

(٩) ابن خلدون ، ص ٢ - ٥٩٤ .

أما في هذه السلسلة

جوزيف داموس
سبع معارف غامضة في التصوف
للصوفي

د- إبراهيم تشاربورايت
سياسة اللوثيات القديمة
الأمريكية إزاء مصر

د- جون شندلر
كيف قضى ٣٦٥ يوما في
السجن

بند النير
السلسلة

د- خيرول رحمة
الر الكويميا التلوية لملكي
في الفن التشكيلي

د- رمسيس مرس
اللي للروسي قبل الثورة
البلشفية وعمما

ب- محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز في عالم
متغير

مراتكين ل باجر
التي الكوري الميدي ٤ ج

شركت الربي
الفن التشكيلي المعاصر في
كوتون النور

د- مكي النور احمد حسين
الشفقة الاسرية والبناء الصغار

ج- دانيال النور
تقنيات التقييم الكوري

جوزيف كرايرد
مخبرات من ألابي القصص

ب- جوهان مريختر
لحياة في التكون كيف ظلت
واين توجد

ملقة من العلماء الأمريكيين
سيرة لطاع الاستراتيجيين
حرب الفضاء

د- السيد خليفة
إدارة الصناعات للتوليد

ب- مصطفى حسان
لتيكوتسيبيات

جمعة من الكتاب اليابانيين للسلام
والمدائن

مخبرات من ألابي كرايرد
القصص - لدراما - تمثيلية -
للصناعة للصناعة

يل شول واينيت
القوة النفسية للفرام

٠- صناء خلوص
فن الترجمة

رالف في مائل
فواستوي

فكتور بربيد
مستقال

فكتور مروج
رمائل واحايت من الحفي

ليرن ميرلندج
لجود والكل - محاورات في حضارة
الفرديام الثرية

سني شواه
الفرات الطفسر - ماركس
واللاركسيون

د- ع- انيكوف
فن الالبي للروكي عنه فواستوي

ماني حمان الوحي
أبي الفاشل - الفاشل - الفاشل
وساطلة

د- نمة رجم المزاي
لحمه حسن الزيات كتابا وثقفا

ب- فاضل أحمد الطائي
أعلام العرب في الكيمياء

جلال المصري
قوة مصر

ماني باروس
للجسم

د- السيد خليفة
صنع للثاني السياسي في
مفاهيم الإدارة للصناعة

جاكوب برونياسكي
لتطوير الحضارة للثقافة

د- روجر ستريجان
لن شقيق سليم الخياط
للخياط

كاشي ثير
ثوية المولون

٠١- مونس
التي وفلهم في مصر
القديمة

د- لامي ريتروايتي
للأمل والطب

بركاته رحل
أحلام الأعلام ولعصر آخر
ب- راند كتابام جايوتسكي
الكتابات والحياة الحية

المن مكنسلي
قطة مقابل قطة

د- فريمان
لجوليا في حلة علم

وليمرل ولمانز
الكتلة والمصنع

ج- فريدي ٠١ ج- ديكتور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٧ ج

ليستريلاي
الأرض للجامعة

ولتر آلان
لثرواية التجاوزية

لويدي جابرس
المرشد للفرام

فرانسوا برماس
لثة مصر

د- فريدي حاني وفريدي
للأصنام المصرية على للجامعة

أراج فركلف
للثورة حيلة ألف ليلة وأيلة

ماني حمان
للثورة القومية في السينا

موليد وليم ماكورال
مجموعات القود - مياقها
كسيفها - مياقها

خير الدين
لثويسي تغيير كاشي وثقاف

د- ممان جاسم لويدي
عصر الرواية

مولد فريدي
مجموعات مكات كتية

جون لويدي
للأصنام ذلك للكتان الثرية

جول وييت
لثرواية للمدينة - التجاوز
والفراسية

د- جود لمطي شيراني
للمصر المصري المعاصر
أصله ودياته

أندري لاندلري
لتي محمود هك الفاضل والاشان

ب. كرملان
الاستاذ الاثري والرومانية

د. تيراس ١٠ مارس
التوثيق النصي - تحليل
المعاملات الانسانية
لجنة الترجمة .
المجلس الاعلى للثقافة
الدليل البيئوجرافي
روائع الادب العالمية ١

دري لرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي مكدو
الثقوة الانشائية في اليابان
بول هاروسون
العالم الثالث بعد
ميكائيل البني وجيليس لفرانك
التقاضي الكبير

آدامز ايليپ
دليل للتعليم المتاحف

ليكتور مارجان
تاريخ النقود

محمد كمال اصماحيل
التحليل والتوزيع الاقتصادي

ابو القاسم الفروس
الاشاعمة ٢

بيوترين برتر
الحياة الكريمة ٢

جاءه كريس جورد
كتابة التاريخ في مصر القرن
الفاصل عشر

محمد فؤاد كبريولي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التصنيف للسينما والتلفزيون
تاجور شين ين -ج وأخرون
مقالات من الادب الصيني

ناصر غنم عازري
سفر لمة

لدين جوردنير وجروس ارجو
واخرون

سقوط اطر والعصر اخرى
احمد محمد الضرائي

كتب غيرت الفكر الانساني
٧

جان اريس بيره واخرون
في الله لسينمائي للفراسي

للمصنفين في افريقيا
جل كراز

دري دديرسون
التيويون والزين والفرما في
النجع

مور كاس ملكينترك
محور الريالية ١٠ خلافة على
حيوانات ترفيقا

مائم الفناس
تجيب معطوفة على الشافعة
د. محمود ميري طه

الكوميدياتي في محالات الحياة

بيتر لروي
المحفرات حقائق نفسية

بريس ليموروليتس سيرجيت
وظائف الاعضاء في الالف
الليام

وييام بينز
الهشمة الورالية للهميع

مليد الدركون
قوية اسماء الزينة

احمد محمد الشواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون ١ د. برور وميلتون جولدينجر
الفلسفة والضميا العصر ٢

ارنرك توينيس
الفكر التاريخي عند الافريق

د. صالح رخسا
مناجع وفيديا في الفن
للشكيلي المعاصر

د. كنج واخرون
للتفدية في البلدان النامية

جورج جاسرف
يداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو مسعود
الصرف والصناعات في مصر

الاسلانية منذ الفتح العربي
حتى نهاية العصر الفاطمي

جالييلو جالييلو
حوار حول للتكلمين الرئيسيين

للكون ٢
اريك موديس واكن هو

الزحلق
سيزل الدريد

اختنرون
ارار كستل

الهيئة الخلفة عشرة ويهود
القم

جابريل باير
كاروخ ملكة الاراضي في مصر
المنجدة

التطوني دي كريس وكينك هونج
اعلام الفلسفة لسياسية
للمعاصرة

درايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زاليلامكي ١٠ س
الزمن واليايمه (من جزء من
اليانيون جزء من الثانية وحتى
مليارات المليون)

مهندس ابراهيم القرطاس
اجلة كتيك الهواء

بيتر رداي
الخضمة الاجتماعية والتضيق

جوزيف داموس
سيرة مؤرخين في العصور
الومسي

س. م. ١٠ بوا
للمجربة للثقافة

د. عاصم محمد نذل
مراكز المتابعة في مصر
الاشاعمة

د. سمسون ونورمان ١٠
التمرسون

المعلم والطالب والفراسي
د. انور عبد الله

المخارج المصري والفكر
وات وايمان روست

حوار حول التنمية الاقتصادية
لره ١٠ س. هوس

تيسيط الكيمياء
جون اريس بوركهارت

العادات والتقاليد المصرية
من الاصل الفضية في عهد

محمد علي
الان كاسيار

التقوى للسينمائي
سامي عبد الحلي

التخطيط السياسي في مصر
بين النظرية والتطبيق

لريد مري ولفاندا ويكراما سيج
البحور الكونية

محسن حامس المهندس
فرما الشافعة (بين للثقوة

والصديق) لسينمائي للتلفزيون
٢

موريس تيد نيلز
جولج للعلوم
توميرات دون
جماليات فن الاقتراح
جولان زيلي سميت
الحلة الصليبية الاولى وقصة
السروب الصليبية
الفريد ج. بلش
الكنايس القبطية القديمة
مصر ٢ ج
وتشارب شاخ
رولة الفلسفة للميتة
ترايم زراخت
من كتاب الامانة الكس
الحاج يونس المصري
رحلات فلانكا
ميريت ثير
الاحمال والبيئة للثقافة
برتراند راسل
المسلطة والفرد
ديتر ليكرالز
الصينما الخيالية
اموارد ميرى
عن الفلسفة السيميائية
ميتان اريخت
التاريخ من شتي جوليه ٢ ج
موني براح واخروب
الصينما العربية من الخليل الى
الحيد
فانس بكاره
انهم يصنعون للبش ٢ ج
سابر محمد الجرار
عاصمويخت
ابرار كريم الله
من هم القتل
ج. س. فريز
الكاتب الحديث وعالمه
٢ ج
سوربال عبد الله
حيث الناس
من روائع الادب القديمة
أوزيك ترو
سطل الى عالم اللغة
عميق عطيموف
الانموس للتفكير
اسرار التصوير فولا
مارجريت روت
ما بعد الامانة

د. هاربه مودج
التي في الف عام
سلفون رانسبون
العمليات للصليبية
د. ج. وايز
مصلح التاريخ الصليبية
١ ج
جوستاف جرونيوارم
حشارة الامم
د. عبد الرحمن عبد الله الصبيح
رحلة ييركون الى مصر والحجاز
٢ ج
جال فيه الفتاح
الكونن ذلك المجهول
اخره جزل واخرين
الظل من الخامسة الى العشرة
٢ ج
بادي اوتومرو
لثريفا - الطريق الاخر
د. محمد زينهم
فن الزجاج
براسلا مالينراسكي
للمصنوع والمعلم والدين
ادم حتر
الصناعة الصليبية
فانس بكاره
انهم يصنعون للبش
عبد الرحمن عبد الله الصبيح
موميات رحلة فاسكو داجاما
ليري شاترس
كونفا القصد
سويدري
الفلسفة الجوهريه
مارتن فان كريبه
صرب المستقل
فرانسيس ج. برجه
الامام التخليقي
عبد مياثر
البحرية المصرية من محمد علي
للمساعات
ج. كاريل
السيط العظيم للهندسة
فرانس ليهارث
فن التايه والبالترميده
اموارد ميروي
للتفكير القديم
وليام د. جاتينز
ما هي الجيوبجا

كريستيان سافيه
السيولوي الى الصينيا القديمة
بول واين
خلفيا نظام الحكم التاريخي
جورج ستاينز
بين كواسوي وديستوفسك
٢ ج
يانكي لافون
الرومانكية والوالدية
معمود سامي عطا الله
الفيلم المسجاني
جوزيف بكم
رحلة جوزيف بكم
ماتالي جيه سارومون.
اقواع الفيلم القديم
ماري ب. داني
الحسن والبيبي والصويا
جوزيف م. بوجز
فن للفرجة على الاكلام
كريستيان ديروفر، نوبلكر
الفرقة التي موية
جوزيف بندمام
جوز تاريخ العلم والحضارة؟
في الصين
ليوناردو دافني
لقية التسوي
ت. ج. د. ه. جيمز
كثوف الزراعة
رونولف فون هايستبرج
رحلة الاثير رونولف اني الشير
٢ ج
مالكوم براندري
الرواية اليوم
رايم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٢ ج
مدرى بيرين
تاريخ اوريا في المصور اوسلي
ديفيد شلندر
لقية القبط العاصم وقراءة الشعر
اسحق عطيموف
العلم والفن المستقل
رونالد دانيه لانج
المسكة والجلون والحملعة
كارل برود
يضا من عالم الفن
فريمان كانه
القصصه الشيناس لعلوم
والتكنولوجيا

روبرت سكوارد وكثرون
 الفلق أدبي الخيال العلمي
 ب. س. ميلين
 المفهوم الميثيق للسكان والزمان
 س. مواريد
 الشهير الرحلات الى غريب الغريب
 و. بارترله
 تاريخ القره في اسيا الوسطى
 فلانمير تيمانسان
 تاريخ أوروبا الغربية
 جانبريل جاجارسيا ماركيز
 الجبال في الشاهة
 هنري برجسون
 القسمة
 د. مسطى محمود سليمان
 الأزال
 م. و. شراج
 خمير المهنس
 ر. جراس
 الحيقون
 ستان موسكسي
 العضارات السامية
 د. البرت حوراني
 تاريخ الشعوب العربية
 محمود قاسم
 هب العربي للكتاب بالأسية

ونادر موان
 كانت ملته على مصر
 جيمس هنري برست
 تاريخ مصر
 بول دالينز
 المقاتل الثلاث الأخيرة
 جوزيف رماري فيلسان
 ميثاقية الفيلم
 ج. كركت
 المشارة الميثيقية
 ارنست كاسيبر
 في المعرفة للكارشية
 كت أ. كفن
 رمسيس اللاتي
 جان بول سارتر وكثرون
 مقترات من المسرح العلمي
 روزلند. ريكاه يانسن
 الظل المصري القديم
 نيكولاس ماير
 شراوكه موان
 ميجيل دي ليهس
 اللفران
 جوسيف دي لونا
 اوسو
 اوين جراير
 مؤلفات
 على عبد الرموف الجيم
 مقترات من الشعر الاسياتي

السيد نصر الدين السيد
 الحلات على الزمن الاتي
 منور عطية
 البرنامق الثوري الاسرائيلي
 والامن القومي العربي
 د. ليوريسكاليا
 الحبي
 ايلور ايلان
 ميجل تاريخ الاكيب التجليز
 ميريت ريد
 الترية عن طريق الفن
 وايم بينز
 معجم التكنولوجيا الحيوية
 الفين تولد
 تحول السلطة
 يوسف شارة
 مشكلات القرن المادي والعشرين
 والعلاقات الدولية
 رولاند جاكسون
 الكيمياء في خدمة الانسان
 ت. ج. جيمز
 الحياة أيام الفراغة
 جرج كاشمان
 كاشيب المروپ
 حسام الدين زكيا
 الطون بروكت
 ازا ف. اوجل
 المعزة اليابانية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٨٨/١٩٩٧

ISBN — 977 — 01 — 5187 - 4

يتناول حوراند في كتابه هذا، تاريخ الشعوب
العربية، واستطردات ضرورية للعالم الإسلامي غير
العربي، بحيدة وموضوعية، وقد يختلف معه
القارئ في بعض تحليلاته، لكنه لا يسعه إلا أن
يقدم جمده في التوثيق والتحليل، وفي هذا
الجزء الأول ينتهي حوراند في سرده التاريخ
حتى قبيل قيام الدولة العثمانية، ليتابع عرضه
بعد ذلك في الجزء الثاني من قيام الدولة
العثمانية حتى العصر الحاضر متعرضاً لوقائع
تاريخية ذات أهمية خاصة كحرب ١٩٨٦، وحرب
١٩٦٧، على ما لا يحفى على القارئ من أهمية
هذه الفترة.

٦٠٠ قرش

مطابع الهيئة المهر

Bibliotheca Alexandrina



0395484